موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

14



موسوعة عالم الأديان

كلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الكنيسة المارونية

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرِّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الرابع عشر

الكنيسة المارونيّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المجموعة : موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

إسم الكتاب : الكنيسةُ المارُونيّة

الجزء : الرّابع عشَر

المؤلّف : مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرّج

قياس الكتاب : ٢٠ × ٢٨

مكان النّشر : بيروت

دار النّشر والتّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

الفصلُ الأوَّل

المَوارِنَة ونِسبتُهم

الفصل الثّاني

المَوارِنَةُ بَينَ البيزَنط والإسلاَم

الفصل الثّالث

البَطريَرك يُوحنّا مَارُون

الفصل الرّابع

المَوَارِنَة بَعدَ يُوحنّا مَارُون

الفصل الخَامِس

المَوَارِنَةُ بَينَ الفَرَنجَةِ والمَمَاليك

الفصل السَّادِس

فِي زَمَنِ المَمَالِيك

الفصل السَّابِع

الحقَبَة العُثمَانيَّة

الفَصلُ الثَّامِن

تبدّلاتٌ سياسيَّةٌ بدَايةَ القَرن التَّاسع عَشَر

الفَصلُ التَّاسِع

المَوَارِنَة والوَطَن اللبنَانيّ المعَاصِر

الفَصلُ العَاشِر

مِن النُّسك إلى الرَّهبانيَّات والمدَارِس

الفَصلُ الأوَّل

المَوَارِنةُ ونسبَتُهم

المَوَارِنَة؛ نِسبَةُ المَوَارِنَة؛ إسمُ مارُون؛

مَار مَارُون؛ تَلَامِيذ مَار مَارُون وتلمِيذاتُه؛

دَير مَارُون؛ رُهبان دَير مَارُون خلَقِيدونِيّون.

المَوارِنَة

إذا أردنا أن نعـرّف بالموارنـة، مـن حيـث المعتقـد، قلنـا إنّهـم ينتمـون إلـى كنيسـة سريانيّة خلقيدونيّة أرثذوكسيّة كاثوليكيّة.

فهي سريانيّة من حيث النشـأة والجغرافيـا والتـاريخ؛ وخلقيدونيّـة أرثذوكسـيّة مـن حيث المعتقد المستقيم بصفتها اتّبعت، منـذ الأسـاس، المجـامع المسـكونيّة السـبعة التـي نظّمت العقيدة المسيحيّة، وتعترف بها الكنيسة المسكونيّة الأرثذوكسيّة. وتتميّز الكنيسـة المارونيّة عن سواها من الكنائس ذات الأصول المحليّة: الساميّة المشرقيّة، بأنّها كـانت دائمًا من المتمسّكين بمقرّرات المجامع المسكونيّة، عندما كانت الكنائس المحليّة تختلـف فـي الـرأي مـع مقـرّرات المجـامع الكنسـيّة، ابتـداءً مـن المجمـع النيقـاويّ سـنة ٣٢٥، ووصولاً إلى المجمع المسكونيّ السادس الذي انعقـد سـنة ٦٨٠ فـي القسـطنطينيّة لِبَتّ موضوع الطبيعة الواحدة: المونوفيزيّة. وقد دفعـت الكنيسـة المارونيّـة غاليًـا ثمـن هـذا التمايز والالتزام. وكان أفظع اضطّهاد تعرّض له رهبان مـار مـارون سـنة ٥١٧ يـوم حاول المونوفيزيّون، إبادة الإكليروس المـارونيّ تمامًـا؛ وهـي كاثوليكيّـة لأنّهـا تخضـع لسلطة خليفة بطرس الجالس على كرسيّ روما منذ العام ٦٧ لميلاد المسيح.

ويشكّل لبنان قاعدة الكنيسة المارونيّة منذ نهاية القـرن السـابع، وتحديدًا منـذ سـنة ٦٨٥، حين تسنّم يوحنّا مارون سدّة بطريركيّة أنطاكية، ونقل مقرّ البطريركيّـة إلى دير مار مارون كفرحـيّ، بدل أنطاكيـة، التـي كـان جلوسـه فيهـا مستحيلا، لأسـباب أمنيّـة

وسياسيّة سيأتي شرحها. وأضحى ذلك الدير، في الوقت نفسه، بديلاً عن دير مار مارون، على ضفاف العاصي، الذي دكّه سنة ٦٩٤ جند يوستينيانوس الثاني، الأمبراطور البيزنطيّ (٦٦٩ ـ ٧١١)، الذي خرج على العقيدة الأرثوذكسيّة وقال بالمشيئة الواحدة[١]. وقد تعاقب على الكرسيّ البطريركيّ المارونيّ في لبنان، منذ ذلك التاريخ بلا انقطاع، ستّة وسبعون بطريركًا. فعمّرت هذه الكنيسة الوطنيّة، حتّى الآن، أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. وشاركت بشكل رئيسيّ، مع مجموعات وطنيّة أخرى، في تأسيس الوطن اللبنانيّ، الذي يعتبر أعرق كيان سياسيّ إجتماعيّ حديث بين الدول العربيّة جمعاء. ولا يزال لبنان الموئل الرئيسيّ للموارنة الذين يبلغ عددهم اليوم في الشرق، بحسب بعض الدراسات، حوالى ثمانمئة وخمسين ألف نسمة، أكثريّتهم في لبنان، والباقون في سورية وقبرص[٢]. يضاف إليهم ملايين المنتشرين في أصقاع الأرض، الذين حافظ بعضهم على انتمائه للكنيسة المارونيّة، بينما اتّبع بعضهم الآخر كنائس أخرى، لعدم وجود كنائس مارونيّة في المناطق التي يتوطّنون[٣]. فقد عرف الموارنة بخلال حكم المتصرفيّة هجرة كبيرة بدأت في سبعينات القرن التاسع عشر ونشطت بين نهايته وبداية القرن العشرين. وكانت الأسباب الرئيسيّة لهذه الهجرة،

---

١ ـ المشيئة الواحدة: بدعة مسيحيّة ظهرت في القرن السابع، قال أصحابها بأنّ في المسيح مشيئة واحدة، عرفت بالمونوتوليّة، حرّمها المجمع القسطنطيني الثاني.

٢ ـ إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

٣ ـ أعطت التقديرات الأخيرة للإحصاء الذي أجراه "المركز الكاثوليكي للإعلام" للموارنة المتحدّرين من أصل لبناني في القارّات الخمس، ما يفوق العشرة ملايين مارونيًا، نظرًا إلى أنّ أبناء الأجيال المتعاقبة التي راحت تنصهر مع الوقت في المجتمعات المقيمين فيها، فحيث لا يوجد كاهن أو أسقف ماروني يجمع شمل مؤمنيه، ويوحّد صفوفهم، ويعزّز تماسكهم الديني والوطني، تتقطع علاقة هؤلاء مع الوطن الأم، وينضمّون إلى المجتمعات المسيحية اللاتينية، ويصبح أولادهم وأحفادهم تابعين لتلك الكنائس المحليّة. راجع: صفير الأب د. بولس، عميد كليّة اللاهوت في جامعة الروح القدس، وحافظ المكتبة البطريركيّة المارونيّة، في بحث بعنوان: الكنيسة المارونيّة، في كتاب: تاريخ الكنيسة، ط٢، دار المشرق (بيروت،١٩٩٧) ص٣٣٨.

رداءة الحالة الإقتصاديّة التي خلّفتها الحروب الأهليّة، وساعد على استفحالها ضيق رقعة الجبل اللبنانيّ المنفصل عن المدن الساحليّة الكبرى وعن السهول الزراعيّة في البقاع وعكّار، وطموح اللبنانيّين اللامحدود. وكانت هجرة هؤلاء إلى الأميركتَين حيث نشأت لهم جاليات أصبحت، مع المتحدّرين من أولئك الروّاد الأوّلين، تعدّ أعدادًا مضاعفة لأولئك الذين لا يزالون في لبنان. ولكنّ أكثر أبناء تلك الجاليات قد تخلّى عن مارونيّته وامتزج في الكنائس المحليّة حيث أقام. أمّا في بلدان الانتشار، فقد أدّت الهجرة الحديثة إلى أوروبّا والأميركتَين وكندا وأستراليا وبعض الدول الأفريقيّة إلى نشوء كنائس مارونيّة نامية.

أمّا مجمل عدد أتباع الكنائس التابعة لروما، مجتمعة، في البلاد العربيّة، بمَن فيهم الموارنة، فلا يتعدّى المليونَين، بحسب إحصاءات جرت في العقد الأخير من القرن العشرين[1]. فيما يبلغ عدد مجمل المسيحيّين في البلاد العربيّة، بحسب تلك الإحصاءات، نحو ثمانية ملايين نسمة، أكثريّتهم الساحقة من أقباط مصر.

وفي دراسة ميدانيّة شاملة وموسّعة أجريناها على مدى ثلاثين سنة حول أصول العائلات المارونيّة، تبيّن لنا أنّها تتحدّر من أصول عربيّة وسريانيّة، وبعضها من بقايا الصليبيّين الذين بقوا في الشرق بعد انكسار دولتهم، وجلّ هؤلاء فرنسيّو الأصل، ومنهم عدد قليل من أصول إيطاليّة وإنكليزيّة. أمّا الأكثريّة الساحقة من مجمل الموارنة فمن أصول عربيّة[2].

---

١ ـ إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة، مرجع سابق؛ السمّاك محمّد، الأقليّات، مرجع سابق ص٢٤.

٢ ـ مفرّج طوني، العائلات اللبنانيّة أصول وفروع، سلسلة في ٢٦ مجلّدًا، صدر منها: بنو المشروقي أصول وفروع، دار بيوغرافيا (بيروت،١٩٩٩)، والسلالة الهاشميّة في لبنان، ثلاثة مجلّدات قيد الطبع، عن دار بيوغرافيا (بيروت،٢٠٠٣).

نِسبَةُ المَوَارِنَة

إجتهد البعض في نسبة الموارنة، فقال بعضهم بأنّهم منسوبون إلى مارون الناسك، وبعضهم الآخر بأنّهم إنّما نسبوا إلى البطريرك يوحنّا مارون، وقيل غير ذلك أيضًا. سنحاول، في ما يلي، الغوص في أساس هذه النسبة وأصولها.

إسمُ مارُون

فيما يعتبر بعض علماء اللغات الساميّة القديمة أنّ "مارون"، إسم علم سريانيّ، هو تصغير تحبّب لكلمة "مارونا MÂRÛNA" التي تعني: السيّد والشريف والمقدّم[1]، شرح البطريرك إسطفانُس الدويهي[2] أصل لفظة "مارون" ومعناها فقال: إنّها منقولة من اللغة السريانيّة، وإنّ معناها يَختَلف باختلاف لفظها، فإن ضُمّ أوّلها ولُفظت "مُرون MORŪN"، كان معناها "السيّد" و"الربّ". وإن فُتح ولُفظت "مَرون MARŪN"، كان معناها "المرزبة"[3]، و"الفأس"، و"المَرّ"[4]. وهاتان اللفظتان، على ما توجبهُ قواعد اللغة السريانيّة، إذا صُغّرتا، صارت الأولى "مُرونا MORŪNA"، والثّانيَة "مَرونا MARŪNA"؛ وإذا جُزم المثنّى، صارت الأولى "مُرون MORŪN"، والثّانيَة "مَرون MARŪN"؛ وتعيَّن، حينئذٍ، أن يكون اللفظ علَمًا شخصيًّا. ولكن عند نقل اللفظة إلى اللغة العربيّة، حُوّرت من "مُرون MORŪN"، أي "السيّد الصغير"، إلى صيغة "مارون" بزيادة الألف، لكون

---

١ ـ فريحة د. أنيس، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، الجامعة الأميركيّة في بيروت (بيروت، ١٩٥٦) ص٣١٠.

٢ ـ الدويهي البطريرك إسطفانُس، تاريخ الطائفة المارونيّة، تحقيق رشيد الخوري الشرتوني، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت،١٨٩٠) ص١٣.

٣ ـ المرزبة: أداة تستعمل لكسر الحجارة.

٤ ـ المرّ: أداة لقلب الارض ونقبها.

النقل يُخرج الأشياءَ عن أصولها. وبالنَّظر لشَرف هذا الإسم في المعنى، وخفَّتهِ في اللفظ، سمّي بهِ كثير من القدماء، وخاصّةً في بلاد الشام. كما أُطلق اللفظ اسمًا لمدن وقرىً كثيرة منتخبة، من جملتها ما جاء في كتاب "يشوع بن نون"[١] في الحديث عن "بلاد إفرائيم" أنّه كان فيها مدينة جليلة تُدعى "مارون" وكانت عين البلاد وتخت الملك نفسه، ولكن لمّا أقام الإسرائيليّون بمدينة "شمرون" نقلوا تخت ملكهم إليها. وكان الملِك الذي يسوس تلك البلاد يسمّونه "ملك شمرون ومارون"[٢]. وفي بلاد "الشقيف" من نواحي صيدا سُمّيتا بها الاسم، وهما: "مارون الراس"[٣] المبنيّة على قمّة "جبل عاملة" في الجنوب اللبنانيّ، و"مارون الركين"[٤] المبنيّة على أرض خصبة بقرب نهر الليطاني. وتدلّ آثار القريتَين على أنّهما كانتا مدينتَين حصينتَين. ولا يستبعد الدويهي أن تكون"مارون الركين" هي نفسها "المدينة الجليلة" التي ذكرها "يشوع بن نون" في الفصل الحادي عشر من كتابهِ. وهناك مدينة أخرى اشتهرت باسم "مارون" في نواحي أنطاكية، أنجبت القدّيس "ملكوس"، وجلس على كرسيّ أسقفيّتها "ديماس" و"دورشيماس" اللذان حضر أحدهما مجمع أفسس سنة ٤٣١، والآخر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١، وجلس عليها قبلهما "تيموتاوُس" صديق القدّيس "يوحنّا فم الذهب" (٣٤٧ ـ ٤٠٧). وكان هناك قريتان في جبل لبنان إسماهما مارون، الأولى في أرض بلدة "حراجل" في قضاء

---

١ ـ يشوع بن نون: من سبط إفرائيم، خادم موسى وخلفه، أدخل العبرانيّين أرض كنعان وقاد جيشهم في محاربة العمالقة فاجتاز الأردن ودخل أريحا؛ راجع: سفر الخروج، ١٧: ٨ ـ ١٤.

٢ ـ سفر يشوع، الفصل الثاني عشر.

٣ ـ مارون الراس: هي اليوم في قضاء بنت جبيل على متوسط إرتفاع ٩٠٠م. عن سطح البحر، اكتشف على مسافة ٥٠٠ متر جنوبيها مغارة أثريّة على جدرانها نقوش غارقة في القدم لم يحدّد تاريخها، كما عُثر في أرضها على بعض الأواني الخزفيّة.

٤ ـ نعتقد أنّها المعروفة اليوم باسم مروحين في قضاء صور، فيها أطلال "قصر بلاط" الأثريّ الذي ما زالت أعمدته قائمة بشكل عموديّ مُدّت عليها أعمدة بشكل أفقيّ، وفي نطاق البلدة مدافن منحوتة في الصخر.

كسروان، والثانية على ضفّة نهر ابراهيم من بلاد جبيل. وفي البلاد التركيّة مدينة اشتهرت بهذا الإسم، مدحها القدماءُ بأشعارهم وأشادوا بطيبة خمرها. وفي الأندلس مدينة حملت اسم "مورون" عند السواحل الإسبانيّة. وهذا القدر كافٍ في ما ذكرناهُ من أسماء المدن والقرى.

ويذكر الدويهي من أبرز الذين حملوا اسم مارون، قبل المسيحيّة، ملك مصر "مارون مونيفُس". وكذلك "فيرجيليوس"[1] اللاتينيّ الشهير. وبعد انتشار المسيحيّة انتشر اسم مارون ومورون بشكل واسع. وممّن حمله: القدّيس الشهيد "مارون الشمّاس"[2]؛ والقدّيس "مورون" الأخائي[3] الذي عاش في عصر الملك "داقيوس"[4]؛ والقدّيس "مورون"[5] أسقف "قريطش"[6]. وجاءَ في الكتب السريانيّة ذكرٌ لأخوَين فاضلَين هما: إبراهيم ومارون، نشأا في قرية "قلش" من بلاد آمد التي باتت تُعرف باسم "ديار بكر". وقد آثر ابراهيم التنسّك في قمّة جبل كثير الثلج في أحد أديار "إيجيل" حيث أقام

---

١ ـ فيرجيليوس VIRGILIUS (٧١ ـ ١٩ ق.م): أعظم شعراء روما، ألّف "الرعائيّات" و"الفلاحيّات" وملحمة "الإنيادة".

٢ ـ القدّيس مارون الشمّاس (ت١١٢): قضى شهيدًا، عيده في ١٥ نيسان (إبريل).

٣ ـ القدّيس مورون الأخائي (ت٢٥٣): كاهن مسيحي، قبض عليهِ أنتيباتر والي أخائيا يوم عيد الميلاد فأُخرج من الكنيسة وجُرّح لحمه بأظافر حديديّة ثمّ زجّ به في أتون مضطرم فظهر منهُ صحيحًا سالمًا بثيابه. ثمّ سلخوا من جلدهِ سيورًا وأطلقوا عليهِ الوحوش الضارية فسلم من أذاها. عندها قتل الوالي نفسهُ غيظًا. نقلوه إلى مدينة كيريقوس حيث ضربوا عنقه بالسيف، تعيّد له كنيسة الروم في ١٦ آب (أغسطس).

٤ ـ داقيوس DECIUS (٢٠١ ـ ٢٥١): قائد روماني، نادى به جنوده أمبراطورًا بعد انتصاره على القوط، حكم ٢٤٨ ـ ٢٥١، اضطهد المسيحيّين.

٥ ـ القدّيس مورون الأسقف: أسقف جزيرة كريت، عاصر الأمبراطور داقيوس ٢٠١ ـ ٢٥١، ونسبت إليه معجزات في حياته منها حبسه جريَ النهر المتدفّق بكلمتهِ ثم أطلاقهُ بإيماءِ عكّازه، توفّي عن عمر يناهز المائة، تعيّد له كنيسة الروم والكنيسة الأرمنيّة في ٨ آب (أغسطس)، يسمّيه الارمن مارون.

٦ ـ قريطش أو كريت CRÈTE : جزيرة يونانيّة في المتوسّط، اشتهرت قديمًا بمدنيّتها التي انتشرت على سواحل المتوسّط الشرقيّة.

عشرين سنة، ثمّ ارتقى عمودًا ثبُت فوقهُ ثلاثين عامًا، نال بعدها موهبة الشفاءِ وزجر الشياطين عمَّن كان يقصده[1]. فيما تقشّف مارون في جوف شجرة نخِرة، وكان يلزَم الوقوف على قدميه ليلاً ونهارًا ويقهر نفسه ويقسرها على المثول تحت انحدار الثلج وهبوب الرياح والعواصف حافي القدمَين. ولمّا توفّي إبراهيم، أنزله المؤمنون عن العمود، وارتقى مارون إلى مكانهِ مواظبًا على الصوم والصلوات المتواترة إلى أن قضى نحبه ولحق ربَّه، وقد نُسبت إليه كرامات كثيرة، "منها أنّ رجلاً عديم الأولاد لجأ إلى دعائهِ فانحلَّ عقم امرأته وولدت ابنًا سُمّي مارون تبعةً لوصيَّة البارّ لها. أمّا الذي دوّن أخبار مارون وأخيه ابرهيم ونَسب إليهما مكرمات لا تحصى، فاسمه يوحنّا، وقد وجد الدويهي مخطوطه في "دير ما يوحنّا حراش" من أعمال كسروان، وجاء في المخطوط أنّ يوحنّا نفسه هذا، "كان ابن رجل يولد له أطفال يموتون في تمام عمر السنتَين، فلمّا بلغ يوحنّا عمر إخوته الراحلين، "أدركهُ العارض المعهود، وغشي عليهِ، فحمله والداه، بإيمان، وذهبا به إلى مارون الذي أمر بأن يُطعم الطفل من طعام الإخوة وكان عدسًا، فلمّا استطعم الصبي بمذاقه صحا من إغمائه وبرئ ثم نما وانتشى". ولم يغفل الدويهي ذكر "مارون الأياني" الذي قال إنّه كان شمّاسًا للقدّيس "فلابيانُس"[2] بطريرك أنطاكية، وكان منتصرًا للمجمع الرابع مع معلمه. وقيل إنّ أصل مارون هذا من قرية "معراب" من نواحي كسروان[3].

---

١ ـ هذه الطريقة في التنسّك فوق عمود منسوبة إلى القدّيس سمعان العمودي الأكبر (نحو ٣٨٩ ـ ٤٥٩) الذي تنسّك ٣٧ سنة على عمود في جبل سمعان بقرب حلب، ثمّ قلّده في ذلك أتباع.

٢ ـ فلابيانُس أو فلافيانُس، ولعلّ المقصود بطريرك القسطنطينيّة وليس أنطاكية ٤٤٦ ـ ٤٤٩، وهو فلابيانوس الثاني الذي عاش (٤١٨ ـ ٥١٢) نفي إلى البتراء لتمسكه بالإيمان الأرثذوكسي ضدّ أوطيخا ٤٤٨.

٣ ـ معراب: قرية في كسروان من أعمال قضاء كسروان الفتوح في جبل لبنان بجوار غوسطا.

لقد أراد الدويهي، من خلال هذا العرض، تبيان أنّ اسم مارون كان شائعًا في الماضي. والردّ على بعض الاجتهادات التي نسبت الموارنة إلى غير مارون. ومنها اجتهادان لكلّ من "بارونيوس"[1] و"الصهيوني"[2] اللذَين ذهبا إلى أنّ الموارنة نُسبوا إلى مدينة "مارون" المجاورة لأنطاكية[3]. وقد عارض الدويهي هذه النسبة لأنّه "غير منقول عنها (مدينة مارون) أنّه قام منها رأس مشهور لهذه الأمّة" ولأنّ الموارنة "لم يسكنوها حينًا ما حتّى ينتسبوا إليها". كما ردّ ما ذهب إليه "جماعة من اليعقوبيّة (السريان المونوفيزيّين) إلى أنّ الموارنة يُنسبون إلى "مارون الأياني"، وهذا غلط صريح لكون مارون الأياني مات شمّاسًا كما يذكر عنه إبن القلاعي[4].علمًا بأنّ "مارون الأياني قد تقدّم يوحنّا مارون بأكثر من مئة وخمسين سنة، وفي زمانه لم يكن الخلاف قد انبثّ بين الملكيّين والموارنة". كما عارض الدويهي رأي "السريان أتباع يعقوب البرادعي[5]، القائل بأنّ الموارنة يُعزَوْن إلى البطريرك يوحنّا مارون"؛ ورأي سعيد بن البطريق[6]

---

١ - قيصر بارونيوس (١٥٣٨ - ١٦٠٧): كردينال وعالم إيطالي، طبّق النقد العلمي في تاريخ الكنيسة، له "الحوليّات الكنسيّة".

٢ - جبرائيل الصهيوني SIONITA (١٥٧٧ - ١٦٤٨): من علماء الموارنة، ولد في إهدن لبنان ودرس في روما، درّس اللغات الشرقيّة في المعهد الملكي في باريس واهتمّ بنشر التوراة المتعدّدة اللغات ١٦١٤ ونشر الآثار العربيّة التي منها "جغرافية الإدريسي" و"الغراماطيق العربي".

٣ - سيعود الدويهي ليوضّح في مكان آخر أنّ بارونيوس قد تردّد في النسبة المارونيّة ما بين أمرَين متقاربَين، فقال: هذه النسبة إمّا أن تكون إلى مارون المدينة التي هي متاخمة لأنطاكية، وإمّا أن تكون راجعةً إلى البارّ مارون الذي انتشرت قداستهُ في صقع جبل قورش واشتهر رهبان ديرهِ بالعلوم وحسن الديانة في نواحي سوريّة الثانية على النهر العاصي.

٤ - المطران جبرائيل إبن القلاعي اللحفدي (١٤٤٧ - ١٥١٦): عالم كنسيّ لبنانيّ مارونيّ، ولد في لحفد من أعمال بلاد جبيل، تعلّم في القدس عند الفرنسيسكان وترهّب عندهم، انتقل إلى روما حيث حصّل العلم ١٤٧١ - ١٤٩٢، أرسلته روما إلى لبنان ١٤٩٢ - ١٤٩٦ حيث حارب البدع التي كانت متفشّية في الشرق وكانت تحاول إخضاع الموارنة، انتقل إلى قبرص حيث جلس على كرسي أسقفيّتها وفيها توفّي ١٥١٦، سيأتي الكلام عنه لاحقًا.

٥ - راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٦ - سعيد بن البطريق (٨٧٧ - ٩٤٠): هو أوطيخيوس بطريرك الإسكندريّة على الملكيّين ٩٣٣ - ٩٤٠، كان طبيبًا ومجادلاً ومؤرّخًا، له مختصر في التاريخ العام إلى سنة ٩٣٨ سمّاه "نظم الجوهر" طُبع في أكسفورد ١٦٤٢، وله أيضًا "كتاب البرهان".

القائل بأنّه "كان في عصر موريق[1] رجل راهب يقال لهُ مارون وكان يقول إنّ لسيّدنا المسيح طبيعتَين ومشيَّة واحدة وفعلاً واحدًا، فأفسد مقاله الناس، وأكثر مَن تبع مقالته أهل "حماة" و"قنسرين"[2] و"العواصم"[3] وجماعة من أهل الروم، فسُمّي الناس التابعون لدينه والقائلون بمقالته مارونيّين، أي منسوبين إلى مارون. فلمّا مات مارون بنى أهل مدينة حماة ديرًا بحماة وسمّوه دير مارون". وقد ردّ الدويهي هذا الزعم بحجّة أنّه، في هذه الحالة، يجب أن يسمّى مارونيًّا كلّ من تمسّك ببدعة المشيئة ومن انتصر لها أمثال: "قورُش" بطريرك الإسكندريّة، و"تاودورُس" أسقف "فاران"، و"مقاريوس" بطريرك أنطاكية، و"أونوريوس" بابا روما، و"سرجيوس" والمتخلّفين بعده على كرسيّ القسطنطينيّة، وكذلك "هرقل" ملك الروم. ورغم هذا الخطأ الواضح المعالم، فقد نقل أكثر المؤرّخين اللاحقين رأي سعيد بن البطريق من دون تمحيص، كما فعل بعض مؤرّخي الملكيّين أمثال "بولس الراهب الأنطاكي"، و"سليمان بن حسن الغزّي" وغيرهما، كما فعل بعض مؤرّخي الموارنة "الغرباء"[4] أمثال "أبي الفضل عبدالله"[5]

---

١ ـ موريق أو موريقيوس: أمبراطور بيزنطي ٥٨٢ ـ ٦٠٢، حارب الفرس والسلافيين، أعاد تنظيم الاديرة والجيش، ثار عليه الجيش وقتله مع أولاده وأحلّ مكانه فوكاس.

٢ ـ قنسرين: كانت مدينة شهيرة في سورية في جنوب غرب حلب على طريق القوافل بين حلب وأنطاكية، حصّنها سلوقُس نيكاتور (٣٥٥ ـ ٢٨٠ق.م) وسمّاها "خلقيس أدبيلوم"، فتحها أبو عبيدة ٦٣٧، خرّبها الأمبراطور البيزنطي باسيليوس الثاني ٩٦٣ فنقل سيف الدولة سكّانها إلى حلب، جنّدها الأمراء بنو بسيس التنوخيّون، خرّبها عن آخرها تاج الدولة في أواخر القرن الحادي عشر، عرفت لاحقًا باسم "إسكي حلب".

٣ ـ العواصم: فيما ذكر الدويهي أنّها بجوار قنسرين، جاء في المراجع الكلاسيكيّة أنّ العواصم أو الثغور، هي الحصون التي شيّدها الخلفاء على الحدود بين بلاد المسلمين وبلاد البيزنطيّين شمالي سورية في القرن التاسع، منها طرسوس وأذنه ومرعش وملطية.

٤ ـ المقصود بذلك الذين أرّخوا للموارنة من غير الموارنة.

٥ ـ لا شكّ في أنّ المقصود هو عبدالله بن الفضل الأنطاكي المعروف بأبي الفتح (ت بعد ١٠٥٢): شمّاس ملكي نشأ في أنطاكية، اشتهر بترجمته عن اليونانيّة مئات المواعظ والمقالات لآباء الكنيسة لا سيّما ليوحنّا الذهبيّ الفم، كما ترجم المزامير فطبعت في دير مار يوحنّا الصابغ في الخنشارة ١٧٣٥، له أيضًا مؤلّفات دينيّة وفلسفيّة ولاهوتيّة منها "كتاب المنفعة الكبير"، و"كتاب المنفعة الصغير".

و"توما الكفرطابي"[1] و"عبد الله بن الطيّب" الذي كان قسّيسًا في العراق ومات سنة ١٠٤٣ وسواهم.

يضيف الدويهي إلى هؤلاء، العديد من الكتّاب الذين نسبوا الموارنة إلى دير مارون أو ماران، مستندين إلى ما جاء في كتاب "الهدى"[2] المحرَّر بيد "مسعود الشبطيني" سنة ١٣٤٥ في "ماغوصة"[3] قبرص، من "أنّ المارونيّة منسوبة إلى دير مارون أو ماران وتفسيرهُ في اللغة العربية "دير ربّنا" لأنّ صفة هذا الدير عجيبة، وموقعَه في أرض حماة قريبٌ من نهر العاصي، وكان رهبانه ثمانمائة راهب، ولأجل هذا سمُّوا مارونيّين أو مارانيّن. ولعدم معرفة الأكثرين بمعنى هذا الاسم وأصله قالوا: إنّ الرهبان الموارنة تعود نسبتهم إلى الأب القديس الطاهر مار يوحنّا بطريرك أنطاكية". ويستنتج الدويهي: "بما أنّ ابن البطريق قد زعم في كتابه أنّ مارون مبدع المشيئة الواحدة هو ربّ هذا الدير... تمسّك الملكيّة بقوله، وادّعوا أنّ البطريرك يوحنّا مارون كان تابعًا لهذا الرأي، وهذا وجه الإفتراق ما بين الملكيّ والمارونيّ"[4].

---

١ - توما الكفرطابي: كان مطرانًا على كفرطاب وعلى الرعيّة التي في خارج العاصي نحو ١٠٨٩، له كتاب "المقولات"، وكتاب "الفصول العشرة".

٢ - كتاب الهدى: عبارة عن مجموعة قوانين كنسيّة كانت دستورًا للطائفة المارونيّة وغيرها، ترجمه إلى العربيّة سنة ١٠٥٨ عن أصله السرياني القديم جدًا المطران داود الماروني الحلبي، وصرّح في المقدّمة بأنّه "إنّما اضطرّ إلى ترجمته لأنّ الشعب الماروني أصبح لا يحسن فهم لغته الأصليّة"، وبالاستناد إلى هذه العبارة فُهم أنّ تأليفه بالسريانيّة كان في أواخر القرن التاسع، أمّا مؤلّفه فمجهول. نسخة كتاب "الهدى" الأصليّة نقلها السمعاني من لبنان إلى روما وهي محفوظة في المكتبة الفاتيكانيّة تحت العدد ١٣٣، وقد ظهرت نسخ من هذا المؤلّف القيّم لعبت بها الأيدي وهي بالتالي غير موثوقة. وقد وصل إلينا من هذا الكتاب عدّة نسخ؛ راجع: داغر الخوراسقف يوسف، بطاركة الموارنة، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت،١٩٥٧) ص٢٠.

٣ - ماغوصة: هي فاماغوستا أو فاغوستا FAMAGUSTA : مدينة على ساحل قبرص الشرقي، كانت سابقًا عاصمة الجزيرة، فيها جالية مارونيّة.

٤ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١٠ - ١١.

ويضيف الدويهي أنّ "أصحاب هذا الزعم الواهي، بذلوا مجهودهم بالمراسلات والعظات المزوّرة كي يستعطفوا بها قلوب أهل لبنان وينقلوهم عن التمسّك بالمشيئتَين كما تلوّح به كتبهم، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً"[1]. ويذكر أنّ "ديونيسيوس بن صليبا"[2] و"جماعة من اليعقوبيّة (السريان المونوفيزيّين) المتأخّرين ذهبوا أيضًا مذهب ابن البطريق لقراءتهم كتبه، وكتب توما الكفرطابي". وأنّ "غوليلمو الإفرنجي"[3] أسقف مدينة صور، "قد اتّبع رأي ابن البطريق لكونه اطّلع على تاريخه واقتدى بنصّه كما هو ظاهر كلامه في فاتحة كتابه "استنقاذ أرض الميعاد"، حيث ذكر أنّ مارون الراهب أبدع مقالة المشيئة الواحدة، وأنّ المجمع السادس[4] ما التأم إلاّ طعنًا فيه وردًّا عليه وعلى مَن قال بقوله، وأنّ الموارنة استمرّوا متمسّكين بهذه البدعة نحوًا من خمسمائة سنة أي حتّى سنة ١١٨٤، ثمّ اهتدوا أخيرًا بضوء الكنيسة الجامعة على يد "أوماريكو الإفرنجي" بطريرك أنطاكية". وقد وافق غوليلمو على زعمه بعضُ العلماء الغربيّين الذين وقفوا على كتابه[5]. على أنّ الكردينال المؤرّخ "بارونيوس" أنكر على غوليلمو قوله بأنّ الموارنة ينتسبون إلى "مارون الراهب المبدع"، ذلك أنّ بارونيوس هذا كان قد طالع كتب البيعة بأسرها، فلم يجد لهذا القول فيها أثرًا. ولمّا رأى بطلان ذلك الزعم، تردّد في النسبة المارونيّة ما بين أمرَين متقاربَين، كما ذكرنا سابقًا، فقال: بأنّ هذه

---

١ ـ تبدو العبارة قلقة في مكانها فكأنّ الناسخ أغفل كلامًا قبلها واكتفى بذكرها.

٢ ـ **ديونيسيوس بن الصليبي**: أسقف مرعش ثمّ منبج ثمّ آمد اليعقوبي ١١٥٤ ـ ١١٧١، له مؤلّفات دينيّة عديدة بالسريانيّة والعربيّة، اشتهر بتفسيره الكتاب المقدّس.

٣ ـ **غوليلمو الإفرنجي**: لا شكّ في أنّ المقصود هو **غليوم الصوري** (١١٣٠ ـ ١١٨٣؟): مؤرّخ دولة الفرنج في الشرق، ولد في صور وصار رئيس أساقفتها على اللاتين.

٤ ـ **المجمع السادس**: هو مجمع القسطنطينيّة الثالث، عقد ٦٨١ وحرّم المونوتيليّة.

٥ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١١.

النسبة "إمّا أن تكون إلى مارون المدينة المتاخمة لأنطاكية، أو أنّها عائدة إلى البارّ مارون الذي انتشرت قداسته في صقع جبل قورش، واشتهر رهبان ديره بالعلوم وحسن الديانة في نواحي سورية الثانية على نهر العاصي. ووافقه على ذلك أكثر علماء الفرنجة المتأخّرين، وجماعة من كبار علماء الموارنة، كالصهيوني* والخوري "مرهج بن نمرون"[1] وغيرهما. وفي سنة ١٦٠٨، أمر البابا بولس الخامس (١٦٠٥ ـ ١٦٢١) بأن تُحرَّر سيرة القدّيس مارون في بدء كتاب القدّاس السريانيّ الذي طُبع في روما، كما التمس منه تلاميذ المدرسة المارونيّة هناك[2].

ويقول الدويهي "إنّ الرأي المعوّل عليه، والموافق لتسليم الكنيسة المارونيّة، والمقبول من البيعة الرومانيّة، كما هو واضح من كتب صلوات الموارنة التي طُبعت في روما بأمر رؤساء البيعة المقدّسة، فهو رأي المطران جبرائيل إبن القلاعي* القائل بأنّ الموارنة "تلقّبوا بهذا اللقب من البار مارون بطريرك أنطاكية العُظمى[3]، كما هو ظاهر من مضمون سيرته حين دخل البطريرك بنفسه مدينة روما الكبرى، وتثبّت من حبر الكرسيّ الرومانيّ. ولمّا رجع إلى أنطاكية كرسيه، استعاد كثيرين من تلاميذ "مقاريوس الأراطيقي"[4] ومن الملّة "اليعقوبيّة"[5] إلى الإيمان المستقيم. وأنذر وبشّر

---

١ ـ راجع: الباني مرهج بن نمرون، أصل الموارنة وديانتهم، (روما،١٦٩٧).

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، المرجع السابق.

٣ ـ المقصود البطريرك يوحنّا مارون.

٤ ـ هو **البطريرك مكاريوس**: سُمّي بطريركًا على أنطاكيا ٦٧١ ـ ٦٨٠، قال بالمشيئة الواحدة، أقام في القسطنطينيّة، حرمه المجمع السادس ٦٨٠ وخلعه ونفاه إلى روما لتمرّده على المجمع المسكوني. أمّا "الأراطيقي" فالمقصود بها "الهرطوقي" نسبة إلى "الهرطقة" عند المسيحيّين، أي البدعة في الدين.

٥ ـ **اليعقوبيّة**: نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها ٥٤١ ـ ٥٧٨، اعتُبر المؤسّس الحقيقيّ للكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة التي حملت اسمه عرفًا؛ راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

بحقيقة الطبيعتَين والمشيئتَين. ثمّ دخل جبل لبنان وعزّز شأن البابا وقبله أهل تلك البلاد بفرح وسرور. وهذه القصّة نقلها "فرنسيسكُس كوارسيميوس" من اللغة العربيّة إلى اللغة اللاتينيّة وطبعها في كتابه المشهور سنة ١٦٣٤ في أخبار الأراضي المقدّسة[١].

مَار مَارُون

في بحث معمّق حول نشأة المارونيّة، لعالم بحّاثة مارونيّ معاصر: الراهب المارونيّ اللبنانيّ الأبّاتي بولس نعمان[٢]، في مجال التساؤل حول "أيّ مارون هو الذي بُني على اسمه دير مارون في "حمص"[٣] إثر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥٢، يقول:

> إنّ حاملي هذا الإسم هم كثر في سوريا. بيد أنّ التقليد المارونيّ يعزو اسم مارون هذا إلى الأكثر شهرة بين حامليه، إلى ناسك "التاريخ الديني" لـ"ثيودوريتُس"[٤]. غبطة

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١١ ـ ١٢.

٢ ـ نعمان الأبّاتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة ـ من جبال قورش إلى سهول أفاميا، تعريب أمين مرعي، نشر مكتبة جامعة الروح القدس (الكسليك ـ لبنان، ١٩٩٢) ص٢٥.

٣ ـ كان دير مار مارون على مسافة بضعة كيلومترات من أفاميا وغير تابع لأيّ قرية أو مدينة، ما يجعل ممكنًا إمكانيّة نسبته بسهولة إلى أفاميا أو إلى حمص، أي إلى البلد المجاور أو إلى العاصمة أو المقاطعة، كما نقول اليوم، مثلاً، دير كفرحي في البترون. مع الملاحظة إلى أنّ أفاميا كانت تقع في منطقة حمص، وبينما يذكر نعمان أنّ المسافة بين أفاميا ومدينة حمص نحو ٨٨ كلم، جاء في "منجد الأعلام" أنّ تلك المسافة نحو ٤٥ كلم.

٤ ـ ثيودوريتُس THEODÔRÊTOS (نحو ٣٩٣ ـ ٤٦٦): أسقف قورش ٤٢٣، كاتب سرياني، قاوم المونوفيزيّة في المجمع الخلقيدوني، له مقالات وتاريخ للكنيسة، اتّهم بالنسطوريّة ٤٤٩ فاضطرّ إلى مغادرة كرسيه الأسقفي ليعود إلى ديره قرب أفاميا فغادر كثيرون من شيعته قورش معه، حرّمت مؤلّفاته ٥٥٣؛ لمعرفة المزيد عن ثيودوريتُس راجع: نعمان الأبّاتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٧٥ ـ ١٣٦.

بطريرك السريان الأرثذوكس، يعقوب الثالث، عُني بجمع حاملي هذا الإسم على اختلافهم في مقاله عن "ساويروس ورهبان دير مارون"[1]. إنّما، من الواضح أنّ المقصود هنا راهب يتمتّع ببعض الشهرة في الأوساط الرهبانيّة في سوريا الشماليّة، متوفـّ قبل عام ٤٥٢، لأنّ مجرّد إطلاق إسم على دير، يهدف، عادة، إلى تأكيد أو إشهار تكريم ذكرى راهب قدّيس وفضائله. ويبدو أنّ مارون "التاريخ الديني" لـ"تيودوريتس" وحده يوفي بهذه الشروط، بينما الآخرون الذين طُرحت أسماؤهم وُجدوا بعد هذا التاريخ[2].

كذلك يخلص الدويهي إلى أن أجلّ من اشتهر باسم مارون، هو الأب الطاهر والقدّيس النبيل، الذي شرّف بلاد قورش[3] وسائر المشرق بقداسته وصُنع معجزاته.

أمّا عن تاريخَي ولادة ووفاة القدّيس مارون، فيقول نعمان[4] أنّ التّاريخَين لم يحدّدا إلى الآن، ويضيف: يعتقد "تيلامون" أنّ مارون كان إمّا تلميذاً أو ندًّا

---

١ ـ يورد الأباتي نعمان هنا الحاشية التالية: راجع: المجلّة البطريركيّة، ٢ (١٩٦٣) عدد ١٢، ص٧٠ ـ ٨٢.

٢ ـ يورد الأباتي نعمان في الحاشية هنا أسماء هؤلاء المشاهير الذين حملوا اسم مارون على الشكل التالي: ـ مارون: مراسل ساويروس الأنطاكي (٥١٢ ـ ٥١٨)، راجع الآباء الشرقيين، مجلّد ١٢ و١٤، منشورات بروكس، مجلّد (١) ص١٩٦ وما يتبع؛ ـ مارون: مراسل يعقوب السروجي (+٥١٢) راجع أوليندر، يعقوب السروجي، الرسائل (لوند،١٩٣٩)؛ ـ مارون: قارئ أنازارب، راجع أ. هونيغمان، أساقفة وأسقفيّات مونوفيزيّة (لوفان،١٩٥١) ص٦٤، عدد ٤٤ ـ مارون: ناسك قضاء أميد، راجع حياة الآباء والنسّاك الشرقيين، مجلّد (١) ص١٦٥ ـ مارون: رئيس دير الشرقيين في جبل "الرها"، نفاه يوستينوس (٥١٨ ـ ٥٢٢) راجع زكريّا ريتور، التاريخ الكنسي، منشورات أ.ي. بروكس في CSCO، عدد ٨٣ ـ ٨٤، (باريس ـ لوفان،١٩١٩ ـ ١٩٢١) مجلّد ٢، ص٨١؛ ـ مارون: رئيس دير الشجرة في "داريّا" الذي "وقّع الرسالة الأرثذوكسيّة نحو سنة ٥٧٠"، راجع وثائق مونوفيزيّة، منشورات أ.ب. شابو في CSCO، عدد ١٧: ١٠٣ (باريس،١٩٠٨) ص٢٢٠؛ أخيراً ـ مارون التاريخ الديني (+٤١٠) راجع سوزومين، التاريخ الكنسي للآباء اليونان، ٢٨: فصل ١٦ عمود ١٤١٨ ـ ١٤١٩.

٣ ـ بلاد قُورُش أو خُورُس CYRRHUS : موضع قديم في سورية الشماليّة قرب أعزاز في محافظة حلب اليوم، هي اليوم أنقاض كبيرة بالقرب منها مقام "الشيخ خورون"، كان فيها مستعمرة سلوقيّة أدخلها الفاتح الروماني بومبيوس في حكم الرومان ٦٥ ق.م.، ازدهرت فيها المسيحيّة، عرفت باسم "هاغيوبوليس"، فتحها العرب ٦٣٧ ثمّ الصليبيّون، دخلها نور الدين زنكي ١١٥٠، من أساقفتها "تيودوريتس" المؤرّخ.

٤ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٧.

لـ"أسيبسيماس"[1] الذي نـال شـهرة إبّـان حكم فـالنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨) أعنـي قرابـة سـنة ٣٧٠؛ نعرف، من ناحية ثانية، أنّ "يعقوب" و"ليمناوس"[2] بعد ذهابهما إلى عند مـارون، مارسا حياة الهـواء الطلـق علـى مـدى ٣٨ سـنة. والحـال، إذا مـا سـلّمنا بـأنّ "التـاريخ الدينيّ"[3] وُضع نحـو ٤٤٤ ـ ٤٤٥، فعلينا أن نستخلص أنّ مارون كان لا يزال على قيـد الحياة قرابة السنة ٤٠٦ ـ ٤٠٧، وبالتالي، أن تؤرَّخ وفاته بعد ٤٠٧ وقبل ٤٢٣.[4]

في الواقع، عاصر القدّيس مارون، أسقف قـورش ثيودوريتُـس*. وكـان هـذا كاتبًـا سجّل أحداثًا تاريخيّة كنسيّة عاصرها، وقد ذكر في مدوّناته "مارون الناسـك" فـي عـداد نسّاك أبرشيّته. وأوضح أنّ مارون اعتكف على إحدى القمم قـرب هيكـل وثنـيّ، حيث قضى حياته بالصلاة والتوبة. كما قال هذا الأسقف المؤرّخ المعاصر لمـارون "إنّ اللّـه قد منّ على الناسك مـارون بـالقدرة علـى الشـفاء، وإنّ النـاس كـانوا يقصدونـه للتبرّك ولالتماس الدعاء، وإنّ بعضهم تتلمذ عليه وسار على خطاه"[5]. وإنّ "ثيودوريتُس"، هذا، قد "اتّصف بـالصدق والقداسـة، وفـاق جميـع أبنـاء عصـره علمًـا وغيرة علـى انتشـار الإيمان. وهو الممدوح والموصوف من الآباء في المجمع الخلقيدونيّ بالصفات الحسنة، وهي: البارّ الأرثذوكسيّ الكـاثوليكيّ راعـي الكنيسـة ومعلّمهـا"، كمـا يقـول الدويهـي[6]،

---

١ ـ أسيبسيماس: ناسك في قورُش ذكره ثيودوريتُس في تاريخه، اعتزل في كوخ حيث بقي مدّة ستّين سنة، سيم كاهنًا قبل وفاته ببضعة أيّام فقط ـ عن نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦١.

٢ ـ "يعقوب" و"ليمناوس": ناسكَان قورشيّان من تلامذة مار مارون، سيأتي التعريف بهما لاحقًا.

٣ ـ نذكّر بأنّ "التاريخ الديني" المقصود هنا هو الذي وضعه الأسقف ثيودوريتُس ـ المؤلّف.

٤ ـ من المتّفق عليه، عرفًا، بالاستناد إلى أكثر الموسوعات والمعاجم والمؤرّخين، أنّ مار مارون توفّـي حوالـى سنة ٤١٠ ـ المؤلّف؛ راجع: مسعد البطريرك بولس بطرس، الدرّ المنظوم، مطبعة الرهبان اللبنانيّين (١٨٦٣) ص١٣٠ ـ ١٣١.

٥ ـ THÉODORET, HIST. ECC., XVI, XXI, XXII, XXX.

٦ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١٧ ـ ١٨.

ويضيف عنه أنّه "لم تأخذهُ رئاسته الأسقفيّة عن محاربة المبدعين وإرشاد المؤمنين، والطواف في البراري والقفار، وتدوين أخبار الآباء الأطهار الذين كانوا مشهورين بالسيرة الملائكيّة. ومن جملة ما أثبت في تآليفه سيرة أبينا هذا الشائع الذكر والصيت، حسبما شاهده هو بعينه، ونقله عن تلاميذه، واستخبر الذين كانوا يعيّدون عيده، وبموجب ما تحقّق أيضًا من الذين شاهدوا معجزاته وآياته. فدوّن في الفصل السادس عشر من أخبار الآباءِ قائلاً"[1]:

> إني أضع سيرة القدّيس مارون الذي جمّل جماعة القدّيسين المتوشّحين باللّه. ولما آثر العيشة النسكيّة تحت جوّ السماء، ارتقى جبلاً شامخًا كان فيهِ هيكل للكفّار يعبدون بهِ الشياطين، فكرّسهُ هيكلاً للّه، وأقام بهِ كوخًا حقيرًا، الاّ أنّهُ لم يسكنهُ سوى مدّةٍ وجيزة. ولم يقتصر على الأعمال النسكيّة المعتادة، لكنّهُ اخترع أعمالاً أعظم، لكي يجمع غنى الحكمة الكاملة[2]. فإنّ جزاء المُحارب يكون على قياس عمله. ووهبهُ اللّه الجوّاد مواهب الشفاءِ حتّى تسامع الناسُ بأخباره في جميع الآفاق، فتقاطروا إليه من كلّ صقعٍ ومكان. وكانوا جميعًا قد علموا، بالاختبار، أنّ ما اشتهر عنهُ من الفضائل والعجائب صحيح. لأنّه كان يخمد عنهم اضطرام الحمّى المتوقدّة بندى البركة وطلّ النعمة. وكانت الشياطين تفرّ من هول سطوته. فإذا كان الأطبّاء الحذّاق يعالجون الأدواء المختلفة بأدوية مميّزة، فهذا العظيم كان يعالج كافّة الأمراض بدواء واحد، وهو الصلاة، لكون صلاة الأبرار مرهمًا عامًا في طبّ

---

١ ـ ذكر نعمان، في كتابه: المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، حاشية ص٦٥، أنّ ثيودوريتُس قصد حقًّا إعطاء شهادة صادقة. وأضاف نعمان: لقد كتب لي مؤخّرًا البروفيسور "بيار كانيفه" أنّ نقّادًا صارمين كالبولنديّين، أقرّوا بالقيمة التاريخيّة لمؤلّف ثيودوريتُس (التاريخ الكنسي). وأنّ "شيفتر"، مؤرّخ رهبان الشرق، يوليه ثقته. ويتابع كانيفه: أمّا من جهتي، فإنّي أنوي نشر مقال حول روايات المعجزات عند ثيودوريتُس، وسأبيّن سمة الرزانة والاتّزان عند المؤلّف.

٢ ـ في كتابه: المارونيّة لاهوت وحياة، ص٦٣، يقول الأباتي بولس نعمان، في تعليقه على هذا النصّ: لا يعتبر ثيودوريتُس "الناسك مارون" الموجّه الأوّل لأسلوب العيش هذا في الهواء الطلق فحسب، بل هو، إلى ذلك باعث ومؤسّس كلّ الحركة الرهبانيّة في القورشيّة.

العاهات. وما كفى أنهُ كان يبرئُ الداءَ الجسدانيّ فقط، بل الروحانيّ أيضًا. لأنّه كان يداوي الأنفس بما يوافق شفاءَها[1]. يشفي واحدًا من داء الشحّ، وآخر من داء الغضب، وآخر يصف لهُ دواءَ القناعة، ويعلّم آخر قانون العدل، وآخر يحذّرهُ من الشرَه، وآخر يستفرغ منهُ الضجر، ويُوقظ آخر من غفلة التّواني، إلى غير ذلك من الأدواء النفسانيّة. والحاصل أنّهُ أنمى بالتهذيب غراسًا مباركة للحكمة السماويّة. وبستانُ الفلسفة الناشئ، يومئذٍ، في سفح قورش، هو كان غارسه وفالحه. وإن قلت: وما هو ثمر هذا البستان؟ أجبتك: إنّ أوّل أثماره المونعة، هو تلميذه يعقوب الذي استحقّ أن يُجعل مصداق قول النبي: الصديق يزهر مثل النخل وينمو كالأرز في لبنان[2]. وغيره من التلاميذ الذين سيُذكَرون أخيرًا إن شاء اللّه. غير أن المعلّم القدّيس، في حين هذه الفلاحة الإلهيّة وشفاء الأنفس والاجساد معًا، انتقل من هذه الحياة المضمحلّة بمرض يسير. وحدث نزاع عظيم على جسدهِ الطاهر ما بين أهل التقى، وقويَ الجانب الواحد على الآخر، فخطفوهُ خطفة الباشق، وحبسوهُ أفضل مِن كنزٍ ثمين[3]، وبنوا على جسدهِ هيكلاً معظّمًا، وهم يبجّلونهُ بالإكرام إلى يومنا هذا، ويصنعون لهُ عيدًا موقّرًا متلألئًا بالبهجة، ويتنعّمون بالفوائد التي يستمدّونها

---

١ ـ في كتابه: المارونيّة لاهوت وحياة، ص٦٥، يقول الأباتي بولس نعمان، في تعليقه على هذا النصّ: هذه الشهادة الممهورة بتوقيع ثيودوريتُس تؤكّد لا على الحكمة والقداسة والهبات الروحيّة عند مارون وحسب، بل إلى ذلك وقبل كلّ شيء على المواهب الطبيعيّة المميّزة: معرفة عميقة بالنفس البشريّة وبعض ثقافة.

٢ ـ مزمور ٩١: ١٣.

٣ ـ جاء في الأصل اللاتيني عند THÉODORET, HIST. ECC. ما ترجمته: وبينما هو مهتمّ بالعمل الإلهيّ وبشفاء الأنفس والأجساد، تحمّل مرضه إلى أن انتقلت روحه من هذه الحياة. فحدث عراك شديد إثر وفاته بين مجاوريه، إلى أن تمكّن سكّان البلدة المتاخمة الكثيرو العدد، الذين حضروا بأجمعهم، من هزيمة الأخرين، فاختطفوا الكنز المشتهى للغاية...؛ راجع: نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٦، حيث جاء: لقد بلغ تعلّق الناس به (بمارون) مبلغًا، إذ إنّ خصامًا كبيرًا وقع بين سكّان القرى المحيطة للحصول على مقتناه وجثمانه. فسكّان قرية "آهلة بالكثير من السكّان" أفلحوا، بالقوّة، في الاستيلاء على جسده وأودعوه في معبد، بعيدًا عن قورش، وعلى الأرجح أيضًا بعيدًا عن أفاميا. وهذا الحدث يتكرّر كثيرًا في "التاريخ الديني": فيعقوب، تلميذ مارون، أُخذت ثيابه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. ونرى في ذلك دليلا على الإجلال الكبير الذي كان يكنّه الشعب لهؤلاء النسّاك القدّيسين.

منه[1]. وأمّا نحن الغائبين عنه، فنرجو منه البركة الجسيمة، وعوض مشاهدتنا ذاك الضريح، ننال منه الإنعام الصريح[2].

وذكر الدويهي أنّ "الروم يتلون هذه السيرة في كنيستهم في اليوم الرابع عشر من شباط (فبراير) وهو يوم تذكاره عندهم. وكذا الرومانيّون الذين أدرجوها بين أخبار الآباء القديّسين. ويروى أنّ علماء الكنيسة الرومانيّة، أمثال "ليومان" و"لورنس" من "لابرا"، و"روسياد اليسوعي"، سطّروا هذه السيرة بين أخبار القدّيسين. وأنّه كان بين البارّ مارون وبين "يوحنّا فم الذهب"[3] لحمة المحبّة والاتّفاق. ولمّا اختطف الروم يوحنّا المذكور وأقاموه بطريركًا على المدينة المتملّكة (أنطاكيا)، كان هذان القدّيسان مرتبطَين بالصداقة الخالصة والوداد الكامل، وكانت بينهما مراسلات ومكاتبات. وعند انحطاط فم الذهب عن كرسيّ بطريركيّتِه وإبعاده إلى نواحي أرمينية[4]، تذكّر في ذلك الوقت المذهل حبّه القديم للأنبا[5] مارون وليّه، فكتب إليه رسالةً يلتمس فيها من الراهب الناسك في قمم الجبال دعاءً وابتهالاً، ويسأله أن لا يقطع عنه أخباره السارّة، كما هو معلوم وواضح من رسالته المحفوظة إلى الآن، وهي السادسة والثلاثون من

---

١ ـ ذكر نعمان، المرجع السابق، أنّ في ذلك ما يشير إلى ميّزة أنّه قد أُتيت أيضًا لهذا القدّيس العظيم "تكريمات شعبيّة ورسميّة" بعد ثلاثين سنة لوفاته.

٢ ـ عن: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١٧ ـ ١٨؛ عن الأصل اللاتيني: THÉODORET, HIST. ECC.

٣ ـ يوحنّا فم الذهب (٣٤٧ ـ ٤٠٧): قدّيس من آباء الكنيسة ومعلّميها، ولد في أنطاكية، مارس مدّة الحياة النسكيّة، بطريرك القسطنطينيّة ٣٩٨ ـ ٤٠٤، اضطهدته الأمبراطورة أفدوكيا المونوفيزيّة، لقّب بالذهبيّ الفم وبفم الذهب لبلاغته، إليه تنسب "الليتورجية" أو مراسيم الخدمة الدينيّة المشهورة في الكنيسة اليونانيّة. راجع تفاصيل أوسع عنه في المجلّد التاسع من هذه الموسوعة.

٤ ـ نُفي يوحنّا إلى "كوكوز" ومنها راسل "مارون الكاهن الناسك"؛ راجع: نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٥.

٥ ـ الأنبا: المخبر عن الله وما يتعلّق به تعالى. وهو لقب كان يطلق عند المسيحيّين الشرقيّين على خدّام الدين الأبرار المميّزين بتقواهم ومكرماتهم.

رسائله، وقد جاء فيها[1]:

> إلى مارون القسّ الراهب: وبعد، فإنّنا مرتبطون بك بعلاقة الصداقة والمودّة ونشخصك كأنك حاضرٌ هنا، لكون بصيرة المحبّة لا يصدّها بُعد الطرقات الشاسعة ولا توهنها الأزمان المستطيلة. وكنّا نودُّ أن نكاتبك دفعاتٍ كثيرة ولكنّ مشقّات الطرقات وعدم وجدان (وجود) من يسير نحوكم منعنا (منعانا) عمّا في خاطرنا من مراسلاتكم. فنحيّيك بالسلام موضحين لك أنّنا نتذكّرك دائمًا وأنّك نازلٌ في فؤادنا أينما كنّا. فاهتمّ إذًا أيضًا بأن تكثر لنا من أنباء صحّتك، بما أنّه ولو كنّا من حيث الجسد بعيدين، فيسرّنا كثيرًا أن نسمع شيئًا عن عافيتك، وتنالنا من ذلك سلوى كبيرة، وإن كنّا مقيمين في البراري. وتطيب نفسنا إذا بلغنا أنّك حائز مزيد العافية. وإنّنا نسألك قبل كلّ شيءٍ أن تقدّم للّه الصلوات من أجلنا[2].

واعتبر الدويهي أنّ "هذه الرسالة، على قصرها، ناطقة بما كان من شدّة الولاء بين هذَين البارّين، وبأنّ كلاًّ منهما كان يحنو على صديقه ... ويُسرّ الواحد بسلامة الآخر ويهشّ إلى أخباره ويأمل بالفرج من دعائه". ولا يستبعد الدويهي أن يكون "سبب هذه الصداقة هو أنّ يوحنّا وُلد ونشأ بأنطاكية، ولمّا دخل المدارس تعرّف إلى البار مارون،

---

١ ـ الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل القديس يوحنّا فم الذهب المنشورة في مجموعة الآباء اليونان، MIGNI؛ وراجع: DIB PIERRE, *L'EGLISE MARONITE,* 3 VOLS. (BEYROUTH,1962 -1973) 1: 41.

٢ ـ عن: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١٩ ـ ٢٠؛ راجع: نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٥، حيث جاء أنّه بينما "شيفتز وكانيفه" يرتابان في ذلك، فإنّ "تيلامون" لا يرى إلاّ "هذا المارون" الذي يمكن أن ترسل إليه هذه الرسالة. ويورد نعمان عدّة دلائل من شأنها أن تعزّز هذا الاعتبار، أهمّها أنّ القدّيس يوحنّا فم الذهب قد "سبق وعرف مارون، دون شكّ، في سوريا قبل سنة ٣٩٨، وكوّن عنه فكرة سامية، كما يفترض "تيلامون". وأنّ فم الذهب كان يعنى بالحياة الرهبانيّة السوريّة بشكل خاص، وكان يُحسّ إزاءها، في ذلك الوقت بالذات وهو في المنفى، بتوق بالغ؛ فالسيَر التي عالجها توفّر عادة ملخّصًا موفّقًا عن الحياة الرهبانيّة في سوريا. إذا كان مارون هذا سوريًّا، فلا بدّ إلاّ أن يكون مارون "التاريخ الديني".

ووقعت في قلبه محبّتهُ. ولمّا تجرّد يوحنّا لطريقة النسك وسلك السيرة الرهبانيّة مع هذا القدّيس، انتخب اللّه كلاً منهما لما هو أهله. فاسترجع يوحنّا إلى أنطاكية وجعله عمادًا لبيعته وأقامه بها واعظًا معلّمًا، وحفظ البار مارون ناسكًا في القفار ليصيّرها فردوسًا مقدّسًا". كما يضع لأساس تلك المعرفة احتمالاً آخر، و"هو أنّ يوحنّا الطاهر، بعد ارتقائه كرسي البطريركيّة، قدم إلى بلاد سورية ليُنذر بها عبدة الشمس ويدعوهم إلى طاعة الإنجيل، فلعلّه، وقتئذٍ، اجتمع بهذا البارّ ورأى فضل سيرته الإلهيّة، فارتبط معه بالمودّة الروحانيّة"[1].

***

برأينا، أنّ من أبرز الدلائل على أنّ القدّيس مارون الناسك هو أساس "المارونيّة"[2]، أنّ هذه الكنيسة، ما فتئت منذ القدم، في مختلف طقوسها وصلواتها وفي صميم تراثها العريق، تعتبر هذا القدّيس مؤسّسًا لمعتقدها. كما أنّها، بحسب الدويهي، "تذكرُه مرارًا عديدة بتشريف وتبجيل زائد في الصلوات التي يقدّمها الشعب المؤمن. وفي القديم كان الشمامسة، بعد ذكر الرؤساء والقدّيسين في خدمة القدّاس، يمدحون في صلواتهم السريانيّة النسّاك الذين جمّلوا البراري بالسيرة الملائكيّة"[3]. كما أنّ الكهنة، في يوم الأحد، عندما يلحّنون "الحسّاية"[4] في اللحن "الأفراميّ"، وهي المعيّنة للساعة التاسعة،

---

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٠.

٢ - نقول "أساس المارونيّة" ولا نقول "نسبتها"، إذ برأينا أنّ الموارنة منسوبين، ككنيسة، إلى البطريرك الأنطاكي يوحنّا مارون كما سيأتي.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، المرجع السابق، حيث جاء نصّ مديحة سريانيّ تعريبه: ثمّ نذكر أيضًا جميع المتوحّدين الأطهار، الذين بتدابيرهم الحسنة أرضوا اللّه، وقدّموا له التضرّع عن علمة الشعب المؤمن: بَولا، وأنطونيوس الطوبلوي، وبلخوميوس، ومقاريوس، ويوحنّا، وسمعان العمودي، وثاولدوسيوس، ومار مارون الطوباوي، وأرسانيوس، وشمعون، وأغوسطوس، وسوسيوس، وفومان، ودانيال العمودي.

٤ - الحسّاية: تداوين كنسيّة تشرح موضوع الصلاة المعيّنة، والكلمة من أصل سريانيّ "حُسويو" معناها "شرح".

كما هو مقرَّر في نسخة "الشحيم"[١] الذي كتبهُ القس "باخوس"، والكتاب لم يزل باقيًا في مدينة حلب إلى يومنا هذا، عندما يمدحون الآباء الأطهار الذين شرّفوا بيعة اللّه بمسلكهم، يدرجون هذا القدّيس الشريف في عدادهم وينشدون بمدحه قائلين بالسريانيّة ما تعريبه:

ومار مارون الطوباويّ الهيكل الطاهر للروح القدس[٢] الذي تعب بكرم المسيح منذ الصبح إلى المساء[٣].

ويروي الدويهي عن مار مارون أنّه:

كان، في كلّ أمورِه، حافظًا لكرامة رتبته مجلاً لمقامه بكل قداسة ولم يرتضِ أن يكون كغيره عناءً ونصبًا، بل أحبَّ أن يزيد غنى حكمته، فباشر أعمالاً أخرى غريبة. ولعظم اتّقاد نار حبّه لربه، وغيرته على خلاص نفسه، كان يلبس "المسح"[٤] على جسده النحيل. ويقتصر من الغذاء على قليل من الحبوب. ويقيم الصلاة وهو منتصب على الأقدام (قدميه). ويقدّم الأسرار الإلهيّة عن الأحياء والأموات. ويطوف أحيانًا البراري متفقّدًا الإخوة المضنكين بمجاهدة الحياة، والمضغوطين بضيق المحابس، والمجاهدين تحت جوّ السماء، ويحضُّهم جميعًا على احتمال أتعاب الفلسفة الروحانيّة، ويستدعي نشاطهم إلى اكتساب الفضائل ليبلغوا بما يباشرونهُ مقام الكمال. وكان أحيانًا يجول القرى ويتردّد ما بين المدن ويستميل الكفّار والمخالفين ويقودهم ببُرة[٥] الطاعة وزمام الخضوع، ويعظ المؤمنين لمحاربة

---

١ - الشحيم أو الشحيمة: كتاب صلاة كنسي يختصّ بصلوات الإكليريكيّين، والكلمة من أصل سريانيّ لها معنيان: "البسيط" و"السواد".

٢ - قال الدويهي: تلقّبه (مارون) البيعة بهيكل روح القدس وذلك لأن الرب قدّوس والقدّوس لا يستريح إلاّ في القدّيسين.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢١.

٤ - المسح: جمعها أمسَاح ومُسوح: الكساء من شعر، ما يُلبس من نسيج الشعر على البدن تقشّفًا وقهرًا للجسد.

٥ - البُرَة: جمعها بُرى وبُرات وبُرين، يقال: "أعطته الدنيا بُرتها" أي تمكّن فيها وحظي بها. ولعلّ المقصود هنا تمكّنه من فرض الطاعة.

الرذائل وموالاة الفضائل، ويدعو الموسرين إلى الرحمة ولاسيما الذين أعرضوا عن الدنيا وشهواتها وأقبلوا على السيرة الملائكيّة. فانطوت لذلك قلوب الجميع على حبّه، وكانوا ينقادون لكلام الحياة الذي كان يفوه به وهو هشّ بشّ. والإله الجوّاد قد أفاض عليه عطاياه وأجزل مواهبهُ حتّى غدا شبيهًا بالرسل الأطهار، من حيث أنّه كان بمجرّد وضع اليد والصلاة، يشفي الأدناف[1] ويبرئ المتخبّطين من الشيطان[2].

وفي لمحة تاريخيّة مقتضبة عن الموارنة لعميد كليّة اللاهوت في جامعة الروح القدس، وحافظ المكتبة البطريركيّة المارونيّة، الأب د. بولس صفير[3]، جاء:

يُجمع المؤرّخون الثقات[4] على أنّ الموارنة هم، في امتداد جذورهم التاريخيّة، من الكنعانيّين والآراميّين الذين دانوا بالعقيدة المسيحية منذ الأجيال الأولى للنصرانيّة، وانتسبوا إلى القدّيس مارون الناسك كأب روحيّ، بعد أن اعتنق القسم الأكبر منهم الدين المسيحيّ على يده ويد تلامذته النسّاك الأقدمين. وقد عاش القدّيس مارون فوق قمّة جبل قورش من جبل سورية الثانية في النصف الأخير من القرن الرابع، وتوفّي برائحة القداسة حوالى سنة ٤١٠.

---

١ ـ الدنف: جمعها أدناف، المرض الثقيل الملازم، والمريض الذي لزمه المرض.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢١.

٣ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٩٩.

٤ ـ راجع الدويهي البطريرك إسطفانوس، تاريخ الطائفة المارونية، نشرة رشيد الخوري الشرتوني (بيروت،١٨٩٠)؛ الدويهي البطريرك إسطفانوس، تاريخ الأزمنة، نشر الأب فردينان توتل اليسوعي (١٩٥٠)، ونشر الأباتي بطرس فهد (الكريم،١٩٧٦)؛ الدبس المطران يوسف، الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل، تقديم الأب ميشال الحايك، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٧)؛ دريان المطران يوسف، لباب البراهين الجليّة عن حقيقة أمر الطائفة المارونية (١٩١١)؛ ضو الأب بطرس، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، ظهر منه ستة أجزاء (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠)، ثمّ ظهر جزء باللغة الانكليزية (١٩٨٤)، وترجمته باللغة الفرنسية (١٩٨٥)؛ ضوميط المطران ميخائيل، الموارنة (بيروت، ١٩٥٥؛ البستاني فؤاد افرام، مار مارون (بيروت، ١٩٦٥)؛ الصليبي د. كمال سليمان، الموارنة ـ صورة تاريخيّة، ملف النهار (بيروت،١٩٦٩)، منطلق تاريخ لبنان (بيروت،١٩٧٩)؛ نعمان الأب بولس، المارونيّة بين الدين والدولة، رأي في نزاع الشرق الأوسط (الكسليك ـ لبنان،١٩٧٠)؛ DIB P., *HISTOIRE DE L'EGLISE MARONITE*, 3 VOLS. (BEYROUTH,1962 -1973).

تَلاَميذ مَار مَارُون وتلمِيذاته

لم يكن لمار مارون، في خلال حياته، إلاّ تلاميذ "الهواء الطلق"[1]. وقد استند الباحثون إلى مؤلّف ثيودوريتُس: "التاريخ الدينيّ"[2]، لمعرفة التلامذة الأوائل لمار مارون. وأجمع القدماء والمحدثون منهم على أنّ أشهر التلاميذ الذين عاصروا مار مارون، اثنان: "يعقوب" المعروف بالقدّيس يعقوب الكبير القورشيّ، و"ليمناوس". واعتبر الدويهي أنّ الذين اتبّعوا طريقة البارّ مارون في التنسّك بالعراء إنّما هم جميعًا تلاميذ مار مارون أو مشايعوه في طريقته أو متابعوه في سيرة تلاميذه. وأشار إلى أنّ عدد تلاميذه الذين ذكر بعضَهم ثيودوريتُس في "التاريخ الدينيّ" يكاد لا يحدّ لكثرتهم، لأنّهم كانوا منبثّين في بلاد قورش ما بين الجبال والمدن والقرى المحيطة بها. والبعض من تلاميذه ماتوا قبل معلّمهم والبعض استمرّوا في الحياة بعده[3].

كان يعقوب ناسكًا وشّحه بالثوب الرهباني للمرّة الأولى الناسك المعاصر لمارون: زابيناس[4]. وجاء عن يعقوب أنّه "آثر في عامّة أموره أن يتتلمذ للقدّيس مارون، حتّى احتشد كل فضيلة شريفة... وربّما زاد عليهِ نسكًا وقشفًا"[5]. ويروي الدويهي نقلاً عن

---

١ ـ نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٩.

٢ ـ ذكر نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٩، أنّ ثيودوريتس هو المرجع الوحيد الذي يتكلّم عن مارون وتلامذته.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٢ ـ ٢٣؛ حول هذا الموضوع راجع: نعمان، مرجع سابق، المارونيّة لاهوت وحياة، ص٦٧ ـ ٧٢.

٤ ـ زابيناس: كاهن ناسك معاصر لمارون وصديق له، ذكره ثيودوريتس في تاريخه، أوصى مارون تلاميذه بأن يدفنوه بجوار زابيناس لكنّ تعلّق الناس برفاته منع تلاميذه من إتمام وصيّته؛ راجع نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٧ ـ ٦٨.

٥ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٣.

ثيودريتُس أنّ "يعقوب حبس نفسه أوّلاً بمكان ضنك، ثمّ تحوّل من هناك إلى جبل بعيد عن المدينة، حيث مكث في العراء، وأشاع لذلك الجبل الخامل الذكر سمعةً وكرامةً عظيمتَين، حتّى بلغ من شرفه أنّ ترابه صار يؤخذ هديّة إلى البلاد البعيدة تبرّكًا وطلبًا للشفاء. ولمّا اتّخذه يعقوب مسكنًا، لم يشأ أن يقيم فيه تحت سقفٍ أو داخل حظيرةٍ أو خيمة، بل اتّخذ فيه موضعًا قفرًا وأخذ يتجلّد على اختلاف الصقيع والحرّ ليلاً ونهارًا. ويلبس الحديد الثقيل على جسده. ويستعمل القليل من العدس المبلول غذاءً. وحين قصده ثيودريتُس* كان قد مضى عليهِ في ذلك الجهاد نحو ثمان وثلاثين سنة، فرأى منه ما يدهش العقل عجبًا، وكان قد حظيَ من قبَل اللّه بالنعمة الوافرة وأُكرم بصنيع الآيات والمعجزات... وصار مثلاً صالحًا يقتدي به كثيرون ممّن صنعوا مكرمات عديدة[١]. وقد أخذ الناس ثيابه، تبرّكًا، قبل أن يلفظ أنفاسه[٢] الأخيرة. ثمّ انتقل إلى الرب بسلام. وموقع تذكاره في ٢٠ من شباط (فبراير)[٣].

أمّا التلميذ الشهير الآخر من تلامذة مار مارون الأوائل: ليمناوُس، وهو أيضًا قدّيس، فقد جاء عنه أنّه بدأ تلميذًا لـ"تالاسيوس" الذي بنى "أساتيكُون" على تلّة مجاورة لـ"تيلاما"، ثمّ قصد بعد ذلك مارون حيث وجد زميلاً له يُدعى يعقوب. وتوجّه إلى قمّة أخرى تشرف على قرية "تارغالا"[٤] حيث أوى إلى حظيرة من دون سقف، يحوطها جدار صغير من حجارة غير متماسكة بالكلس. فترك للسور بابًا كان دومًا مطليًا

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤.

٢ ـ راجع: نعمان، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٣، ٦٧ ـ ٦٨، ٨٥، ٨٩، ٩٦، ١١٦، ١٤٠ ـ ١٤١، ١٥٤.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤؛ ولاحظ الدويهي هنا "أنّ الآباء الذين عُنُوا بذكر قصص القديسين وتراجمهم كتبوا أوّلاً سيرة البار مارون في شباط (فبراير) ثم أثبتوا سير تلاميذه بعده في الشهر نفسهِ وفي الشهر الذي يليه، وقد أرادوا بذلك أنه كما تقدّمهم في الدعوة والزمان ينبغي لهُ أن يتقدّمهم في الرتبة والمكان".

٤ ـ هكذا أوردها نعمان، بينما عرّبها الدويهي باسم "جرجلة".

بالصلصال، لم يكن يفتحه قطّ للزوّار. وقد جمع ليمناوس جمهورًا من العميان، اضطرّوا إلى التسول، فبنى لهم ملاجئ إلى كلّ جانب من محبسته شرقًا وغربًا، وفرض عليهم أن يقطنوا فيها ويمجّدوا الله...وانزوى معهم يحثّهم دون انقطاع على إنشاد المزامير والتسبيحات للربّ[1]. وكان ليمناوس يخاطب الواردين إليه من خلال "كوّة في الجدار، ويعزّيهم عن أحزانهم، فبجّله الله أخيرًا بهبة المعجزات الفائقة، حتّى إنّه ضاهى الرسل بآياته لكونه كان يشفي كلّ مرض". ونقل الدويهي عن ثيودريتُس ما يقشعرّ له البدن عن صبر ليمناوُس على ما عانى من أمراض وتعرّض لنهش الوحوش الضارية. وختم بأنّ يوم تذكاره محدّد في الثاني والعشرين من شباط (فبراير)[2].

ومن الذين اعتُبروا من التلاميذ المبكّرين لمار مارون: يوحنّا الناسك، الذي كان لا يزال حيًّا لمّا زار ثيودريتُس جبل النسّاك، فروى عنه أنّه أقام أوّلاً في ذلك الجبل، ثمّ انتقل إلى كهف إلى جهة الجنوب وأقام به خمسة وتسعين يومًا صابرًا على تقلب الصيف والشتاء. انتقل بعدها إلى جبل يلي الشمال، وأقام به خمسًا وعشرين سنة في العراء، وكان طعامه خبزًا وملحًا، ولباسه مسحًا شَعريًّا مسمَّرة به صفائح حديد ثقيلة. وكان شفوقًا على الناس لا على ذاته. وكان أحد أصدقائه غرس له شجرة لوز بالقرب من مرقده، فعندما طالت وغلظت أمر باستئصالها لئلاً يتمتّع بظلّها يسيرًا[3]. كما تحدّث ثيودريتُس عن "موسى الرابض على قمّة تشرف على قرية راما"[4]. وأنطيوخُس

---

١ ـ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٣ و٧٠.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤؛ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٣، ٦٦ ـ ٦٨، ٧٠ ـ ٧١.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٥.

٤ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٧؛ قابل: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٥، حيث ترجم إسم القرية إلى "راماص"

العجوز الذي يقاوم، رغم ضعفه، ببطولة توازي بطولة الشبّان[1]. وقد ذكر الدويهي مع "أنطيوخُس"، "أنطونينُس"، ووصفهما بالمجاهدَين اللذَين اختارا السيرة النسكيّة وهما على حدّ من سنّ الشيخوخة، فأحدهما شاد له جدارًا صغيرًا في بهرة الصخرة، وثانيهما ارتقى جبلاً شامخًا. وكانا عاكفَيْن على الصلاة والسهر ومنتصبَين على أقدامهما ليلاً ونهارًا، صابرَين على الجوع وقلّة القوت. وحدّد الدويهي تواريخ ذكر هؤلاء الأربعة: يوحنّا وموسى وأنطيوخُس وأنطونينُس، في الثالث والعشرين من شهر شباط (فبراير). وأضاف أنّ من مثل هؤلاء كثيرون ممّن خدموا ربّهم تحت جوّ السماء، حسبما روى ثيودريتُس في العدد الثالث والعشرين حيث قال: إنّ أبطالاً آخرين كثيرين غير هؤلاء عكفوا على الجهاد في البراري والصحاري ولم يتيسّر لنا أن نكتب ترجمة واحد فواحد منهم[2].

وإضافة إلى زابيناس الذي جئنا على ذكره سابقًا، وهو الذي كان معاصرًا وصديقًا لمار مارون[3]، والذي يقول فيه كتاب "المروج" في الثالث والعشرين من شباط ما مؤدّاه: أنّ هذا البارّ قد بنى له مسكنًا في بعض الجبال الشاهقة ليروّض ذاته بالأتعاب النسكيّة إلى حدّ انتهاء الشيخوخة، من غير أن يهمل شيئًا من الثبات والمداومة على الصلاة المتّصلة. والذين كانوا يزورونه كان يخاطبهم برفق وقتًا يسيرًا، ثمّ يرتدّ إلى صلاته عاكفًا على خطاب الباري تعالى. ولمّا أضناه الكبر والضعف وعجز عن الوقوف أخذ يتوكّأ على عصًا. وكان مار مارون يحبّ زابيناس حبًّا شديدًا ويوقّره لسنّه وطهارته، ويدعوه أبًا ومعلمًا، وقدوة الفضائل، ويرسل الذين كانوا يقصدونه إليه

---

١ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٧.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٥.

٣ ـ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٨.

ليستمدّوا منه البركة. حتّى إنّه أرسل إليه تلميذه يعقوب ليلبس من يده اللباس الشعريّ. ولهذا أوصى تلاميذه أن يدفنوه من بعد موته في قبر زابيناس. وخلف زابيناس من بعده تلاميذ أشهرهم "بوليكرونيوس"[1] و"موسى" و"دميانُس"[2] الواقع تذكارهم مع معلّمهم في الثالث والعشرين من شباط (فبراير)[3]. وهناك ذكر ليعقوب آخر، انقطع للنسك بقرب قرية "سوزان" وهو ابن تسعين سنة، فتجرَّد عن الدنيا تجرّدًا حقيقيًا وزهد في مخالطة الناس ومعاشرتهم، ولم يكن يستعمل نارًا ولا مصباحًا، ولم يدع أحدًا يراه أصلاً، ومَن قصده كان يخاطبه من وراء جدار محبسته. وروى ثيودريتُس عن أنّ آخرين كثيرين اختاروا أن يتشبّهوا بمَن سبق ذكرهم... "ليس في مدينتنا فقط، بل في كلّ مدينة وقرية تليها. وهناك آخرون مثل البارّ سمعان العمودي* وغيره، تركوا مواطنهم وآثروا المسكنة النسكيّة والعيشة القشفة في ذروة الجبل العجيب، وفي نواحي قورش، إقتداءً بسيرة البارّ مارون وتلاميذه"[4].

وما يُدهشُنا في هذا المجال، أنّ "هذا الأسلوب في الحياة النسكيّة، لم يمارسه الرجال وحدهم. إذ كان ثمّة أيضًا، في القورشيّة، حركة رهبانيّة نسائيّة. وقد اكتفى أسقف قورش ثيودريتُس، بكتابة حياة الراهبة القدّيسة الرائعة "دومنينا"، نظيرة مارون، التي لم تنفكّ تسكب دموعًا على خطاياها: ثيودريتُس بذاته مسح لها دموعها، وذكر

---

١ ـ ممّا سجّله ثيودريتُس عن بوليكرونيوس أنّه جمع فضائل زابيناس باستقصاء بليغ، ومن يراهُ قائمًا ما طال ليلةً متجهّدًا في صلاته مرتفعًا إلى الله لاهجًا بالإلهيّات كان يحكم أنّهُ يشاهد زابيناس نفسه، ولهربه من المجد الفارغ نزع عن جسده ما كان يثقله من الحديد، واعتضد أصل شجر ضخمة كان يلقيه على منكبه ليلاً ونهارًا في صلاته إلى أن يقرع باب قلاّيته طارق فيطرحهُ حينئذٍ عنه. ونسبت إليه مكرمات منها أنّه دفع الجدب والغلاء بصلاته، وصيّر خابية تفيض زيتًا.

٢ ـ نقل الدويهي عن ثيودريتُس قوله في "موسى البار" و"دميانوس" أنّهما اقتصّا فضائل الاب بوليكرونيوس واقتديا بسيرته حتّى كأنّهما لبسا جسمه وانتعشا بروحه ونسك على القرب منهما البار "اسكلابيوس".

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٦ ـ ٢٧.

٤ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٧.

عنها أنّها عزمت على أن تقتفي حياة مارون، فبنت كوخًا صغيرًا من القشّ في بستان والدتها...، وأظهرت ذاتها أمام عيون الناس جميعًا، رجالاً ونساءً، دون أن تنظر هي إلى وجه أحد، أو تدع أحدًا يشاهد وجهها، إذ إنّ ثوبها كان يسترها بكليّتها، وهي منحنية باستمرار حتّى ركبتيها...ويقول ثيودريتُس: هي ساعدت، بكامل قدرتها، جنود يسوع المسيح هؤلاء الشجعان، الذين تحدّثتُ عنهم سابقًا، وكثيرين آخرين لم آتِ على ذكرهم إطلاقًا"[1]. ذلك أنّ دومنينا كانت ابنة والدَين حسيبَيْن موسرَين، وقد تنسّكت بعد وفاتهما، وكانت تنفق من مال أمّها وإخوتها على هؤلاء الأبرار. وموقع تذكارها في اليوم الأول من شهر آذار (مارس)[2].

إقتفت نساء كثيرات أعمال دومنينا، وأعمال راهبتَين هما: "مارانا" و"كيرا"[3] اللتَين كانتا تتمرّسان أيضًا، بهذا الأسلوب الحياتيّ نفسه، في منطقة "بيريه" في حلب[4]. وقد أحبّ بعضهنّ سيرة الوحدة، وبعضهنّ العيشة المشتركة، وقد "نمت شركتهنّ نماءً كثيرًا حتّى بلغ عددهنّ، في بعض الأماكن، نحو مئتَين وخمسين، كما روى ثيودريتُس الذي أوضح أنهنّ كُنّ جميعًا يُطعَمنَ طعامًا واحدًا، ويرقُدْنَ على الحُصر، حسب ما تسلّمنَ من معلمهنّ، ويغزلنَ الكتّان وأفواهنّ تترنّم بالتمجيدات الإلهيّة[5].

---

١ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٨.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٧.

٣ ـ مارانا وكيرا: ويذكرهما الدويهي باسمَي "كورة" و"ماريانة"، قديستان من عائلة شريفة من مدينة حلب، كان منزلهما معروفًا بدار كورة، زهدتا في الدنيا وبنتا لهما بيتًا ضيقًا بلا نافذة، ما خلا كوّة صغيرة تتناولان منها القوت الضروريّ وتخاطبان من يقصدهما. وكانتا تصمتان طوال أيّام السنة ما عدا الخمسين يومًا التي تلي عيد الفصح. وتلبسان الشعر الخشن. وتتثقّلان بالحديد. ولا تتناولان طعامًا الاّ مرّة في كلّ أربعين يومًا. ودامتا على ذلك ثلاث سنوات. حجّتا إلى القبر المقدّس سيرًا على الأقدام من غير أن تذوقا طعامًا لا في الذهاب ولا في الإياب رغم طول مسافة السفر، وهكذا فعلتا عند زيارتهما هيكل القدّيسة تقلا الذي كان في بلاد تراكية". أمّا تذكارهما ففي اليوم الأول من شهر آذار (مارس).

٤ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٨.

٥ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٧.

دَير مَارُون

يورد الأباتي نعمان منطلقًا منهجيًّا للبحث في موضوع "دير مارون" مفاده: أنّه حتّى سنة ٤٤٩، وهو التاريخ المطروح كحدّ لتأليف "التاريخ الدينيّ" لأسقف قورش: ثيودريتُس، لم يكن هناك دير واحد يحمل اسم مارون أو يتبع نهجه. لم يوجد ثمّة سوى معبد فيه بقايا القدّيس المكرّمة[1]. وهناك وثيقة واحدة تحمل تاريخًا محدّدًا عن إنشاء دير مارون، هي وثيقة المؤرّخ العربيّ أبو الفداء (١٢٧٣ ـ ١٣٣١) الذي يوضّح في كتابه "التاريخ العام" أنّ الأمبراطور مرقيانُس (٤٥١ ـ ٤٥٧) عمل على تشييد دير مارون في حمص[2]. ويُعتبر أبو الفداء، حتّى الآن، الأوّل الوحيد بين المؤرّخين العرب الذي ردّ تأسيس هذا الدير إلى القرن الخامس. الآخرون جميعًا، وبينهم مَن كانوا له المراجع الأكثر شهرة، مثل "إبن الأثير" و"المسعودي"[3]، يُرجعون أصل هذا الدير إلى عصر موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢). أبو الفداء، في حديثه عن موريس، يهمل قطعًا هذه

---

١ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٦٨، بالاستناد إلى ثيودريتُس، التاريخ الديني، ١٦: ١٤٢٠.

٢ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٣، وقد أورد هنا الحاشية التالية: أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، منشورات دار الكتاب اللبناني (بيروت،١٩٦٠) ١: ٨١؛ مؤرّخ عربي آخر: عمر بن الوردي (١٣٤٩) يشير إلى بناء الدير من قبل الأمبراطور مرقيانُس، بيد أنّ تاريخ إبن الوردي ليس إلاّ مكمّلاً للتاريخ العام لأبو الفداء كما يصرّح بذلك ابن الوردي نفسه.

٣ ـ يورد هنا نعمان الحاشية التالية: المسعودي (أبو الحسن علي): ولد في بغداد، لقّب بالمسعودي لأنّ أحد جدوده من سكّان مكّة كان يدعى مسعود، وابنه رافق النبيّ إلى المدينة، توفّي في القاهرة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦م. له عدّة مؤلّفات أهمّها: مروج الذهب: ألّفه بين ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣م.، و٣٣٦ هـ/ ٩٤٧م. أصدره بالإنكليزيّة م. سبرينجر في ١٨٤١: "المسعودي، الموسوعة التاريخيّة أو مروج الذهب"؛ وكتاب التنبيه، وهو مجموعة ملاحظات حول التاريخ والجغرافيا والعقائد الفلسفيّة، ويُعتبر آخر كتاب للمؤلّف، يحمل تاريخ سنة وفاته: ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦م.

الوقائع التي تسردها مراجعه[١]. في عمله هذا، يتوافق أبو الفداء مع التقليد المارونيّ الذي يقرن بين الناسك الذي يتحدّث عنه "التاريخ الدينيّ" لثيودوريتُس، وبين شفيع هذا الدير الذي يُعتبر مهدًا للكنيسة الأنطاكيّة المارونيّة. كما يتوافق مع الوثائق العديدة القديمة والصحيحة التي تتكلّم على دير مارون وتعيّن بناءه قبل زمن يسبق كثيرًا حكم موريس[٢]. وبعد نقد منهجيّ موثّق، يخلص الأباتي نعمان إلى التالي:

> ما من مجازفة، إذن، في أن نعتبر صحيحًا أنّ دير مارون قرب أفاميا[٣]، الذي سيصبح لاحقًا مقرًّا عامًّا للخلقيدونيّين في القرنين السادس والسابع، بُني بأمر من الأمبراطور مرقيانُس في سنة ٤٥٢، أعني على أثر مجمع خلقيدونيا وفي الوقت الذي أصدر فيه الأمبراطور قانونًا صارمًا جدًّا ضدّ رهبان "أوطيخا"[٤] وأتباعه، في ٢٨ تمّوز (يوليو) سنة ٤٥٢[٥].

---

١ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٩ ـ ١٠، وقد أورد هنا الحاشية التالية: الكامل في التاريخ أو تاريخ ابن الأثير، المجلّد ١٢ (بريل،١٨٦٧) يبدأ في خلق العالم وينتهي في سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠م.؛ يجب أن نلاحظ أنّ ابن الأثير شأنه شأن الطبري، يرجع ظهور مارون الذي يُنسب إليه الموارنة إلى عهد الأمبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢)، وهذا "خطأ اعترف به المؤرّخون الذين لا يمكن أن نرتاب بتملّقهم ومجاملتهم للقضيّة المارونيّة"؛ راجع: ديب المطران بطرس، تاريخ الكنيسة المارونيّة (بيروت،١٩٦٢) ص٤٥ ـ ٤٦؛ فالهي ب. س.، الكنيسة المارونيّة من القرن الخامس حتّى القرن التاسع، في "أصداء الشرق" ١٩٠٦، مجلد ٤، ص٢٦١ ـ ٢٦٦.

٢ الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص١٠.

قاض مدينة قديمة في سوريا على بعد ٤٥ كلم من حمص، دعيت في البدء "فرانكه" ثمّ "بيلاّ"، وسّعها سلوقس نيكاتور وسماها "أفاميا" باسم زوجته الفارسيّة، كانت مركزًا سلوقيًا هامًّا، احتلّها الرومان ٦٤ ق.م. ثمّ أضحت كرسيًا أسقفيًا في العهد البيزنطي، احتلّها كسرى الأوّل ٥٤٠، استولى عليها الصليبيّون، استرجعها نور الدين زنكي ١١٣٩، بالقرب منها قلعة المضيق التاريخيّة.

٤ ـ أوطيخا EUTYCHÈS (٣٨٨ ـ بعد ٤٥٤): راهب يوناني عاش في القسطنطينيّة، قال بوحدة الطبيعة في المسيح، حرمه المجمع الخلقيدوني ٤٥١؛ راجع الجزءين الثامن والتاسع من هذه الموسوعة.

٥ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٢٢، ويورد هنا: مانسي، مجلّد ٧، عمود ٥٠٢؛ هاردوين، مجلّد ٢، عمود ٦٧٥؛ ديب المطران بطرس، تاريخ الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٧٠؛ راجع أيضًا: صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.

ويذهب الدويهي[1] إلى أنّ "الهيكل الذي بناه أهل حماة على جثمان مارون بعد أن اختطفوه ونقلوه إلى بلادهم تبركًا، وعيّنوا له كلّ عام عيدًا يعيّدونه بكامل البهجة والإحتفال في اليوم الرابع عشر من شهر شباط (فبراير)[2]. هذا الهيكل، قد ابتناه أهل حماة على النهر العاصي، بين حمص وحماة، وآل أمرُه أخيرًا إلى أن صار ديرًا معظّمًا، وحاز التقدُّم على جميع الأديار التي في بلاد سورية الثانية[3].

وقد تبيّن الدويهي، من الرسائل التي رفعها، سنة ٥٣٦، "مريان" رئيس دير القديس "دلماط" وباقي الأديار في المدينة المتملّكة إلى "يُستينيان" ملك الروم و"منًّا" بطريرك القسطنطينيّة بالنيابة عن سائر الرهبان الذين قدموا من أصقاع الشام ليتشكّوا على "ساويرُس" المبتدع المتغلّب على كرسي أنطاكية، أنّه كان في برّ القسطنطينية دير مشيَّد على اسم القديس مارون، وأنّ رئيسه حضر المجمع الخامس المسكونيّ[4]، وكتب اسمه في الرسائل المذكورة هكذا: ثاودور برحمة اللّه القسّ ورئيس دير القدّيس مارون[5]. وهناك، في الواقع، عدّة أديار قد بُنيت في المنطقة في خلال تلك الحقبة، استعرضنا جلّها في الجزء الثامن من هذه الموسوعة[6]. وتحدّث الدويهي عن دير قديم

---

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٩.

٢ - سوف يتقرّر نقل العيد مرارًا إلى مواعيد أخرى من قبل الكنيسة المارونيّة. راجع فصل البطريرك يوحنّا مارون لاحقًا في هذا الكتاب.

٣ - سورية الثانية: بحسب التقسيم الإداري الروماني، كانت تضمّ أفاميا وحماه وأريتوزا وبالانيا وسالوكوبالوس ورافانيا، وحدّدها جغرافيّون بأنّها كانت تضمّ بلاد حماة وحمص من فوق أنطاكية وفيليقية؛ أمّا سورية الأولى فكانت تمتدّ من عريش مصر إلى نهر دجلة.

٤ - المجمع الخامس: هو مجمع القسطنطينيّة الثاني الذي عقد سنة ٥٥٣ وحرّم "الكتبة الثلاثة".

٥ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٩ - ٣٠.

٦ - راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة، الفصلُ الخامِس، نشوء الرهبانيّات.

آخر على اسم القديس مارون، قرب مدينة دمشق الشام، فوق نهر يزيد، وقال: "استدللنا برسومه وأطلاله الماثلة إلى اليوم على عظمه وشرفه. وهذا الدير قد ذكره ابن الحريري المؤرّخ في ما كتبه عن الملك الحاكم بأمر اللّه ودولته سنة ٣٨٦ الهجريَّة الموافقة لسنة ٩٩٥ للمسيح قال: إنّ الملك كان ينزل بمكان يُقال له "الدكَّة" بين نهر يزيد و"تورا" وقيل هي فوق نهر يزيد قرب دير مارون[١].

رُهبان دَير مَارُون

خَلقِيدونِيّــــون

إثر بناء دير مارون في أفاميا على ضفاف العاصي، أصبح محجًا لأهل حمص وحماة، وازدهر "عدد الناس الذين يزورونه ويتبرّعون عليه بالأوقاف والنذور، فصار بمدّة وجيزة، ديرًا معظّمًا، حتّى بلغ عدد رهبانه ثمانمئة راهب، كما يُعرف ذلك من الاطّلاع على رسائلهم ومن عدد القدّيسين الذين استُشهدوا فيه. وكان يُسمّى دير القدّيس مارون على اسم صاحبه. ويُسمّى أيضًا "دير البلّور" لجمال بنائه[٢]. و"دير سورية على الإطلاق"، لأنّ له الرئاسة على ديورة ورهبان بلاد سورية بأسرها[٣]. وانضوى عدد وافٍ من المؤمنين المسيحيّين المجاورين للدير وغيرهم من بقايا

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠.

٢ ـ راجع: مسعد البطريرك بولس، الدرّ المنظوم، مرجع سابق، ص١٣١.

٣ ـ ذكر نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٥٢، أنّ مندوب دير مارون في مجمع سنة ٥٣٦ كان يمثّل الأديار الأخرى في سوريا الثانية، ويذيّل بتوقيعه على الشكل التالي: "بولس... رسول الملك في دير الطوباوي مارون، إكسرخس أديار سوريا الثانية". علمًا بأنّ عبارة "إكسرخس الأديار" تعني أنّ لهذا الدير سلطة على الأديار الأخرى، وكانت مثل هذه السلطة معطاة لدير "دلماطا" في القسطنطينيّة؛ أمّا الدويهي فترجم ذيل التوقيع على الشكل التالي: "بولس الشماس برحمة اللّه سفير القديس مارون المقدّم على جميع الأديار الموقّرة في سورية الثانية والمتكلّم عن جميع رؤساء الأديار التي في سورية المذكورة"؛ وترجم توقيعًا آخر لمندوب دير مارون على الشكل التالي: "يوحنّا برحمة اللّه القسّيس الراهب سفير دير القديس مارون المترئس على جميع الديورة والرهبان المكرّمين في سوريّة الثانية والمتكلّم عن جميع رؤساء الاديار والرهبان الذين في سورية".

الشعوب المسيحيّة القديمة المنتشرة في أنحاء سورية الثانية وفي مناطق أخرى، تحت لواء المعتقد الكاثوليكيّ الخلقيدونيّ، واستناروا بتعاليم رهبانه في ممارسة شعائر إيمانهم وديانتهم المسيحيّة، وكانوا يلوذون بحمايتهم العقائديّة والقوميّة كلّما تعرّضوا لهزّات الاضطهاد ومناوأة الأعداء. ومع توالي الأيام، سُمّي هؤلاء المسيحيّون "موارنة" نسبة إلى دير مار مارون وسكّانه، وكان معظمهم يقطن الأرياف حيث توجد مساحات زراعيّة شاسعة، وكانت اللغة السريانيّة، وهي فصحى اللغة الآراميّة، لغة الطقس الكنسيّ عندهم[1]. وأقاموا، حينئذٍ، أماكن للحياة المشتركة، ومحابس لفلسفة المتوحّدين، ومدارس لمطالعة العلوم، ومنازل لإيواء الغرباء، وحقولاً ومزارع لتقوم بمعيشة النسّاك والزوّار. وكان رهبانه يتبارون في السيرة النسكيّة وتحصيل الفضائل وتلاوة الكتب الإلهيّة، ويجادلون أصحاب الآراء الفاسدة والمعتقدات المرذولة من بيعة اللّه". وبعد أن يسهب الدويهي في التعريف بـ"نسطوريوس"[2] وبدعته، ينتقل إلى التعريف ببدعة أوطيخا*، ليشرح ماجريات المجمع الخلقيدونيّ الذي حرّم بدعتَي نسطوريوس وأوطيخا سنة ٤٥١، وليخلص إلى أنّ "بطرس القصّار" الذي "تغلّب على الكرسي الأنطاكيّ، قد أبدع قولاً جديدًا وزاد "رابوعًا" على التقديسات الثلاثة بقوله: "قدّوس اللّه، قدّوس القويّ، قدّوس الذي لا يموت، قدّوس الذي صُلب لأجلنا، إرحمنا". وكان قصده بذلك أن يعتقد المؤمنون إمّا بتألّم الطبع الإلهيّ وموته، وإمّا بوجود أقنومَين في المسيح، أحدهما قويّ والآخر ضعيف، وهو الذي صُلب ومات. ولمّا شاءَ أن ينشر بدعته في بلاد سورية، وجّه نحو حماة رجلاً رديء الاعتقاد، يُدعى "يوحنّا"، لكي يكون مدبّرًا لكرسيهما. فلمّا وصل إلى حماة واتّصل خبره برهبان دير مارون، اتّفقوا جميعًا على

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٠ ـ ٣٠١؛ راجع: الصليبي د. كمال سليمان، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص٣٦.

٢ ـ راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

أن يمنعوا يوحنّا القائل بمقالة القصّار عن الدخول إلى بلادهم، فطردوه وأمروا بأن ترتّل التقديسات الثلاثة على وفق ما تسلّموها من الآباء الأوّلين، وأمروا أيضًا بوجوب كرامة المجمع الخلقيدونيّ نظير مجامع نيقية وقسطنطينيّة وأفسس[1]. ولا تدع المراجعات مجالاً للشكّ في أنّ رهبان دير مارون على العاصي كانوا خلقيدونيّي المعتقد، ومناهضين أو حتّى معادين لمعتقدات أنصار الطبيعة الواحدة[2]. وفي مخطوط سريانيّ قيّم محفوظ في المتحف البريطانيّ، يحتوي على رسائل تبودلت إثر نقاش علميّ حصل في أنطاكية بين رهبان بيت مارون، الذين يمثّلون الفئة الخلقيدونيّة، ورهبان بيت "أرباز"، الذين يمثّلون الفئة اللاّخلقيدونيّة، اكتشفه العالم البريطانيّ FRANÇOIS NAU[3]، جاء في رسالة للاّخلقيدونيّين أنّ: "رهبان بيت مارون المقيمين في نطاق أفاميا هم غرسة الكرمة الخلقيدونيّة ونصبة لاون بابا روما، وفرع المرارة الذي نبت من الكرمة التي غرسها "ثيودوريه" أسقف قورش، وبكلمة، إنّهم أبناء الإنشقاق الكبير الذي حصل في الكنيسة سنة ٤٥١. وإنّهم هم (أي أصحاب الطبيعة الواحدة) قد استطاعوا التخلّص من الأحمق أوطيخا، بينما الموارنة لم يستطيعوا التخلّص من تأثير ثيودوريه ولاون. وقد وصف بعض الباحثين "دير بيت مارون بأنّه كان القلعة الوطيدة للعقيدة المسيحيّة حسب التحديد الخلقيدونيّ"[4].

---

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٢ - ٣٣.

٢ - راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٥٠.

٣ - NAU FRANÇOIS, *LES MARONITES INQUISITEURS...*, DANS: *BULLETIN DE L'ASSOCIATION DE SAINT LOUIS DES MARONITES*, N.97(JANVIER, 1903).

٤ - نعمان الأب بولس، المارونية بين الدين والدولة، رأي في نزاع الشرق الأوسط (الكسليك،١٩٧٠) ص١١١؛ VOOBUS A., *HISTORY OF ASCETICISM IN THE SYRIAN ORIENT*, T.II, *EARLY MONASTICISM IN MESOPOTAMIA AND SYRIA*, SCO, CXCVII, SUBS., T.XVII (LOUVAIN.1960)

ومن أسطع البراهين على "خلقيدونيّة" رهبان دير مارون، ما أكّدته وثيقة تعود إلى القرن الثامن، اكتُشفت حديثًا نسبيًا[1]، وهي محفوظة في المتحف البريطانيّ، هي كناية عن رسالة لرهبان "بيت مارون" موجّهة إلى "اليعاقبة"، على أثر مؤتمر أنطاكية، مع جواب من هؤلاء. تتضمّن رسالة الموارنة سلسلة من الأسئلة ذات منحى خلقيدونيّ، أو بالأحرى خلقيدونيّ محدث. يطلب فيها المحرّرون جوابًا "وفقًا للملافنة المختارين والقدّيسين، الذين لا خلاف حولهم بيننا وبينكم، ولا بالنسبة إلى أيّ مسيحيّ"[2]. هذه الوثيقة تبيّن أنّه في مجمع عقد في أنطاكية نحو سنة ٥٩٢، بين الفريق "الأرثوذكسيّ" و"أتباع بطرس الكالينيسيّ" البطريرك اليعقوبي ٥٧٨ ـ ٥٩١، كان رهبان بيت مارون، مناصرو مجمع خلقيدونية، يمثّلون "الفريق الأرثوذكسي". وكان ديرهم يتمتّع بتفوّق لا جدال فيه على الأديار الأخرى في سورية الثانية[3].

يتّضح من كلّ ذلك أنّ رهبان مارون قد اتّبعوا بشكل لا يقبل الشكّ مقرّرات المجمع الخلقيدونيّ، حتّى أنّ إنشاء ديرهم سنة ٤٥٢ بأمر صريح من الأمبراطور وبطلب من البابا لاون والأسقف ثيودوريه، إثر المجمع الخلقيدونيّ المنعقد سنة ٤٥١ يجب، استنتاجًا، أن يكون قد حصل لتدعيم الخطّ الخلقيدونيّ ولمواجهة الخطّ المناهض. ويعتبر باحثون محدثون أنّ[4] نسبة انتماء المسيحيّين الخلقيدونيّين إلى دير مار مارون وعقيدة سكّانه، كانت مرتفعة في نواحي حمص وحماة وآفاميا وشيزر، كما كانت

---

١ ـ اكتشف هذه الوثيقة ف. نو، راجع: NAU F., *LES MARONITES INQUISITEURS...*, OP. CIT., N.97 (JAN.,1903) PP. 343.

٢ ـ نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٥٢، وجاء في الحاشية: محرّرو الرسالة يفكّرون هنا بكيرلّس الإسكندري الذي انقسم الخلقيدونيّون (هنا الموارنة) في شأنه، وخصوم الخلقيدونيّين (رهبان بيت أباز).

٣ ـ يمكن مراجعة نصّ الوثيقة باللغة العربيّة في كتاب: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص١٧٣ ـ ١٩٢.

٤ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠١.

مرتفعة في الوقت نفسه في بعض المناطق الشماليّة الساحليّة في لبنان، وبوجه التحديد في مناطق عرقا وطرابلس وبعض مدن وقرى بلاد جبيل والبترون. فألّف هؤلاء المسيحيّون نواة الكنيسة المارونيّة. وظلّت العلاقة بين المناطق ودير مار مارون وثيقة طيلة الأجيال الخمسة الأولى من تاريخ المارونيّة، وظلّ هذا الدير يتمتّع بزعامة روحيّة وعقائديّة كبيرة حتى خرب مع الزمن "بتواتر الفتن من الأعراب وحيف السلطان"[١]، حوالى منتصف الجيل العاشر. فيُعتبر هذا الدير بحقّ مهد المارونيّة، وتعتبر نشأة الفطرة المارونيّة متجسّدة منذ البداية في المعتقد الخلقيدونيّ الكاثوليكيّ والفكر اللاهوتيّ الأنطاكيّ[٢].

يسهب الدويهي في الكلام عن عهد الأمبراطور "أنسطاس"[٣] الذي جدّد الاضطهاد على بيعة اللّه لميله إلى مقالة الطبيعة الواحدة، وحطّ البطريرك فلابيانُس، القائل بعقيدة المجمع الخلقيدونيّ عن كرسي أنطاكية سنة ٥١٢، وجعل مكانه الراهب ساويرُس (سويرا) الضالّ الذي عقد مجمعًا محليًا حرّم فيه المجمع الخلقيدونيّ وكلّ من يقرُّ به. وكان بعض الأساقفة ظهراءَه على هذا الضلال. أمّا أكثر الأساقفة "فإنّهم تأخّروا عن الحضور إليه لعلمهم بسوء طريقة معتقده، فسعى بهم إلى أنسطاس الملك الذي أرسل إليهم قومًا أشرارًا فسلبوا أملاك الكنائس والأديار وأسرفوا في النهب حتّى أجبروا كثيرين على الكُفر بالإيمان الصحيح. والذين ثبتوا على الرأي القويم اضطرّهم الأمر أن يهجروا أملاكهم وبلادهم ويغربوا إلى الأمصار البعيدة... كما يظهر من أخبار ذلك العصر ومن المكاتبات والمراسلات التي تقدّمت إلى المجمع الخامس في حقّ ساويرُس

---

١ ـ المسعودي الحسن بن علي، التنبيه والإشراف (باريس،١٨٩٦) ص١٣١.

٢ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠١.

٣ ـ أنسطاس أو أنستازيوس الأول: امبراطور بيزنطي ٤٩١ ـ ٥١٨، بنى سورًا طويلا أمام القسطنطينيّة عرف باسمه.

وأتباعه من جميع أديار بلاد الشام. وكان أكثر الاضطهاد، الذي جرى في ذلك العصر، على بلاد سورية ودير القدّيس مارون لقربه من أنطاكية... وفي تلك الأثناء مات أسقف حماة فأقام ساويرُس مكانه أسقفًا من القائلين بمقالته، إسمه بطرس. ولمّا أنفذه إليهم ليتولّى على كرسي حماة، امتنع الحمويّون عن قبوله متأمّلين في أن ينقله إلى كرسيّ آخر ليتولّى، كما اتّفق لهم مثل ذلك مع يوحنّا الذي أرسله إليهم سابقًا بطرس القصّار، فإنّهم لمّا أبوا قبوله أنفذه أقاقيوس إلى مدينة صور. ولكنّ الأمر جرى هنا على خلاف ما ذهب إليه ظنّهم... لأنّ ساويرُس، لمّا انتهى إليه الخبر، تغيَّظ جدًّا على أهل حماة وعلى رهبان دير القديس مارون الذين كانوا ظهراءَ لهم. فوشى بهم إلى أنسطاس الملك أنّهم عصاة على أوامره، فأبرز أنسطاس في حقّهم منشورًا شديدًا وأمرهم أن يكونوا تحت طاعته. وحينئذٍ أنفذ ساويرُس أوامره إلى بطرس الأسقف ليسير إلى حماة ثانية، وينادى بتفنيد المجمع الخلقيدونيّ، ويجبر المؤمنين أن يعتقدوا أنّ في السيّد المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وأقنومًا واحدًا، كما سنّ آباؤهم في مجمع أفسس. فثار الاضطراب أوانئذٍ في البلاد، واضطرمت نيران القلاقل، واتّفق رؤساء الأديار وعلماؤها على أن يجتمعوا في دير القدّيس سمعان، الذي في الجبل العجيب، لإصلاح الكنائس وصيانتها من ذوي البدع. فلمّا همّوا بالمسير، أرسل بطرس، المتغلّب على كنيسة حماة، جماعة كمنوا لهم في الطريق، فانصبُّوا عليهم بغتةً وقتلوا منهم بعضًا وجرحوا بعضًا وقبضوا على بعض. ثم جهّز أعوانًا أشدّ من الأوّلين كفرًا، وأطلقهم إلى الأديار والكنائس والقرى والمزارع، فسلبوا الخزائن واختلسوا الآنية المقدسة وصبُّوا أكثر اضطهادهم على دير القدّيس مارون، فاستباحوا جميع ما فيه ودكّوا أسواره إلى الأرض وجعلوه قاعًا صفصفًا، وبالجملة لم يقدروا على شرّ إلّا فعلوه. أمّا الذين كانوا قد لجأوا إلى الكنائس خوفًا منهم، فقبضوا عليهم داخل الخورُس

وهناك قطعوا أيديهم وأهرقوا دمـاءَهم الزكيّـة من غير رحمـة ولا شـفقة. وكـان عـدد الرهبـان المقتوليـن ثلاثمائـة وخمسـين[1]. وأمّـا البـاقون فأُرسـلوا إلـى سـاويرُس مقيّديـن بالسلاسل والأغلال، فأمات منهم بعضًا في السجن وبعضًا فـي المنفـى وكـان ذلـك فـي سنة ٥١٧. والكنيسة الرومانيّة تقيم ذكـرًا شـريفًا لهؤلاء الموارنـة القدّيسـين فـي اليوم الأخير من شهر تمّوز (يوليو)"[2].

ويضيف الدويهي أنّه رغم كلّ ذلك، لم ينقطع الناجون من رهبان دير مارون عن مناصبة أعداء البيعة المقدّسة، "فاجتمعوا ثانية، وكان المتقدّم فيهم "اسكندر" رئيـس ديـر القدّيس مـارون، ووجّهـوا "يوحنّـا" و"سـرجيوس" إلـى القسـطنطينيّة ليتظلّمـا الملـك ممّـا أصابهم. أمّا الملك فلم يسمع لهما شكاية، بل طردهما وهدّدهما. فلمّا اتّصـل خـبر ذلـك ببقيّة الآباء، وجّهوا الراهبَين إلى الحبر الأعظم "هرمسدا"[3] صـاحب الكرسـيّ الرومـانيّ مع رسالة تتضمّن شرح أحوالهم وهذا نصّ الرسالة:

> إلى جانب قدس البارّ "هُرمُسدا" بطريرك المسكونة بأسـرها ومـالك كرسـي بطـرس هامة الرسل. وبعد، فيتضـرّع متخشعًا لقداستك أحقر الرؤساء وسائر الرهبـان الذيـن في بلاد سورية الثانية. حقًّا إنّ نعمة مخلّصنـا يسـوع المسـيح هـي التـي ألزمتنـا أن نعتصم بأذيـالك وأن نفرّ مـن لجـج الأمطـار الطاميـة والريـاح العاصفـة إلـى مينـاء الأمـان الهـادئ والراحـة المطمئنـة، موقنيـن أنّنـا، ولـو أصبحنـا مغموريـن بـأمواج الأهوال والمخاوف، نخرج ببركاتك سالمين من كل ضرّ. ولذلك فإنّنـا نتلقّـى جميـع ما يحلّ بنا من الشدائد بالصبر والفرح، علمًا منّا بأن مشاقّ هذا الدهر الحـاضر لـن تـوازي المجد الذي نتوقّعـه. ولمّا كان مقرّرًا أنّ المسيح إلهنا قد أقامك لتكون رأس

---

١ ـ راجع: مسعد البطريرك بولس، الدرّ المنظوم، مرجع سابق، ص١٣١.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٩ ـ ٤٠.

٣ ـ هرمسدا أو هُرمُزدا HORMISDAS : بابا قدّيس ٥١٤ ـ ٥٢٣.

الرعاة ومعلّم الأنفس وطبيبها، وجب علينا أن نصف لك المشقّات التي أصابتنا ونعرّفك بالذئاب الخاطفة الذين ينهشون قطيع المسيح بلا رحمة. حتّى إذا اطّلعت على مكرهم تخرجهم بعصا السلطان من بين الخراف الناطقة، وتعزّي الأنفس المحزونة بكلمة العلم، وتشفي أدواءَها بمراهم الدعاء. وعلى حسب ما نظنّ أنّه بلغك خبر اللذَين فغرا أفواههما علينا كالأسود ليفترسانا، نعني بهما "ساويرُس" و"بطرس" اللذَين مرقا من حزب المسيحيّين، وفوّقا سهام الطعن على المجمع الخلقيدونيّ ورشقاهُ بالحرم جهرًا مع أبينا الكبير في القدّيسين لاون[1] البارّ المعظّم، واحتقرا القوانين الموقّرة المسنونة من الآباء الأطهار في المسكونة جمعاء. وقد استعانا بأرباب السيف والسلطان على التنكيل بالرهبان والرؤساء، وأخيرًا انتهى عنفهما إلينا فأنزلا بنا أصناف العذاب المبرّح، آملين أن ننكر هذا المجمع المقدس. ولمّا قصدنا المسير إلى دير القديس سمعان[2] لأجل قضاء بعض مصالح البيعة، نصب لنا هذان الشقيّان كمينًا في الطريق، فقتلوا منّا ثلاثمائة وخمسين نفسًا غير الذين هشّموهم واثخنوهم بالجراح. وبلغ من قساوتهم أنّهم لم يعفوا عن الذين استجاروا بالكنائس، بل دخلوا عليهم وذبحوهم أمام الهياكل المقدسة. ثمّ وجّها قومًا أشرارًا فاقدي الرحمة فألهبوا النار في الأديار والبيَع، وأحرقوا جميع الأدوات التي وقف المؤمنون. ورسائلنا التي مع الأخوين يوحنّا وسرجيوس كافلة بإطلاعك على كلّ الامور مفصّلاً. وقد كنّا وجّهناهما أوّلاً إلى القسطنطينيّة ورجونا من الملك أن ينتصف لنا من خصومنا الذين مثّلوا بنا كلّ هذا التمثيل، فلم يُجب الملك سؤالنا بل طرد رسولَينا بغيظٍ شديد، ومن ثمّ أيقنّا أن كلّ هذا التعدّي على الكنائس لم يحصل إلاّ برضاه وخاطره. ولهذا نسأل قداستك أن تنتبه إلينا بحرارة وغيرة، وتشفق على هذا الجسد المسيحيّ، لأنّك أنت رأس الجميع، ولك سلطان على أن تأخذ بثأر

---

١ - البابا لاون الأوّل (٤٤٠ - ٤٦١) صاحب الوثيقة الشهيرة التي اتّخذها المجمع الخلقيدوني دستورًا له.

٢ - أورد نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٥١٧، أنّ دير سمعان المقصود هنا هو دير سمعان العمودي الأول الكبير المعروف اليوم بقلعة ودير سمعان.

الإيمان المهان والقوانين المدوسة، وأن تنتصر للآباء المشتومين، وللمجمع الذي قُذف بالحرم ظلمًا وعدوانًا. إذ إنّك أنت المتقلّد الحكم من اللّه، والمتسلّم سلطان الحلّ والربط. والأصحّاء ليسوا بمحتاجين إلى طبيب، بل الذين ركبتهم العلّة ومُنوا بالأدواء. فقم إذًا يا أيّها الطاهر وسارع إلى انتعاشنا واحذُ حذو الربّ الذي انحدر من السماء إلى الأرض في طلب الخروف. ضارعْ بطرس هامة الرسل الذي انتصبتَ على كرسيه، وبولس الإناء المنتخب، اللذَين أنارا المسكونة بأنوار تعاليمهما. لا جرم أنّ الجراح الثخينة تستدعي مراهم قويّة. وإنّ الرعاة المستأجرين متى نظروا الذئب مقبلاً تركوه يفترس الاغنام، وأمّا أنت، فبما أنّك الراعي الصالح والوكيل المؤتمن على خلاص الخراف الناطقة، فبادِر إلى استنقاذ القطيع الذي نحا نحوك ليلتمس راعيه، واخرِجهُ من أيدي الوحوش الضارية. ولا غرو أن قداستك لا تتغافل عن إسعافنا، لأن الوحوش المفترسة قد مكّنت فينا أنيابها. وليكُن محقّقًا لديك أنّنا بتوسّلنا هذا، نحرم جميع المنفرزين والخارجين عن كرسيك الرسولي المقدّس، وهم نسطور أسقف القسطنطينية، وأوطيخة، وديوسقورُس، وبطرس الإسكندريّ الألثغ، وبطرس الأنطاكي القصّار، ورفيقهم أقاقيوس أسقف قسطنطينيّة، ومن ينتصر لهم ويحتجّ عنهم[1].

وقد وقّع على ذلك الكتاب:

إسكندر رئيس دير القدّيس مارون؛ والقسّيسان الرئيسان: شمعون، وبروكُوب؛ والشمّاس الوكيل يوحنّا؛ وكلّ من القسّيسين: بطرس، أوجان، جيلاد، بسوس، رومولُس، أورشال، وملخُس وسواهم، إذ ورد في ذيل الرسالة نحو مائتين وعشرة تواقيع، منهم مئة واثنان وخمسون لقسّيسين، وثلاثة وثلاثون لشمامسة، وخمسة

---

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٤١ - ٤٢؛ قابل: الترجمة الحديثة لهذه الرسالة عند: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص١٥٩، عن: COLL. AVELLANA, PARIS II, (VINDOBONAE. 1898), OTTO GUENTER. PP. 565- 571؛ وورد ذكر عند نعمان، المرجع السابق، ص٥١، حيث ردّ أصلها إلى: VOBUS A., OP. CIT., II:.251؛ راجع: *COLLECTIO AVELLAMO*, T. II. EPIST. 139, PP 565 SS.

وعشرون لرؤساء. ومن هؤلاء الرؤساء ستة قسّيسين وثمانية شمامسة، وأمّا الباقون فدونهم درجة[1].

ويتابع الدويهي: فلمّا وقف الحبر الأعظم على الرسالة المذكورة واستفهم الرسولين عن جميع الأحوال مفصّلاً، شمله حزن شديد على ما أصابهم من البليّة، وبعث إليهم محرَّرة في جملة رسائل الباباوات، أضربنا عن ذكرها طلبًا للاختصار، وهي تشتمل أوّلاً على التعزية بقوله "إنّ هلاك الأبدان عن الإيمان لا يُحسب خسرانًا، وإنّ ما مضى من الزائلات يعوَّض عنهُ بالباقيات". وحضّهم على الثبات في طاعة الكرسيّ الرسوليّ والتمسّك بعرى المجمع الخلقيدونيّ وباقي المجامع المقدّسة. وحثّهم على مجانبة أهل البدع والإعراض عن مخالطتهم بأيّ وجهٍ كان. وعلى أن يرذلوا سقطات نسطور وأوطيخا وديوسقورُس وطيموتاوُس وبطرس الإسكندري وأقاقيوس القسطنطيني وبطرس وساورُس الأنطاكيّين وفيلكسينُس أسقف هيرابولي وكورُس الخالدي وبطرس الحمويّ وجميع أتباعهم ومشايعيهم على الإطلاق. ثمّ راح البابا يكاتب أنسطاس ملك القسطنطينيّة وطيموتاوُس بطريركها وغيرهما من المخالفين، يحضّهم على أن يعتنوا بتدبير رعاياهم. وأرسل مع كتبه إليهم صحيفة مجمعيّة تتضمّن الإقرار القويم بالإيمان، وأمَر بأن تُعرَض على جميع الرُّوساء والرعاة ليتمسّكوا بها ويكتبوا أسماءَهم وتسليماتهم في ذيلها بخطوط أيديهم. فلمّا وصلت إلى الملك المذكور، تضرَّم على قداسة الباب غيظًا وأمر قصّاده أن يجحدوها ويعتقدوا ما يخالفها، فإذا لم يجيبوه إلى مراده أمر بنفيهم إلى البلدان السحيقة. إلى أن قضى أنسطاس إذ انقضّت

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٤١ ـ ٤٣؛ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٥١، حيث ذكر أنّه لم يكن ممكنًا التعرّف على التوقيعات الأخرى لأنّ الدلائل الطوبوغرافيّة التي من شأنها المساعدة على تمييزها أهملت من قبل المحرّر، إذ إنّها اعتبرت، بلا ريب، دون فائدة بالنسبة إلى قرّاء رومانيّين.

عليه من السماء سنة ٥١٠ صاعقة أردته"[1].

خلف أنستازيوس الأول، بعد وفاته، أمبراطورًا على عرش بيزنطيا، يوستينُس الأول[2] ٥١٨ ـ ٥٢٧. وقد اعتبر مؤرّخو الموارنة، كما سواهم من المؤرّخين الأرثوكس والكاثوليك، أنّ هذا الأمبراطور قد "سلك في الرعيّة مسالك العدل والإنصاف، وبثّ الأمن والسلام، وأبطل ما كان حكم به زينون[3] وأنسطاس* على المستقيمين في الأمانة، وأمر بكتابة اسم المجمع الخلقيدونيّ فوق أبواب الكنائس، ليتّبعه الناس ويعتصموا بتعليمه، وردّ الآباء ورؤساء الكهنة المنفيّين إلى كراسيهم. وفي السنة الثانية لملكه قُبِض "تيموتاوس"[4] بطريرك القسطنطينيّة وأقيم مكانه "يوحنّا الأسقف" الذي كان مزيّنًا بالأمانة المهذّب رأيها[5] فتواردت حينئذٍ على الملك الكتب والرسائل من الرؤساء والرهبان بأنطاكية وبيت المقدس، بسبب الشقاق الذي ألقاه "بطرس" أسقف حماة، والتابعون لمقالة ساويرُس*. فأمر يوحنّا البطريرك، إذذاك، بعقد مجمع محليّ ضمّ ثلاثة وأربعين أسقفًا، أجمعوا على تخطئة ساويرُس وحرموه وبعثوا بصورة الحرم إلى البابا هرمزدا، وإلى بلاد الشام، حيث عُقد، إثر ذلك، مجمع محليّ في بيت المقدس، ومجمع آخر كبير في صور. وقد لعن آباء المجمعَين ساويرُس

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١٤٤؛ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٥١، حيث ذكر أنّ جواب البابا جاء في ١٠ شباط (فبراير) ٥١٨، وأفاد بأنّ النص محفوظ في مجموعة "أفيلانا"، مجلّد II، رسالة ١٣٩، ص٣٦٥ وما يليها.

٢ ـ يوستينُس الأول (٤٥٠ ـ ٥٢٧): ولد في بدريانا (إيليريا)، أمبراطور بيزنطي ٥١٨ ـ ٥٢٧، حارب المونوفيزيّين ووضع حدًّا للخلاف مع روما المعروف بانشقاق أكاكيوس.

٣ ـ زينون ZÉNON : أمبراطور بيزنطي ٤٧٤ ـ ٤٩١، لم ينل حكمه رضى الشعب، حاول التوفيق بين المونوفيزيّة والرأي الأرثوكسي الكاثوليكي فأصدر ٤٨٢ قرار التوحيد (هينوتيكون) الذي أدّى إلى خلاف مع روما دام ٣٥ سنة.

٤ ـ تيموتاوس هذا كان من القائلين بالمشيئة الواحدة.

٥ ـ المقصود أنّه كان أرثوذكسيًا خلقيدونيًا مستقيم الرأي.

رجل السوء هذا لا ينكفّ عن تبديد ما هو لكنيسة اللّه وما يدخل لها في مدّة إقامته... ونتضرّع أيضًا إلى حضرة الملك المنصور أن يرسل جماعةً من أهل الكهنوت ليُعيد أصحاب الدرجات المنفيّين إلى مدنهم ومراتبهم... ونتأمّل ألاّ يتوجّه إلينا لومٌ من الملك على طلباتنا هذه، لأنّ ما نذوقه من مُرّ العذاب يسوّغ لنا خرق الحجاب. ونستحلفكم أيضًا بالثالوث الأقدس المتساوي في الجوهر، وبحلم ضابطَي المسكونة يوستين الملك وأفاميا والدته، أيّدهما اللّه بالفوز وأطال بقاءَهما، أن لا تتغاضوا عن مسألتنا ولا تتأخّروا عن إسعافنا وأن توصلوا هذه الأمور كلّها إلى مسامع ملوكنا المسيحيّين، وأن توصوهم بأن يحسنوا العناية بنا، لعلّ اللّه يعوض علينا بسعيكم عمّا سُلب من أموال كنائسنا. وقد وقّع هذه الرسالة كلّ من: "ثاودُس" قسّيس أنطاكية؛ "لُنجين" الشماس؛ "إسطفان" الشمّاس؛ "موريق" الايبوذياقن؛ "يوليان" الشمّاس؛ "توما" الشمّاس؛ "يوحنّا" القسّيس؛ "إندراوس"؛ "اليان"؛ "مركيلُس" الشمّاس؛ "سرجيُس" الرحوم؛ "موسى" القسّيس؛ "يوحنّا"؛ "يوحنّا راهب دير القديس مارون*" ؛ "يعقوب راهب الرجل الصالح"؛ "قسطنطين راهب وقاصد أُستيرُس ذي الذكر الصالح"؛ "تونيُوس شمّاس دير القدّيس بولس؛ "سليمان راهب دير القديس أغابيطُس"[1]؛"سرجيُس راهب دير القديس سمعان"[2]؛ حلفي راهب دير القديس يعقوب"؛ "سعيد راهب دير القديس يوحنّا"؛ "سمعان راهب دير القديس بولس"؛ "بولس راهب دير القديس ايسكيُوس"؛ "عبد الأحد راهب دير القديس دوروتاوس"[3].

---

١ ـ أغابيطُس تلميذ مرقيانُس بنى ديرَين في "تيكاراتاي" قرب أفاميا، تولّى المؤسّس أحدهما، وأدار الآخر شخص يدعى سمعان، وهو غير "سمعان العمودي" و"سمعان القديم"، كان عدد رهبان الديرَين في زمن "تيودوريتُس" يفوق ٤٠٠ راهب.

٢ ـ حول دير القديس سمعان، راجع: PEETERS P., *HYPATIUS ET VITALIEN*, EXTRAIT DE *L'ANNUAIRE DE L'INSTITUT DE PHILIOLOGIE ET DE L'HISTOIRE ORIENTALES ET SLAVES*, T. X (1950) MÉLANGES H. GRÉGOIRE, II, "(BRUXELLES,1950) N.3, P.30.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٤٥ ـ ١٤٨؛ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص٥١؛ *ACTA CONCILIORUM, ED. SCHWARTZ*, BERLIN EN COURS DEPUIS 1914.

سارع يوستينُس، إثر اطّلاعه على تلك الرسالة، بالقبض على الأساقفة أتباع ساويرُس وتمّ تعيين أساقفة خلقيدونيّين مكانهم. وتمكّن ساويرُس من الفرار إلى براري مصر[1]. ولكنّ الأمبراطور يوستينُس لم يعمّر طويلاً، وكذلك حقبة الهدوء التي خيّمت على الخلقيدونيّين، بمن فيهم الموارنة.

خلف يوستينُس ابن اخته يوستيانُس الأوّل (٥٢٧ ـ ٥٦٥) الذي حاول توطيد الأمبراطوريّة في السياسة والقانون[2]، وخاصّة في الدين، فضيّق على الذين لم يخضعوا لمقرّرات المجمع الخلقيدونيّ، إلى درجة حرمانهم حقوقهم المدنيّة. إلاّ أنّ المونوفيزيّين قد استُثنوا من تلك التدابير، على أمل بإمكانيّة التفاهم معهم حول الدستور النيقاويّ من خلال الاجتهاد في بعض تفسيراته، علمًا بأنّ المونوفيزيّين كانوا قد نموا بشكل واسع في الأرجاء الشرقيّة للأمبراطوريّة وخاصّة في مصر. إضافة إلى أنّ ثيودورة THÉODORA، زوجة يوستينيانُس، الشديدة الذكاء والطموح، وقد ساعدت زوجها في شؤون الحكم وتدخّلت بالسياسة عامّة والدينيّة منها بشكل خاصّ، كانت مقتنعة بالعقيدة المونوفيزيّة، فتمكّنت من إقناع زوجها الأمبراطور بالتساهل مع قادة المونوفيزيّة الذين راحوا ينظّمون أنفسهم في أديار ورهبانيّات. ورغم محاولات يوستينيانُس لتفادي عودة النزاع، فقد شاب عهده المتذبذب نزاعات أسهبنا في روايتها في الجزء التاسع من هذه الموسوعة. وبوفاة هذا الأمبراطور الذي لم يترك عقبًا، خلفه ابن أخته يوستينُس الذي أيّدته الكنيسة فباركه بطريرك القسطنطينيّة ووضع التاج على رأسه[3].

---

١ ـ جاء في المراجع أنّ يوستينُس قبض على "بلميط" فأهلكه، وعلى بطرس أسقف حماة، وعلى أسقف منبج فألقاهما في السجن لأنّهما كانا من أشياع ساويرُس وكانا يبثّان ضلالة بين الشعب؛ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٤٥ ـ ٤٨.

٢ ـ وضع يستنيانُس الشرائع المعروفة به، وضمّ إليها قوانين خاصة بالكهنة والرهبان إجابةً إلى طلب "إيفان" بطريرك القسطنطينيّة ومجمع رؤساء الكهنة، وذلك صيانةً لرسوم البيعة وإيجابًا لرعاية حقوقها.

٣ - EVAGRIUS, *HIDT. ECC.* V: 1; THEOPHANES, A:6058.

ويبدو أنّ حقبة حكم يوستينُس كانت استمرارًا لعهد سلفه. فقد أمر بإرجاع الأساقفة المنفيّين إلى أوطانهم، واستقبل، في بداية حكمه، البطريرك الإسكندريّ ثيودوسيُس الذي كان لا يزال في المنفى، بحفاوة فائقة. ولدى وفاة هذا البطريرك سنة ٥٦٦ أمر يوستينُس بإجراء مراسم دفن فخمة له. كما جدّ محاولاً توحيد صفوف قادة الكنيسة والتقريب بين وجهات نظر أصحابها دون جدوى. ولمّا أصيب هذا الأمبراطور بمرض عصبيّ أفقده صوابه بشكل ظاهر سنة ٥٧٣، قامت زوجته "صوفيّة" بأعباء الحكم، وهي لم تختلف عن نسيبتها ثيودورة في قولها بالطبيعة الواحدة. إلاّ أنّها استعانت في شؤون الحكم برئيس الحرس الأمبراطوريّ "طيباريُس الأمين" الذي تبنّاه يوستينُس لاحقًا، ثمّ ما لبث أن عيّنه قيصرًا، فصرّف باسم سيّده شؤون الأمبراطوريّة أربع سنوات، إلى أن قضى يوستينُس سنة ٥٧٨ فاعتلى عرش الأمبراطوريّة.

إتّبع طيباريُس سياسة متوازنة تجاه الفرقاء، فهو من جهة أوقف ملاحقة المونوفيزيّين، ومن جهة ثانية أعاد أفتيشيُس بطريرك القسطنطينيّة الأرثوذكسيّ من منفاه وسلّمه عكّاز الرعيّة سنة ٥٧٧ إثر وفاة البطريرك يوحنّا. ولمّا عاد أفتيشيُس إلى سابق حماسه في الضغط على المونوفيزيّين والتضييق عليهم، قال له طيباريُس عبارته الشهيرة: "على رسلك، فالبرابرة كثر، ومحاربتهم أولى". وكان المقصود بالبرابرة يومذاك القوى الخارجيّة، ذلك أنّ المدّ الفارسيّ كان على ذرّ قرنه، وكانت الأحداث تنذر بحرب وشيكة في مواجهة التتر[1]. وكانت بداية الخطر الفارسيّ قد لاحت في نهاية الربع الأوّل من القرن السادس، عندما حاول الفرس منازعة البيزنطيّين السيادة على الشرق. وإذ تمكّن القائد القدير يوستينيانُس بليساريوس من صدّ الهجوم الفارسيّ

---

١ - راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

الأول (٥٢٧ ـ ٥٣٢) فإنّ الفرس قد تمكّنوا، بعد ثماني سنوات، بقيادة كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩) من دخول حلب عن طريق منبج بثلاثين ألف مقاتل وإحراقها. وبعد حلب لاقت أنطاكية المصير نفسه "فنُهبت وجرّدت كاتدرائيّاتها من كنوزها الذهبيّة والفضيّة ومن رخامها الفاخر، وهُدمت المدينة بكاملها وأُخذ سكّانها أسرى"[١]. وهكذا خربت أنطاكية، القاعدة المسيحيّة الشرقيّة، التي عُقد فيها بين منتصف القرن الثالث ونهاية القرن الرابع عشر عدّة مجامع كنسيّة. وتابع كسرى زحفه إلى أفامية، القاعدة المسيحيّة الشرقيّة الأخرى، فاستولى الفرس على كلّ ثروتها الكنسيّة، بما في ذلك قطعة الصليب الحقيقيّ التي كانت محفوظة بوقار في تابوت مرصّع بالجواهر. وقد سلِمت أفامية من الخراب نتيجة مسارعة أهلها إلى تقديم كلّ كنوزها إلى المهاجمين. كذلك فعلت فاليكس جارة حلب وسائر مدن الجوار. وبعد سنتَين من أعمال الاجتياح وتحديدًا في العام ٥٤٢، عُقدت الهدنة الأولى بين البيزنطيّين والفرس، وهي الهدنة التي ستتجدّد مرارًا إلى أن تتحوّل إلى معاهدة الخمسين سنة التي قبِل يوستينيانُس بموجبها دفع الجزية إلى الفرس، وبالتوقّف عن القيام بالدعاية المسيحيّة في المقاطعات الفارسيّة. وهكذا فقد كان حال الإمبراطوريّة البيزنطيّة عند نهاية عهد طيباريوس، شبه منهار.

إتّبع موريقيُوس MAURIKIUS، الذي خلف طيباريُس على سدّة الأمبراطوريّة طوال عشرين سنة (٥٨٢ ـ ٦٠٢)، سياسة سلفه في موقفه التوفيقيّ من الكنيسة، والمقول إنّه حافظ على أرثذوكسيّته دون أن يتطرّف أو أن يضيّق على المونوفيزيّين وغيرهم. ذلك أن موريقيُوس كان في حال حرب مع الفرس والسلافيّين. وكان في الوقت ذاته يحاول

---

١ - ROCOPIUS, II, COL. 9, COL. 14 - 18

إعادة تنظيم الإدارة والجيش بعد الانهيار الذي أصاب الأمبرطوريّة. ولم نطالع عن أيّ معاناة لرهبان دير مارون، في عهد هذا الأمبراطور، أو في عهد خليفته "فوكاس"[1]، الذي اضطهد المونوفيزيّين واليهود بقساوة. ويبدوا لنا أنّ رهبان مارون قد استمرّوا على شيء من الإستقرار السلبيّ إلى أن آلت الأمبراطوريّة إلى هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١).

---

١ ـ فوكاس: أمبراطور بيزنطي ٦٠٢ ـ ٦١٠، لقّبه العرب بالفقّاس، كان قائدًا للجيش فاغتصب الملك وقتل الأمبراطور موريقيوس، خلعه هرقل، قتله الشعب.

الفَصلُ الثَّاني

المَوارِنَة

بَينَ البيزَنط والإسلام

في العَهدِ الهِرَقِليّ؛ رُهبَان دَير مَارُون والقَول بالمَشيئَة الوَاحِدَة؛

في بِدايَة الفَتح الإسلاميّ؛ المَوارنَة في لُبنَان؛

بَطرِيَركِيّة أنطاكيَة بَعدَ الفَتح الإسلامِي.

في العَهدِ الهِرَقليّ

كان عهد الأمبراطور البيزنطيّ هِرَقل أو هِرَكليوس HÉRACLIUS (٦١٠ ـ ٦٤١)، كما ذكرنا في مجال آخر[١]، المفترق الزمنيّ الخطير المثلّث الاتّجاهات، الذي قرّر مسار الدين في الشرق، كما لم يكن من قبل. ذلك المفترق كان له ثلاثة اتّجاهات: المسيحيّة، الفرس، والإسلام.

تسلّم هرقل الأمبراطوريّة وهي في حال تفكّك وصراع وانهيار، واستمرّ قضم الفرس لأمبراطوريّة بيزنطية في بداية عهده، فعبروا الفرات وتوغّلوا في سورية الشماليّة، ووصلوا إلى أنطاكية في السنة الأولى من حكمه، وإلى حمص ودمشق في السنة الثالثة. واحتلّوا طرطوس وقيليقية سنة ٦١٣، واتّجهوا جنوبًا نحو أورشليم ودخلوها عنوة بعد حصار لم يدم أكثر من عشرين يومًا، وقتلوا حوالى ستّين ألفًا من المسيحيّين، وأسروا نصف هذا العدد، واعتقلوا البطريرك، واستولوا على عود الصليب ونقلوه إلى فارس. وبعد ثلاث سنوات واصل الفرس زحفهم جنوبًا فاحتلّوا مصر. ولم يعد في البلاد الشرقيّة إكليروس ولا كنيسة. وبقي كرسيّ أنطاكية شاغرًا طوال ثمانيةٍ وثلاثين سنة[٢]. وما تطالعنا به المدوّنات يفيد بأنّ المونوفيزيّين قد سيطروا في تلك الحقبة على الكنائس التي وقعت تحت الاحتلال الفارسيّ، من دون أيّ ذكر لرهبان دير مارون.

---

١ ـ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ ـ THÉOPHANÉS A., 6101

بدأت ردّة هرقل للفرس مع ربيع ٦٢٢، وقد ارتدت طابعًا دينيًا تحريريًا. وقد تسارعت انتصارات هرقل على الفرس إلى أن كانت معاهدة سنة ٦٢٨ الشهيرة في التاريخ، التي قضت بإعادة الحدود القديمة إلى ما كانت عليه بين الجبّارَين: البيزنطيّ والفارسيّ، وبإطلاق الأسرى، وبإرجاع الصليب المقدّس إلى مهده. وقد "أدخل هرقل الصليب إلى المدينة المقدّسة في موكب مجلّل بمظاهر الأبّهة والفخر والهيبة، خشعت أمامه الرؤوس والقلوب. ورُفع الصليب في مكانه وسط تلك الأجواء المعبِّرة"[١].

عندما جلا الفرس بموجب معاهدة الصلح وعادت السلطة البيزنطيّة إلى مكانتها، عاد الصراع بين الكنيستَين: الخلقيدونيّة والمونوفيزيّة، وأُضيف إلى طرفَيه طرف ثالث، هو القائل بالمشيئة الواحدة[٢]. أمّا المذهب الأخير فكان وراءه هرقل بالذات، الذي حاول من خلاله التوفيق بين الكنيسة الأمّ والقائلين بالطبيعة الواحدة، حتّى أنّه أصدر سنة ٦٣٨ منشورًا أوجب من خلاله القول بالمشيئة الواحدة، ما أعطى نتيجة مناقضة لغاية هرقل إذ زاد في تشعّبات الانشقاقات ونتائجها[٣]. وأوّل مَن احتجّ على القول بالمشيئة الواحدة كان الراهب الملكيّ الدمشقيّ صفرونيُس[٤] الذي أصبح سنة ٦٣٤

---

١ ـ للإطّلاع على ما كُتب في موضوع إعادة الصليب، راجع: MICHEL LE SYRIEN, II: 427; SÉBEOS, PP. 90 - 91; THÉOPHANÈS A., 6020; VINCENT ET ABEL, PP. 191- 205; ANTIOCHUS LE STRATÈGE DANS: KOULAKOVSKY, P. 38؛ وراجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ ـ المشيئة الواحدة أو الإرادة الواحدة في المسيح، هو المذهب الذي عرف بـ"المونوتيليّة".

٣ ـ يعزو مؤرّخو الكنيسة الشرقيّة هذه البدعة إلى البطريرك القسطنطيني سرجيُس، وهو من أهل البلاد، وكان يرغب، هو الآخر، في أن يجمع صفوف أنصار مجمع خلقيدونية، ومعارضيه المونوفيزيّين، فابتكر حلاً وسطًا ظنّه يرضي الطرفين فقال: إنّ في المسيح طبيعتين، ولكن فيه قوّة واحدة؛ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة؛ حول ملابسات هذا الموضوع، راجع أيضًا: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٠ ـ ٥١.

٤ ـ صفرونيُس (ت حوالى ٦٣٨): ولد في دمشق وتنسّك في فلسطين، بطريرك القدس ٦٣٤، حارب مذهب المشيئة الواحدة، في عهده فتح العرب القدس ٦٣٨، ذكر الدويهي في تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥١، أنّ صفرونيُس كان لبنانيًا.

بطريرك القدس، فنبّه البابا[1] إلى ما في هذا التعليم الجديد من التباس وغموض وخطر على معتقد الناس. واطّلع هرقل على هذه المقاومة فأمر بالكفّ عن التحدّث في الموضوع العقائدي[2]. وعندما اعتبر البابا يوحنّا الرابع (٦٤٠ ـ ٦٤٢) القول بالمشيئة الواحدة ضلالاً وبدعة جديدة، أهمله هرقل ولم يعد يكترث له[3]. إلاّ أنّ خلفاء هرقل سيخلقون نزاعًا كنسيًّا خطيرًا حول هذا الموضوع كما أوضحنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

رُهبَان دَير مَارُون
والقَول بالمَشيئَة الوَاحِدَة

بالرغم من بعض الاستنتاجات التي افترضها باحثون، فقالوا بأنّ رهبان مارون قد اعتنقوا معتقد المشيئة الواحدة في عهد هرقل، فإنّ الأبحاث المعمّقة التي جرت، من قبل مختلف الباحثين الكنسيّين، تنفي صحّة هذه الفرضيّة. إنّما الثّابت أنّ رهبان دير مارون قد بقوا متمسّكين بالمعتقد الخلقيدونيّ الأرثذوكسيّ من دون أيّ تحوير.

ولعلّ من نسبوا إلى رهبان دير مارون قولهم بالمشيئة الواحدة، قد أخذوا بما ذكره "المسعودي" المؤرّخ والرحّالة العربيّ البغداديّ[4]، والذي كتب تاريخه حوالى ٩٥٠، من أنّ "معظم أتباع هذه الطائفة (الكنيسة) يعيشون في لبنان وفي نواحي حمص وحماة

---

١ ـ سنة ٦٣٤ كان على كرسي روما هونوريوس الأول (٦٢٥ ـ ٦٣٨)، عقبه سفرينُس حتّى ٦٤٠؛ أمّا البابا يوحنّا الرابع (٦٤٠ ـ ٦٤٢) فهو الذي عدّ القول بالمشيئة الواحدة ضلالاً وبدعة جديدة.

٢ ـ يتيم المطران ميشال، ديك الأرشمندريت اغناطيوس، تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة، معهد القدّيس بولس للفلسفة واللاهوت ـ حريصا، منشورات المكتبة البولسيّة (بيروت،١٩٩٩) ص١٦١.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٦٢.

٤ ـ المسعودي، التنبيه والإشراف، طبعة دي غويه (ليدن،١٨٩٣) ص١٥٣ ـ ١٥٤؛ راجع: حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ، طبعة فرنكلين (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص٣٠٤.

فيه أنّ "الرهبان الموارنة في منبج وحمص وفي البلدان القبليّة (الجنوبيّة) قد أظهروا كيدهم... واستولوا على أكثر الكنائس والأديار"[١]. وبالتالي فإنّ الذين استندوا إلى هذا القول لميخائيل السريانيّ المونوفيزيّ[٢] الذي أرّخ الحدث بعد وقوعه بنصف قرن، والذي لم يذكر فيه أنّ الموارنة قد قبلوا دعوة هرقل بل ذكر أنّهم "أظهروا كيدهم" وحسب، لا يمكن أن يكون استنادهم كافيًا للقول بأنّ الرهبان الموارنة، الذين كانوا قد ضحّوا في سبيل مقرّرات المجمع الخلقيدونيّ بثلاثمئة وخمسين راهبًا شهيدًا، قد خرجوا عن هذا الالتزام وقبلوا تسوية هرقل. والواقع أنّ رهبان بيت مارون كانوا قد تمكّنوا من الاستيلاء على بعض الكنائس والأديار التي كانت للسريان القائلين بالطبيعة الواحدة قبل زيارة هرقل لهم، إذ ورد في المراجع الموثوقة أنّ هرقل، الذي أقطع هؤلاء الرهبان الأراضي الواسعة: "أبقى في أيديهم ما كانوا أخذوه من كنائس وأديار كانت لليعاقبة"[٣]... ولم يرد أنّ هرقل قد "أعطى" أولئك الرهبان أديارًا أو ما شابه. ولعلّ من أهمّ البراهين القاطعة على عدم قول رهبان مارون بالمشيئة الواحدة، إقدام الأباطرة الذي خلفوا هرقل، والقائلين بهذه البدعة، على هدم دير مارون وقتل رهبانه، والواقعة التي ستجري في أميون من شمال لبنان بين الموارنة وبين جيش الأمبراطور القائل بتلك البدعة كما سيأتي لاحقًا. ومن أبرز الذين ردّوا هذه التهمة عن الموارنة بالوثائق والبراهين، البطريرك إسطفانُس الدويهي، وابن نمرون، والمطران بولس مسعد، والمطران يوسف الدبس، والمطران بطرس ديب وسواهم[٤].

---

١ - MICHEL LE SYRIEN, II, P. ٤١٢. ٢ - يسمّيه الباحثون "ميخائيل اليعقوبي".

٣ - BARHEBRAEUS, *CHRONICON ECCL.*, I, PP. 270 - 274.

٤ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة،؛ مسعد البطريرك بولس، الدرّ المنظوم، مرجع سابق؛ الدبس المطران يوسف، تاريخ سورية (بيروت،١٩٠٠) ٥: ١٥٦؛ DIB PIERRE, L'EGLISE MARONITE, VOL. I (PARIS,1930) PP.63 - 143;
NAJRONI FAUSTO (MURHIJ). *DISSERTO DE ORIGINE, NOMINE, AC RELIGIONE MARONITARUM* (ROME,1967).

ويقول علماء في التاريخ مستقلّون محدثون: "لعلّه ثمّة بعض الصحّة في القول بأنّ وليم الصوريّ وغيره من المؤرّخين كانوا يخلطون بين موارنة لبنان وجماعة أخرى من أتباع رجل من الرهبان يُدعى هو الآخر مارون، توفّي حوالى سنة ٥٨٠، كان من أصحاب المشيئة الواحدة، أو لعلّ مثل هذا القول ممّا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار[1].

على أيّ حال، تتعدّد الآراء حول قول أو عدم قول رهبان مارون في القرن السابع بالمشيئة الواحدة، ولكنّ الثابت أنّ هؤلاء لم يكونوا، في أيّ وقت من الأوقات، على خلاف مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ، وأنّهم كانوا من أنصار هرقل محرّر البلاد من الاحتلال الفارسيّ. والثّابت أيضًا أنّ هرقل قد تخلّى عن القول بالمشيئة الواحدة لمّا شجبته روما، كما سبق وأوضحنا. وهكذا، فعندما أطلّ المسلمون على هذه المنطقة، اعتبروا هؤلاء الرهبان من أعوان هرقل، فشدّدوا الضغط عليهم. بينما أكّد السريان المونوفيزيّو المعتقد للمسلمين على أنّ رهبان مارون من أنصار الملك، فأطلق المسلمون يد أولئك السريان الذين راحوا يضطهدون رهبان بيت مارون وأتباعهم محاولين استرجاع ما خسروا من أديار وكنائس[1]..

في هذه الحقبة من التاريخ أُطلق لقب "الملكيّين"[2] على أولئك الذين ناصروا هرقل ضدّ المسلمين، وهم من السكّان الأصليّين ذوي العرق السريانيّ - الآراميّ، وقد جاءهم

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٧؛ لامنس، تسريح الأبصار، مرجع سابق، ٢: ٥٥ - ٥٦.

٢ - ملكيّ، وبعضهم استعمل لفظة ملكاني وهي لفظة سريانيّة الأصل: "ملكا" ومعناها في العربيّة الملك؛ أطلق لقب الملكيّين على بعض المسيحيّين أكثر من مرّة قَبل هرقل وبعده. فقبل هرقل كان جميع الخلقيدونيّين يعرفون غالبًا بالملكيّين لأنّهم كانوا يتبعون الكنيسة الأرثذوكسيّة المحميّة من قبل الملك أي الأمبراطور، وكان أولئك الملوك غالبًا أرثذوكسيّين إلاّ في حالات إستثنائيّة. وفي بداية عهد هرقل وبعده بقليل أي في عهد كونستانس الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨) الذي قال بمعتقد المشيئتَين في المسيح، لُقّب بالملكيّين إلى حين الذين قالوا قول الملك بالمشيئتين. وبعد المعركة التي وقعت بين البطريرك يوحنّا مارون وجيش البيزنط بقيادة موريق وموريقيان في ساحل شمالي لبنان لقّب الذين اتّبعوا يوحنّا مارون بالموارنة والذين اتّبعوا البيزنط بالملكيّين، كما سيأتي.

هذا اللقب: الملكانيّ أو الملكيّ، من خصومهم في العقيدة وزملائهم في الأصول العرقيّة تعييرًا، إذ اعتبروهم مناصرين للأجنبيّ ضدّ أترابهم الساميّين، غير آخذين بعين الاعتبار صوابيّة العقيدة والإيمان، علمًا بأنّ المسيحيّة منذ بولس الرسول قد أصبحت عالميّة غير مفرّقة بين عرق وآخر.

لم يكن رهبان دير مارون وأتباعهم، الوحيدين الذين أُطلق عليهم لقب ملكيّين في تلك الحقبة، لكنّ هذا اللقب شمل كلّ مَن كان في سياسته مناصرًا لهرقل في حربه ضدّ الاجتياح الإسلاميّ، إلاّ أنّ رهبان دير مارون وأتباعهم كادوا أن يكونوا الوحيدين من السكّان الأصليّين الذين اتّخذوا هذا الموقف، بينما اعتبر سائر المسيحيّين السريان أنّ "العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم في هذا العهد هم، كما تعلمون، يقيمون في ما بيننا، ولا يتّخذون من النصرانيّة موقف عداء، بل هم على عكس ذلك: يمتدحون ديننا ويُجلّون الكهنة والقدّيسين، ويجودون بالتقديمات للكنائس والمناسك"[١].

فـــي بِدايَـــة
الفَتحِ الإسلامَيّ

إجتاحت جيوش المسلمين بين سنتَي ٦٣٤ و٦٣٥ ما كان ظفر هرقل باسترجاعه من الفرس سنة ٦٢٨. كان سقوط دمشق بيد المسلمين حدثًا خارق الأهميّة بالنسبة لمصير المسيحيّة في الشرق. فلقد وضع هذا الفتح نهاية لعهد دام ما يقارب ألف سنة من السيطرة الغربيّة من جهة، وما يقارب الثلاثماية سنة من سيطرة الدين المسيحيّ، وإن كان العرب المسلمون قد تعهّدوا، إثر هذا الفتح، لمسيحيّي دمشق، بإبقاء أرضهم

---

١ - Iso'yahb, III, *Liber Epistularum*, in Scriptores Syri. Ser., II, Vol., LXIV. Ed. Rubens Duval (Paris, 1904 - 1905) text p. 251, II:13 - 19, cf. p. 252, II: 8 - 12, T2. p. 182.

وبيوتهم وكنائسهم وحريّة عقائدهم الدينيّة مقابل الالتزام بدفع الجزية. ويظهر جليًّا من خلال التدقيق في فصول الفتح العربيّ الإسلاميّ للمدن السوريّة، أنّ الأهالي الأصليّين لتلك المدن، وهم من الشعوب الساميّة، قد وجدوا في القادمين المسلمين ما أمكن اعتباره نوعًا من القربى، قياسًا إلى أجنبيّة البيزنطيّين. وقد كانت المونوفيزيّة يومها الأكثر شيوعًا بين السكّان الأصليّين، من عرب وسريان، ولا بدّ من أنّه كان للّغة والثقافة دورهما في اعتناق هؤلاء السكّان للمونوفيزيّة. ذلك أنّ دعاتها كانوا من السريان والعرب، بينما الكنيسة الجامعة الأرثذوكسيّة، يتكلّم أساقفتها وإكليروسها اليونانيّة واللاتينيّة. ما جعل أولئك السكّان يعتنقون المونوفيزيّة، ليس من منطلقات فلسفيّة لاهوتيّة وإيمانيّة، ولكن من منطلق العداء للأجنبيّ. حتّى أنّ بعض الباحثين خلص إلى أنّ الدمشقيّين لم يروا في الإسلام سوى شيعة مسيحيّة منشقّة، أملوا في أن ينالوا معها مزيدًا من الحريّة[١].

بعد استسلام دمشق سنة ٦٣٥ قام الخليفة الثاني، من الراشدين، عمر بن الخطّاب (خليفة ٦٣٤ - ٦٤٤) بتعيين القائد يزيد بن أبي سفيان حاكمًا عسكريًّا عليها. وقضت شروط الصلح التي نفّذها يزيد بأن تبقى أراضي المسيحيّين وبيوتهم وكنائسهم وحريّة عقائدهم الدينيّة مصانة، مقابل التزامهم بدفع ضريبة والتعهّد بدفع الجزية، ويبدو أنّ قيمة تلك الضريبة والجزية كانت أقلّ ممّا كان يدفعه الأهالي للبيزنطيّين. وفي خلال سنتَي ٦٣٧ - ٦٣٨ استسلم للفاتحين المسلمين، دون معارك، كلّ من بعلبكّ وحمص وحماه وحلب وأنطاكية والمدن الفينيقيّة على الساحل اللبنانيّ. وأُلحقت جميع هذه المدن بالحاكم العسكريّ في دمشق: يزيد بن أبي سفيان.

---

١ - راجع: ELISSÉEF, ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM, *DIMASHK*, II: 288.

وعندما انهزم هرقل بجيوشه إلى القسطنطينيّة، أي إلى بلاد الروم، تبعه أكثر الملكيّين الذين هم من أصول رومانيّة وإغريقيّة، بينما لم يكن بوسع أهل البلاد الأصليّين النزوح بهذه السهولة، فوجد الملكيّون منهم أنفسهم في وضع صعب للغاية. بينما تمتّع غير الملكيّين، وهم القائلون بالمونوفيزيّة، بامتيازات نسبيّة على سائر المسيحيّين. وبذلك يبدأ فصل جديد من التحوّل الدينيّ في الشرق، إن بالنسبة للمعتقد المسيحيّ، أم بالنسبة لمصير المسيحيّة ككلّ.

هذه الأجواء هي التي سوف تقرّر، في ما بعد، لجوء الكنيسة المارونيّة بإكليروسها إلى مناطق أكثر أمنًا واستقرارًا من ضفاف العاصي: إلى جبال لبنان.

المَوَارنَة فِي لُبنَان

إثر الفتح الإسلاميّ نزح عدد كبير من رهبان دير مارون إلى جبال لبنان العاصية بسبب الاضطهاد الذي تعرّضوا له إثر الفتح الإسلاميّ، لأنّهم من الذين اعتُبروا ملكيّين، وقد استفاد اليعاقبة المونوفيزيّون من الحدث ليؤلّبوا الفاتحين على هؤلاء الرهبان انتقامًا للأحداث الدامية السابقة التي كان سببها الخلاف العقائديّ بين الطرفَين. هذا النزوح الرهبانيّ مكّن رهبان دير مارون من تلمذة أكثر سكّان الجبل اللبنانيّ على معتقدهم الأرثذوكسيّ الكاثوليكيّ. وكان، بعد الفتح الاسلامي، وبوجه التحديد، في الحقبة الممتدّة بين سنة ٦٣٤ وسنة ٦٤٤، عدد كبير من المسيحيّين قد ترك المدن الكبيرة، كالشام وحلب وحمص وحماه واللاذقية، قاصدًا الجبال والأرياف النائية، ومنها

جبال لبنان الشاهقة وأوديته السحيقة[1]. وذكر باحثون في هذا المجال أنّه عندما ضاقت بأولئك المسيحيّين سبل العيش في سورية، آثروا النزوح عنها والتخلّي عن تلك السهول الخصبة في سبيل المحافظة على حريّة معتقدهم المسيحيّ وكرامتهم الإنسانية. فولّوا وجوهَهم شطرَ لبنان الشماليّ، وسلكوا، من جملة ما سلكوا من طرق، لدى جلائهم عن مواطنهم القديمة في سورية، طريق ضفاف الأنهر حتّى وصلوا إلى منبع نهر العاصي في الهرمل[2]، حيث لا تزال آثارهم ظاهرة هناك حتّى يومنا هذا. ومن منطقة الهرمل، تسلّقوا جبال الأرز وحطّوا رحالهم في أماكن عديدة من مناطق لبنان الشماليّ، حيث استوطنوا بوجه خاص منطقة الجبّة ووادي "قاديشا"[3] و"قنّوبين"[4] في شمالي لبنان[5]. لا يشكّ باحثون في أنّه كان في لبنان الشماليّ، قبل الفتح العربيّ، مسيحيّون ينتسبون إلى رهبان دير مارون ويدينون بعقيدتهم الكاثوليكية والأنطاكيّة. وكان هؤلاء على السواحل اللبنانيّة وفي مناطق أخرى من لبنان، منذ فجر المسيحيّة، بعدما بشّر الرسل الساحل الفينيقيّ لدى مجيئهم من أورشليم إلى أنطاكية، مرورًا بصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس. ومع مرور الزمن، والتحاق هؤلاء بالجبال العالية، طالهم تبشير تلامذة مار مارون، كإبراهيم الناسك (†٤٢٨)[6]، وتلامذة مار سمعان العموديّ (†٤٥٩)، فانصهر

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠١.

٢ ـ **الهِرْمِل**: منطقة جبليّة في أعالي البقاع الشرقي من لبنان.

٣ ـ **قاديشا**: كلمة سريانيّة تفيد عن القداسة.

٤ ـ **قنّوبين**: كلمة سريانيّة تعني "دير الرهبان المبتدئين".

٥ ـ راجع: نعمان الأب بولس، المارونية بين الدين والدولة، مرجع سابق، ص ١٢.

٦ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢، حيث أورد الحاشية التالية: لمزيد من المعلومات عن نشاط تلامذة القدّيس مارون الرسولي، راجع: ضوّ الأب بطرس، تاريخ الموارنة، الجزء الأول، ص ٨٤ –٩٠، و٢١٥ –٢١٦. أمّا المطران ديب فيؤكّد، في مؤلّفه المذكور بالفرنسية، الجزء الأول، ص ٧٠، على أنّ الهجرة المارونيّة من سورية إلى لبنان تمّت على دفعات متقطّعة، منذ الجيل السابع حتى العاشر، دون أن يشير، ولو بطريق العرض، إلى وجود مارونيّ في لبنان.

المسيحيّون اللبنانيّون مع إخوانهم المسيحيّين الخلقيدونيّين الذين سُمّوا موارنة، وأتوا من مناطق سورية الثانية على أثر الاضطهادات والمنازعات في وحدة متراصّة في جبل لبنان، بعدما وثّقت في ما بينهم العقيدة واللغة الطقسيّة والصمود في مجابهة سوء المصير[1].

في تلك الحقبة، كان قد ساد القسطنطينيّة صراع على المُلك بعد وفاة هرقل سنة ٦٤١، فلم يملك هرقل الثاني المعروف بقسطنطين الثالث هرقل، ابن هرقل الأول من زوجته الثانية ابنة أخته، سوى شهر واحد، عقبه أخوه هرقل هرقليناس الذي لم يكن حظّه أفضل من سابقه. وبموت كنستانس الثاني عاد الصراع على المُلك، ما أدّى إلى تسليمه إلى قسطنطين الرابع سنة ٦٦٨ إذ كان لا يزال يافعًا، فتمرّد الجند في صقليّة وأرمينية، إلى أن بلغ التنازع حدّ استنجاد بعض القادة البيزنطيّين بالعرب ضدّ بعضهم الآخر، ما حدا بمعاوية إلى استغلال الفرصة السانحة، فبدأ محاولته للاستيلاء على قسطنطينيّة بالذات بين سنة ٦٧٣ وسنة ٦٧٨. ولكنّ محاولات معاوية العسكريّة البحريّة قد باءت بالفشل، وانتهت تلك المرحلة من الصراع إلى إقرار صلح بين الطرفَين مدّته ثلاثون سنة[2].

في عهد كنستاس، وتحديدًا في حوالى سنة ٦٦٦، أرسل الأمبراطور شرانم من الجراجمة، مع فرق من فرسان وجيوشٍ نظاميّة، إلى جبال لبنان ليقوموا بأعمال حربيّة ضدّ المسلمين الذين كانوا قد استولوا على معظم البلاد السوريّة، إضافة إلى مدن الساحل اللبنانيّ. فاندمج هؤلاء مع المسيحيّين الذين كانوا قد سبقوهم إلى سكنى الجبل،

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٢.

٢ ـ راجع: NICEPHORE, PP. 32 - 33, 42; THÉOPHANES, *CHRON.*, ART. 6169.

وكانوا قد عُرفوا بالمردة بسبب مقاومتم للمسلمين من جهة، وللمونوفيزيّين من جهة ثانية. ولفظُ المردة ساميّ يعني: الإنتفاض والمقاومة. أمّا الجراجمة فيُنسبون إلى "الجرجومة"، وهي المدينة الكبرى الواقعة في جبال اللكام (أمانوس)[١] وكانوا بحكم موطنهم على الحدود العربيّة البيزنطيّة بمثابة "جدار نحاسي"[٢] يصون آسية الصغرى من الفاتحين. وكانوا مسيحيّين ثائرين محاربين. وعندما استولى المسلمون العرب على أنطاكية، كان هؤلاء الجراجمة قد تعهّدوا للروم بأعمال الاستكشاف وحراسة الطرق التي تمرّ في جوارهم[٣].

باندماج الجراجمة مع المسيحيّين المقاومين[٤]، أصبحوا جميعًا يشكّلون قوّة أزعجت الأمبراطوريّة الإسلاميّة، لدرجةٍ رأى معها معاوية أنّه من الحكمة دفع جزية للروم مقابل امتناعهم عن مساعدة المردة في لبنان. حتّى أنّ المردة قد تلقّوا من الخليفة جزية مباشرة. وعليه انسحبت جموع الجراجمة من لبنان. ولكن في سنة ٦٨٩، وكان عهد خلافة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥) عاد الجراجمة إلى لبنان وتحصّنوا في مرتفعاته الشماليّة، ما اضطرّ عبد الملك إلى أن يدفع ضريبة للأمبراطور يوستينيانُس الثاني وأن يدفع للجراجمة مبلغ ألف دينار كلّ أسبوع[٥].

---

١ ـ ياقوت، معجم البلدان، ٢: ٥٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، طبعة دي غويه (ليدن،١٨٦٦) ص١٥٩.

٢ ـ THÉOPHANES, P. 364.

٣ ـ البلاذري، فتوح، مرجع سابق، ص ١٥٩.

٤ ـ لامنس الأب هنري اليسوعي، تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار، الطبعة الثانية (بيروت،١٩١٤) ٢: ٤١ ـ ٤٨؛ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٠.

٥ ـ راجع: كتاب أنساب الأشراف، نشر S.D.F. GOYTEIN (القدس،١٩٣٦) ٥: ٢٩٩ ـ ٣٠٠؛ لامنس، تسريح الأبصار، مرجع سابق، ٢: ٤١ ـ ٤٨؛ البلاذري، فتوح، مرجع سابق، ص١٦٠؛ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠؛ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٥٢.

ومنذ ذلك الحين، أصبح مركز الثقل للجماعة المسيحيّة التي سوف تؤلّف شعب الكنيسة المارونيّة في الجبال اللبنانيّة. ومع هذه الجماعة "بدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم"[1].

بَطرِيَركيّة أنطَاكيَة بَعدَ الفَتح الإسلامِي

يُجمع مؤرّخو كَنيسَة أنطاكية على أنّه لمّا اضطر الروم، على أثر الفتح الاسلاميّ سنة ٦٣٤، إلى الخروج من بلاد الشام، ولم يعودوا قادرين على التحكّم بمصيرهم والاهتمام بأمور دينهم ودنياهم، خرج البطاركة الملكيّون أيضًا من أنطاكية، ولم يستطيعوا البقاء فيها بسبب الحروب والمنازعات. فلجأ بعضهم إلى القسطنطينيّة واستقرّوا فيها نهائيًا، ولم يبقَ لهم من رئاسة الكنيسة الأنطاكيّة سوى الإسم فقط. فأقاموا هكذا في أمكنة نائية وبعيدة عن كرسيهم الأصيل، وعن أبناء كنيستهم ورعاياهم الذين مكثوا في أنطاكية ومناطق سورية المترامية الأطراف، مشتّتين كخرافٍ لا راعيًا لها. ونتيجةً لهذا الخلل، وبسبب التعسّف الدينيّ والجور والاضطهاد، شغر الكرسيّ الأنطاكيّ من بطريرك شرعيّ، بعد وفاة البطريرك الأصيل انستازيوس في أيلول (سبتمبر) ٦٠٩. ولم يُنتخب بعده أيّ بطريرك آخر بطريقة شرعيّة وقانونيّة[2]، بل كان الملوك البيزنطيّون يعيّنون، أحيانًا، بطاركة إسميّين فقط لأنطاكية. وكان هؤلاء يقيمون في القسطنطينيّة، دون أن تطأ أقدامهم أرض البطريركيّة الأنطاكيّة. وقد تعاقب على

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٠.

٢ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٣، ويورد هنا الحاشية التالية: حول ظروف شغور الكرسي الأنطاكي راجع: الأب بطرس فهد، حول كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونيّة (جونيه،١٩٥٤)، ص٩٣.

الكرسيّ الأنطاكيّ، بطريقة غير شرعيّة، في الحقبة التي سبقت نشأة البطريركيّة المارونية، ثلاثة بطاركة، هم[1]:

١) مقدونيوس من ٦٤٠ حتى ٦٦٥. أقام في القسطنطينيّة وحرمه البابا مرتينُس الأوّل، لأنّه حمل لقب بطريرك أنطاكية دون أن يكون بطريركًا شرعيًّا، ولم يتمكّن، بسبب الحروب المتواصلة بين العرب والبيزنطيّين، من الدخول إلى أنطاكية، فمات قبل تسلّم زمام سلطتها الروحيّة.

٢) مقاريوس من ٦٥٥ حتى ٦٨٠. أقام في القسطنطينيّة أيضًا، وحرمه المجمع المسكونيّ السادس المنعقد في القسطنطينيّة ٦٨٠، لتمسّكه ببدعة المشيئة الواحدة. لم يتمكّن هو الآخر من الدخول إلى كرسي أنطاكية. أقاله المجمع وانتخب مكانه بطريركًا آخر يدعى تاوفانس.

٣) تاوفانُس من ٦٨٠ حتى ٦٨٥. وهذا أيضًا، بالرغم من شرعيّة انتخابه، لم يتمكّن من دخول البطريركيّة الأنطاكيّة ومن تسلّم زمام أمورها وسلطتها الروحيّة. فظلّ في القسطنطينيّة حتّى وفاته في أواخر سنة ٦٨٥.

كان من الطبيعيّ، بعد شغور الكرسيّ الأنطاكيّ من بطاركة شرعيّين يقيمون بين أبناء كنيستهم، أن يؤدّي هذا الوضع الشاذّ إلى انتخاب بطريرك أصيل وشرعي يقيم في نطاق البطريركيّة الأنطاكيّة، ويسهر على مصالح المؤمنين فيها، ويحامي عن معتقدهم السليم[2]. وهكذا قرّر القسم الأكبر من الرهبان والأساقفة الأنطاكيّين الخلقيدونيّين، ومن جملتهم رهبان دير مارون، انتخاب بطريرك من بينهم ليقود الرعيّة في ذلك الظرف العصيب. أمّا هذا البطريرك المنتخب فكان: يوحنّا مارون.

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٣، بالاستناد إلى: SFEIR CF. J. PIETRO, *LA MESSA SIRO-MARONITA* (ROMA, 1949) PP. 119 - 122؛ وضوّ الأب بطرس، تاريخ الموارنة، الجزء الأول، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٥.

٢ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤.

الفَصلُ الثَّالِث

البَطرِيَركُ يُوحَنَّا مَارُون

نَسَبُ البَطرِيَركِ يُوحَنَّا مَارُون؛ يُوحَنَّا مَارون أسقُف عَلَى جُبَيل والبَترُون؛

يُوحنَّا مَـــارُون البَطرِيَركُ الأَنطَاكِيّ؛ البَطرِيَركُ يُوحَنَّا مَارُون في لُبنَان؛

كَفَرحَي بعدَ أَنطَاكِيَة؛ وَفَاةُ يُوحنَّا مَارُون وقَدَاسَتُه؛

ردُّ التَّشكِيك بِحَقِيقَةِ البَطرِيَركِ يُوحنَّا مَارُون؛

نَسَبُ البَطرِيَركِ يُوحَنَّا مَارُون

إختلف الباحثون في أصل البطريرك يوحنّا مارون الذي لُقِّب بالسروميّ نسبة إلى سروم، القرية السوريّة الواقعة في السويديّة القريبة من أنطاكية[1]. فمنهم مَن قال بأنّه من أصل غربيّ،[2] ومنهم مَن اعتبره سريانيّ الأصل، وقد كان سبب هذا التباين في الرأي سوء قراءة كلمة وردت في الـ"ميمر[3]" الذي ألّفه عبد يشوع قبل سنة ١٥٥٥، وعدّد فيه العلماء والكتّاب، وقد ترجم هذا الميمر إبراهيم الحاقلاني[4] سنة

---

١ ـ ذكر هذا التعريف عن سروم يعقوب البرادعي أسقف الرها السرياني ٥٤١ ـ ٥٧٨، وقال إنّها في جبل السويديّة على مسافة متساوية بين أنطاكية ودير القدّيس مارون. ـ راجع: البطريرك الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٩.ـ وقد عُرفت في ما بعد باسم "سرمانية"، وهي تقع بحسب التحديد الجديد عند أسفل جبل العلويّين على مسافة ١١ كلم إلى الجنوب عن جسر الشغور، وعلى مسافة غير بعيدة عن نهر العاصي، وقعت في يد الإفرنج ١١٠٦، فأضحت إقطاعا لأسرة فرنسيّة لُقّب أبناؤها بأمراء سرمانية، ومنهم "جيرفي دي سرمانيا"، ومن هذه العائلة بارون أنطاكية وابنه أشيفارد بارون أرمينيا، فتحها صلاح الدين الأيوبي ١١٨٨، وبالقرب منها قريتان، إسم الواحدة ماروني والثانية موارنة.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٣، حيث جاء أنّ يوحنّا مارون "من أصل شريف، إسم أبيه "أغاثون" واسم أمّه "أنوهاميا"، واسم جدّه "إليديس" إبن أخت ملك فرنسا.."؛ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤٠.

٣ ـ المَيمَر: كتاب صلاة أو منشور كنسي.

٤ ـ إبراهيم الحاقلاني (١٥٩٤ ـ ١٦٦٤): من كبار العلماء الموارنة، ولِد في حاقل جبيل، تلقّى علومه في المدرسة المارونيّة في روما ونال رتبة ملفان في الفلسفة واللاهوت وبقي علمانيًا، تولّى تدريس اللغة السريانيّة والعربيّة في جامعة البروباغندا ١٦٣٠ بروما، اشترك في تصحيح الكتاب المقدّس بباريس ١٦٤١، عاد إلى لبنان واتّصل بالأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير الذي عهد إليه الاهتمام بأولاده وجعله رسوله إلى أمير توسكانا "قوزما" في شؤون سياسيّة وتجاريّة، رجع إلى باريس ليستأنف التأليف فسُمّي ترجمانًا ورئيس مكتبة اللغات الشرقيّة في روما، ثمّ معلّمًا للغات الشرقيّة في جامعة فرنسا خلفًا للصهيوني، وباهتمام الكردينال "ريشليو" أصبح ترجمان البلاط الفرنسي كما كلّفه بترجمة بعض الكتب العربيّة، نُقش اسمه في جامعة فرنسا بين أسماء الأساتذة الكبار، وتُوفّي في روما.

١٦٥٣. فالحاقلاني، وهو من مشاهير علماء الموارنة اللبنانيّين، في ترجمته لتلك الكلمة عن السريانيّة قرأ "ابن الإفرنج" بدل "ابن الفخّارين"، والكلمتان متشابهتا الكتابة في السريانيّة، وهكذا ترجم عن الميمر: "يوحنّا ابن الفرنج" عوضًا عن "يوحنّا ابن الفخّارين" كما يقول السمعانيّ الكبير[1]. من هنا كان الخلاف حول أصل يوحنّا مارون[2].

وُلِد يوحنّا في قرية سروم حوالى سنة ٦٢٧،[3] حصّل علومه الرياضيّة والدينيّة في مدرسة أنطاكية في بداية نشأته، ثمّ انتقل إلى دير القدّيس مارون على ضفاف

---

١ ـ يوسُف سِمعَان السِّمعَاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨): هو المعروف بالسمعاني الكبير، أعظم علماء الموارنة على الإطلاق، من حصرون أصلاً ومن طرابلس مولدًا حيث أبصر النور في ٢٧ تموز، أرسل إلى روما ١٦٩٥حيث انكبّ على التحصيل، أتقن ثلاثين لغة ونال الدكتوراه في اللاهوت والفلسفة، وضع جدولا إيضاحيًا لأربعين مخطوطًا ما دفع البابا كليمانت الحادي عشر لإرساله إلى مصر بهدف اقتناء ما أمكن من المخطوطات القيّمة، لدى عودته عيّن باحثًا في المكتبة الفاتيكانيّة فشرع في إعداد المواد لوضع "المكتبة الشرقيّة"، سيم كاهنًا ١٧١٩، عيّنه البابا كليمانت الثاني عشر الحافظ الثاني للمكتبة الفاتيكانيّة، ثمّ عيّن مستشارًا في مجمع نشر الإيمان المقدّس، كلّفه كارلوس الرابع ملك نابولي وصقليّة سنة ١٧٥١ بالقيام بوظيفة مؤرّخ مملكة نابولي، عمل السمعاني في وضع جدول أعمال المجمع اللبناني ١٧٣٦ حيث أرسل من قبل البابا بوصفه معتمدًا رسوليًا للكنيسة المارونيّة لإصلاح التهذيب البيعي في طائفته، رقّي إلى درجة الأسقفيّة على أبرشيّة صور المارونيّة والأراضي المقدسة. ٣٠ آب (أغسطس) ١٧٦٨. شبّ حريق في مكتبته فأتلفها، وبعد مرور أربعة أشهر على هذه الكارثة مات في ٣١ كانون الأوّل (ديسمبر) ودفن في كنيسة مار يوحنّا الإنجيلي في روما. للعلامة السمعاني عدّة مؤلّفات في العربيّة واللاتينيّة منها: "المكتبة الشرقيّة" في ١٣ مجلدًا طبع منها أربعة مجلّدات ١٧١٩. "مجموعة مار افرام السرياني" باليونانيّة والسريانيّة في ٦ مجلّدات. مجموعة "تاريخ المشرق" في ٩ مجلّدات. مجموعة "التصوير الكنسي" في ٥ مجلدات. "أصل الرهبان في جبل لبنان". الاكولوجيوم: أي مجموعة الرتب وكتب الصلوات والفروض والأسرار؛ كما وضع مؤلفات في مواضيع مختلفة، وتعتبر هذه الثروة العلميّة والثقافيّة مرجعًا أساسيًا للعلماء والباحثين في الشرق وتاريخه ولغاته وفكره وأديانه ولاهوته وحضاراته. له نصب في باحة كنيسة السيدة في بلدته الأم حصرون، أزيح الستار عنه في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٨ بحضور البطريرك مار الياس الحويّك والرئيس شارل دبّاس ورئيس الوزراء حبيب باشا السعد وجمع غفير من الأعيان وأبناء الشعب؛ راجع: مفرّج طوني، بنو المشروقي أصول وفروع، منشورات بيوغرافيا (جبيل ـ لبنان،١٩٩٩) ص ١٩٧؛ مفرّج طوني، حصرون ٢٠٠١، منشورات بيوغرافيا (جبيل ـ لبنان،٢٠٠١) ص٦٧.

٢ ـ يوسف سمعان السمعاني، المكتبة الشرقيّة، ١: ٥١٠؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٣.

٣ ـ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤٠.

العاصي حيث أضاف إلى علومه اللاهوت، ومنه انتقل إلى القسطنطينيّة حيث درس اليونانيّة واقتبس العلوم التي كانت متاحة التحصيل في الدين والكتاب المقدّس، وما لبث أن عاد إلى دير مار مارون حيث سيم كاهنًا.

إشتهر هذا البطريريك باسم يوحنّا مارون، نسبة إلى الدير الذي ترهّب فيه،[1] وطغى هذا اللقب على لقب السرومي الذي حمله من قبل، يوم كان يُعرف بيوحنّا السرومي، وعُرف أحيانًا بيوحنّا المسمّى مارون، وأحيانًا بمارون فقط. لذلك خلط بعض المؤرّخين بين يوحنّا مارون هذا، البطريرك الأوّل للكنيسة المارونيّة، وبين مار مارون، مؤسّس الكنيسة المارونيّة. كما خلط آخرون بين يوحنّا مارون هذا وبين يوحنّا سرومي آخر أحلّه مرقيانوس[2] محلّ أوطيخا[3] على كرسي القسطنطينيّة سنة ٤٥١ لقول هذا الأخير بالطبيعة الواحدة،[4] بينما الثابت أنّ يوحنّا مارون البطريرك كان بطريركًا بين ٦٨٦ و٧٠٧.

وهنالك لقبٌ آخر أطلِق على يوحنّا مارون من قبل مناوئيه، نادرًا ما تحدّث عنه المؤرّخون، هذا اللقب هو "مُوَيْرين"، أي مارون الصغير، وقد أطلقه عليه خصومه القائلون بالطبيعة الواحدة بالمسيح، كما أطلقوا لقب "بْرَيْهِم" على ابراهيم، ابن شقيقة

---

١ ـ ذكر الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٦٤، أنّه "إنّما يُسمّى يوحنّا لولادته في يوم تذكار القدّيس يوحنّا صابغ الربّ الواقع في ثاني الدنح، ويُسمّى مارون لأنّه لبس اسكيم الرهبانيّة في دير القدّيس مارون الذي على النهر العاصي".

٢ ـ جاء في بعض النصوص هنا يوستينوس الأوّل، غير أنّ هذا لا يتناسب مع التاريخ، لأن يوستينوس الأوّل الذي عاش بين ٤٥٠ و٥٢٧، والذي وُلِد في بدريانا (إيلّيريا)، كان أمبراطورًا بيزنطيًا ٥١٨ ـ ٥٢٧، وقد حارب هو أيضًا المونوفيزيّين ووضع حدًّا للخلاف مع روما. لمّا الأمبراطور في سنة ٤٥١ فكان مرقيانُس (أمبراطور ٤٥٠ ـ ٤٥٧) كما جاء سابقًا.

٣ ـ أوطيخا EUTYCHÈS (٣٨٨ ـ بعد ٤٥٤): هو الراهب اليوناني الذي عاش في القسطنطينيّة وقال بالمونوفيزيّة، فحرمه المجمع الخلقيدوني ٤٥١ كما ذكرنا سابقًا.

٤ ـ السمعاني، المكتبة الشرقيّة، ١: ٤٩٦؛ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٢.

يوحنّا مارون وذراعه العسكريّة[1]، وقد جاء في بعض كتبهم في مجال وصفهم للإضطهاد الذي أنزله بهم بعض أباطرة البيزنط لإلزامهم القبول بمقرّرات المجمع الخلقيدونيّ: "فارتفع مُوَيْرين وابن أخته بَرِيَهيم"[2].

يبدو أنّ يوحنّا لم يكن له من الأشقّاء سوى شقيقة واحدة، هي والدة ابراهيم وقورش. فقد جاء في بعض المدوّنات أنّه "بينما كان يتعلّم في القسطنطينيّة، عرف بوفاة والدَيه، فعاد إلى وطنه وولّى ابن أخته "ابراهيم[1]" على تدبير البيت وأخذ "قورش[1]" وصعد إلى دير القدّيس مارون الذي على نهر العاصي"[3]، وهناك ترهّب قورش سائرًا على درب خاله[4].

بعد أن أتمّ يوحنّا مارون علومه وعاد إلى دير مار مارون، راح يعظ ويكتب مجاهدًا ضدّ البدع التي شاعت في ذلك الزمن، وقد حفظت لنا المدوّنات ما مفاده أنّه "هدى كثيرين إلى الإيمان القويم، وكان كثيرون يأتون إليه ويعملون بما يُشير عليهم به"[5]، وأنّه صنّف كتبًا عديدة في التربية واللاهوت والتاريخ وتفسير الكتاب المقدّس وفي الردّ على البدعة النسطوريّة وفي التأكيد على الطبيعتَين والمشيئتَين في المسيح، حتّى اشتهر في بلاد الشرق قاطبة. وقد عُرف من مؤلّفاته:

---

١ ـ كان ليوحنّا مارون شقيقة لها ولدان هما: إبراهيم، وقورش، وقد وُصف ابراهيم، وهو البكر، بأنّه كان صاحب رأي وشجاعة في الحروب، ولمّا انتقل خاله من دير حماة إلى سمار جبيل، كان متقلّدًا إمارة الجيش، أمّا قورش الذي يُسمّى أيضًا كروس أو كروسي، فحذا حذو خاله وخلفه على رئاسة الكرسي الأنطاكي. وسيأتي الحديث عنهما.

٢ ـ راجع: رشيد الخوري الشرتوني في كتاب: للدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، هامش ص٥٤.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٤.

٤ ـ فهد الأبآتي بطرس، بطاركة الموارنة وأساقفتهم، الحقبة ٦٨٥ إلى القرن ١٢، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٥) ص١١٣، عن ضوء الأب بطرس، تاريخ الموارنة، ص٣٦٢.

٥ ـ السمعاني، المكتبة الشرقيّة، ١" ٤٩٩؛ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤١.

الأوّل: "نافور[1] القدّاس"، وهو مثبّت في الصفحة ١٠٠ من الكتاب الخامس من كتب الحاقلاني* في "المكتبة الفاتيكانيّة"، وقد خُطّت النسخة المثبّتة في "كمبليني" قبرص سنة ١٨٤٦ يونانيّة الموافقة لسنة ١٥٣٥ ميلاديّة، وذكر الدويهي هذا النافور في كتابه "المناير العشر"، الفصل الثاني، في "مؤلّفي النوافير الكاثوليكيّة" حيث قال: "يوحنّا المسمّى مارون الذي ارتقى بعد توفان بطريرك أنطاكية إلى ذلك الكرسي في سنة ٦٨٥ صنّف النافور الذي بدؤه ـ أمامك يا ملك الملوك وسيّد السادات ـ"[2]

الثاني: كتاب "إيضاح الإيمان". وهو الكتاب الذي أرسله يوحنّا مارون إلى اللبنانيّين من دير مارون على العاصي. والكتاب مثبّت بالسريانيّة مع ترجمته العربيّة في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلاني في "المكتبة الفاتيكانيّة"، وقد خُطّت النسخة المحفوظة سنة ١٣٩٢ كما يتبيّن من ذيل الكتاب الذي جاء فيه: "كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب كتاب إيمان الكنيسة المقدّسة سنة ١٧٠٣ (يونانيّة توافق سنة ١٣٩٢ ميلاديّة) بيد رجل حقير خاطي إسمه الشمّاس "يوسف غريب" من قرية اسمها ثمانية ومئة وثلاثين[3] من عمل جبيل ساكن بقرية "بان" من "جبّة بشرّي" وكان الفراغ منه في ٢٠ شهر شباط (فبراير)". وقد عثر "فرنسوا نو"،[4] على نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الوطنيّة بباريس خُطّت سنة ١٤٧٠ ونشرها بالسريانيّة مع ترجمة فرنسيّة أواخر القرن التاسع عشر. وهناك نسختان في المكتبة البطريركيّة المارونيّة من هذا الكتاب نسخ إحداهما "الشدياق موسى" وأخوه "عيسى" إبنا "الخوري

---

١ ـ النّافور: عند المسيحيّين، سرّ القربان المقدّس، والصلوات التي تتلى عليه، والكلمة ذات أصول يونانيّة.

٢ ـ الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٥٠.

٣ ـ هذا الرقم كتب بالسريانيّة، وهو إذ ذاك يعني: "حاقل" موطن ابراهيم الحاقلاني، وهي من قرى قضاء جبيل من جبل لبنان.

٤ ـ فرنسوا نو FRANÇOIS NAU: عالم كنسي بريطانيّ الأصل، نشر أبحاثًا في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين.

يوسف" من حاقل*، وقد اطّلع عليها المطران جبرائيل إبن القلاعي* وكتب عليها بخطّ يده بعض تعليقات سنة ١٥٠٣؛ أمّا الثانية فظاهرة القِدَم، ولكنّها خالية من أيّ تاريخ بسبب تمزّق صفحات من أوّل الكتاب ومن آخره، بيد أنّه جاء في الصفحات الأولى الباقية باللغة السريانيّة: "باسم الله نأخذ في تدوين كتاب الإيمان المقدّس الذي ألّفه مارون المدعو يوحنّا وكان بطريركًا على مدينة اللّه أنطاكية وسائر الشام وسوريا وكان تأليفه بدير القدّيس مارون الطوباوي المتّشح باللّه". أمّا فاتحة ترجمة الكتاب العربيّة فجاء فيها: "باسم الله نبتدي نكتب إيضاح الإيمان المقدّس اعتقاد البيعة الرسوليّة الذي كتبه القدّيس يوحنّا بطريرك أنطاكية في دير مارون على نهر العاصي بلد حماه وحمص وأورد ذلك إلى جبل لبنان ولأجل ذلك يسمّوا أهل الجبل المذكور موارنة على اسم الدير ويُسمّى يوحنّا المذكور مارون هو أيضًا على اسم الدير". وقد أفاد علماء متخصّصون أنّ يوحنّا مارون ألّف هذا الكتاب في القرن السابع،[1] وقد جمع في هذا الكتاب ـ الرسالة "من البراهين اللاهوتيّة والفلسفيّة وشهادات الوحي لأكثر الآباء القدّيسين لأخصّ أسرار الإيمان التي خالفتها بدع ذلك العصر"، وقد قيل في هذه الرسالة: "لم تسمح قريحة بمثالها ولا نسج ناسج على منوالها" كما جاء في الشرطونيّة[2] المحفوظة في دير اللويزة للرهبانيّة المريميّة[3].

---

١ ـ الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٥٠ ـ ٥١.

٢ ـ الشرطونيّة: كتاب يحوي الاحتفالات بالدرجات والرتب الكنسيّة التي يهبها الأسقف بوضع اليد. وقد وقف ابراهيم الحاقلاني على كتاب للقدّيس يوحنّا مارون في تفسير شرطونيّة الكاهن تكلّم فيه على كهنوت المسيح والكهنوت في العهد الجديد وفروض الكهنة وخدمتهم، ولعلّ هذا الكتاب هو نفسه الذي ذكره الدويهي هنا. راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، حاشية ص٥٦ ـ ٥٧.

٣ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٦ ـ ٥٧.

الثالث: كتاب "في ردّ مزاعم أصحاب المشيئة الواحدة". وهو مثبّت في الصفحة ١٠٣ من الكتاب الرابع عشر للحاقلانيّ في المكتبة الفاتيكانيّة بعد كتاب "إيضاح الإيمان" وفاتحته: "ثمّ نكتب شيئًا من المباحث ردًّا على أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في المسيح وهم من يزعمون أنّ طبيعة كلمة اللّه البسيطة قد امتزجت واختلطت بطبيعة ناسوته فكانت فيه طبيعة واحدة...". إلى أن يقول: "قولوا لنا أيّها الإخوة الأبرار إنّ هذه الطبيعة التي تعتقدونها بربّنا من بعد الاتّحاد أهي مساوية للآب جوهرًا أم غير مساوية...". وهذا الكتاب أخفاه المطران توما الكفرطابي* الذي كان يسعى إلى تعليم ما التقطه من مزاعم تاريخ ابن البطريق* عن الطبيعة الواحدة وعن البطاركة والملوك الذين تمسّكوا بالمونوفيزيّة[1].

الرابع: كتاب "في ردّ مزاعم النساطرة[2]"، وهو مثبّت في الصفحة ١١٤ من الكتاب الرابع عشر للحاقلانيّ في "المكتبة الفاتيكانيّة" وفاتحته: "ثمّ نكتب قليلا من كثير من ردّ مزاعم النساطرة..." إلى أن يقول: "قال بولس الرسول إنّ اللّه رضي عنّا بموت ابنه".

الخامس: كتاب "في التريساجيون"، أي "التقديسات الثلاثيّة": قدّوس الله قدّوس القويّ قدّوس الذي لا يموت. وهو جواب على مَن يزعمون "أنّنا نعزو الصلب إلى الثالوث الأقدس إذ نزيد على التقديسات - يا من صُلبت لأجلنا". وهذا الكتاب مثبّت في الصفحة ١٢٥ من الكتاب الرابع عشر للحاقلانيّ في "المكتبة الفاتيكانيّة"، ولكن بخطّ

---

١ - هذا ما جاء في الشرطونيّة المحفوظة في دير اللويزة للرهبانيّة المريميّة.

٢ - المذهب النسطوري، تابعه نسطوري، وجمعها نساطرة: نسبة إلى نسطور NESTORIUS (نحو ٣٨٠ - ٤٥١): بطريرك القسطنطينيّة، ولِد في قيصريّة سوريا، بطريرك ٤٢٨، قال بأقنومَين في المسيح وأنكر على مريم لقب أمّ اللّه، حرمه مجمع أفسس ٤٣١، أتباعه هم النساطرة أو الأشوريّون؛ راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة، فصل "الكنيسة الأشوريّة".

العبري[1] في كتابه "أوصرزُزي"؛ وكتاب يحوي "مجموعة رسائل بعث بها إلى الغير في معان مختلفة، من جملتها رسالتان برهن في إحداهما عن أنّ في المسيح طبيعتَين إلهيّة وبشريّة، وفي الثانية أنّ فيه مشيئتَين[2]"، ونُسب إلى يوحنّا مارون أيضًا كتاب في "الربط"، وكتاب في "الكمال"، وكتاب في "تفسير نافور مار يعقوب أخي يسوع[3]".

وتفيد التواريخ المارونيّة القديمة التي وردت عند علماء الطائفة المارونيّة ومؤرّخيها[4]، أنّ البطريرك يوحنّا مارون كان في عداد الرهبان الذين حضروا جلسة الحوار الجدليّ التي جرت في مجلس معاوية (خليفة ٦٥٧ ـ ٦٨٠)، حول المعتقد الكاثوليكيّ الصحيح، بين الأساقفة اليعاقبة وتلامذة مار مارون وأنصاره، في السنة الرابعة عشرة للملك قسطنطس الثاني[5]. ولما غُلب أساقفة اليعاقبة على أمرهم في هذا

---

١ ـ إبن العبري (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦): هو أبو الفرج غريغوريوس، وُلِد في ملطيا، من ألمع رجالات الأدب والعلم لدى السريان، هاجرت عائلته إلى أنطاكيا بعد الغزو المغولي ١٢٤٣، ثمّ درس الطبّ والفلسفة في طرابلس لبنان على طبيب نسطوري، أسقف حلب على السريان المونوفيزيّين ١٢٤٦، مفريان الشرق ١٢٦٤، كتب في النحو والشعر والفلسفة واللاهوت، له مؤلّفات قليلة بالعربيّة أشهرها "مقالة في النفس البشريّة" و"تاريخ مختصر الدول"، وله بالسريانيّة مؤلّفات كثيرة منها "التاريخ الكنسي" و"منارة الأقداس"، تُوفّي في مراغة (أذربيجان).

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٤ ـ ٥٥، عن الميمر لعبد يشوع.

٣ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٥ ـ ٦١.

٤ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٤، عن: دريان المطران يوسف، أصل الجراجمة والمردة والموارنة، ص ٣٨؛ غبريل الخوري ميخائيل عبد الله، تاريخ الكنيسة الأنطاكيّة السريانيّة المارونيّة، م١، (بعبدا،١٩٠٠) ص ٢٥٥ وما بعدها؛ فهد، حول كتاب الهدى، مرجع سابق، ص٨٨.

٥ ـ كونستانس الثاني (٦٤٢ ـ ٦٦٨) الذي قال بمعتقد المشيئتين في المسيح؛ ما يعني أنّ جلسة الحوار الجدلي التي جرت في السنة الرابعة عشرة لحكم هذا الملك، كانت سنة ٦٦٨، أي قبل أن يصبح يوحنّا مارون أسقفًا كما سيأتي أدناه ـ المؤلّف.

الحوار، أمر معاوية بأن يدفعوا له عشرين ألف دينار في السنة لئلاّ يكفَّ يده عنهم، فيتعقّبهم عندئذٍ أنصار القدّيس مارون[1].

يُوحَنّــــا مَـــــــارون
أسقُف عَلَى جُبَيل وَالبَترُون

بينما كانت الخلافات والانقسامات على أشدّها داخل الكنيسة في الشرق، وكانت موزّعة بشكل رئيسيّ بين الكنيسة الأمّ الخلقيدونيّة من جهة، والقائلين بالطبيعة الواحدة أي المونوفيزيّين من جهة ثانية، والقائلين بالمشيئة الواحدة أي المونوتيليّين من جهة ثالثة، حصلت مواجهات عنيفة بين المسيحيّين في الشرق. وكان المسيحيّون من أهل البلاد، عربًا وسريانًا على العموم، ومنذ زمن بعيد، مناهضين للبابا وللأمبراطور في آن، فكان جلّهم يقول بالمونوفيزيّة التي عُرفت باليعقوبيّة نسبة إلى السرياني! يعقوب البرادعي وهو من أبرز دعاتها[2]. أمّا السبب الأوّل في اتّباع أهل البلاد لهذا المبدأ، فلم يكن نابعًا من معتقد دينيّ بقدر ما كان مردّه إلى دوافع قوميّة محليّة معادية لبيزنطية، كما سبق وأشرنا. وانفردت الكنيسة المارونيّة بين الكنائس الشرقيّة بعدم الخلط بين القوميّة والإيمان.

بينما كان يوحنّا مارون يجاهد بالفكر والكلمة من أجل الإيمان الأرثذوكسيّ المستقيم، كما أقرّ تعاليمه المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١، جاء إلى أنطاكية موفد بابويّ برتبة كردينال، وراح يدعو إلى الإخلاص للعقيدة الأرثذوكسيّة القائلة بالطبيعتَين

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٤، حيث أورد الحاشية التالي: اكتشف هذا الحوار الجدلي العالم الالماني NOLDEKE، ونشره في المجلّة الأسيوية ZOMG، وقد عرّبه معلّقًا عليه الأب هنري لامنس في "المشرق" ١٨٩٩، ص٢٦٥.

٢ ـ راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

والمشيئتَين. وكان البطريرك الأنطاكيّ إنذاك، مكاريوس[1]، مقيمًا في القسطنطينيّة، وكان من الذين قالوا بالمونوفيزيّة، وجمع حوله بعض الأتباع من الكنيسة الأنطاكيّة. في خضمّ ذلك الارتباك، كان الكرسي الرسوليّ قد عيّن نائبًا له على بطريركيّتَي أنطاكية وأورشليم، أسقف "فيلاديلفيا[2]" المعروف بيوحنّا الفيلاديلفيّ، وقد جاء في براءة بعثها البابا مرتينوس (بابا ٦٤٩ - ٦٥٣) إلى الأسقف يوحنّا:

> ندعوك لأن تكون نائبًا لنا في هذه الأمصار الشرقيّة في جميع المقتضيات البيعيّة، فأسرع إلى إصلاح كلّ ما كان إصلاحه لازمًا وإلى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة لبطريركيّتَي أنطاكية وأورشليم، وإنّا نأمرك بذلك بموجب السلطان الرسوليّ الذي أولانا الله إيّاه بواسطة بطرس زعيم الرسل[3].

في الوقت نفسه، أرسل البابا مرتينوس تعميمًا إلى جميع الكهنة والأساقفة والشمامسة ورؤساء الأديار في بطريركيّتَي أنطاكية وأورشليم أعلمهم فيه عن قرار مجمع لاتران* بتحريم مبدأ المونوفيزيّة، وعن إرساله إلى الفيلاديلفيّ نسخة عن مقرّرات مجمع لاتران ليطلعهم عليها، وجاء في التعميم:

> إنّه بالسلطان الذي أولاني الله إيّاه قد أقمت يوحنّا الفيلاديلفي نائبًا لي في الشرق، فأناشدكم أن تُحسنوا الطاعة له، وأن تجانبوا الهراطقة، ولا سيّما "مكدونيوس" الذي غصب كرسيّ أنطاكية، و"بطرس" الذي تدخّل على كرسي إسكندريّة[4].

---

١ - مكاريوس: منّي بطريركًا على أنطاكية ٦٧١ - ٦٨٠، قال بالمشيئة الواحدة، أقام في القسطنطينيّة، حرمه المجمع السادس ٦٨٠ وخلعه ونفاه إلى روما لتمرّده على المجمع المسكوني.

٢ - فيلاديلفيا: الإسم اليوناني لعمّان الأردن

٣ - عن براءة البابا مرتينوس التي أثبتها "لاباي" في المجلّد السادس من مجموعة المجامع، ص٢٠٤؛ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤١.

٤ - المرجع السابق.

إثر ذلك، أخذ المندوب البابويّ يسعى، بمعاونة أسقف فيلاديلفيا، من أجل تطهير داخل الكنيسة الأنطاكيّة من الخارجين على الفكر القويم للكنيسة المسكونيّة، مستعينًا ببعض أمراء الإفرنج الذين كانوا في الشرق، ومن بين هؤلاء أمير اسمه "أوجان البرنس[1]"، كان قد بلغه عن أعمال يوحنّا دير مارون وعن مدى تمسّكه بالتعاليم المستقيمة للكنيسة، وقدرته على دحض البدع من خلال علمه ونشاطه وتوقّد ذهنه، فنصح هذا الأمير[2] المندوب البابوي بأن يرقّي الراهب يوحنّا إلى الأسقفيّة. "فرقّاه الكردينال المذكور[3] إلى أسقفيّة البترون وجبل لبنان ليحافظ هناك على الإيمان الكاثوليكيّ وعلى الاتّحاد بالكنيسة الرومانيّة[4]". وقد ذكرت مراجع مونوفيزيّة أنّ تعيين يوحنّا مارون أسقفا على جبيل والبترون قد جاء بناءً على طلبه هو، وليس بناء على اقتراح البرنس[5].

---

١ ـ ذكر بعض المراجع أن أوجان البرنس هذا كان أميرًا على أنطاكيا. ـ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤١.

٢ ـ قيل أيضًا إنّ جميع الإفرنج المقيمين في أنطاكيا قد نصحوا المندوب البابوي بما نصحه به أوجان البرنس. ـ السمعاني، المكتبة الشرقيّة، ١: ٤٩٩.

٣ ـ قابل: البطريرك بولس مسعد، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص١٤١ حيث جاء أنّ الذي رقّى يوحنّا مارون إلى الأسقفيّة إنّما كان يوحنّا الفيلاديلفي بتفويض من البابا مرتينوس.

٤ ـ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١١٤، عن ضوّ الأب بطرس، تاريخ الموارنة، ص٣٦٢.

٥ ـ جاء في مخطوط منسوب إلى السريان المونوفيزيّين مكتوب بالحرف الكرشوني ومحفوظ في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٤٢٤ من القسم السرياني: "أنتم كلّكم سريان، وكان كرسيّ بلدكم لأنطاكية السريان إلا لمّا جارت ملوك الروم على السريان وقتلوهم قام مارون ووافق ملك الإفرنج الذي في أنطاكية، وكان اسمه أوجان برنس، وقال له ـ يا ملك الزمان نخاف على جبل لبنان أن تستميله أمّة الملكيّة إلى معتقدهم فقل للكردينال الذي عندك والزمه يكرّسني مطران حتّى أمسك بعض الناس على أمانة الفرنجيّة إلا أمانة يعقوب فلا أنكرها ـ ، فكرّسه مطران على البترون". راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١١٤؛ الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤١.

وجاء في بحث موثّق حديث، أنّ يوحنّا مارون أقيم أسقفًا على البترون سنة ٦٧٦، وثُبّت من قبل النائب الرسوليّ لبطريركيّتَي أنطاكية وأورشليم، السيّد يوحنّا مطران فيلادلفيا* الذي كان قد عيّنه الكرسيّ الرسوليّ نائبًا له سنة ٦٤٩، حفاظًا على النظام الكنسيّ في الشرق المسيحيّ. فأظهر الأسقف يوحنّا مارون، بعد ارتقائه إلى الدرجة الأسقفيّة، غيرة متّقدة على حفظ الإيمان الكاثوليكيّ وتوطيد دعائمه ومناصرة تعاليم المجامع المسكونيّة. وتوصّل، بعلمه وتقواه، إلى هداية الكثيرين إلى الإيمان الحق[1].

ما يُمكن استنتاجه من ما جريات الأحداث تلك، أنّ تاريخ تعيين يوحنّا مارون أسقفًاعلى جبيل والبترون، قد كان قبل سنة ٦٨٠، وهي السنة التي انتهى فيها عهد بطريكيّة مكاريوس على أنطاكية بعد حرمه من قبل المجمع المقدّس ونفيه إلى روما. وقد حدّد بعض مؤرّخي الكنيسة المارونيّة تاريخ تعيين يوحنّا مارون أسقفًا على جبيل والبترون بسنة ٦٧٦.[2]

ما إن كان هذا التعيين، حتّى انتقل الأسقف يوحنّا مارون إلى نطاق أبرشيّته، وجعل مقرّه أوّلاً في "سمار جبيل" على الساحل بين جبيل وطرابلس، ما يعني أنّ الوجود المسيحيّ كان قد تعزّز في تلك المنطقة قبل نهاية القرن السابع. ومن سمار جبيل انتقل الأسقف بعد حين إلى قرية "كفرحيّ" في وسط بلاد البترون في شمال لبنان. وقد جاء في المدوّنات أنّ يوحنّا مارون راح، يومذاك، "يجتهد في

---

١ ـ صفير، الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٤، إستنادًا إلى: ASSEMANI J., *BIBLIOTHECA ORIENTALIS*, T. I (ROMA,1719) P. 499.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٦٢؛ قابل: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤٢، حيث جاء أنّ ذلك التعيين حصل بين سنتَي ٦٧٥ و٦٧٦.

الوعظ والتبشير متجوّلا بغيرة الرسل في أنحاء أبرشيّته ولبنان، هاديًا ومرشدًا، وتمكّن من هداية الكثيرين من القائلين بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة إلى الإيمان الصحيح[1]".

بيد أنّ نشاطات يوحنّا مارون لم تقتصر، في تلك الحقبة الدمويّة من التاريخ، على أعمال الوعظ والإرشاد والكرازة، بل تعدّتها إلى أمور السياسة والمقاومة العسكريّة. فإنّ الأسلوب الذي اتّبعه خصوم الكنيسة الخلقيدونيّة بتوسّلهم العنف من أجل نشر عقيدتهم ومحاربة العقيدة الأرثوذكسيّة، قد حتّم على المتمسّكين بهذه العقيدة المستقيمة توسّل المقاومة. أضف إلى ذلك ما كان جاريًا من صراعات عسكريّة متعدّدة الجوانب والأطراف، ليس أقلّها شأنًا الفتح الإسلامي، وتسلّط العسكريتاريا البيزنطيّة على أهل البلاد. لكلّ تلك الأسباب البالغة الخطر، فإنّ يوحنّا مارون، وهو القائد الروحيّ للذين أضحوا، وفق تعاليمه، متمسّكين بالمبادئ القويمة لتعاليم الكنيسة الخلقيدونيّة، بينما تمكّنت البدع من اختراق جناحها الشرقيّ في أنطاكية، قد وجد أن لا مفرّ من المقاومة الماديّة. فعيّن، وهو لا يزال أسقفًا، ابن أخته إبراهيم، قائدًا زمنيًّا وعسكريًّا، وكلّفه بناء جيش مقاوم من أتباع تعاليمه. بمعنى آخر، عيّنه أميرًا على البلاد التي كانت تشكّل أبرشيّته، وأناط به قيادتها الزمنيّة[2].

وقال مؤرّخون مونوفيزيّون إنّ أتباع يوحنّا مارون، و ابن أخته إبراهيم، قد تقوّوا في ذلك الوقت، وحموا أهل شمال لبنان من الجزية التي كان أتباع الأمبراطور

---

١ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٦٢؛ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١١٤.

٢ ـ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤٢، نقلا عن السمعاني.

قد فرضوها على كلّ مَن لا يجاهر بمعتقدهم[1]. وجاء في بعض المدوّنات أنّه في تلك الحقبة، "اجتمعت حول المطران يوحنّا مارون رعيّة كثيرة العدد تمكّنت من الاستيلاء على جبل لبنان والمناطق الجبليّة من حدود قيليقيا وبلاد الأرمن حتّى القدس[2]". كما جاء أنّ إبراهيم، قد "ساس الناس سياسة المقتدر ووسّع نطاق ملكه، وفي مدّة وجيزة، انضمّ إلى إمارته كثيرون من أسرى البيزنط وعبيدهم حتّى بلغ عددهم الآلاف، وكان لابراهيم في أيّام السلم اثنا عشر ألف جنديّ يطوف بهم بلاد العرب والفرس من غير جزع[3]".

يُوحنَّا مَارُون

البَطرِيَرك الأَنطَاكِيّ

تعدّدت الاجتهادات حول مكان انتخاب يوحنّا مارون بطريركًا، وإن اتّفق جميعها على صحّة هذا الحدث[4]. وأشهر تلك الإجتهادات هو القائل بأنّه في سنة ٦٨٥، شغر الكرسيّ الأنطاكيّ من بطاركته بسبب انتقال البطريرك إلى القسطنطينيّة إثر سيطرة العرب المسلمين على أنطاكية. فلمّا تُوفّي البطريرك الأنطاكيّ توافانوس،

---

١ - المخطوط المحفوظ في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٤٢٤ من القسم السرياني، مرجع سابق، وقد جاء في هذا المخطوط: "لمّا انتهى امتلاك الملكيّة إلى قرية لميون تميّز مُوَيرين وابن اخته بُرَيهيم (مويرين وبريهيم تصغير لمارون وابراهيم كما كان يلقّبهما المونوفيزيّون من باب السخرية كما ذكرنا سابقًا.) عن الملكيّة ولحقوا اسمر جبيل (سمار جبيل)، وحموا أهلها من الجزية التي حكم بها الملكيّة على كلّ من لا يتبعهم ويوافق على اعتقادهم، فالتحق حينئذ السريان وأهل لبنان بمارون ونجوا ممّا كانوا يخشون"؛ راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١١٦؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٨٢.

٢ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٦٢؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١١٤.

٣ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٦٣؛ ابراهيم الأسود، ذخائر لبنان، المطبعة العثمانيّة بعبدا - لبنان، ١٨٩٦، إصدار طوني مفرّج (بيروت،١٩٧٠) ص٩٤.

٤ - يُعتبر كتاب "الهدى" الماروني (مرجع سابق) المرجع الأهمّ عن بطريركيّة يوحنّا مارون، وقد ورد ذكره في هذا الكتاب: "يوحنّا مارون البطريرك الأنطاكي"، وسيكون لنا عودة إلى هذا الموضوع؛ راجع: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٢٠.

الذي كان عيّنه المجمع المسكونيّ السادس[1]، عيّن البابا كونون (بابا ٦٨٦ ـ ٦٨٧)[2] مكانه، من دون مشورة الإكليروس الروماني، قسطنطين شمّاس كنيسة "سيراقوزة[3]"، وأرسل له درع الرئاسة[4]. ولكنّ قسطنطين أساء السيرة وألقى الفتن والانشقاق، ما جعل البابا يصدر أوامره إلى عمّال الملك بأن يقبضوا عليه ويسجنوه، ثمّ كتب إلى الإكليروس الأنطاكيّ بأن ينتخب بطريركًا، فقرّر قسم من رؤساء هذا الإكليروس الذين لم يغادروا المنطقة، انتخاب بطريرك للكرسيّ الأنطاكيّ من بين الأساقفة الوطنيّين الصامدين في البلاد، ليقود الرعيّة في ذلك الظرف العصيب، فانتخبوا المطران يوحنّا مارون بطريركًا[5].

أمّا الاجتهاد الثاني فهو القائل بأنّ ارتقاء يوحنّا مارون إلى السدّة البطريركيّة الأنطاكيّة قد حصل بتعيين مباشر من بابا روما. ويذكر أصحاب هذا الرأي أنّ يوحنّا مارون، وهو لا يزال أسقفًا، قد التقى في طرابلس لبنان قاصد البابا سرجيوس الأول (بابا ٦٨٧ ـ ٧٠١)، الذي أخذه إلى روما حيث أحسن البابا استقباله، خاصّة وأنّ ذلك البابا كان من أصل أنطاكيّ، ثمّ رقّاه إلى مقام البطريركيّة الأنطاكيّة، و"وشّحه

---

١ ـ عُقد في القسطنطينيّة بين خريف ٦٨٠ وربيع ٦٨١، حرّم المونوتيليّة، أي القول بالمشيئة الواحدة، وعزل بطريرك أنطاكية مكاريوس القائل بالمشيئة الواحدة وعيّن مكانه توافانوس.

٢ ـ في هذه الحقبة كان في الكنيسة الرومانيّة اثنان من البابوات في الوقت نفسه، الأول كونون هذا، والثاني ثيودورس، وهو معارض للبابا كونون.

٣ ـ سيراقوزة أو سيرَقوسة SIRACUSA : مدينة ومرفأ على شاطئ صقليّة الشرقي، أسّسه الإغريق حوالى ٧٣٤ق.م.، كانت المدينة عاصمة الجزيرة، مسقط رأس أرخميدس المهندس (٢٠٢ق.م.)، حاصرها زيادة الله الأغلبي برًّا وبحرًا وأحرق مراكبها وقتل جماعة من أهلها ٨٢٧.

٤ ـ درعُ الرئاسة: هو عبارة عن قطعة من الكتّان الأبيض النقي، توضع في العنق، وبأسفلها صفيحة من رصاص وصليب. أمّا الأبيض فيرمز إلى الطهارة، والرصاص إلى ثقل الوزنة، والدرع لا يقلّده البابا في الشرق إلا للبطاركة، ولمّا في الغرب فللبطاركة ولجميع الأساقفة.

٥ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٥٣ ـ ٥٤.

بالدرع المتضمّنة كمال الرئاسة، وسلّمه التاج والخاتم والعصا، وأنعم عليه بجميع الامتيازات التي لأسلافه. أمّا البطريرك يوحنّا، فودّع الحبر الأعظم حينئذ، وعاد إلى أنطاكية، وراح يسعى لاستئصال بدعة "مكاريوس"، وصنّف ميمرًا* في الردّ عليه، واستمال الكثيرين من اليعاقبة، وبثّ الاعتقاد بالطبيعتَين والمشيئتَين، ثمّ توجّه إلى جبل لبنان، فأكرم اللبنانيّون ملقاه وسُرّوا به"[1]. غير أنّ باحثين كنسيّين قد عارضوا هذا الاجتهاد[2] الذي قابله اجتهاد ثالث في أمر انتخاب يوحنّا مارون بطريركًا، يقول بأنّ "أساقفة الموارنة قد اجتمعوا في لبنان واختاروا بطريركًا أنطاكيًا عليهم". غير أنّ أصحاب هذا الرأي، لا يجزمون في صحّة وجهة نظرهم هذه، بل يوردونه من باب الترجيح، وحجّتهم في ذلك "صمت المؤرّخين اليونان واللاتين عن ذكر يوحنّا مارون وخلفائه في سلسلة بطاركة أنطاكية[3]". غير أنّ بطاركة أنطاكيّين آخرين قد غاب ذكرهم عند المؤرّخين اليونان واللاتين، ما يجعل صحّة هذا الرأي واهية، خاصّة وأنّه لم يكن هناك بعد "أساقفة موارنة" في ذلك التاريخ في لبنان أو في غير لبنان، ذلك أنّ الأبرشيّات المارونيّة وأساقفتها مستجدّات لاحقة لتاريخ صيرورة يوحنّا مارون بطريركًا أنطاكيًّا.

وهناك اجتهاد آخر ربط تاريخ إقامة يوحنّا مارون بطريركًا بتاريخ الانفصال الذي حصل في الشام بين الملكيّين الموالين للروم، والموارنة أتباع القدّيس مارون، في العام

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٧٨، عن زجليّات ابن القلاعي.

٢ ـ السمعاني يوسف سمعان، مكتبة الناموس القانوني والمدني، المجلّد الأوّل، ص٥٠٣، والمجلّد الرابع، رأس ٢٠، ص٤٠٤؛ راجع: الأسود إبراهيم بك، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، مطبعة القدّيس جاورجيوس (بيروت،١٩٢٥)؛ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، حاشية الصفحة ٨٨.

٣ ـ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤٤.

الأوّل أو الثاني من خلافة يزيد بن معاوية (٦٨٠ ـ ٦٨٣). غير أنّ هذا الاجتهاد ليس موثّقًا ولا مدعومًا بأيّ قرائن[١].

وسط كلّ هذه الاجتهادات، يبقى الأثبت، برأينا، ما جاء في أقدم وثيقة مارونيّة تاريخيّة عن البطريرك الأوّل القدّيس يوحنّا مارون، في كتاب "الهدى" الذي أشرنا إليه سابقًا، وهو دستور الموارنة وناموسهم في العصور الوسطى، حيث تذكر هذه الوثيقة صراحة، في الفصل الثاني من القسم الأوّل، وفي معرض الكلام عن قانون الإيمان، أسماء "فرق" المسيحيّين الخمس، فتقول ما حرفيّته: "فأوّل فرقة ظهرت من الفرق المشهورة، الفرقة المنسوبة إلى آريوس[٢]. ثمّ النسطوريّة وهي المنسوبة إلى نسطور[٣]. ثمّ اليعقوبيّة، وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تُدعى بردعا، ولذلك يقال له يعقوب البرادعي[٤]. ثمّ الملكيّة المنسوبة إلى الملك قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل[٥]. ثمّ المارونية وهي منسوبة إلى مارون يوحنّا بطريرك أنطاكية العظمى[٦]".

ويقول المؤرّخ والبحّاثة الأب د. بولس صفير في هذا المجال: "هذه الوثيقة، التي ترجع إلى سنة ١٠٥٩، لا يسبقها زمنيًا، إضافةً إلى كلام التلمحري[٧]، إلاّ إشارة

---

١ ـ راجع: صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

٢ ـ حول آريوس والآريوسية راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

٣ ـ حول نسطور والنسطوريّة راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٤ ـ حول حول يعقوب البرادعي واليعقوبيّة المنسوبة إليه، وهي القول بالطبيعة الواحدة أي المونوفيزيّة راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٥ ـ راجع ما جاء حول الملكيّين والملكانيّين في حاشية سابقة من هذا الكتاب.

٦ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٥، عن: فهد الأخ بطرس تلمر، كتاب الهدى (حلب،١٩٣٥) ص ٣٧ ـ ٣٨، وقد اعتمد الناشر المخطوط الفاتيكاني السرياني، رقم ١٣٣، مقارنًا نصوصه بنصوص عدّة مخطوطات أخرى قديمة، ولمّا تاريخ نسخ هذا المخطوط فيعود إلى ١٤٠٢.

٧ ـ سيأتي الكلام حوله لاحقًا .

واضحة وأكيدة وردت في صلب قانون إيمان النصيريّين، على لسان ابن نصير ... في القرن التاسع.... ففي نصوص... "الآذان"، يذكر ابن نصير (بين) "اللعنات": "...واجعل اللعنة على يوحنّا مارون البطريرك الملعون[1]".

البَطرِيَرك يُوحَنَّا مَارُون فـــي لُبنَـــان

إذا كانت اجتهادات المؤرّخين قد اختلفت حول كيفيّة اعتلاء البطريرك يوحنّا مارون السدّة البطريركيّة، فإنّ الباحثين لم يختلفوا حول حقيقة أنّه، بعد أن أصبح بطريركًا بوقت قصير، قد جعل مقرّه في لبنان.

ما أن تسنّم البطريرك يوحنّا مارون الأوّل سدّة البطريركيّة الأنطاكيّة، حتّى عقد يوستينيانُس الثاني[2] المجمع البندكتيّ سنة ٦٩٢، وقد حضر ذلك المجمع البطريرك جاورجيوس الثاني المسمّى على أنطاكية من قِبَل القسطنطينيّة حيث كان يقيم، وقد قال المجمع بالمشيئة الواحدة. وإذ رفض البابا سرجيوس الأوّل الأنطاكيّ (٦٨٧ ـ ٧٠١) التوقيع على مقرّرات ذلك المجمع رغم محاولة إكراهه على ذلك من قِبَل الأمبراطور، وهو البابا الذي عيّن أو ثبّت البطريرك يوحنّا مارون، رفض يوستينيانُس الثاني بدوره تلك المقرّرات، وحاول إرسال مَن يعتقل البابا والبطريرك، إلاّ أنّ مقاومة "الشُرط في إيطاليا لبعثة الأمبراطور حالت دون اعتقاله"[3]، بيد أنّ

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٥، عن: الاذني سليمان أفندي، كتاب الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النصيريّة (لا.ت.)، ص٤٥.

٢ ـ يوستينيانوس الثاني (٦٦٩ ـ ٧١١): أمبراطور بيزنطي ٦٨٥ ـ ٦٩٥، و٧٠٥ ـ ٧١١، حارب البلغار والأرمن، أطاحت بحكمه ثورة عسكريّة بقيادة ليونتيوس ٦٩٥، استعاد الحكم بمساعدة البلغار ٦٩٥.

٣ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، ص٧٩.

يوحنّا مارون، الذي كان يومذاك في أنطاكية، التي كانت تحت الحكم العربيّ الإسلاميّ، قد اضطرّه إلى الانتقال إلى دير القدّيس مارون على ضفاف العاصي[1]. ومن هناك، راح البطريرك المقاوم يكتب ويدبّج مدافعًا عن المعتقد السليم، وقد بعث برسالة من ديره مع بعض الرهبان إلى جبل لبنان، كتبها باللغة السريانيّة، جاء في مقدّمتها:

> لقد رأى مارون أنّ الأجدر به أن يغيّر مكان كرسيه على أن يتهاون في أمر أمانة الآباء الموجِّهين الذين ألّفوا مجمع نيقيا والمجامع التي ثبّتت مقرّراته. فرحل عن أنطاكية إلى دير في ولاية مدينة حماة، على شاطئ النهر العاصي، وكان فيه ثمانمائة راهب أطهار مختارين، وهناك ألّف هذه الرسالة وكتبها وأرسلها إلى جبل لبنان المقدّس.

ويذكر مؤرّخون أنّ الأمبراطور يوستينيانُس الثاني قد أمر قائد جيشه ليونيتُس[2] بالسَير في طلب البطريرك يوحنّا مارون ليأتيه به مكبّلاً بالقيود، ولكنّ القائد الذي كان من المستقيمي الإيمان، قد أحجم عن تنفيذ أمر سيّده، متحجّجًا بأنّ البطريرك محاط بأتباع كثيرين يصونون كرامته بدمائهم، وبأنّهم لن يسمحوا بتسليمه مهما كان الضغط عليهم قاسيًا. بيد أنّ الأمبراطور قد غضب على ليونيتُس لتلكّئه عن تنفيذ أوامره، فأمر بسجنه. وأشار إلى قائدَيه "موريق" و"موريقيان" بأن يقودا جيشًا روميًّا إلى البلاد السوريّة متظاهرَين، من باب الخديعة، بأنّهما يقصدان قتال العرب، ولكنّ تلك الخديعة لم تنطلِ على البطريرك الذي أرسل إلى ابن أخته إبراهيم رسولاً يدعوه

---

١ ـ ذكر مؤرّخون أنّ إكليروس القسطنطينيّة الذي كان يقول يومها بالمشيئة الواحدة، هو الذي حرّض يوستينيانوس الثاني ضدّ البطريرك يوحنّا مارون. راجع: الشدياق طنّوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، نشر فؤاد البستاني، الجامعة اللبنانية (بيروت،١٩٧٠) ٢: ٢٤٧.

٢ ـ ذكره بعض المراجع خطأً باسم لاونديوس.

إلى التهيّؤ للدفاع، وسارع هو نفسه بالانتقال من دير مار مارون إلى "سمار جبيل" من الساحل الشماليّ اللبنانيّ.

قد يتساءل كثيرون عن كيفيّة تمكّن فرقة الجيش البيزنطيّ من الدخول إلى منطقة كان يسيطر عليها المسلمون العرب في ذلك التاريخ، بيد أنّ خلفيّات السرّ معروفة من قِبَل كافّة المؤرّخين، وخلاصتها أنّ اتّفاقًا كان قائمًا بين الأمبراطور يوستينيانوس الثاني البيزنطيّ وبين الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥) قضى بأن يدفع الخليفة للأمبراطور ضريبة معيّنة مقابل أن يمنع الأمبراطور أهل البلاد من القيام بأيّ تمرّد على الخلافة[١]، فكان من الطبيعيّ، إذذاك، أن يسهّل العرب ليوستينيانُس أمر مرور جنوده لضرب أتباع يوحنّا مارون، خاصّة وأنّ الخلافة العربيّة كانت متعاطفة مع المونوفيزيّين من أهل البلاد، وهم على أشدّ عداء للبطريرك يوحنّا مارون وأتباعه.

لمّا وصل موريق وموريقيان على رأس جيشهما إلى دير مار مارون في ربيع سنة ٦٩٤، لم يجدا البطريرك، "فحملا بجيوشهما على الرهبان الذين قتل منهم الجيش خمسمائة راهب، ودمّر الدير تمامًا[١]. ومن هناك تحوّل الجيش إلى "قنسرين" والبلدات

---

١ ـ البلاذري، فتوح، طبعة دي غويه، مرجع سابق، ص١٦٠؛ أنساب الأشراف، نشر S. D. F. GOITEIN الجزء الخامس (القدس، ١٩٣٦) ص٢٩٩ ـ ٣٠٠؛ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

٢ ـ ذكرت مراجع أخرى أنّ الملكيّين الموالين للأمويّين أخذوا يسعون عند الخلفاء حتّى عاونوهم على انتخاب بطريرك. وفي سنة ٧٤٢ سمح لهم الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان (٧٢٤ ـ ٧٤٢) بانتخاب راهب يُدعى إسطفان بطريركًا، ولكنّه لم يعش سوى سنتين، فسمح لهم الخليفة مروان بن محمّد بن مروان في سنة ٧٤٦ بانتخاب بطريرك اسمه توافيلُس بن قنبرة، ولمّا كان الموارنة قد استقلّوا تمامًا وانتخبوا بطريركهم من دون إذن الخليفة ولم يشتركوا في الانتخابَين المذكورَين، اتّفق ابن قنبرة مع الخليفة على إخضاعهم عنوة، فوضع مروان تحت تصرّف البطريرك ابن قنبرة جيشًا ذهب به إلى دير مار مارون لكبح جماح الموارنة. ـ راجع: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٦، عن ابن العبري، المقالة العاشرة، فصل ٢٢.

المجاورة لها على ضفاف العاصي، فقتل جنوده الأهالي من أتباع يوحنّا مارون بحدّ السيف ونهبوا المساكن والكنائس، ولم يعفوا عن أحد من أولئك الأتباع القائلين بالطبيعتَين والمشيئتَين، ووصل الجيش إلى طرابلس، فخاف الأهالي وراحوا يعلنون عن التزامهم بما يأمر به الأمبراطور، فضرب العسكر خيامه ما بين "أميون" وقرية "الناووس" على شاطئ الكورة من أعمال شمال لبنان، وراح القائدان ومعاونوهما يستقبلون أعيان تلك النواحي الذين جاؤوا حاملين الهدايا ومظهرين التعاون والترحيب، مقابل الأمان، فكان لهم ما طلبوا[1]. بيد أنّ الأهالي وقعوا في حالة هلع بعدما بلغهم خبر المذابح التي نفّذها أولئك البيزنط بأبناء جلدتهم على ضفاف العاصي، فراحوا يستعدّون للمقاومة وسط الرعب[2].

في هذا الوقت بالذات، جرى ما لم يكن في الحسبان. فإنّ القائد البيزنطيّ ليونيتُس الذي كان اعتقله الأمبراطور يوستينيانُس الثاني في القسطنطينيّة بسبب رفضه قيادة الحملة على البطريرك يوحنّا مارون وأتباعه، قد تمكّن من قيادة انقلاب عسكريّ على الأمبراطور، فجدع أنفه ونفاه إلى بلغاريا وجلس على العرش. وقد وصلت أخبار هذا الانقلاب إلى موريق وموريقيان وسائر قادة الجيش البيزنطيّ المرابض قرب طرابلس، فوقع في بلبلة. والخبر نفسه الذي نقله على وجه السرعة رسول من قِبَل ليونيتُس إلى البطريرك يوحنّا مارون، آذنًا له بمحاربة الجيش البيزنطيّ، شجّع

---

١ - يذكر مؤرّخون محليّون أنّه لدى وصول الحملة البيزنطيّة إلى محيط طرابلس، "تدهش منهم ساكنو الكورة وخضعوا لرأيهم خوفًا ورهبة، ولمّا ضربوا خيامهم ما بين أميون والناووس وردت لاستقبالهم أكابر تلك النواحي وقبلوهم بالترحيب وقدّموا لهم العلايف والعلايق وطلبوا منهم الأمان واستمهلوهم ليثما يتكلّمون مع الأمراء والمقدّمين في شأن أداء الطاعة فأجابوهم إلى سؤالهم وأقنعوهم بالأمان رغبة في الطاعة". الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ٢٤٨.

٢ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، ص٨١.

رجال البطريرك على مهاجمة العساكر، "فتدفّقوا من الجبال على الأروام اندفاق الماء المنهمر والغيث المنحدر فقابلوهم حتّى قتلوا أكثرهم وانهزم الباقون شرّ هزيمة"[1]. وجاء عند بعض المؤرّخين أنّ موريق قد قُتل في تلك المعركة ودُفن في أميون حيث أُقيمت كنيسة على ضريحه، أمّا موريقيان فحُمل جريحًا إلى "شويته" في عكّار حيث لاقى حتفه وأُقيمت على ضريحه كنيسة أيضًا[2].

وذكر مؤرّخون أنّه منذ ذلك الوقت شاعت نسبة الملكيّين على الذين انصاعوا لجيش الأمبراطور في ساحل الكورة، ونسبة الموارنة على الذين ثبتوا في طاعة يوحنّا مارون[3]. إلا أنّ باحثين أكثر شموليّة وجدوا أنّ نسبة ملكيّين قد جاءت صفة لأتباع الأمبراطور البيزنطيّ مرقيانُس (أمبراطور ٤٥٠ ـ ٤٥٧) والمجمع الرابع الخلقيدونيّ الذي حرّم أوطيخا، وأنّ أوّل من كتب هذه النسبة هو "ديونوسيوس بن صليبا" سنة ١١٦٠ في شرحه للّيتورجيا[4]. وفي رأينا أنّ نسبة الملكيّين لم تكن لفئة واحدة عبر حقب التاريخ، كما ذكرنا في مجال سابق، بل هي أُطلِقت في حقبات متعدّدة على كلّ فئة كانت تتبع رأي الأمبراطور، علمًا بأنّ آراء الأباطرة لم تكن متماثلة، فمثلما أُطلِق لقب الملكيّين أحيانًا على جماعة تبعت أمبراطورًا قال بالمشيئة الواحدة، كذلك أُطلِق في أحيان أخرى على من اتّبعوا أمبراطورًا قال بالإيمان

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٨٠ ـ ٩٠، بالاستناد إلى مؤرّخي اليعاقبة؛ وقد أشار الخوري يوسف العاقوري الذي صار بطريركًا فيما بعد إلى هذه الواقعة في زجليّاته؛ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٨، حيث جاء أنّ أمراء المردة ومقدّميهم قد اشتركوا بشكل رئيسي في تلك المعركة إلى جانب ابراهيم.

٢ ـ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١١٥ ـ ١١٦، عن الدويهي، الشرح المختصر، ص١١٦؛ الدبس، تاريخ سوريا، ٥: ١٢١ ـ ١٢٢.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٨٢؛ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٨.

٤ ـ السمعاني، المكتبة الشرقيّة، مرجع سابق، ١: ٥٠٨.

الأرثذوكسيّ المستقيم. ولا يمكن اعتبار أنّ الذين نسمّيهم اليوم ملكيّين، هم أنفسهم من عُرفوا بالملكيّين في أيّ زمن من التاريخ، ذلك أنّ أتباع هرقل، وأتباع يوستينيانُس الثاني كانوا ملكيّين، ولكنّهم لم يكونوا أرثذوكسيّين، بل قالوا بما قاله الملك من مبدأ المشيئة الواحدة، بينما الملكيّون قبلاً وبعدًا، هم أصحاب العقيدة الأرثذوكسيّة الخلقيدونيّة القائلة بما قاله وبما قاتل من أجله يوحنّا مارون.

إنّ ما يصحّ اعتباره في خلال هذه المرحلة من التاريخ، أنّ التسميتَين اللّتَين ظهرتا في لبنان بعد معركة أتباع يوحنّا مارون ضدّ موريق وموريقيان، هما تسميتا الملكيّة والمردة، ولم تكن التسميتان للدلالة على اختلاف ديانة أو طقس، كما تهيّأ لبعض الباحثين، بل للدلالة على موقع مدنيّ فقط. ذلك أنّ الذين تمرّدوا على الأمبراطور، سمّوا مردة، بمعنى عصاة، وأمّا الذين لبثوا في طاعة الأمبراطور، أي الملك، فسمّوا ملكيّين. ويعزّز هذا الرأي أنّ الآباء جميعًا من القرن الرابع إلى القرن التاسع، لم يذكروا البتّة تسمية الملكيّين، بل كانوا يذكرون تسمية "الكاثوليكيّين" وتسمية "السندوسيّين[1]"، نسبة إلى "السينودوس".

على أيّ حال، فقد كانت المعركة بين أتباع يوحنّا مارون وبين جنود الأمبراطور يوستينيانُس الثاني بقيادة موريق وموريقيان، بمثابة مفصل أساسيّ في تاريخ الكنيسة المارونيّة في لبنان. ذلك أنّ يوحنّا مارون بقي بطريركًا على أنطاكية وسائر المشرق، ومَن اعترف ببطريركيّته صار مارونيًّا، وبه بدأت سلسلة بطاركة استمرّت حتّى اليوم من دون انقطاع. وبذلك نشأت قوّة أساسيّة في الجبل اللبنانيّ، انتظمت في هرميّة إكليريكيّة معزّزة بما يشبه التنظيم العسكريّ. ومن هذه الكنيسة، شعبًا

---

١ ـ راجع: السمعاني، المكتبة الشرقيّة، ١: ٥٠٨؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، ص٨٣؛ الأسود، ذخائر لبنان، ص٩٧ ـ ٩٩.

وإكليروسًا، نشأ ما أصبح يُعرف في ما بعد بالمردة. وقد عرف هؤلاء أمراء وقادة وأعيان، وانتشروا بشكل أساسيّ في الجبال والسفوح الممتدّة بين عكّار شمالاً ونهر بيروت جنوبًا، وكان انتشارهم بحسب الظروف يضيق ويتّسع ليصل إلى البقاع شرقًا وإلى الساحل غربًا. وقد جاء في أبحاث لعلماء وبحّاثين محدثين حول الموارنة أنّهم "منذ ذلك الحين أخذت تظهر في مجتمعهم تلك الخصائص التي جعلت منهم أمّة جبليّة مستقلّة منعزلة عن سائر الطوائف التي كانت تقطن هذه المنطقة من الأرض[١]".

كَفرحَيّ

بعدَ أنطَاكيَة

لم يكُن انتصار البطريرك يوحنّا مارون على الجنود البيزنط في معركة أميون نهاية لجهاده، إنّما كانت تلك المناسبة بداية لتنظيم كنيسته الوطنيّة التي تميّزت، في الوقت نفسه، بالاستقلاليّة القوميّة عن الغرب، وبالتمسّك الشديد بتعاليم الكنيسة الجامعة وبالتوجيهات الروحيّة لرؤسائها في روما. فبعد معركة الكورة، عاش البطريرك يوحنّا مارون ثلاثة عشرة سنة مليئة بالإنجازات. وكان أوّل ما حقّقه بعد رسوخ دعوته في شمال لبنان، أنّه فصل أتباعه عن الشيعة المونوفيزيّة القائلة بالطبيعة الواحدة متحدّيًا بذلك السريان من أبناء جلدته ومن ورائهم الخلافة الإسلاميّة التي كانت تدعم هؤلاء، كما فصلهم عن الشيعة المونوتوليّة القائلة بالمشيئة الواحدة، متحدّيًا في الوقت نفسه كلّ مَن يدعم هذه البدعة من الأباطرة والقادة البيزنط. لذلك قال فيه بحّاثون محدثون إنّه "قد استطاع بدهائه أن يردّ خليفة المسلمين باليد الواحدة،

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٤.

وأمبراطور الروم بالأخرى"[1]. وفي الوقت الذي راح ينظّم فيه شؤون رعيّته الدينيّة والزمنيّة، مقيمًا الكهنة والوكلاء البطريركيّين ليديروا شؤون أبرشيّات أنشأها في المراكز الرئيسيّة من مناطق سيطرته، ومشرفًا على التنظيمات الزمنيّة التي أناطها بابراهيم ابن شقيقته، الذي سيكون من سلالته أمراء ومقدّمون يقودون الشعب عبر حقبة طويلة من التاريخ، دعا هذا البطريرك القائد أتباعه إلى إنشاء مركز للبطريركيّة بديل عن أنطاكية التي أصبح العود إليها مستحيلاً[2]، وعن دير مار مارون العاصي الذي دكّه جند يوستينيانُس الثاني، فكان إنشاء دير مار مارون كفرحيّ شرقي البترون، الذي قيل إنّ هذا البطريرك قد نقل إليه هامة القدّيس مارون[3]،

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ يحمل اليوم لقب "بطريرك أنطاكية"، إضافة إلى البطريرك الماروني، بطاركة الروم الأرثذوكس، والسريان المونوفيزيّين الذين يُعرفون بالسريان الأرثذوكس ويُلقّبون باليعاقبة، والسريان الكاثوليك الذين انشقّوا عن المونوفيزيّين، و الروم الكاثوليك الذين انشقّوا عن الروم الأرثذوكس، وقد أقام اللاتين بخلال العهود الصليبيّة بطريركًا لهم حمل أيضًا لقب الأنطاكي.

٣ ـ بقيت الهامة ـ الذخيرة هذه في مكانها إلى سنة ١١٣٠ فنقلها أحد الرهبان البنديكتيين إلى مدينة "فولينو" من أعمال إيطاليا حيث أنشئت كنيسة على اسم القديس مارون في ظاهر المدينة كان تكريسها ونقل الهامة إليها في الثامن عشر من آب (أغسطس)، ولمّا انتشر ذكر القديس مارون في تلك النواحي وقصد الناس زيارته من الاماكن البعيدة عيّنوا لهُ ذلك التاريخ عيدًا، ومنح رؤساء البيعة غفران ٢٠٠ يوم لكل من زار تلك الكنيسة في يوم العيد. ولمّا "لوقا" أسقف "فولينيو" من غلاة المكرِّمين للقديس مارون، نقل تلك الهامة ـ الذخيرة إلى نفس المدينة سنة ١١٩٤ وجعلها في كنيسة الاسقفيّة، حيث صاغ لها المؤمنون تمثالاً من فضّة أودعوا الهامة فيه. ونقل العيد إلى العاشر من آذار (مارس) وهو اليوم الذي تمّ فيهِ تكريس الكنيسة. وعندما رسم الأسقف بولس إميل سعادة مطرانًا وعين نائبا بطريركيًا على بلاد البترون سنة ١٩٨٦، ركّز أولى اهتماماته على ترميم دير مار يوحنّا مارون الذي كان تعرّض للخراب وأعيد بناؤه مرارًا عديدة عبر التاريخ، وانتهت أعمال الترميم في العام ١٩٩٦. بعد ذلك راح المطران سعادة يسعى من أجل استعادة ذخيرة رأس مار مارون من إيطاليا ليعيدها إلى دير كفرحي. وإثر مراسلات متلاحقة بين المطران سعادة وبين أسقف فولينيو "أردوينو برتولدو"، كتب هذا الأخير إلى المطران سعادة في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٩٩ يشرح أنّه سيراجع المسؤولين الكنسيّين والمجالس الأبرشية ومديريّة الآثار الإيطاليّة، لافتًا إلى أنّ منطقتهم قد تعرّضت للتدمير بفعل زلزال سنة ١٩٩٧، ووعد بأنّه سيعمد إلى البحث عن الذخيرة. وبتاريخ لاحق أبلغ مطران فولينيو المطران سعادة أنه عثر على الذخيرة وكانت موثّقة ومختومة بالشمع الأحمر، وبعد استئذان المراجع المختصة تمّ تصوير الذخيرة فوتوغرافيًا وإرسال صور عنها إلى لبنان. وبعد مفاوضات تمّ الاتفاق على إرسال قسم من الذخيرة ضمن تمثال من البرونز يمثّل راهبا رومانيًا كالذي وضعت فيه أجزاء باقي

"قاصدًا من ذلك أن ينتشر اسم هذا القدّيس ويُكرّم في جميع جهات البلاد، واستحسن أن يُلقّب أهل تلك النواحي بالموارنة تبرّكًا بهذا الإسم"[1]، وقد عيّن البطريرك يوحنّا مارون، مذذاك، يوم الخامس من شهر كانون الثاني (يناير) عيدًا للقدّيس مارون، وهو يوم تكريس كنيسة دير كفرحيّ على اسمه[2].

وبرأينا، أنّه منذ ذلك التاريخ، قد نشأت الكنيسة المارونيّة بكلّ أبعادها. وأنّ الموارنة، على العموم، لم يعرفوا بهذه الصفة بشكل عام وشامل إلاّ بعد نشوء كنيستهم هذه.

بهذا التنظيم، أوجد يوحنّا مارون المؤسّستَين الروحيّة والزمنيّة اللّتَين كانتا الشرط الأساسيّ من أجل البقاء. ومَن يطالع تاريخ لبنان يجد أنّه من الصعب تصوّر نشوء وطن لبنانيّ بالشكل المميّز الذي عرفه العالم، لولا إنجازات ذلك البطريرك الجليل الذي يُعتبر عن حقّ، واحدًا من أبرز مؤسّسي الكيانات في التاريخ.

أمّا الأمبراطور البيزنطيّ الذي كان أرسل الحملة العسكريّة لضرب يوحنّا مارون وجماعته بقيادة موريق وموريقيان، وهو يوستينيانُس الثاني الذي أصبح يُعرف بالأخرم، أو بالمجدوع الأنف مذ جدع ليونيتوس أنفه لمّا انقلب عليه، فقد تمكّن وهو

الذخيرة في في إيطاليا، وقد أرسل التمثال المحتوي على الذخيرة بواسطة أمانة سر الفاتيكان إلى السفارة البابويّة في لبنان، واستلمتها البطريركيّة المارونيّة بواسطة المطران سعادة في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٨، وحفظت الذخيرة في مركز الأمانات في الكرسي البطريركي، ثمّ تمّ نقلها إلى كنيسة الكرسي الأسقفي في دير مار يوحنا مارون في كفرحي في احتفال كبير.

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٩٠؛ ذكر باحثون أنّ ما نُقل من رفات القدّيس مارون إلى ديره في كفرحيّ إنّما كان الجمجمة فقط لذلك أطلق على الدير أوّلا اسم "ريش مارون"، وهي عبارة سريانيّة تعني "رأس مارون".

٢ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٩٠؛ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١١٦، عن الدويهي، الشرح المختصر مع ترجمته اللاتينيّة، ص٢٥.

في منفاه من التحالف مع ملك البلغار في سبيل استعادة عرشه، فسيّر معه البلغاريّ جيشًا كبيرًا إلى القسطنطينيّة سنة ٧٠٥، مكّنه من الظفر بخصومه ومن القبض على ليونيتُس وتيبريُوس[1] اللّذَين قطع رأسَيهما واستقلّ بالعرش. وتذكر المدوّنات أنّه إثر ذلك قام بعض خصوم الموارنة بمحاولة إثارة يوستينيانُس الثاني ضدّ يوحنّا مارون قائلين إنّه فتك بجيوش الروم وقتل قادته ونكّل بهم غاية التنكيل، فلا بدّ من الاقتصاص منه، غير أنّ الأمبراطور لم يُعر كلامهم أذنًا صاغية، لأنّه "بعد عودته إلى القسطنطينيّة واستعادة ملكه نبذ ما كان عليه من الشقاق والعناد، ومال إلى الكنيسة الرومانيّة. وبما أنّ أسقف القسطنطينيّة "قلينيق"، كان سبب الشرور والفتن بين الملك وصاحب الكرسيّ الرومانيّ، فقد قبض عليه وفقأ عينَيه وأرسله مصفّدًا بالأغلال إلى مدينة روما. وكان مدبّرو الكرسيّ الرومانيّ في ذلك العصر من أهل الشام غالبًا. فلمّا انتهى الأمر إلى يوحنّا مارون سكن روعه، وكتب إلى روما يخبرهم براحته وطمأنينته وخراب أنطاكية وكيفيّة إقامته في جبل لبنان تحت حماية الأمير سمعان[2] وقومه، فأجابوه بما يطيّب خاطره وطلبوا إليه أن يستمرّ على الإقامة بين ظهرانَي أمّته، ويواصلهم أخباره. فأخذ من ثمّ يتردّد في أصقاع الجبل ويُصلح الرتب البيعيّة ويبيّن طريقة توزيع الأسرار التي نحن متسلّموها إلى اليوم[3]".

---

١ - جلس ليونيتُس على العرش بعد انقلابه على يوستينيانُس الثاني ثلاث سنوات (٦٩٥ - ٦٩٨)، ثمّ جلس بعده تيبريوس الثالث هذا ٦٩٨ - ٧٠٥.

٢ - الأمير سمعان: أحد أمراء المردة، وهو ابن أخت الأمير يوحنّا المردي الشهير وخليفته، ويروي مؤرّخون أنّ الأمير يوحنّا قد قُتل بأيدي البيزنط من جنود يوستينيانوس الثاني قبل معركة أميون، راجع: الشدياق، مرجع سابق، أخبار الأعيان، ١: ٢٤٩.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٩٢.

وفَاةُ يُوحنَّا مَارُون وقَدَاستُه

أجمع مؤرّخو الكنيسة المارونيّة على أنّ البطريرك يوحنّـا مـارون، بعد إنجازه مهمّته الكبرى على هذه الأرض، كانت وفاته في دير مار مـارون كفرحيّ الذي بناه وجعله كرسيًّا لبطريركيّته، في التاسع من شباط (فبراير) سنة ٧٠٧[١]، وهو اليوم الذي جعله الموارنـة ذكرى لبطريركهم القدّيس. وذكر أولئك المؤرّخون أنّ فور وفاته، "اجتمع الأساقفة والكهنـة والرهبان وجمع لا يحوطه العدد من كلّ بلاد الموارنـة ليتباركوا بجسده الطاهر، وحملوه بالمصابيح والبخور والترانيم، ودفنوه في الدير المنكور. وقال الأسقف جبرائيل القلاعي اللحفديّ في قصيدته في المجامع: "في كفرحيّ مات ذا المختار"[٢]. وفي ٣٠ كانون الثاني (ينـاير) ١٨٢٠ أصدر البابا بيّوس السابع (١٨٠٠ ـ ١٨٢٣) منشورًا يمنح بمجوبه غفرانًا كاملاً لكلّ مؤمن يـزور كنيسة القدّيس يوحنّـا مارون في كفرحيّ في يوم عيده[٣].

قد يكون أبلغ ناطق عن اعتبار البطريرك يوحنّـا مارون قدّيسًا من قِبَل الشعب المارونيّ منذ القدم، وجود صورتَـين كنسيّتَـين أثريّتَـين لا تزالان محفوظتَـين حتّـى اليوم، الأولى في كنيسة القدّيس شربل الأثريّة في بلدة "معاد" الجبيليّة، والثانية في كنيسة مار تادروس في قرية "بحديدات" الجبيليّة أيضًا، وقد مثّـلت الصورتان البطريرك القدّيس وعلى رأسه التاج علامة دلالـة على سلطته الراعويّة والقياديّة[٤].

---

١ ـ الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤٩؛ قابل: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٢٠، حيث جاء أنّ وفاة البطريرك يوحنّـا مارون كانت في سنة ٧٢٠؛ على أنّ الكلّ يجمع على أنّ الوفاة حصلت في ٩ شباط (فبراير).

٢ ـ الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٤٩.

٣ ـ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٦٦.

٤ ـ إسطفان البطريرك يوسف القوسطاوي، وعوّاد المطران إسطفان، القدّيس يوحنّـا مـارون، نشر الأباتي بطرس فهد (١٩٧٠) ص٤٨؛ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١٢٧.

وأقدم وثيقة تفيدنا عن أنّ يوحنّـا مارون كان معتبرًا قدّيسًا في عاصمة الكثلكة منذ نشأة المدرسة المارونيّة القديمة في روما سنة ١٥٨٤، ما جاء في كتاب الإنجيل الرومانيّ الذي طبعه سنة ١٦٧٦ "كارلوس برتلماوُس بيتاسي"، وقد تضمّن مديحًا للبطريرك القدّيس يوحنّـا مارون جاء فيه تعريبًا عن الإيطاليّة:

> في التاسع من شهر شباط (فبراير) يُقام في روما العظمى بكنيسة مار يوحنّـا عيد احتفاليّ سنويّ للقدّيس يوحنّـا مارون الذي أقيم بطريركًا على الملّة المارونيّة، إذ كانت الهرطقات منتشرة في كلّ الأمصار الشرقيّة، وكان القدّيس يوحنّـا مارون، بحسن تدبيره وفضل سيرته الصالحة واحتماله المشاق، قد صانها سليمة من كلّ بدعة وضلال وانتقل إلى السماء [١].

وهنالك صورة للقدّيس يوحنّـا مارون في دير الرهبانيّة المارونيّة المريميّة في روما موضوعة إلى جانب أيقونة متوسّطة الحجم للشهيدَين "بطرس" و"مرشلّين" مطبوعة سنة ١٧١٧ [٢]. ومن أهمّ ما يفيدنا عن اعتبار البطريرك يوحنّـا مارون قدّيسًا من قِبَل الكنيسة الرسوليّة، وجود اسمه في سنكسار الطائفة المارونيّة الذي طُبع في مطبعة نشر الإيمان المقدّس بأمر الحبر الأعظم البابا أوربانوس الثامن (١٦٣١ ـ ١٦٤٤)، حيث عُيّن عيده في التاسع من شهر شباط (فبراير). كذلك نجد ذكرًا للقدّيس يوحنّـا مارون ولعيده في التاسع من شباط (فبراير) في قائمة "الأعياد المأمورة" المطبوعة سنة ١٦٤٧ بأمر البابا إينوشنسيوس العاشر (١٦٤٤ ـ ١٦٥٥)، وفي كتاب الصلوات الفرضيّة اليوميّة الذي تمّ فحصه والتدقيق في مضمونه من قِبَل البابوات: بولس الخامس (١٦٠٥ ـ ١٦٢١) وغريغوريوس الخامس عشر (١٦٢١ ـ ١٦٢٣)

---

١ ـ فهد، بطاركة، مرجع سابق، مرجع سابق، ص١٢٧.

٢ ـ المرجع السابق.

وأوربانُس الثامن (١٦٢٣ ـ ١٦٤٤) وإينوشنسيوس العاشر (١٦٤٤ ـ ١٦٥٥) وغيرهم. وقد وُجد ذكر عيد القدّيس يوحنّا مارون في التاسع من شباط (فبراير) مخطوطًا في كتب صلوات قديمة بعضها كان في "قنّوبين" كان لا يزال محفوظًا عند البطريرك المارونيّ "يوسف حليب العاقوري"[١]، وفي كتاب مخطوط قديم محفوظ في المكتبة الفاتيكانيّة[٢]. أمّا عن عدم إذاعة الكنيسة بمنشور حبريّ خاص تقديس يوحنّا مارون، فيقول كنسيّون إنّ قدّيسين كثر عند مختلف الكنائس لم تُذع المناشير الكنسيّة المؤذنة بقداستهم، وتعتبرهم الكنيسة ممّن يجب تكريمهم، وقد أصبح هؤلاء قدّيسين من خلال تكريس الشعب وتكريمه لهم على أنّهم قدّيسون، وبالتالي جاءت الكنيسة لتعترف بتقديسهم من خلال موافقتها على ذكرهم كذلك في بياناتها وقيودها[٣].

---

١ ـ البطريرك يوسف حليب العاقوري (بطريرك ١٦٤٤ ـ ١٦٤٨): ولد في حصرون، والده المطران بطرس حليب العاقوري (أسقف ١٦٠١ ـ ١٦٤٤) الذي كان متزوّجا قبل أن يرتقي درجة الكهنوت، كذلك البطريرك يوسف الذي كان له ابنة تزوّجت من أحد أبناء أسرة قرقماز، درس يوسف على أعلام منهم المطران يوحنّا الحصروني ونبغ في العلوم، كان أديبًا ومفكّرًا وشاعرًا، رقّاه البطريرك يوحنّا مخلوف إلى أسقفيّة صيدا ١٦٢٦ وكان ينتدبه في مهمّات كبرى، أوفده إلى حلب لإصلاح شؤون الطائفة، ردّ بعض المونوفيزيّين إلى الكنيسة الكاثوليكيّة وأبرزهم "إندراوس أخيجان" (راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة) الذي درس العلوم في المدرسة المارونيّة في روما قبل أن يرقّيه خليفة العاقوري البطريرك يوحنّا الصفراوي إلى درجة الكهنوت ثمّ الأسقفيّة، اشترى دير مار شلّيطا مقبس في كسروان ١٦٣٤، أسّس كنيسة ودير حراش في درعون كسروان ١٦٤٣، انتُخب بطريركًا في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٤٤، نال درع التثبيت ١٦٤٥، بنى كنائس عديدة، له "ميامر" و"مدائح" كثيرة في السريانيّة والعربيّة ما زال بعضها محفوظًا في دير حراش، وله أشعار تأريخيّة هامّة منها التي أرّخت موقعة الموارنة في القرن السابع مع موريق وموريقيان، تُعزى إليه مقالة شعريّة في رئاسة الحبر الروماني، ينسب إليه "غرامطيق" و"الشحيم" المعروف بـ"اليوسفيّة" طبعا في روما، وله كتاب "المغنى" المقتطف من كتاب المطران يوحنّا الدومينيكاني، عقد بخلال ولايته القصيرة مجمعَين: الأول في "دير حراش" كسروان، والثاني في "مرت مورا" إهدن وقد أصدر هذا الأخير ٣٢ قانونًا، احتمل في خلال بطريركيّته مشقّات كبرى، مات ودفن في العاقورة داخل كنيسة القدّيس بطرس المنقورة في الصخر.

٢ ـ هو كتاب صلاة سرياني ماروني قديم خُطّ في نيكوسيا قبرص سنة ١٥٠٨ م. محفوظ تحت الرقم ٧ في المكتبة الفاتيكانيّة؛ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص٦٧.

٣ ـ إسطفان عوّاد الحصروني في كتاب: الديراني، المحاماة، مرجع سابق، ص١٠٣ ـ ١٨٢؛ راجع، فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١٢٩ ـ ١٣٠.

وقد جاء في بعض الدراسات أنّــه "لمّـا أراد الموارنـة أن يطبعوا كتبهم البيعيّـة فـي روما، عرضوها قبل الطبـع لأولياء الشأن هنـاك، وكـان مـن جملـة الأسئلة الكبرى التي طرحتها اللجان المختصـّة سنة ١٦٢١ حـول هـذه الكتـب: "هل يجب أن يُحذف اسم مـار يوحنّـا مـارون مـن بيـن أسـماء الآبـاء القدّيسـين المكتوبـة فـي قائمـة القدّيسين فـي تلـك الكتب؟". وقـد دوّن الكردينـال بـلّرمينُس ردًّا علـى هـذا السـؤال: "لا يُحذف اسم مار يوحنّـا مارون أبدًا بل ينبغي أن يبقى دائمًا في القائمـة، وأن يُطبع الشـحيم الكبير اليومـيّ الـذي يُذكر فيـه اسم مـار يوحنّـا مـارون أكـثر مـن ثـلاث مرّات في عداد الآباء القدّيسـين، فهو مـن وُصـف بـالأب الطوبـاويّ، وبـالقدّيس، بعلـم الكنيسـة الرومانيّـة، وقـد ارتضـى الأب الأقـدس أن يُطبـع هـذا الشـحيم، مراعيًـا فيـه الإصـلاح المثبّـت منــه ومـن الأبويـن العـالِمَين" "إيلاريـون رونكـاتوس " الراهـب "الجيسترجنسـه"، و"بطـرس المَطـوَشي" اليسـوعيّ، المتضلّـعَين مـن اللغـة السريانيّـة، وذلك في ١٢ تمّوز (يوليو) ١٦٢١". وقد وقّـع على هذا، إضافة إلى الأبوَين العـالمَين المذكورَين: كـلّ مـن الكرادلـة: "بنديـنـوس"، "بـلّرمينُس"، "روبرتُـس"، "أوبلدينُـس"، والمطران "أوكتافيوس برينستينُس" [١].

على أنّ عيد مار يوحنّـا مارون لم يكن مسجّلاً في لائحة الأعيـاد المـأمورة فـي المجمع الكنسيّ الماروني الذي عقده البطريرك سركيس الرزّي [٢] سنة ١٥٩٦ بحضـور القاصد الرسولي "إيرونيمُس دنديني" اليسوعيّ، وهـو أوّل مجمـع كنسـيّ مـارونيّ. بل

---

١ ـ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١٢٥، عن كتاب "المحاماة"، ص٢٢١ ـ ٢٥٩.

٢ ـ **البطريرك سركيس الرزّي**: انتُخب بطريركًا للموارنة نهاية أيلـول (سبتمبر) ١٥٨١، ثبّـتته رومـا فـي آذار (مـارس) ١٥٨٣، في عهده أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر مدرسة للموارنة في روما ١٥٨٥، وجاء الأب إيرونيمُس دنديني اليسـوعي موفدًا بابويًّا لتفحّص تعاليم الكنيسة المارونيّة ١٥٩٥ فقرّر صحّتها، وفي عهده أيضًا ظهر الأمـير فخـر الدين الثـاني ١٥٩٠، عقد أوّل مجمـع طائفي ماروني ١٥٩٦، تُوفّـي ١٥٩٧.

كان الموارنة يعيّدون في التاسع من شباط (فبراير) للقدّيس يوحنّا مارون بحسب التقليد، كما كانوا يعيّدون في الخامس من كانون الثاني (يناير) للقدّيس مارون. وفي الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٦٤٤، عقد البطريرك يوسف العاقوري * المجمع الملّي الشهير في دير "مار يوحنّا حراش" في كسروان، وقد جاء في نسخة مقرّرات المجمع التي خطّها البطريرك العاقوري بيده وحُفظت في مكتبة "آل مسعد" في عشقوت ما حرفيّته: "يُقام عيد مار يوحنّا مارون البطريرك في تاسع يوم من شهر شباط (فبراير)" [١]. وفي تاريخ لاحق، أُدخِل عيد القدّيس مارون إلى لائحة الأعياد المأمورة من قِبَل الكرسي البطريركي الماروني، ونُقل من الخامس من كانون الثاني (يناير) إلى التاسع من شباط (فبراير) لجمع عيدَي البطريرك يوحنّا مارون ومارون الناسك في يوم واحد، بهدف "التخفيف عن كاهل الشعب" [٢]. وبقيت الكنيسة المارونيّة مئات السنوات تقيم الاحتفالات بالعيدَين في التاسع من شباط (فبراير)، إلى أن نقل البطريرك يوسف إسطفان الغوسطاوي (١٧٦٦ ـ ١٧٩٣) عيد مار يوحنّا مارون إلى الثاني من آذار (مارس) تاركًا عيد مار مارون الناسك في التاسع من شباط (فبراير)، "ليتمكّن القطيع الصغير المعروف بتديّنه وإخلاصه لتعاليم الربّ من أن يمعن في الاحتفالات وإقامة الصلوات ورفع التضرّعات إلى الخالق بشفاعة قدّيسَيه المقتدرَين مار مارون ومار يوحنّا مارون العظيمَين" [٢].

---

١ ـ الديراني لفرم، المحاماة عن الموارنة وقدّيسيهم (١٨٩٩) ص٢١٨، ٢٧٧، ٢٨٠؛ القدّيس يوحنّا مارون، نشر الأباتي بطرس فهد، مرجع سابق، ص٤٤؛ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١٢٦، عن مخطوط آل مسعد رقم ٣٣.

٢ ـ القدّيس يوحنّا مارون، فهد، ص٤٥؛ راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

ردُّ التَّشكِيك بحَقيقَة
البَطريَرك يُوحنًا مَارُون

رغم كلّ ما هنالك من تداوين محفوظة، لا يرتقي إليها الشكّ، تؤكّد على جوانب مهمّة من نشأة البطريرك يوحنّا مارون وتسقيفه واعتلائه السدّة البطريركيّة، وأخرى تفيد عن مؤلّفاته وأعماله وإنجازاته وبنائه للمؤسّسة الإكليريكيّة والزمنيّة المارونيّة، وعن اعتباره قدّيسًا من قِبَل الكنيسة الجامعة، فقد تمكّن البعض من إلقاء ظلال من الشكّ حول حقيقة وجوده. ذلك أنّ سوء المعرفة، والتعصّب الناتج عن عدم إدراك الحقائق المجرّدة، قد جعلا بعض المنظّرين والموجّهين يلقون في أذهان الناس مزاعم غير صحيحة، ما أوجد حالاً من العداء لهذا البطريرك القدّيس الذي نذر حياته للدفاع عن التعاليم السماويّة المعتمدة من الكنيسة الجامعة.

قد يكون في رواية حادثة حلب البيان البليغ لأمرَين: الأوّل هو عدم صوابيّة الاعتبارات المعادية ليوحنّا مارون من قِبَل بعض المذاهب والملل، والثاني حتميّة أنّ يوحنّا مارون قد وُجد وكان أسقفًا، واعتبرته الكنيسة قدّيسًا.

مختصر قصّة حادثة حلب أنّه في خلال سنة ١٧٦٦، ألقى الخوري "يوحنّا باذنجاني" الحلبيّ المارونيّ عظة في الكاتدرائيّة المارونيّة في حلب، يوم عيد القديس يوحنّا مارون، دعا فيها إلى تكريم هذا القديس، وإلى "التحلّي بفضائله السامية والسَّير بموجب آثاره في صيانة وديعة الإيمان أساس ديانتِنا الكاثوليكيّة". فثار على الواعظ بعض الملكيّين الذين كانوا حاضرين في الكنيسة، وقاموا يكذّبونه ويسفّهون أقواله.

لم يُفد ترفّع الكاهن عن الردّ على المتهجّمين في عدم إثارة الضغائن والاضطرابات في بلاد كان يحكمها الأتراك، الذين عُرفوا بعدائيّتهم للكنيسة

المارونيّـة، وبقي جمر الخلاف تحت الرماد إلى أن جاء المطران "أرسانيوس شكري"، بعد سنتَين، إلى حلب، وألقـى عظـة بمناسبة الصـوم الكبير، حثّ بها أبنـاء رعيّـته المارونيّـة علـى تكريم القدّيس يوحنّـا مارون، بطريـرك الموارنـة الأوّل، وعلـى الإستمرار في حفظ الإيمان الكاثوليكيّ سالمـًا من كلّ شائبة. فاتّـخذ الملكيّون من هـذه العظة ذريعة لإثارة الفتن والاضطرابات ضدّ الموارنة، وقد ناصرهم في موقفهم بعض قـادة الإكليروس مـن كنـائس أخـرى، كـالروم والسريان والأرمـن واللاتيـن، وطـيّروا الشكاوى إلى البطريرك المارونيّ في لبنان وإلى الفاتيكان، ما أحـدث اهتمامًا خطـيرًا من قِبـَل المقامات الروحيّـة العليا. بيد أنّ ردّ الكرسي الرسولي كان مؤيّدًا الموارنـة في تكريم قدّيسهم مار يوحنّـا مارون[1]. ما زاد في حدّة الخلاف واستشرائه.

أمام هذا الواقع الخطير رأى عقلاء الكنائس والمرسَلين ضرورة عقد مجمع فـي حلب، للنّـظر في مسألة الخلاف، توصـّلاً إلى استئصال أسبابه وإلـى إعـادة الهدوء. وبالرغم من أنّ ممثّـلي الكنيسة المارونيّة لم يُدعوا إلى ذلك المجمع الذي عُـقد فـي حلب سنة ١٧٦٨، وحضره رؤساء الكهنة من الروم والسريان والأرمن، وانضمّ إليهـم رؤسـاء المرسَـلين اليسوعيّين والفرنسيسيّين والكرمليّيـن والكبّوشيّين[2]، إضافـة إلـى بعض تلامـذة المدرسـة الرومانيّـة، وبـالرغم مـن أنّ المجـادلات فـي ذلك المجمع لم تقتصر على موضوع العظتَـين المذكورتَين آنفًا، أو علـى موضـوع قداسـة البطريـرك يوحنّـا مارون، بل تخطّـت ذلـك إلـى أمـور شخصيّـة شـائكة، فقـد جـاءت مقرّرات مجمع حلب كما يلي:

---

١ ـ الأباتي بطرس فهد، بطاركة الموارنة وأساقفتهم، الحقبة ٦٨٥ إلى القرن ١٢، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٥) ص١٢٨ ـ ١٢٩، عن مجلـّة كوكب البرّيّة، عدد سنة ١٩١٢، ص١٥٣٨ راجع: الديراني، المحاماة ، مرجع سابق، ص١١٩.

٢ ـ الديراني، المحاماة، مرجع سابق، ص١١٧ و١٨٣.

نحن المحرّرة أسماؤهم بذيله نقول ونشهد، أوّلا، مع كلّ الذين كانوا موجودين في جمعيّتنا، الذين شهدوا وأثبتوا وأرادوا أن نشهد على إقرارهم، بعد أن اطّلعنا على شهادات المؤرّخين والمعلّمين الصادقين الذي رأيهم مقبول في بيعة اللّه المقدّسة، الذين كتب البعض منهم، سواء كانوا غربيّين أو شرقيّين، مطبوعة في انتشار الإيمان من جهة قداسة السيّد البطريرك الأنطاكي أوّل بطاركة الطائفة (الكنيسة) المارونيّة، أعني به يوحنّا مارون الذي ارتبط بالنّذور الرهبانيّة في دير القديس مارون النّاسك أبي الطائفة (الكنيسة) المارونيّة، ولأجل فضائله السامية وغيرته على خلاص النفوس، أقيم على الكرسي الأنطاكيّ بطريركًا على الطائفة (الكنيسة) المذكورة لكي يلاشي الأرطقات التي كانت منبثّة في مملكة سورية، ويحفظ الطائفة (الكنيسة) المذكورة بالإيمان الكاثوليكي لئلا تتعدي من هذا السمّ المهلك. وقد استمرّ هذا البطريرك المرقوم في كلّ زمان مقدّمًا الطاعة والخضوع إلى الكرسي الروماني المقدّس. فلأجل ذلك منحه الحبر الأعظم سرجيوس الثالث الدرع الرسولي، وذلك حين ذهب إلى رومة ليلتمس من قداسته التثبيت. ونشهد، ثانيًا أنّ البطريرك المذكور، لأجل أنّه كان مميّزًا بالقداسة والعلم والفضائل السامية في دير القديس مارون الناسك، فاستحقّ أن بيعة اللّه المقدّسة، تحرّر اسمه في سنكسار طائفة (كنيسة) الموارنة المطبوع بأمر الحبر الأعظم البابا أوربانوس الثامن (١٦٣١ ـ ١٦٤٤) الصالح الذكر في مطبعة نشر الإيمان المقدّس، وحرّرت تذكاره في اليوم التاسع من شهر شباط (فبراير) الواقع فيه عيد القدّيس مارون الناسك أبي الطائفة الجليلة. فلكي، من الآن وصاعدًا، لا يحدث شكوك وسجس وارتياب وآراء فاسدة وباطلة مضادّة وكاذبة من الذين يضادّون قداسة البطريرك المذكور، التأم هذا المجمع من أربعة رؤساء للرهبانيّات الغربيّة مع البعض من رهبانهم ومن المرسَلين الشرقيّين من مجمع الإيمان، ومن نوّاب المطارين لطائفة (كنيسة) الروم والأرمن، ومن خوارنة الروم والأرمن والسريان المحترمين. فبعد المجادلة العظيمة والبحث الكلّي بغاية التدقيق، فقد أبدوا جميعهم بفم واحد المديح الذي أنشده بعظته الأب يوحنّا باذنجان المرسَل الرسولي إلى

طائفة (كنيسة) الموارنة بحلب على قداسة سيرة القدّيس يوحنّـا مـارون البطريرك الأوّل الأنطاكي وعلى نياحته السعيدة. ولأجل أنّ البعض لاموا الأب المذكور علـى عظته ومديحه لهذا القدّيس بقولهم إنّ جميع ما مدحه به هو باطل، وإنّ هذا ليس هو قدّيسًا. فنحن الآن بررنـا الأب المذكـور ونبرّره أيضًـا بهذه الوثيقة ونحقّـق أنّ جميع ما أطنب به في مدح هذا القدّيس فهو حقيقيّ وصادق [1].

وقد وقّـع المجتمعون الستّـة عشر جميعًا، من ممثّـلي الطوائـف (الكنائس) فـي حلب، على هذه المقرّرات التـي تُـعتبر بمثابـة اعتراف بتقديس البطريرك يوحنّـا مارون، وحقيقة وجوده، وأسقفيّـته، وبطريركيّـته، ونضالـه [2]. كما وقّـع علـى هذه الوثيقة التاريخيّـة أيضًا عدد من الشهود ضمّت أسماءهم لائحة محفوظة لـدى المراجع الكنسيّـة [3]. وهكذا انتهت مسألة التشكيك بوجود البطريرك يوحنّـا مارون وبقداسته.

---

١ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٢٨ ـ ١٣٥، عن مجلّـة "كوكب البريّة"، عدد سنة ١٩١٢، ص٥٣٨ ومـا بعدهـا؛ أقرام الديراني، المحاماة، ص١١٩ وما بعدها؛ البطريرك يوسف إسطفان الغوسطاوي والمطران إسطفان عوّاد، القدّيس يوحنّـا مـارون، نشر الأباتي بطرس فهد (١٩٧٠) ص٢٠٠؛ راجع: المطران يوسف الدبس، الجـامع المفصّل فـي تـاريخ الموارنـة المفصّل، تقديم الأب ميشال الحايك، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٧) ص٦٦.

٢ ـ وقّـع على مقرّرات المجمع هذه: البادري سعد رئيس رهبان القدس في حلب؛ البادري لورنس رئيس رهبان الكرمل فـي حلب؛ البادري لوثر والبادري قيصر رئيسا رهبان الكبّوشيّين في حلب؛ البـادري جبرائيل رئيس رهبـان اليسوعيّين فـي حلب؛ البادري مبارك من رهبان مار فرنسيس في حلب؛ البادري اليلس والبادري يوحنّـا رئيسا رهبان الكرمل فـي حلب؛ القسّ أنطون صبّـاغ مرسَل رسولي لكنيسة الروم في حلب؛ القسّ يوسف بليط مرسَـل رسولي لكنيسة الأرمن فـي حلب؛ الخوري زخريّـا وكيل المطران أغناطيوس من كنيسة الروم في حلب؛ القسّ جبرايل عقّـاد وكيل بطريرك الأرمن في حلب؛ وكلّ من الخوري ميخائيل جربوع، ونعمة اللّـه كوسى، والقسّ جرجس حنّـون، والخوري يوسف حجّـار من كنيسة الروم في حلب؛ كمـا وقّـع علـى هذه الوثيقة التاريخيّـة أيضًا عدد من الشهود ضمّت أسماءهم لائحة محفوظة لدى المراجع الكنسيّـة.

٣ ـ صرّح هؤلاء الشهود بأنّ "جميع الآباء الذين حضروا المجمع، قد اعترفوا بفم واحد بحقيقة قداسة السيّد البطريرك يوحنّـا مـارون، حيث سألهم الأب يوحنّـا بانجناني، بعد كلّ فحص وتدقيق هاتفًـا: ـ هل بقي لكم شيء تعترضون بـه، أيّـها الآباء والسادة المكرّمون، لأنّـني مستعدّ أن أجاوبكم عن كلّ ما تعترضون به؟ ـ فأجابه الجميع قائلين: ـ كلاّ، لم يبقَ لنا فـي هذا الخصوص ولا اعتراض واحد". لمّا أولئك الشهود فكانوا: سعد من كركيناسكو مرسَـل رسولي ورئيس دير رهبان القدس بحلب، البـادري مبـارك الطاويلا مرسَـل رسولي وراهب من رهبان القدّيس فرنسيس الكبير بحلب، الخوري يوحنّـا مرجان وكيل المطـران غريغوريوس شكر اللّـه من كنيسة السريان ومرسَـل رسولي من مجمع انتشار الإيمان المقدّس في حلب، القسّ غزول نـائب بطريركي أرمني بمدينة حلب. القسّ يوسف بليط خوري كنيسة الأرمن في مدينة حلب ومرسَـل رسولي من مجمع انتشار الإيمان المقدّس.

إذا كان يستحيل تصوّر وطن لبنانيّ، بشكله الحاضر، من دون الموارنة، أبناء هذه الكنيسة المسيحيّة الوطنيّة المشرقيّة التي زامن وجودها كافّة مراحل نشوء الوطن اللّبنانيّ الذي نعرفه، منذ بدايات تكوّن مجتمعاته التي باتت تشكّل مجموع الشعب اللّبنانيّ، فإنّه يستحيل، أيضًا، تصوّر وجود كنيسة مارونيّة لو لم يكن عند بدايات تكوّنها رجل، وُلِد في مكان قريب من أنطاكية، وترهّب في دير مار مارون على ضفاف العاصي، وتعلّم في أنطاكية وفي القسطنطينيّة، ثمّ أضحى أسقفًا متمسّكًا بتعاليم الكنيسة الأرثذوكسيّة [1] الكاثوليكيّة بعناد، إلى أن حتّمت التطوّرات اعتلاء هذا الأسقف الوطنيّ المناضل سدّة البطريركيّة الأنطاكيّة، وسط صراعات عقائديّة وقوميّة ودينيّة طاحنة.

ويمكن التأكيد، من دون أيّ تردّد، على أنّ دراسة جميع المعطيات التي أحاطت بالأحداث المعنيّة بالصراعات العقائديّة والقوميّة في نطاق أبرشيّة أنطاكية، في الحقبة الممتدّة بين القسم الثاني من القرن السابع وبداية القرن الثامن، تدلّ على أنّه لولا وجود يوحنّا مارون، لما كان في الشرق كنيسة أرثذوكسيّة المعتقد، قوميّة التراث، حريصة على طاعة الكرسيّ الرسوليّ، متمسّكة بجذورها الأنطاكيّة، مصمّمة على البقاء في أرضها، غير قابلة للمساومة على مرتكزات ثلاثة أساسيّة: المعتقد، والحريّة، والأرض. وبعبارة أقصر، لولا يوحنّا مارون، لما كان موارنة.

لم يكن يوحنّا مارون مجرّد بطريرك وطنيّ تمسّك بالمعتقد الإيمانيّ المستقيم، وحارب البدع، وناضل بالفكر والكلمة والموقف، مدافعًا عن التعاليم الخلقيدونيّة، من

---

١ ـ كلمة أرثذوكسيّة، كما سبق أن أوضحنا، تُستعمل، أصلاً، بمعنى "الرأي المستقيم" بالنسبة إلى الشيع التي خرجت على معتقد الكنيسة الأمّ وعن مقرّراتها الخلقيدونيّة. بيد أنّه قد أصبح، في ما بعد، للعديد من تلك الشيع كنائس حملت التسمية الأرثذوكسيّة، على اعتبار أنّ كلاً من تلك الكنائس تعتبر أنّها صاحبة "الرأي القويم".

أجل حماية الكنيسة المشرقيّة من الانزلاق في مهاوي الضياع، بل كان أيضًا، بانيًا لمؤسّسة كنسيّة متكاملة، ببُعدَيها الروحيّ والزمنيّ، ليس أنّها تمكّنت من الصمود في مواجهة عواصف التاريخ العاتية طوال مئات السنين فقط، بل هي نمت وتعاظم شأنها، وقد "عمّرت أكثر ممّا عمّرت أمبراطوريّة القسطنطينيّة التي اضطهدتها"[١]، وهي لا زالت كيانًا وطنيًا أساسيًّا غير قابل للتجاهل.

---

١ - GIBBON EDWARD, *THE HISTORY OF THE DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE*, ED. J. B. BURY, VOL. V. (LONDON, 1898) PP. 156.

الفَصلُ الرَّابع

المَوَارِنة بَعد يُوحَنَّا مَارُون

بَعد يُوحَنَّا مَارُون؛ البطَاركة؛

الأُمَرَاء والمُقَدَّمُون المَرَدَة؛

في الحَقبَة العبَّاسيَّة.

بَعدَ يُوحَنّا مَارُون

قبل وفاته، كان البطريرك يوحنّا مارون قد فصل نهائيًّا الموارنة عن القسطنطينيّة، وأنشأ كنيسة مشرقيّة مستقيمة الرأي مستقلّة عنها، خاضعة لسلطة روما. وبذلك استطاع هذا البطريرك أن يبرز أولى الخصائص القوميّة التي يتمتّع بها الموارنة، وقد جعل منهم بقيادته الحكيمة شعبًا ذا سيادة. "ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر في الكنيسة المارونيّة تلك الخصائص التي جعلت منهم أمّة جبليّة مستقلّة منعزلة عن سائر الكنائس التي تقطن هذه المنطقة من الأرض". وقد استطاع يوحنّا مارون بدهائه "أن يردّ خليفة المسلمين باليد الواحدة وأمبراطور الروم بالأخرى"[1].

البطَاركة

تعاقَب على كرسي البطريركيّة المارونيّة خلفاء للبطريرك يوحنّا مارون منذ وفاته إلى اليوم من دون انقطاع. وكان أوّل من ألمح إلى انتخاب البطاركة والأساقفة لدى الموارنة، في منتصف القرن الثامن، البطريرك السريانيّ ديونيسيوس التلمحري[2]، عندما روى حادثًا تاريخيًا جرى في دير مار مارون سنة ٧٤٥، قال: "وظلّ الموارنة،

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٤.

٢ ـ ديونيسيوس التلمَحري (ت٨٤٥): ولد في تلمَحرة، وهي موضع في سورية في منطقة الجزيرة على نهر البليخ، بطريرك السريان المونوفيزيّين ٨١٨، كتب تاريخًا كبيرًا فقد معظمه تناول الحقبة بين ٥٨٢ ـ ٨٤٢ فاعتمده المؤرّخون اللاحقون ولخّصوه مرارًا.

كما هم الآن، ينتخبون بطريركًا ويرسمون أساقفة[1] من جمهور ديرهم"[2].

وضع العديد من الباحثين الكنسيّين والمؤرّخين الموارنـة لوائـح لتسلسل البطاركـة الموارنة الذين خلفوا البطريرك الأوّل يوحنّا مـارون، وقـاد جـاء بعضهـا ليختلف عن بعضها الآخر قليلاً[3]. أمّا السلسلة الأكثر اعتمـادًا اليوم، فهي التـي وضعهـا الأب د. بولس صفير ونشرها سنة ١٩٨٠،[4] وقدّ حدّدت عدد خلفاء يوحنّـا مـارون بخمسة وسبعين بطريركًا، فيكون البطريرك الحاليّ للكنيسـة المارونيّة مـار نصرالله بطرس صفير، بحسب هذه السلسلة، البطريك السـادس والسبعين. وكـان أول مـن اهتمّ بجمع المعلومـات التاريخيّـة عـن أولئك البطاركـة، البطريـرك العلاّمـة إسطفانوس الدويهـي (١٦٧٠ ـ ١٧٠٤) الذي قال عن البطاركة الخمسة الأوّلين، وفـي مقدّمتهم البطريـرك يوحنا مارون ما يلي: "إنّ هؤلاء البطاركة الخمسة: يوحنّا مـارون، قـورش، جبرائيل، يوحنّا مارون الثاني، ويوحنّا الدلمصاوي، أمْرُهم واضح من الرسالة التي أرسـلها سنة

---

١ ـ لسنا متأكّدين من حقيقة رسم الأساقفة في الكنيسـة المارونيّة قبل عهـد البطريـرك يوحنّـا اللحفدي الأول (١١٥١ ـ ١١٥٤) الذي، بحسب المراجع التي بين يدينا، كان أوّل من عيّن أساقفة لمعاونته فـي شؤون الرعيـة، أمّـا لنتخـاب البطاركـة الموارنـة، قبل ذلك التاريخ، فلعلّه كان يجري من قبل الكهنة والمقدّمين.

٢ ـ صفـير الأب د. بولـس، الكنيسـة المارونيّـة، مرجـع سـابق، ص٣٠٥، عـن: *CHRONIQUE* DE MICHEL LE SYRIEN, TRADUCTIOM. J.B. CHABOT (PARIS,1901) T.I, P. 467.

٣ ـ أبرز تلك السلاسل: سلسلة البطريـرك إسطفانُس الدويهي المنشورة فـي كتابـه "بطاركـة الطائفة المارونيّة"، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت،١٩٠٢)؛ سلسلة السمعاني؛ سلسلة العنيسي؛ سلسلة البطريـرك بولس مسعد؛ سلسلة الشـيخ أنطونيـوس أبـي خطّـار العينطوريني المنشورة في كتابـه "مختصـر تـاريخ جبل لبنـان"، طبعـة الأب اغنـاطيوس طنّوس الخـوري، تحقيق اليـاس قطّـار، منشورات دار لحد خاطر (بيروت،١٩٨٣) وهذه السلسلة تقتصر على البطاركة الذين سكنوا قنّوبين؛ سلسلة الخوراسقف يوسف داغر المنشورة في كتابه "بطاركـة الموارنـة"، المطبعـة الكاثوليكيّة (بيروت،١٩٥٧)؛ سلسلة الأبـاتي بطـرس فهد، المنشورة في مجموعته "بطاركة الموارنة وأساقفتهم"، منشورات دار لحد خاطر (بيروت،١٩٨٥).

٤ ـ نشرت في مجلة "الفصول اللبنانية، العدد الثـالث (١٩٨٠) ص ١٠٢ ـ ١٠٧؛ اعتمدهـا بحرفيتهـا الأب يوسـف محفـوظ، فـي مؤلّفـه "مختصر تاريخ المارونية" (الكسليك،١٩٨٤) ص ٣٩ ـ ٥٥.

١٤٩٥ جبرائيل ابن القلاعي إلى القسّ جرجس بن بشارة في الفصل الحادي عشر. ووجدنا ذكرهم أيضًا في كرّاسة سريانيّة كانت عند سالفنا المغفور له البطريرك جرجس[١] في قرية "بسبعل"[٢] الذي توفّي سنة ١٦٧٠، وقد نسخها "داود بن ابراهيم" سنة ١٦٢٤ لليونان، أي سنة ١٣١٣ للمسيح. فتكون أقدم من تحرير ابن القلاعي بمئة واثنَين وثمانين سنة"[٣]. وقد أجمع الباحثون على أنّ الذي خلف البطريرك يوحنّا مارون، إثر وفاته، هو "قورش" ابن أخته، الذي كان ترهّب، مثله، في دير مار مارون العاصي وتتلمذ على يدَيه، وتثقّف في العلوم العالية من فلسفيّة ولاهوتيّة وطبيعيّة[٤]؛ وقد جاء في "المقالة السمعانيّة" أنّ في عهد البطريرك جبرائيل، خليفة "قورش"، عاد الملكيّون بعد وفاة الأمبراطور يوستينيانوس الثاني (٦٦٩ ــ ٧١١) بسنوات، إلى الاعتقاد بالطبيعتَين والمشيئتَين في السيّد المسيح، وانتخبوا لهم بطريركًا جعل إقامته في دمشق[٥]؛ وأنّ البطريرك المارونيّ يوحنّا مارون الثاني، "كان من رهبان دير مار مارون العاصي، ولمّا أُقيم بطريركًا قصد السكن في أنطاكية، لكنّه لم يستطع الإقامة فيها لمناوأة العرب له، فجاء وسكن في لبنان، في دير

---

١ ـ جرجس الحاج رزق الله البسبعلي (بطريرك١٦٥٧ ـ ١٦٧٠).

٢ ـ بسبعل: قرية في قضاء زغرتا من أعمال لبنان الشمالي.

٣ ـ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ٩١؛ دريان، أصل الجراجمة والمردة والموارنة، مرجع سابق، ص٤٢؛ ديب المطران بطرس، تاريخ الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص١٤٧ ـ ١٤٩.

٤ ـ ذكر الدويهي في تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، أنّ "قورش" ويسمّى "كُرُوس" و"كُرُوسي" أيضًا، كان من أرباب الكتاب، فزهد في الدنيا واقتدى بسيرة خاله وتتلمذ لهُ وضاهاهُ في منهج حياته وأحكم كلّ فضيلة وناضل عن الأمانة القويمة بكلّ ورعٍ ورذل آراء المخالفين. وقد جاء في خبر يوحنّا مارون أنّهُ لما انتقل إلى راحة الصالحين خلفهُ قورش على الكرسي الانطاكي بعد أن نال التثبيت من الكرسي الروماني.

٥ ـ راجع: داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٢.

"سيّدة يانوح"[1] في جبّة المنيطرة قرب العاقورة. ولمّا شعر بدنوّ أجله أخلى الكرسيّ ليوحنّا الدملصيّ، وهو السابع والستّون بعد مار بطرس، والخامس بعد يوحنّا مارون الأوّل"[2]. وبينما اعتبر السمعاني أنّه "من المحقّق التئام مجمع نيقيا الثاني[3] ضدّ بدعة محاربي الأيقونات في عهد هذا البطريرك، وقد كان ذلك سنة ٧٨٧ أي بعد انتهاء عهد الخلافة الأمويّة وبداية الخلافة العبّاسيّة بسبع وثمانين سنة، ذكر آخرون أنّ مجمع نيقيا إنّما جرى في عهد خليفته "يوحنّا الدملصي"[4]، الذي عُرف باسم يوحنّا مارون الثالث[5]، ولم يتمكّن من حضور المجمع هو وبطاركة الشرق الثلاثة بسبب قساوة العرب المستولين عليهم، ولكنّهم لم يتأخّروا عن إرسال مندوبين عنهم[6].

---

١ ـ يانوح: بلدة في أعالي منطقة جبّة المنيطرة من أعمال بلاد جبيل من جبل لبنان، والعاقورة بلدة كبيرة بجوارها. وذكر فهد، في كتابه "بطاركة الموارنة"، مرجع سابق، ١: ١٤٩ ـ ١٥٢، التالي: تبيّن لنا أنّ كرسي البطاركة الموارنة بين يوحنّا مارون الثاني (أواسط القرن الثامن) والبطريرك يوسف الجرجسي (بطريرك١١٠٠ ـ ١١٢٠) اللذين جعلا كرسيهما في يانوح، لم يكن معروفًا مركزه، لذلك يمكن أن يكون في يانوح. والذي نقل الكرسي من يانوح إلى سيدة ايليج في ميفوق كان البطريرك بطرس الأوّل المنتخب خلفا للبطريرك يوسف الجرجسي سنة ١١٢١؛ وقال الأب ميشال الحايك، في مجلّة "الرعيّة"، العدد ١٤٣، أيّار (مايو) ١٩٧٨، ص١٣ وما يليها أنّ الموارنة، أوّل ما جاؤوا مهاجرين من سهول سورية الثانية للإعتصام بوعورة الجبال، قد اتّبعت إحدى قوافلهم الأولى في نزوحها ضفاف العاصي حتّى البقاع، ومنه تسلّقوا الجرد في أعالي بلاد جبيل، لذلك لا نظنّ أنّ دير مار يوحنّا مارون في كفرحي هو أوّل أديارهم البطريركيّة إذ ليس ما يثبت ذلك سوى التقليد، ولكن من الأثبت على ما يبدو من استقراء النصوص، أنّ الكرسي البطريركي انتقل نهائيًا إلى لبنان بعد أن خرب دير مار مارون في سوريا ... وكان الإنتقال عام ٩٣٩ والإقامة في سيدة يانوح، بين قرطبا والعاقورة، حيث لاتزال آثار الحريق ظاهرة في فناء كنيسة مهدّمة واضحة المعالم، إسمها مار جرجس الأزرق. هذا أوّل مراكزهم، بناه يوحنّا مارون من الحجر الأزرق كلّه "في غاية الصنعة والشرافة". نشير أنّ الكلام للأب حايك ونحن لا نجاريه الرأي القائل بأنّ دير يانوح سابق لدير كفرحيّ ـ المؤلّف.

٢ ـ راجع: داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٢؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٤٦، عن المقالة السمعانيّة.

٣ ـ مجمع نيقيا أو المجمع النيقاوي الثاني، نسبة إلى مدينة نيقيا في الأناضول إسمها اليوم إزنيق، عقد فيها مجمعان مسكونيّان، الأوّل حرّم آريوس سنة ٣٢٥، والثاني، ٧٨٧، حرم الإيقونوكلاست، أو محطّمي الصور، أو محاربي الأيقونات.

٤ ـ الدملصي: نسبة إلى دملصا، قرية قديمة شرق مدينة جبيل، على متوسط ارتفاع ٣٠٠م. عن سطح البحر، تشكّل اليوم من قرية كفرمسحون بلدة واحدة.

٥ ـ الدبس، الجامع المفصّل، مرجع سابق، ص١٠١؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٤٦ ـ ١٤٧.

٦ ـ فهد، بطاركة الموارنة، المرجع السابق.

وفي أكثر لوائح سلسلة البطاركة الموارنة أنّ البطاركة الذين تعاقبوا بعد يوحنّا الدملصيّ، كانوا، على التوالي:

غريغوريوس الأوّل، السادس بعد يوحنّا مارون الأوّل، وفي أيّامه "عُقد الصلح مع هارون الرشيد باهتمام الملكة "إيرينه"، إذ تسنّى لهذه الملكة تأييد الديانة المسيحيّة بمساعدة هارون الرشيد حليفها"[1]؛ خلفه إسطفانُس؛ ثمّ مرقس؛ ثمّ أوسابيوس، البطريرك التاسع الذي سمّاه السمعاني "حوشب" وقال إنّ "فوتيوس"[2] تغلّب في عهده على "اغناطيوس" بطريرك القسطنطينيّة[3]؛ وخلف أوسابيوس أو حوشب على كرسي البطريركيّة المارونيّة: يوحنّا الرابع، وهو البطريرك العاشر، وجاء في مقالة السمعاني أنّ "في عهده تفاقم الخلاف بين الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة بسبب اغتصاب "فوتيوس" السدّة البطريركيّة، فعُقد المجمع القسطنطينيّ في السنة ٨٦٩ باهتمام الملك "باسيليوس"، ولم يتمكّن بطاركة الشرق من الحضور فأرسلوا قصّادًا من قبلهم"[4]؛ خلف يوحنّا الرابع: يشوع الأوّل؛ ثمّ داود؛ ثمّ غريغوريوس الثاني، وهو البطريرك الثالث عشر، في أيّامه كانت بلاد الشام على أسوأ حال بسبب انحطاط دولة العبّاسيّين[5]؛ أمّا البطريرك الرابع عشر، فكان اسمه توافيليكتُس، ترجم اسمه السمعاني في مقالته إلى "حبيب"، وذكر أنّ "تيكوتور[6] أتى في عهده سنة ٩٦٢ من القسطنطينيّة وأخذ سورية

---

١ ـ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٢، عن "المقالة السمعانيّة، وعن كتاب "قطف الزهور"، قسم أوّل من العرب، ص١٠٧.

٢ ـ عيّن فوتيوس، رئيس مجلس الوزراء، بطريركًا على القسطنطينيّة ٨٥٨ ـ ٨٦٧، ثمّ ٨٧٧ ـ ٨٨٦.

٣ ـ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٣، عن "المقالة السمعانيّة".

٤ ـ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٣، عن "المقالة السمعانيّة"، كتاب "تاريخ البدع"، رأس ٩، عدد٩.

٥ ـ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٣، عن "المقالة السمعانيّة"، وعن كتاب قطف الزهور، قسم أوّل، ص١١١.

٦ ـ **نيكوتور أو نِقفورُس فوكا الثاني** NIKÊPHOROS المعروف عند العرب باسم **فقّاس**: أمبراطور بيزنطي ٩٦٣ ـ ٩٦٩، قاد حملة على العرب وانتزع منهم كريت، نادى به الجيش أمبراطورًا، زاد الضرائب ليهتمّ بالجيش واحتلّ قيليقيا وقبرص وقسمًا من سورية ٩٦٤ ـ ٩٦٥، اغتاله القائد يوحنّا شمشقيق أو شمشق بالاتفاق مع زوجته تيوفانو.

ومدن لبنان وفتح مدينة طرابلس وما جاورها من القرى التي تقطنها المردة، كما يتّضح من رسالة "شمشقيق"[1] قائد جيوشه إلى ملك أرمينيا، فبعد أن أوضح له ما أبداه جنوده من بسالة في فتح المدينة قال: لا يسعنا إلاّ الإقرار بأنّنا أتلفنا كلّ ما جاور طرابلس وذبحنا الحيوانات وأبدنا الكروم وقطعنا الأشجار"[2]؛ ثمّ خلف توافيليكتُس، أو حبيب، على الكرسيّ البطريركيّ المارونيّ، البطريرك الخامس عشر: يشوع الثاني، وفي أيّامه استرجع الخليفة الفاطمي العزيز بالله أبو النصر[3] مدن لبنان من نيكوفور فوكا سنة ٩٧٥، فاستتبّ الأمن، وهو، بحسب بعض المؤرّخين، الوحيد من الفاطميّين الذي سلك مع النصارى مسلكًا جعلهم يتمتّعون بتمام الحريّة[4]؛ وبعد يشوع الثاني جاء البطريرك دوميطيوس[5]، الذي ظهر في عهده مذهب الدروز في لبنان[6] سنة ١٠١٧، وانتشر في وادي التيم وامتدّ إلى المتن وحوران[7]؛ ثمّ إسحق، وهو البطريرك السابع عشر؛ خلفه يوحنّا الخامس، في عهده ظهر المطران داود، أشهر علماء عصره، وهو

---

١ ـ **يوحنّا بن شمشقيق أو يوحنّا جيمسكي**: اغتال سلفه نِقفورُس الثاني بالاتفاق مع زوجة الأخير وأصبح أمبراطور بيزنطيا ٩٦٩ ـ ٩٧٦، طرد الروس من بلغاريا الشرقيّة ودخل دمشق والناصرة وبيروت ٩٧٤ ـ ٩٧٥، مات مسمومًا على يد خلفه باسيليُوس الثاني.

٢ ـ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤، عن "المقالة السمعانيّة".

٣ ـ **العزيز بالله أبو النصر نزار بن المعزّ** (٩٥٥ ـ ٩٩٦): خامس الخلفاء الفاطميّين في مصر ٩٧٥، استوزر تباعًا "يعقوب بن كلّس" و"عيسى بن نسطورُس"، حاول احتلال حلب مرارًا فاخفق بسبب تأييد البيزنطيّين لأمراء المدينة، عُرف بتسامحه ومواهبه الإداريّة، اهتمّ بالشؤون المدنيّة والماليّة، توفّي في بِلبَيس.

٤ ـ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤، عن: قساطلي نعمان، تاريخ مصر، باب أول، ص٤٢١، حيث جاء أنّ النصارى قد تمتّعوا في عهد هذا الخليفة بتمام الحريّة، وفُتح لهم باب الترقّي في سلك المناصب.

٥ ـ **دوميطيوس**: يعرف أيضًا باسم دوميط، وضوميط، وضومط.

٦ ـ راجع: الجزء الحادي والعشرين من هذه الموسوعة.

٧ ـ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٤.

الذي ترجم كتاب "الهدى" أو "الناموس" من السريانيّة إلى العربيّـة سنة ١٠٥٨[1]؛ خلفه البطريرك سمعان، وفي أيّامه كان الموارنة معتصمين بجبالهم، محافظين على استقلالهم الداخليّ، وشعر سكّان الشوف والجنوب والسواحل والسهول (في لبنان) أنّ البلاد صارت بلادهم فأخذ فريق منهم يتعامل مع الغزاة بما يوافق مصالحه وتمكّن من المحافظة على كيانه أسوة بالموارنة[2]. وذكر الدويهي في سلسلته أسماء أربعة بطاركة خلفوا البطريرك سمعان، هم على التوالي: إرميا، ويوحنّا، وشمعون (الثاني)، وشمعون (الثالث)، فقال: "هؤلاء الأربعة هم بلا شكّ موارنة، وقد تولّوا الكرسيّ الأنطاكيّ بعد مجيء الإفرنج إلى بلاد الشام، لأنّ أخبارهم والسجلاّت البابويّة المرسلة إليهم مصونة عندنا...، ولمّا قامت جيوش الإفرنج إلى هذه البلدان، وحلّوا في أنطاكية وبيت المقدس أقاموا لهم سنة ١١٠٠، كما تخبر التواريخ، بطركًا وملكًا على بيت المقدس، وأرسلوا البشائر إلى بابا رومه وملوك النصارى"[3].

وقبل أن نتابع تسلسل البطاركة الموارنة، إستئنافًا من البطريرك يوسف الجرجسي (١١٠٠ ـ ١١٢٠)، حيث ستصبح المعلومات المتوفّرة عنهم أكثر يسرًا، نتوقّف عند النواحي العلمانيّة لأحوال الكنيسة المارونيّة بين يوحنّا مارون ونهاية القرن الحادي عشر.

---

١ ـ داغر، بطاركة، المرجع السابق.

٢ ـ داغر، بطاركة، المرجع السابق؛ وراجع: دريان المطران يوسف، أصل الجراجمة والمردة والموارنة؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٤٩.

٣ ـ الدويهي، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٢٠؛ راجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٠.

الأُمَرَاء والمُقَدَّمُون المَرَدَة

يعتبر باحثون محدثون في الشأن الماروني[1] أنّه "بعد لجوء الموارنة إلى لبنان واستيطانهم في مناطقه الشماليّة، انقطعوا لفترة غير قصيرة عن أجواء الاضطرابات، ورُفع عنهم كابوس المحن والنكبات، فراحوا يهتمّون بتنظيم أوضاعهم الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، مؤثرين شظف العيش، في جبال لبنان الجرداء ووديانه السحيقة، على رخيّه في سهول سورية الخصبة والمترامية الأطراف. فالتفّوا، أوّلاً، حول بطاركتهم ورؤسائهم الروحيّين الذين كانوا لهم مرجعًا في كلّ شيء. ثمّ بدأوا ينظّمون حياتهم القرويّة وشعائر عباداتهم الدينيّة. فاهتمّوا ببناء الكنائس والأديار إلى جانب تعمير القرى وتشييد البيوت. ومن الكنائس التي بُنيت في منتصف القرن الثامن كنيسة مار ماما في إهدن التي يرقى بناؤها إلى سنة ٧٤٩[2]. ومع الوقت، أصبح الموارنة شعبًا قويّ الإيمان متراصّ الصفوف، شديدَ المراس، حريصًا على كيانه ومبادئ ديانته، ماهرًا في القتال وعنيدًا في الدفاع عن النفس. فبرزت، على الأثر، البطريركيّة المارونيّة، وكأنّها مؤسّسة كنسيّة دينيّة مستمرّة، ذات سلطة روحيّة ونفوذ زمنيّ كبير تجاوز لبنان إلى المشرق. فكان البطاركة والأساقفة يعيشون إلى جانب أبناء شعبهم القرويّ الكادح ببساطة ووداعة، يقاسمونه شظف العيش ويشاركونه في الأفراح والأحزان، ويقومون بمهامّ الرعاية والقيادة والتدبير. فيرشدونه في أموره الروحيّة والزمنيّة، ويسهرون على مصالحه، مؤمّنين له حريّة التصرّف وأخذ المبادرات في تقرير المصير والانفتاح على بقية الأديان والمذاهب والحضارات".

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

٢ ـ راجع ديب المطران بطرس، تاريخ للكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٧١.

ما لا يجوز إغفاله، في هذا المجال، ما كان لأمراء المردة ومقدّمي الموارنة من دور أساسيّ في تطوّر الكيان المارونيّ في بداياته.

إذا كان أتباع الكنيسة التي أنشأها البطريرك يوحنّا مارون قد عُرفوا، لناحية المعتقد، بالموارنة، فإنّ هؤلاء قد عُرفوا قبلاً، من الناحية الزمنيّة، باسم المردة. وهذا ما تُجمع عليه التواريخ، ولكن من دون تمييز بين الصفتَين الدينيّة والزمنيّة لهؤلاء. ولفظُ المردة ساميّ يعني: الإنتفاض والمقاومة. ولا شكّ في أنّهم قد عُرفوا بتلك الصفة منذ العهد الأمويّ. ويطالعنا محقّقون ثقات أنّ "معاوية (خليفة ٦٥٧ ـ ٦٨٠)، قد رأى من الحكمة أن يدفع جزية للروم مقابل أن يمتنع هؤلاء عن مساعدة المردة، العدوّ الداخليّ الجديد... وقد كان المردة يتلقّون من الخليفة جزيةً أيضًا[1]. بيد أنّ العبّاسيّين سوف يعمدون إلى حلٍّ مختلفٍ جذريًّا عن الحلّ الأمويّ للمردة، إذ لن يُدخلوا في التعامل أيّ إغراء إقتصاديّ، إنّما سوف يعتمدون: إجلاء السكّان، ونقل القبائل العربيّة التّنوخيّة إلى لبنان، والسيطرة على الجبل، وهي كلّها حلول عنف وإرهاب" بحسب مؤرّخين مسلمين[2].

وقد ذكر نسّابون أنّه عند "ابتداء دولة العرب سنة ٦٢٨، كان من الأمراء المردة الأمير يوسف واليًا على جبيل، والأمير كسرى على العاصية التي أصبحت تُعرف بكسروان نسبة إليه، والأمير أيّوب على قيساريّة فيليبُّس وبيت المقدس". ومن أخبار هؤلاء الأمراء المردة أن أحدهم، يوحنّا، بن حفيد يوسف الأوّل، إذ كان ملكًا على جبيل، قد تولّى في أيّام الملك قسطنطين الرابع (أمبرطور ٦٦٨ ـ ٦٨٥) من القدس حتّى حدود أنطاكية. كما جاء أنّ يوحنّا هذا قد أنجد الملك قسطنطين سنة ٦٧٧ في

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٢٩٩.

٢ ـ مكّي محمّد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، (بيروت،١٩٧٩) ص٦٥.

مواقع عديدة. ومـن أهـم أخبـار هؤلاء الأمـراء مشـاركتهم فـي منازلـة جنـود القـائدَين البيزنطيَّين موريق وموريقيان، في شمال لبنان، إلى جـانب البطريـرك يوحنّـا مـارون، وتغلّــبهم عليهم سنة٦٩٤. وقد ذكـر مؤرّخـون أنّ الأمـير يوحنّـــا المـردي قد قُـتـل بأيدي البيزنط من جنود يوستينيانُس الثاني قبل معركة أميون[1]. ومن أخبار المردة أنّهم بنوا حصنًا فوق نهر الكلب سنة ٧١٥، شهد معـارك ضاريـة بينهـم وبيـن المسلمين[2]. وورد في المدوّنات ذكـر لمقدّمـي "بحرصـاف"، و"إنطليـاس"، و"بحنّـــس"، و"بسـكنتا"[3] وسواها قبل القرن الثامن[4]. ومن بقايا المردة في تلك المناطق، بناء أثريّ في إنطلياس، بُني على أنقاضه دير مار الياس الذي يرجع تاريخ بنائه الأوّل إلـى أوّل أجيـال المـردة الذين كانوا يرابطون في إنطلياس وجوار نهر الكلب. والآثار الدالّة على ذلك عديـدة[5]. وقد ذكر قلعة المردة في إنطلياس إبن القلاعي في زجليّاته حيـث قـال: "وفـي إنطليـاس أبنوا القلعة، الحاجرية كانت تُدعى"[6]. وقد دُكّت هذه القلعة ـ الدير من قبـل المهـاجمين وجُدّد بناؤها مرارًا على أيدي أمراء الموارنة ومشايخهم حتّى عهد البطريرك يعقـوب عوّاد (١٧٠٥ ـ ١٧٣٣) الذي سـلّمهم ديرًا للرهبـان الأنطونيّيـن سـنة ١٧٢٣[7]. وذكـر بعض مؤرّخي الموارنة أنّ الـذي أقـام فـي إنطليـاس مـن الأمـراء المـردة كـان الأمـير

---

١ ـ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٩.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٤ ـ ٢٥٠.

٣ ـ بحرصاف، إنطلياس، بسكنتا، بحنّس: من بلدات قضاء المتن الشمالي من أعمال جبل لبنان الممتدّة من الساحل عند إنطلياس، وإلى سفوح جبل صنين حيث بسكنتا، والأخيرة: بحنّس، تقع في وسط المتن وأصبحت تعرف اليوم باسم "ضهر الصوّان".

٤ ـ زجليّات ابن القلاعي، تحقيق الأب بطرس الجميّل، نشر دار لحد خاطر (بيروت،١٩٨٢) ص٩١ ـ ٩٢.

٥ ـ مسعد، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص ٧٢ ـ ٧٣.

٦ ـ إبن القلاعي، حروب المقدّمين، المجلّة البطريركيّة (١٩٢٧).

٧ ـ أبي سمرالأب جرجس، لمعة جليّة في تاريخ الأسرة العونيّة، مطبعة المرسلين اللبنانيّين (جونية،١٩٤٠) ص٢٧٠؛ عوّاد المحامي ابراهيم، أبرشيّة قبرص المارونيّة (بيروت،١٩٥٠)

يوحنّا، الذي كان يتنقّل بينها وبين بحرصاف وبسكنتا. وفيها أقام الأمير سمعان الثاني الذي كان له حصن آخر في بحرصاف[1].

ويقول العلامة الأب "أنستاس الكرملي" أنّ المردة أخذوا ببناء بسكنتا في وادي "أبولون" إبتداء من سنة ٦٧٩. وكان أوّل من سكنها من الأمراء المردة الملك يوحنّا، الذي اغتيل بتدبير "يوستينيانُس" ملك القسطنطينيّة. فخلفه في السكن ببسكنتا الأمير سمعان، الذي مسحه بطريرك الموارنة ملكًا على كسروان بحضور أمير جبيل وبقيّة أمراء المردة وأربعين أسقفاً مارونيًا[2]، والذي قُتل في موقعة جرت على أرض نهر الكلب بين المردة والعرب، وقد حُمل الأمير إلى بسكنتا ودُفن فيها سنة ٨٧١[3]. ومن آثار الأميرَين بقايا قصر الأمير يوحنّا في محلّة "كفريقدة" من بسكنتا، الذي اعتبر باحثون[4] أنّ الرومان قد بنوه قبل أن يسكنه يوحنّا[5]، وخرائب قصر الأمير سمعان على قمّة "الحصين" في بسكنتا أيضًا، وذكر مؤرّخون أنّه قد سكن هذا القصر بضعة أمراء آخرين[6] إذ يعتقد كثيرون أن هنالك أمراء مردة آخرون قد سكنوا البلدة، ومن آثار هؤلاء الأمراء قصور، معالمها بارزة حتّى اليوم، في منطقة تُعرف بـ" قلعة الحبس"[7].

---

١ ـ عوّاد المحامي إبراهيم، أبرشيّة قبرص، مرجع سابق.

٢ ـ حبيقة الخوراسقف بطرس، تاريخ بسكنتا وأسرها (١٩٤٦) ص٩، نقلاً عن البطريرك الدويهي.

٣ ـ شهاب الأمير حيدر، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان (١٩٨٠).

٤ ـ حبيقة، تاريخ بسكنتا، مرجع سابق، ص٨.

٥ ـ تتميّز بقايا هذا القصر بضخامة الحجارة الحسنة النحت، وبالأعمدة الضخمة التي لبعضها تيجان منقوشة نقشاً بديعاً، وحول المكان نواويس بعضها محفور في الصخر الثابت وبعضها مقطوع مسنّم بشكل جملون.

٦ ـ حبيقة، تاريخ بسكنتا، مرجع سابق، ص٩.

٧ ـ راجع: مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانيّة المصوّرة، الجزء الأوّل، مكتبة البستان (بيروت،١٩٦٩)

ومن بقايا المردة أيضًا آثار قلعة "العالية" في بحرصاف، في المحلّة المعروفة اليوم بالعالية، حيث لم يعد من بقاياها سوى حجارة متناثرة بين مداميك أبنية البلدة. وقد أجمع أكثر المؤرّخين على أنّ بحرصاف قد ازدهرت في عهد المردة ازدهارًا "يبرّر شأنه العظيم أنّ البلدة كانت مركزا لأمراء القوم، فلقد جعلها الأمير سمعان والأساقفة الموارنة مقرًّا لهم في القرن الحادي عشر، ويردّد التقليد أن قلعة بحرصاف التي اتّخذها الأمير سمعان حصنًا له، هي موروثة عن الأمبراطور يوستينيانُس الأخرم، وقد جدّد المردة بناءها في سنة ٦٨٥، كما يذكر إبن القلاعي، في المكان المعروف بدرجة بحرصاف"[١]. وفي أواخر القرن السادس عشر، بنى أبناء أسرتَي "الدنيّل" و"فرح"، في بحرصاف، كنيسة صغيرة مسقوفة بالأخشاب على اسم القدّيس نوهرا، على أنقاض كنيسة قديمة مبنيّة في أيّام المردة، وُجد فيها بقايا أضرحة لمطارنة وكهنة عاصروا العهود الصليبية[٢].

وكان بين تلك القلاع سلسلة من الأبراج، ولم تزل إلى الآنَ بعض المحلات تحمل اسم البرج أو البريج، تمتدّ إلى "تابيه" فوق إنطلياس، و"برمّانا"، و"مار شعيا" بقرب برمّانا، و"العيرون" بقرب "ضهور الشوير"، و"ترشيش" في أعالي المتن، وسواها من قرى هذا القضاء. وفي تلك الحقبة، كانت أشجار الزيتون تمتد من إنطلياس الى بكفيّا، وكان في "بحرصاف"، و"الخلَة" بقرب "بعبدات"، و"تابيه" فوق إنطلياس، و"عينطورة" في أعالي المتن، و"الميّاسة" بقرب بكفيّا، وسواها، معاصر كثيرة للزيت، لا تزال آثارها إلى الآن. وكانت الكروم تكسو الجبال من برمّانا الى الشوير وترشيش و"كفرسلوان" و"حمانا" في أعالي المتن وضواحي جبلَي "صنّين" و"الكنَيسة"، وكانت

---

١ ـ بليبل الشيخ إدمون، تقويم بكفيّا الكبرى وتاريخ أسرها (بكفيّا،١٩٣٥).

٢ ـ المرجع السابق.

الجنائن تمتدّ من "نبع العرعار" قرب "بعبدات" الى "العطشانة" بقرب بكفيّا وضواحيها، وكانت الأثمار الشائعة عندهم التفّاح والرمّان. ولقد جاء في زجليّات إبن القلاعي، أشهر من أرّخ لتلك الحقبة:

وبنوا برج على الدرجة	وأسقف بحنّس في الخارجة
وفي العرعار كان له فرجه	بساتين تفاح مع رمان
بيروت العتيقة دمسها	وقطع المياه وأعكسها
نحو العطشانة أدرسها	وجدد مزارع مع سكان.

ومن الذين أبرزَ بعضُ قدماء مؤرّخي الموارنة ذكرَهم من أمراء المردة: الأمير كسرى الأول الشهير، الذي نُسب إليه تجديد تعمير كسروان، وقيل إنّها سُمّيت باسمه، إذ إنّ هذه المنطقة كانت تُعرف قبله بـ"العاصية" و"الخارجة"، لعصيانها على الدولة، ولخروجها عن طاعتها. وقيل إنّ الذي تولّى الإمارة بعده كان سمعان الثاني الذي جرت له مع جيوش الشام حروب عديدة انتصر فيها، أشهرها معركة "المروج" في أعالي المتن سنة ٧٥٢. وفي السنة نفسها، سار خاله "المقدّم الياس" إلى البقاع، وظفر به وملكه، لكنّه قُتل غدرًا هناك ودُفن في المكان المعروف بـ"قبّ الياس"، وهو تحريف لـ"قبر الياس"، بحسب هؤلاء المؤرّخين. وقد جاء إبن القلاعي على ذكر هذه الواقعة.

أمّا البطريرك الدويهي، فيتساءل عمّن يكونون أمراء المردة أولئك، الذين عُرفوا بالمردة لأنّهم عصاة، ويجيب:

> لم نحقّق في هذا الأمر في كتب التواريخ المذكورة آنفًا، بل إنّنا عرفنا أصلهم من قصّة يوحنّا البطريرك[1]، التي تخبر أنّهُ أرسل إلى قسطنطينيّة ثلاثة رجال مهذّبين

١ ـ المقصود البطريرك يوحنّا مارون.

ليحملوا المظلّة فوق رأس الملك، وأنّه تناسل من هؤلاء الثلاثة كثير من الملوك لبني مارون. وأمّا بعض أسمائهم وأخبارهم فقد نقلناهُ من كتاب قديم وصل إلينا من المرحوم سالفنا البطريرك "جرجس"[1]، نسخةُ "داود بن ابرهيم" في السنة ١٦٢٦ اليونانية الموافقة للسنة ١٣١٥ المسيحية يتضمّن أخبارًا مختلفة من جملتها: أنّه في ابتداء دولة العرب، كان "يوسف" ملكًا على جبيل، و"كسرى" على "الداخلة"[2] ومن إسمه سمّيت كسروان. وكان "أيّوب متواليًا "قيصريّة فيلبُس" و"بيت المقدس" في خلافة "عمر"[3]. وبعد "أيّوب" قام "الياس" وهذا أنجَد "هرقل" عند قدومه إلى بلاد الشام. ومن بعد هؤلاء دخل على تدبير جبيل وجبل لبنان "يوسف" الملك واستصحب معهُ اثنَي عشر ألف فارس بطل، وسار بهم إلى بلاد أرمينية، وظفر بجيش "سابور" وكان قائدهُ "سرجيُس" الأرمني فهدم معاقله وحصونه وسلب نعمته ثم عاد راجعًا. فلما اتّصل بسابور ان عسكرهُ ولّى مكسورًا امتلأ غيظًا وحنقًا على سرجيُس وأمر به فطُرح في نهر "أرسينس" ومات غريقًا. ثم إنّ عساكر يوسف الملك جازت سواحل البحر والبقاع حتى ولجت بلاد معاوية وشتّتت أهلها في كل صقع. ولمّا توفي يوسف ملك مكانه "يوحنّا" وكان أسدًا مهيبًا. والكتاب المذكور يخبر عنه أنّ قام بعد يوسف ملك اسمه يوحنا، فاستولى على كلّ الارض المقدّسة وخرج من جبل لبنان إلى "الكرمل" وفي صحبته جماعة عظيمة قاصدة المسير إلى أورشليم، فوثب عليه لصوص كثيرون من بلاد "الغضبى" وأحاطوا بهِ فوق "برج الغرباء" وأهلكوا من جماعتهِ ثلاثة آلاف بالسيف. ثم إنّه تحوّل على "الغضبى" وعلى بلادهم وقتل منهم تسعة آلاف وسلب الغنائم والبهائم والنساء والأطفال ثمّ رجع إلى بلاده وسكن في بسكنتا. ويضيف الدويهي: فالملخّص مما تقدم أن الأمير الذي كان يحكم جبيل قديمًا كانوا يسمّونه ملكًا بالنظر إلى سطوته. ونقل ابن

---

١ ـ جرجس بن الحاج رزق الله البسبعلي (بطريرك ١٦٥٧ ـ ١٦٧٠).

٢ ـ الداخلة: من الأسماء التي أطلقت على كسروان.

٣ ـ عمر بن الخطّاب ثاني الخلفاء الراشدين (٦٣٤ ـ ٦٤٤).

القلاعي أن مقام الملك كان بجبيـل وأنّـه رأى بـلاد "الداخلـة" فـي خطـر عظيـم من "قرضة" بيروت ومن "الدرزي" أمير الغرب، جمع أربعين أسقفًا ليدهنوا سمعان ملكًا عليها، فهزم الأعداء وجعل سكناه في بسكنتا بين الحدّين [1]، فامتنعت بشجاعته ومات شيخًا مجتهدًا، فخلفه كسرى علـى كسـروان وكـان بطـلاً شـجاعًا دخـل قسطنطينيّة فـأكرم ملـك الـروم وقادتـه وأسـنى لـه الصـلات والعطايا وأقامـه ملكًا علـى بـلاد "الداخلة"، وحكم أحكامًا عادلة وبه سميت كسـروان. وذكـر غيـر ذلـك مـن الأمـور أضربنا عنها صفحًا. ويحتمل أنّه بعد مجيء يوحنا مارون إلى جبـل لبنـان وخـراب أنطاكية، انتقل البرنس والإفرنج مع ابرهيم الأمير إلـى جبيـل وسـواحل لبنـان، لأنّ أصحاب التواريخ يقولون إنّه عند دخول المردة إلى جبل لبنان، تبعهم قـوم كثيـرون من أباعد وأقارب، ونموا في مدّة وجيزة كثيرًا، ولم يكونـوا يصونـون نفوسـهم مـن "مرازبة" [2] الفرس وصناديد العرب، بل كانوا يظفرون بهم أيضًـا ويمرغـون أنوفهـم في مواقف الطعان، ولقّبوا بالمردَة لأنّهم خرجوا عن طاعة "يستتيان" الملك [3].

ويورد الدويهي في مكـان آخـر سلسـلة الأمـراء المـردة الذيـن حكمـوا حتّـى نهايـة القرن الحادي عشر على الشكل التالي:

يوسف وكسرى وأيّوب والياس ويوسف ويوحنّا: ملكوا ٦٢٨ ـ ٦٧٥؛ ثمّ يعقوب إلى ٦٩٥؛ فإبراهيم إبن أخت القدّيس يوحنّـا مـارون إلـى ٧٢٨ [4]؛ وبطـرس إلـى ٧٥٦؛

---

١ ـ أي على الحدود الجنوبيّة لكسروان.

٢ ـ مرازبة: جمع مرزبان، كلمة فارسيّة معناها قائد وزعيم.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٦٩ ـ ٧٠.

٤ ـ قال الدويهي في تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق: كان ليوحنا مارون لأخت لها ولـدان لسم الأول ابرهيـم والثـاني قورش أمّـا ابرهيم فإنه كان من أرباب السيف رحل إلى لبنان وصار أميرًا على تلك الأماكن تحت رئاسـة خالـه وسـاس قومـه سياسـة المقتـدر الظافر. ولما وجّه ملك الروم عساكره للقبض على خاله قام باثنَي عشر ألف فارس ونقله من دير القديـس مـارون إلـى قلعـة سمار جبيل. ولمّا أقبلت جيوش الروم في طلبه وانتشرت أعلامهم في بقاع لميون وثب عليهم الأمير ابرهيم والأمير مسعود برجالهما وثبة الأسود القساور فصدما أبطالهم وأخمدا أنفاس شجعانهم وأهلكا صناديدهم.

وموسى إلى ٧٩٠؛ وجرجس ويوحنّا إلى ٨٩٠؛ وحنّا وإندراوس وموسى إلى ١٠٢٠؛ وعسّاف إلى ١٠٥٠؛ وموسى وبطرس إلى ١١٩٠[١]. أمّا بقيّة السلسلة فسنوردها في الفصول اللاحقة.

وقد اختصر أحد النسّابين المشهورين نسبة المقدّمين الموارنة في لبنان بردّهم إلى الأمير ابراهيم المردي المارونيّ، إبن شقيقة البطريرك يوحنّا مارون. وابراهيم هذا، خلف الأمير يوسف على ولاية جبيل بعد تعاقب أربعة أمراء من صلب الأخير هم: الياس، فيوسف الثاني، فيوحنّا، فيعقوب. وقد دام مركز الإمارة الرئيسيّ لهؤلاء في جبيل والبترون حتّى قدوم "تيمورلنك" بداية القرن الخامس عشر، فانتقل مقرّهم إلى جبّة بشرّي، ومنذ ذلك التاريخ أصبح يُطلق على سلالة أولئك الأمراء لقب مقدّمين[٢]. وأصبح مقدّم بشرّي يُعتبر المقدّم الرئيس لسائر المقدّمين[٣] الذين كانوا يحكمون المناطق الممتدّة من نهر بيروت إلى حدود عكّار. ويتّضح لنا من المراجعات التاريخيّة أنّه قد بقي في وادي العاصي جالية مارونيّة حتّى بعد انتقال البطريركيّة إلى لبنان، وكذلك ظلّت جالية منهم في جهات قورش. وكان المنجّم الأول في قصر الخليفة العبّاسيّ المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥) والمترجم الذي نقل "إلياذة هوميروس" إلى السريانيّة رجلاً مارونيًّا إسمه "ثيوفيلُس بن توما" من شمال سورية[٤]. ويذكر المسعوديّ المؤرّخ والرحّالة العربي البغداديّ[٥]، والذي كتب تاريخه حوالى ٩٥٠، أنّ "معظم أتباع هذه

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٧٩.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٣٣ ـ ٣٤، ٢٤٤ وما يليها.

٣ ـ راجع: رحمة الخوري فرنسيس، تاريخ بشري، مطبعة صفدي للتجارة (١٩٥٦) ١: ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

٤ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٤، عن: إبن العبري، تاريخ مختصر الدول، نشر أنطوان صالحاني (بيروت،١٨٩٠) ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

٥ ـ المسعودي، التنبيه والإشراف، مرجع سابق، ص١٥٣ ـ ١٥٤؛ راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٤.

الطائفة (الكنيسة) يعيشون في لبنان وفي نواحي حمص وحماة ومعرّة النعمان. وذكر وليم الصوري، الذي أرّخ للصليبيّين، أنّ عدد الموارنة بنحو أربعين ألفًا[1]. وتحدّث رحّالة أنّه كان في القرن الثاني عشر وتاليه جاليات مارونيّة في تكريت وفي غيرها من المدن بين دجلة والفرات. وكان في "فاماغوستا" وضواحيها من أعمال جزيرة قبرص جالية مارونيّة في أوائل القرن الثاني عشر، حيث أنّها كانت تملك كاتدرائيّة عام ١١٢٠، وكان الموارنة منتشرين في نحو ثلاثين قرية من قرى الجزيرة[2]. واعتبر حتّي أنّه من المحتمل أنّ يكون أولئك الذين هاجروا إلى قبرص كانوا لاجئين فرّوا إلى هناك من اضطهاد العبّاسيّين، ولا سيّما في عهد المتوكّل (٨٤٧ ـ ٨٦١). وسوف يهاجر عدد ملحوظ من الموارنة إلى قبرص في زمنَي الصليبيّين[3] والمماليك. ولا تزال الجالية المارونيّة في قبرص نامية ولها أسقفيّة عريقة.

وهكذا يتّضح أنّ الانتشار المارونيّ، قبل القرن الثاني عشر، لم يكن محصورًا في الجبل اللبنانيّ، كما يتخيّل الكثيرون. بل كان منتشرًا في كثير من المناطق المحيطة بلبنان. غير أنّ وجودهم المركزيّ كان في لبنان، حيث رأس كنيستهم: البطريرك، ومقدّموهم الزمنيّون. وقد سيطروا، بشكل أساسيّ، بعد الفتح الإسلاميّ، على المنطقة الممتدّة من أعالي إهدن في شمال لبنان، إلى نهر بيروت، حيث تذكر المدوّنات التاريخيّة أحداثًا عدّة جرت بين مقدّميهم وبين الجيش العبّاسيّ. من تلك الأحداث، ثورة المنيطرة[4].

---

١ - *A History of Deeds done Beyond The Sea*, tr. Emily A Babcock and C. Krey (New York,1943) Vol. II, P.459. ؛ راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٥.

٢ - لامنس، تسريح الأبصار، ٢: ٥٥ ـ ٥٦.

٣ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠٧.

٤ - المنَيطرة: بلدة قديمة تنسب إليها منطقة جبّة المنيطرة في جرود بلاد جبيل من أعمال جبل لبنان.

في الحقبَة العبَّاسيَّة

جاءت ثورة المنيطرة إثر فرض العبّاسيّين، في بداية عهدهم، التدابير الصارمة على المسيحيّين. وإذا كان هؤلاء قد تحمّلوا تلك التدابير، فلم يكن ذلك إلاّ بحكم أنّهم مغلوب على أمرهم. ولقد حاول بعضهم التمرّد حيث أمكن، مثلما حصل في لبنان سنة ٧٥٩، عندما شبّت أولى الثورات المسيحيّة ضدّ الحكم الإسلاميّ في قرية صغيرة من أعالي لبنان، إسمها المنيطرة، القريبة من أفقا، الواقعة بين جبيل ساحلاً وبعلبكّ شرقًا.

فقد ثار مسيحيّو هذه القرية ضدّ تعسّف عامل العبّاسيّين وجوره في فرض الضرائب عليهم، واستولوا على عدّة قرى في البقاع وتقدّموا نحو بعلبكّ التي كانت مقرًّا لعامل العبّاسيّين. وكان زعيم هذه الثورة شابًّا جبليًّا عملاقًا شديدًا يُلقّب بالملك. وقد نصب له جنود العبّاسيّين كمينًا وهو في طريقه، على رأس الثوّار، إلى بعلبك، فانقضّ عليهم الفرسان ومزّقوا شملهم. وكانت ردّة الفعل عند العبّاسيّين عنيفة، فإنّ العامل العبّاسيّ، "صاع بن عليّ"، وهو أخو "عبداللّه"، القائد العامّ للجيوش العبّاسيّة، هاجم القرى الثائرة في منطقة المنيطرة وشتّت سكّانها في طول البلاد وعرضها، ولكنّه لم يتعرّض لدينهم بسوء. وقد كان لهذا العمل العنيف أثر سيّء في نفس الإمام الأوزاعي[1]، الفقيه المحدث المشهور"[2]. الذي كتب إلى الوالي العبّاسي لائمًا ومؤنّبًا بقوله:

> ... وقد كان من إجلاء أهل الذمّة من جبل لبنان ممّن لم يكن ممالئًا لمن خرج على خروجه ممّن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ

---

١ ـ عبد الرحمن الأوزاعي (٧٠٧ ـ ٧٧٤) من أئمّة الفقهاء في الإسلام، وُلد في بعلبك، ترك مذهبًا معروفًا به، توفّي في بيروت ودُفن في قبلة المسجد المعروف باسمه جنوبيّ المدينة، له كتابا "السنن" و "المسائل"؛ راجع: مفرّج طوني، صانعو التاريخ اللبناني، الموسوعة اللبنانيّة المصوّرة، نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠)

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

عامّة بذنوب خاصّة حتّى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لا تـُزر وازرة وزر أخرى. وهو أحقّ ما وُقِف عنده واقتـُدِي به، وأحـقّ الوصايا أن تحفظ وترعى وصيّة رسول الله (ﷺ) فإنّه قال من ظلم معاهدًا وكلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه"[1].

ومن المتّفق عليه، حول ظروف قدوم القبائل العربيّة التي اعتنقت التوحيد الدرزيّ بعد انتقالها إلى لبنان، أنّ الخلفاء العبّاسيّين، وبخاصّة الخليفة العبّاسيّ الخامس هارون الرشيد (خليفة ٧٨٦ ـ ٨٠٩)، عندما تعذّر عليهم إخضاع المردة لسلطانهم في جبال لبنان، أرسلوا بعض القبائل العربيّة، المعتادة على سكنى الجبال وعلى المحاربة في مواقعها الوعرة، ليتصدّى مقاتلوها للمردة من جهة، وليشاركوا في حفظ الشاطئ الساحل من هجمات البيزنطيّين البحريّة. وكان من بين تلك القبائل، التّنوخيّون الذين دخلوا لبنان من الشرق عن طريق البقاع قادمين من الجبال السوريّة، وما لبث رجال تلك القبائل أن تقدّموا حتّى بلغوا المناطق الممتدّة بين حدود البقاع الغربيّة والساحل الجنوبيّ لمدينة بيروت[2]. وذكر مؤرّخون أنّه في سنة ٧٦٠، أقطع الخليفة العبّاسيّ الثاني (٧٥٤ ـ ٧٧٥) أبو جعفر المنصور جبال بيروت إلى الأمير أرسلان بن مالك من المعرّة، وهو جدّ آل أرسلان، أسرة الأمراء الموحّدين الدروز في لبنان. وقد عهد المنصور إلى الأمير أرسلان بحفظ الطريق بين دمشق وبيروت من غزوات المردة، فنزل صَحب أرسلان في "وادي التيم"[3] و"ضهر البيدر"[4] و"سنّ الفيل"[5]، واتّحد هؤلاء

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، نقلاً عن البلاذري، ص١٦٢.

٢ ـ راجع: الصغير سعيد، بنو معروف (الدروز) في التاريخ، مطبعة الإتقان (بيروت ١٣٧٤هـ).

٣ ـ وادي التيم: منطقة تمتدّ بين البقاع الغربي شرقًا وسهل مرجعيون في جنوب لبنان.

٤ ـ ضهر البيدر: منطقة جبليّة على الطريق بين بيروت ودمشق، تصل جبل لبنان بالبقاع.

٥ ـ سنّ الفيل: ضاحية شرقيّة جنوبيّة لمدينة بيروت في ساحل قضاء المتن.

في حروبهم مع قبيلة بني لام (اللخميّين) العربيّة التي كانت قد استوطنت الشوف[1] بعصر الخليفة الأمويّ الخامس عبد الملك بن مروان (٦٤٦ ـ ٧٠٥م). وقد تفرّق اللخميّون في جبال لبنان الغربيّة واختلطوا بالتّنوخيّين. ثمّ قدم من جهات حلب فروع من قبائل شمّر وتغلب وربيعة وسواها، واتّحدت هذه أيضًا مع اللخميّين والتّنوخيّين، ومن منطقة "المغيثة"[2] وضهر البيدر، توزّع أبناء تلك القبائل في مناطق جبل لبنان حتّى بلغوا المتن. وفي سنة ٨٢٠ قدم من الجبل الأعلى الأمير "تبا" ومعه بعض القبائل العربيّة وسكنوا الجنوب الغربيّ من لبنان[3]. وقد جرت بين هذه القبائل وبين المردة حروب متواصلة، اشتهرت منها معارك "نهر الموت"[4] وإنطلياس وسنّ الفيل. ويُقال إنّ نهر الموت سُمّي بذلك الاسم لكثرة ما وقع في تلك المعركة من قتلى عند مصبّه[5]، غير أنّ هذا القول يبدو استنتاجًا واهيًا. أمّا في معركة إنطلياس، فقد سقط أكثر من ثلاثمئة قتيل[6]. ويذكر مؤرّخون أنّ أعمال التّنوخيّين الحربيّة في مواجهتهم للمردة، جعلت الدولة العبّاسيّة تُقرّهم في الأماكن التي توطّنوها من الجبل اللبناني، وتبيح لهم شكل ولاية، اتّخذت لها في ما بعد إسم إمارة. فلمّا "قدم الخليفة المهدي بن المنصور العبّاسي إلى دمشق، سار إليه الأمير منذر وأخوه الأمير أرسلان (التنوخيّان) وقابلاه في قرية "المَزّة"، فاستقبلهما بالبشاشة، وأكرمهما لِما بلغه من شدّة بأسهما على

---

١ ـ **مقاطعة الشوف**: كانت تمتدّ من نهر بتذين إلى قمّة جبل الشوف، وكانت تقسم إلى الشوف الحيثي وقاعدته المختارة، والسويجاني وقاعدته بعقلين.

٢ ـ **المغيثة**: محلّة قريبة من ضهر البيدر.

٣ ـ راجع: الصغير سعيد، ص١٨؛ الأسود إبراهيم، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص١٢١؛ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٦٧.

٤ ـ **نهر الموت**: يطلق هذا الإسم على نهاية نهر بيروت قبل مصبّه في البحر، وهي المنطقة الفاصلة بين بيروت الإداريّة وقضاء المتن الذي كان في ذلك التاريخ تابعًا لمنطقة كسروان حيث كان يسيطر الموارنة.

٥ ـ الصغير، مرجع سابق، ص١٩.

٦ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٧٩.

الأعداء، وفي محافظة الطرقات، وأمر لهما بالتواقيع في تقريرهما على ولايتهما. وقد زاد لهما وأجرى لهما الإقامات الكافية"[1]. وتابع الخلفاء العبّاسيّون تشجيعهم القبائل العربيّة الإسلاميّة على الاستيطان في لبنان، "فأرسل هارون الرشيد منشورًا إلى أمير الثغور الشاميّة وإلى باقي عمّال الشام يقضي بأن يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل إلى لبنان وسكناه، لتشتدّ قوّة أمرته على أهل "العاصية"[2] هذا الاستنفار، جاء نتيجة زيارة الأمير ابن مسعود وأخيه مالك التنوخيَّين لقاسم بن هارون الرشيد في "مرج دابق" في سورية، حيث كان معسكره، ويبدو أنّ الأميرَين التنوخيَّين قد ذهبا يطلبان الدعم بعد المعركة التي حدثت بين المردة والأمير مسعود التّنوخي أمير سنّ الفيل، إذ اضطرّ الأمير مسعود بعدها إلى ترك سنّ الفيل والانتقال إلى الشويفات بالرغم من أنّه كان قد هزم المردة، بحسب المدوّنات، و"قتل منهم مقتلة عظيمة، وأحرق بعضًا من قراهم السفلى"، وقد حدث ذلك في حوالى ٧٩١ م. ويبدو أنّ تشجيع الدولة العبّاسيّة أفاد، فانتقلت جماعة أخرى من القبائل سنة ٨٢٠ م. واستقرّت في "قصرنبا"[3]، وبذلك أصبحت القبائل التنوخيّة مسيطرة على جنوبي نهر بيروت من جبل لبنان، ساحلاً ووسطًا وجبلاً، وأصبح الأمير مسعود متزعّمًا الإمارة التّنوخيّة باتّفاق كلمة الأمراء، وقد اشترك هذا الأمير مع الخليفة المأمون في محاربة الأقباط في مصر، ونجم عن ذلك أنّ الخليفة المأمون أقطعه، بالإضافة إلى إمارته في بيروت والغرب وصيدا، مقاطعة صفد، فأصبح سنة ٨٣١ أمير التّنوخيّين في لبنان[4]، وكان قد بنى حصنًا كبيرًا

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٨٠.

٢ ـ العاصية: الإسم القديم لكسروان، وأهل العاصية هم الموارنة المردة. الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٨١.

٣ ـ قَصْرَنْبَا: بلدة في البقاع منسوبة إلى الأمير "نبا" الذي ذكرناه سابقًا.

٤ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٦٩ ـ ٧٠؛ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٦٦ وما يليها؛ الأسود، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص١٣١ وما يليها.

في الشويفات مُحاطًا بدور وميادين، وبموت هذا الأمير في العام ٨٣٧ ودفنه في الشويفات، اتّفقت الآراء على إقامة مالك شقيق مسعود بن أرسلان أميرًا خلفًا لمسعود، إلاّ أنّ هاني بن مسعود رفض هذا التعيين، وراح يؤلّب الناس ضدّ عمّه، وقد تطوّرت هذه المعارضة إلى اقتتال دموي في العام ٨٣٨ شهد معارك قاسية، كانت الحاسمة منها تلك التي جرت في منطقة خلده، وفيها هُزم الأمير مالك، الذي فرّ مع عياله إلى اللجون من بلاد حارثة، ومنها انتقل إلى مصر واستوطنها، فاستقلّ هاني بالامارة، وجرت بينه وبين المردة مواقع عدّة، استحوذت على تقدير الخليفة.

وتتوالى أخبار الأمراء التّوخيّين الذين قاتلوا المردة بتوجيهات الخلفاء، ومنهم "الأمير النعمان الذي بنى دارًا عظيمة في بيروت، وحصّن سور المدينة. وفي سنة ٨٧٥ وقع بينه وبين المردة قتال عظيم على نهر بيروت دام أيّامًا، حتّى تراجع المردة بعد أن فقدوا عددًا من القتلى وأُسر لهم بضعة مقاتلين، فكتب النعمان إلى بغداد مرفقًا كتابه برؤوس القتلى وبالأسرى. فكانت ردّة فعل الخليفة المتوكّل أنّه كتب له كتابًا يمدح شجاعته ويحرّضه على القتال، وأقرّه على ولايته تقديرًا له ولذريّته، وكتب إليه الموفّق، أخو المتوكّل، وسواه من كبار أهل الخلافة، كتبًا يمدحونه عبرها، وأعاد المتوكّل الرسل معزّزين مكرّمين إلى بيروت، فاشتدّ أمر النعمان وعظم شأنه"[1].

يتبيّن للمحقّق في تاريخ لبنان الوسيط والحديث، أنّ القبائل العربيّة التّنوخيّة التي نازلت المردة الموارنة في خلال الحقبة العبّاسيّة، لم تنازعهم لأسباب دينيّة أو طائفيّة، ذلك أنّ مذهب التوحيد الدرزيّ لم يكن قد ظهر بعد، ولم يكن التّنوخيّون على شيء من التعصّب الدينيّ أو المذهبيّ حين قاتلوا الموارنة، إنّما هم قاتلوهم بتكليف من

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيا، مرجع سابق، ٢: ٢٨٤.

العبّاسيّين الذين أزعجتهم غزوات المردة ذات الأهداف الاقتصاديّة، وليس الدينيّة. قبل ذلك التاريخ، كانت الخلافة الأمويّة قد تعايشت مع المردة بشكل إيجابيّ واضح من خلال تخصيص موازنة، كانت تدفعها لهم بشكل جزيئة، ما أوقف غزوات المردة للقوافل العربيّة؛ وعندما سلك العبّاسيّون نهجًا سلبيًّا مع المردة الذين عزلتهم الظروف في جبال لبنان القاسية، عاد هؤلاء إلى الغزو، فرأت الخلافة أن ترسل التنّوخيّين إلى جبال لبنان لينشئوا "حزام أمن" لجنودها وقوافلها. ولكن مع زوال ذلك الظرف، زالت أسباب التقاتل، فساد سلام طويل الأمد بين تلك القبائل العربيّة وبين الموارنة كان لا يزال قائمًا عندما جاء الصليبيّون.

الفَصلُ الخَامِس

المَوَارِنَة بَينَ الفَرَنجَةِ والمَمَالِيك

بَينَ الفَرَنجَةِ والمَمَالِيك:

التَقسيمُ الإداري للمَنَاطِقِ اللبنَانيَة في الحِقَبَــــة الصَّليبيَّـــــة؛

حَقِيقَةُ علاقَةِ المَوَارِنَة بالفَرَنجَة؛ بَطَاركَةُ المَوَارِنَة في الحقبَة الصَّليبيَّة؛

نُشُــوء "مؤسَّسَــة" البَطرِيَركيَّــة على يَد البَطرِيَرك يوحنَّا اللحفدي؛

العَمشِيتي في رومَا؛ خُلفَاء العَمشيتي؛ أمراء الحِقَبة ومُقدّموهَا؛

بَينَ الفَرَنجَةِ والمَمَاليك

مع إطلالة القرن الثاني للميلاد، كانت أنطاكية حجرًا بين الشاقوف الإسلاميّ من جهة، والشاقوف القسطنطينيّ من جهة ثانية. فلقد كانت القسطنطينيّة هي المسيطرة على تلك الكنيسة المستقيمة الرأي التي تعتبر المرجع لكنائس سورية ولبنان، باستثناء الكنيسة المارونيّة التي كانت قد أضحت علاقتها مباشرة بروما، والكنائس غير الخلقيدونيّة التي كانت قد استقلّت بذاتها، كالكنيسة النسطوريّة والكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة. وهكذا فعندما مات البطريرك الأنطاكيّ يوحنّا الخامس سنة ١٠٢٢، بقي الكرسيّ الأنطاكيّ خاليًا مدّة ثلاث سنوات ونصف. ثم تمّ انتخاب خلف له: نيقولاوُس الثالث، سنة ١٠٢٥، بطريركًا على أنطاكية، وصُلّي عليه في القسطنطينيّة. ويُلاحظ أنّ جميع البطاركة الذين تسلّموا كرسيّ أنطاكية في هذه الحقبة من التاريخ، كانوا يُعيّنون من القسطنطينيّة.

ولمّا تمكّن الخلفاء الفاطميّون في مصر من طرد الروم من سورية، حتّى أنّهم سيطروا سنة ٣٥٨هـ./ ٩٦٨م. على دمشق، وبالتالي على كامل المناطق اللبنانيّة باستثناء تلك التي كانت تحت حكم المردة، غدت هذه البلاد تحت سيطرة المسلمين، وتعرّض المسيحيّون آنذاك لموجةٍ قاسية من الاضطهادات، وظهر الضعف في دولة الروم. فاضطرّ أباطرة القسطنطينية إلى طلب النجدة من الغرب المسيحي. فلبّت كنيسة روما النداء، ودعت الملوك وأمراء الفرنجة إلى تنظيم حملات عسكريّة على نطاقٍ

واسع، هدفها نجدة الروم ضد السلاجقة من جهة، واستعادة الأماكن المقدّسة في فلسطين من جهة أخرى. وسُمّيت هذه الحملات، في ما بعد بالحملات الصليبيّة. وفي سنة ١٠٩٦، بدأت جيوش الصليبيّين تتحرّك نحو القسطنطينيّة. فوصلتها برًّا وبحرًا وساعدت الروم على استرجاع الجزء الغربيّ من بلاد الأناضول من السلاجقة. ثم دخلت بلاد الشام، فاحتلّت أنطاكية والرها، ثمّ توجّهت جنوبًا نحو القدس. وفي ربيع ١٠٩٩، وصل الصليبيّون إلى عرقا قرب طرابلس[١].

التَقسيمُ الإدَاري للمنَاطِقِ اللبنَانيَّة في الحقَبَة الصَّليبيَّة

توزّع لبنان الحاليّ، في ظلّ الاحتلال الصليبيّ، بين مملكة القدس اللاتينيّة وكونتيّة طرابلس. وفي داخل كلّ منهما قامت مناطق إداريّة شكّلت وحدات إداريّة عُرفت واحدتها باسم سنيوريّة. أمّا السنيوريّات التي كانت تضمّ مناطق من التي تشكّل اليوم أرض الجمهوريّة اللبنانيّة، والتي كانت تابعة لمملكة القدس اللاتينيّة فهي:

١ ـ سنيوريّة الجليل، وهي أهمّ سنيوريات القدس، عاصمتها طبريّا، وتشمل الضفّة الشرقيّة لبحيرة طبريّا، وتصل إلى حوران وإلى حدود دمشق. وكانت حدودها الغربيّة تصل إلى صور، ثمّ تراجعت إلى تبنين قبل أن تصبح هذه سنيوريّة[٢].

٢ ـ سنيوريّة تبنين، عُرفت أيضًا بسنيوريّة حصن طورون TORON الذي أنشأه أمراء الجليل عند حصار صور. إنفصلت عن سنيوريّة الجليل سنة ١١٠٧، وألحِقت ببانياس زمنًا ثمّ أعيد لها استقلالها[٣].

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧؛ راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص١٦؛ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ ـ J. PRAWER, *HISTOIRE DU ROYAUME DE JERUSALEM*, (PARIS, ١٩٧٥) ١: ٤٧٧.

٣ ـ PRAWER, ١: ٤٧٧.

٣ ـ سنيوريّة صور، كانت تتّصل من الجنوب بسنيوريّة سكنداليون ومن الشرق بطورون ومن الشمال بنهر القاسميّة الذي يفصلها عن سنيوريّة صيدا[١].

٤ ـ سنيوريّة سكنداليون، مقاطعة صغيرة تقع بين صور وعكّا. بُني حصنها في خلال حصار صور ووصلت حدودها إلى رأس الناقورة[٢].

٥ ـ سنيوريّة صيدا، امتدّت من صيدا إلى حدود بيروت الجنوبيّة وشملت جبل الشوف[٣].

٦ ـ سنيوريّة مارون، مقاطعة صغيرة ضمّت شرق صيدا[٤].

٧ ـ سنيوريّة بيروت، شملت البلدات المحيطة ببيروت وامتدّت حتّى جسر المعاملتين الذي كان يفصل مملكة القدس عن مملكة طرابلس[٥].

أمّا كونتيّة طرابلس فكانت تمتدّ من نهر المعاملتَين جنوبًا إلى نهر بانياس شمالاً، ومن البحر غربًا إلى جبال لبنان وجبال النصيريّة شرقًا. وتجاوزت الحدود الشرقيّة لهذه الكونتيّة في القرن الثاني عشر القمم الجبليّة ووصلت إلى قرب شيزر وإلى خطّ مراقبة طريق حمص ـ حماة، وتجاوزت خطّ تقسيم المياه فوصلت إلى قرب بحيرة حمص وإلى ضفاف العاصي[٦]. وفي نصّ الهدنة الموقّعة بين متملّك طرابلس بيوموند الصليبيّ والسلطان المملوكيّ ورد أنّ كونتيّة طرابلس الصليبيّة

---

١ ـ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٢) ١: ٥٥٩.

٢ ـ محيي الدين بن عبد الظاهر، تشريف الأيّام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل، وزارة الثقافة (مصر، ١٩٦١) ص١٠٣.

٣ ـ PRAWER, ١: ٤٧٧

٤ ـ PRAWER, ١: ٤٨٠

٥ ـ PRAWER, ١: ٤٧٧

٦ ـ JEAN RICHARD, LE COMTÉ DE TRIPOLI SOUS LA DYNASTIE TOULOUSAINE ١١٠٢ - ١١٨٧, (PARIS, GEUTHNER, ١٩٤٥) PP. ١ - ٣.

تتضمّن "ما هو مجاور لطرابلس ومخادر لها من المملكة البعلبكيّة وجبالها وقراها الرمليّة والجبليّة وجبال الظنين والقصبين، والقليعات، وحصن عكّار، وعلى طرابلس وما هو داخل فيها وأنفه والبترون وجبيل وبلاد ذلك وعرقة وبلادها المعيّنة في الهدنة وعدّتها أحد وخمسون ناحية، وما هو للخيّالة والكنايس وعدّتها أحد وعشرون بلدًا وما هو للفارس "روجار دو لا لولي" من قبلي طرابلس" [1]. أمّا هويّات السكّان في كونتيّة طرابلس الصليبيّة، من حيث الانتماء الدينيّ، فتعدّدت بين مسيحيّين نساطرة في مدينة طرابلس، وملكيّين في البترون والكورة، وسريان مونوفيزيّين (يعاقبة) في جونيه[2]، وموارنة في بلاد جبيل والبترون وبشرّي وإهدن. واختلطت في هذه المناطق مع الموارنة الذين كانوا يشكّلون أكبر نسبة من سكّان الكونتيّة أتباع لكنائس مسيحيّة متعدّدة. وسكن العلويّون النصيريّون في بلاد عكّار وجبال لبنان الشماليّة والوسطى متجاورين مع الموارنة، والإسماعيليّون في القسم الجنوبيّ من جبال النصيريّة الشاهقة المعروفة بجبال البهراء، والشيعة في طرابلس وكسروان[3].

تجدر الاشارة إلى أنّ مملكة القدس ودويلاتها لم تكن خاضعة لأيٍّ من الدول الغربيّة، بل كانت دولاً محليّة شرقيّة ذات حكم لاتينيّ. وقد اعتبر الفرنجة، عمومًا، كلّ مَن احترم الصليب مسيحيًا، محاولين عدم التمييز بين الكنائس، وإن كان بعض تلك الكنائس غيرَ موالٍ لهم. على أنّ الكنائس التي محضتهم الولاء أحيانًا، قد جهّزت إداراتهم بموظفين وبممثّلين لدى أمراء الداخل، وكان أبرز هؤلاء: الموارنة.

---

١ ـ تاريخ ابن الفرات، نشر قسطنطين زريق (بيروت، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢) ٧: ٨٢ ـ ٨٣، ٢١٠ ـ ٢١١.

٢ ـ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت، ١٩٨٩) ١: ٣٧٢.

٣ ـ د. أحمد حطيط، نحو مقاربة تاريخيّة لمواقف السكّان في كونتيّة طرابلس من الفرنجة، في كتاب: "المناطق اللبنانيّة في ظلّ الإحتلال الفرنجي"، منشورات فيلون (لبنان،١٩٩٧) ص١٩٨.

حقيقةُ علاقةِ المَوَارِنَة بالفَرَنجَــــــــــــة

تناقل مؤرّخون ما مفاده أنّه لمّا مرّ الصليبيّون بالساحل الفينيقيّ الممتدّ بين طرابلس وجبيل، سالكين طريق البحر، "نزلت وفود الموارنة لاستقبالهم، وتمّ هناك اللقاء الأول يوم عيد الفصح في ١٠ نيسان (إبريل) من تلك السنة". وأنّ "هذا اللقاء بين الموارنة والصليبيّين، كان فاتحة عهد مساندة ووفاق. فتصادق الفريقان، واستمرّت علاقات الودّ والمصالح المشتركة وثيقةً بين الطرفين طوال حقبة وجود الصليبيّين في الشرق"[١]. وأنّه في صيف ١٠٩٩، احتلّ الصليبيّون مدينة القدس، ثمّ تحوّل فريق منهم شمالاً، فاستولى على مدينة جبيل الفينيقيّة سنة ١١٠٢، وأخضع مدينة طرابلس ١١٠٩. وأنّه قد تأسّست هكذا مع الوقت في الساحل الفينيقيّ الشماليّ، وبعض مناطق "جبّة بشرّي" وطرابلس، إمارةٌ صليبيّة امتدّت تخومها من "فتوح كسروان" جنوبًا إلى منطقة اللاذقيّة شمالاً، ومن مشارف وادي العاصي شرقًا إلى البحر غربًا. فشملت هذه الإمارة معظم المناطق المارونية من جبل لبنان[٢].

كما كثرت التأويلات والاجتهادات حول تعاون مزعوم من قبل السكّان الوطنيّين، من موارنة وغيرهم، مع الصليبيّين. وإذا ما عاد الباحث إلى المصادر اللاتينيّة والعربيّة، يقع في حيرة من الحقيقة على ما في تلك المصادر من تناقضات. غير أنّ باحثًا أكاديميًا معاصرًا مستقلاً غاص في مجمل تلك المصادر بدقّة، وخلص إلى الاستنتاج التالي:

---

١ ـ الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ١٦.

٢ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٧.

من خلال قراءتي لمواقف الجماعات السكّانيّة/الطوائف في مدينة طرابلس وجوارها من الفرنجة ـ ولا أخال أنّ مواقف الجماعات السكّانيّة في المناطق الأخرى الخاضعة لنفوذ الفرنجة كانت مختلفة نوعًا ـ أرى أنّ هذه الجماعات/الطوائف، بصرف النظر عن انتماءاتها الدينيّة والمذهبيّة، لم تشكّل، مجتمعة أو منفردة، كتلة متجانسة مع الفرنجة، أو متحالفة معهم. فالثابت أنّ مواقف الجماعات الطائفيّة اللبنانيّة قد تساوت في بدايات الغزو في مواقفها من الفرنجة، فاختارت جميعها سياسة الانحناء أمام العاصفة، ولم تصمد أمام اندفاع جحافل الحملة الصليبيّة الأولى، أسوة بحكّام المدن الساحليّة التي مرّ بها الفرنجة. وأنّ التغيّرات التي طرأت على مواقف هذه الجماعات/الطوائف لم تكن ناتجة، بالضرورة، عن انتماءاتها الدينيّة. فقد وقف بعض الجماعات السكّانيّة/الطوائف، على اختلاف مشاعرهم وتوجّهاتهم الدينيّة، حينًا إلى جانب المسلمين، وأحيانًا إلى جانب الفرنجة، كما تحفّظ بعضهم، أحيانًا أخرى، تجاه الطرفين المتصارعين، وذلك تبعًا لمقتضيات المصالح الآنيّة والمباشرة، وتداعيات التناحر القبلي/العشائري، لا الديني/الطائفي ـ ولا نستثني، في هذا السياق، أيًّا من الجماعات اللبنانيّة/الطوائف ـ وإن كانت مواقف هذه الجماعة/الطائفة، أو تلك، قد تمظهرت، أحيانًا، بمظهر ديني أو مذهبي معيّن. كما أنّ أيًّا من هذه الجماعات الآنفة، لم تحقّق مكاسب خاصّة في ظلّ وجود الفرنجة في الشرق، بل إنّ نزعة الاستعلاء وهاجس المنفعة الشخصيّة جعلا فرسان الفرنجة لا يحترمون عهودهم ولا يقيمون وزنًا للتحالف مع الجماعات المحليّة، فأسهموا، بذلك، في إثارة مشاعر الريبة تجاههم وانعدام ثقة السكّان بهم[1].

إنّ هذه الخلاصة التي توصّل إليها الباحث الأكاديميّ ليست وليدة موقف سياسيّ أو انتمائيّ أو عاطفيّ، إنّما هي نتيجة دراسات علميّة معمّقة، لم يتكلّف عناءها الذين

---

١ ـ حطيط د. أحمد، نحو مقاربة تاريخيّة لمواقف السكّان في كونتيّة طرابلس من الفرنجة، في كتاب: "المناطق اللبنانيّة في ظلّ الاحتلال الفرنجي"، منشورات فيلون (لبنان،١٩٩٧) ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

تناقلوا النظريّات التاريخيّة من دون تمحيص أو تحليل. ونورد، على سبيل المثال، نموذجًا من الدراسات النقديّة التي قام بها الباحث قبل توصّله إلى استنتاجه:

> من المفارقات الملفتة في كتابات بعض المؤرّخين اللبنانيّين حصرهم "امتياز" الاستقبال الذي جرى لملك فرنسا "لويس التاسع"[1] عند حضوره إلى عكّا سنة ١٢٥٠م. بالموارنة دون سواهم من الجماعات المحليّة الأخرى؛ فتحدّثوا عن مسارعة الموارنة إلى استقبال ملك فرنسا، مرحّبين بقدومه، وأنجدوه بعشرين ألف مقاتل (وقيل ٢٥ ألفًا)، وأنّ القدّيس لويس، وجّه رسالة إلى أمير الموارنة ورؤساء كهنتهم، مؤرّخة في ٢١ أيّار ١٢٥٠م. يظهر فيها محبّته للموارنة، وامتداح ديانتهم واتحادهم الدائم مع خلفاء بطرس الرسول، ويعلمهم فيها أنّ "الأمّة المارونيّة" هي جزء من الأمّة الفرنسيّة، ويتعهّد لهم فيها، باسم فرنسا، بإيلاء الموارنة الرعاية التي يتمتع بها الفرنسيّون أنفسهم. ولا علم لنا أنّ مؤرّخي الحروب الصليبيّة، أمثال: GUILLAUME DE TYR, JACQUES DE VITRY, R. GROUSSET, J. PRAWER, K. SETTON, J. RICHARD, S. RUNCIMAN... قد أتوا على ذكر رسالة بهذا المعنى بعث بها "الملك لويس التاسع" إلى أمير الموارنة، كما أنّه لم يثبت، حتّى تاريخه، وجود مثل هذه الرسالة بين المحفوظات الفرنسيّة العائدة لمرحلة العصور الوسطى. تجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أنّ الزيارة التي قام بها الوفد الماروني إلى عكّا لتهنئة "لويس التاسع"، قد جاءت في إطار قدوم وفود عديدة إلى عكّا للترحيب بالملك الفرنسي. ومن هذه الوفود، الوفد الذي أرسله مقدّم الإسماعيليّة، أو "شيخ الجبل" حسب تعبير الفرنجة. وممّا يُذكر أنّ القدّيس لويس قد رحّب بالوفد الإسماعيليّ كما رحّب بالوفود الأخرى، وأجاب "شيخ الجبل" على رسالته[2]. وكانت

---

١ - لويس التاسع LOUIS IX. (١٢١٤ - ١٢٧٠): ملك فرنسيّ، قاد الحملتين الصليبيّتين السابعة والثامنة، وصل إلى دمياط ١٢٤٩، اشتهر بكرمه وشجاعته وصبره وتقواه، اصطحب في أسفاره كهنة يرتّلون له التراتيم الدينيّة وهم يحيطون به على ظهور الجياد، توفّي بالطاعون في تونس، طُوّب قدّيسًا ١٢٩٧.

٢ - الدبس، الجامع المفصّل (بيروت ١٩٠٢) ٦: ٢٧٤.

المتبادلة بين المسلمين والفرنجة أضحت أمرًا طبيعيًا، بعد أن خفّت حدّة الاحتقان بينهم. فإنّ بن جبير، وأسامة بن منقذ، المعاصرَين للأحداث، قدّما لنا شواهد حيّة على ذلك؛ فتحدّث بن جبير عن العلاقات التجاريّة التي لم تنقطع بين المسلمين والفرنجة، رغم اشتداد القتال بينهم حتّى في أيّام صلاح الدين[1]، فيما أشار أسامة إلى الصلات الحميمة التي جمعته مع فارس فرنجي من جيش الملك فولك[2].

بمثل هذا التدقيق، توصّل الباحث إلى خلاصة أنّ "الجماعات/الطوائف، بصرف النظر عن انتماءاتها، لم تشكّل، مجتمعة أو منفردة، كتلة متجانسة مع الفرنجة، أو متحالفة معهم". وفي المجال نفسه، ختم بحّاثة أكاديميّ آخر دراسته تحت عنوان "نظام الإقطاع الفرنجي" بقوله:

آن لنا أن نكتب تاريخ القرنَين الثاني عشر والثالث عشر على ضوء الصراعات على المصالح الماديّة دون الاختباء خلف الاعتبارات "الأخلاقيّة" وخصوصيّة العقيدة الدينيّة[3].

ما يجدر الانتباه إليه هنا، أنّ التعاون الذي كان يحصل في ظروف معيّنة بين بعض القوى الوطنيّة وبين الصليبيّين، لم يقتصر على فريق، فكثيرًا ما أملت الظروف أو المصالح مثل هذا التعاون بين مطلق فئة وطنيّة وبين الفرنجة خلال قرنَين، كانت الأوضاع فيهما تتراوح بين المهادنة والتوتّر والتقاتل. فعلى سبيل المثال أيضًا، ما ذكره مؤرّخون من أنّ دمشق، وهي تحت سلطة السلاجقة والبوريّين[4]،

---

١ ـ ابن جبير، رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) ص٢٧٦ ـ ٢٩٦.

٢ ـ حطيط د. أحمد، نحو مقاربة تاريخيّة، مرجع سابق، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.

٣ ـ مخزوم د. محمّد، نظام الإقطاع الفرنجي، في كتاب "المناطق اللبنانيّة في ظلّ الاحتلال الفرنجي"، فيلون (لبنان،١٩٩٧) ص٢٤٩.

٤ ـ **البوريّون**: سلالة تركيّة حكمت في دمشق ١١٠٤ ـ ١١٥٤، أنشأها طغتكين الملقّب بأمين الدولة أبي منصور (ت١١٢٨)، حكم من البوريّين ستّة سلاطين كان أعظمهم بوري بن طغتكين، كان أفراد السلالة يلقّبون بـ "الأتابك"، عقدوا مع الإمارات الصليبيّة معاهدات سلم، حلّ محلّهم الزنكيّون بعدما طرد نور الدين زنكي آخر الأتابكة مجير الدين أبق ١١٤٠ ـ ١١٥٤.

كانت تقيم العلاقات الطيّبة مع القدس، وأحيانًا كانت تتحالف معها ضدّ الدول الاسلاميّة[1]. كذلك فعلت مدن إسلاميّة أخرى في حوران وفلسطين مثل "صرخد"[2] و"بصرى"[3] و"بانياس"[4] التي كانت في أيدي الإسماعيليّين، فإنّها كانت في بعض الأحيان تطلب العون من الفرنجة الذين كانوا يلبّون طلبها[5]. و"كانت قبائل البدو من الصحراء السوريّة، مثل قبيلة بني فضل الطائيّة، تحارب أحيانًا إلى جانب الفرنجة وأحيانًا أخرى إلى جانب الفاطميّين، وكذلك كان جيش المملكة اللاتينيّة في بيت المقدس يضمّ، إلى جانب الفرنجة فيه، كتيبة من الفرسان المسلمين الذين كانوا يطلقون عليهم اسم TURCOPULI أي أبناء الأتراك، وكتيبة من المشاة الأرمن وأخرى من حملة الأقواس الموارنة[6].

---

١ ـ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ليدن،١٩٠٨) ص٣٠٨ ـ ٣٠٩، وهذا المؤرّخ كان يحتلّ منصبًا حكوميًا رفيعًا في دمشق خلال الحقبة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، المجلّد الأول (القاهرة،١٢٨٧هـ.) ص٧٧؛ .WILLIAM OF TYRE, VOL. II, PP. 76 - 77, 147 - 148, 224.

٢ ـ صَرخَد أو صَلخَد: بلدة سوريّة ومركز قضاء، ورد اسمها في التوراة، فيها قلعة ومئذنة من عهد الأيوبيّين، وفيها خلوة للموحّدين الدروز، وأنقاض قلعة صليبيّة.

٣ ـ بصرى إسكي شام: مدينة سوريّة في محافظة حوران، ترجع آثارها إلى العهد الهلنستي، احتلّها الأنباط في القرن الأول قبل الميلاد، عاصمة الإقليم العربي في أيّام تريانوس ١٠٦م. كانت مركزًا هامًّا للقوافل، أصبحت في العهد المسيحي كرسيًّا أسقفيًّا ذا شأن، اشتهرت بكنيستها في القرن السادس، فتحها العرب ٦٣٢، دخلها الصليبيّون ١١٤٦ و١١٨٢.

٤ ـ بانياس: أو قيصريّة أو قيصارية فيليبوس: بلدة في سورية قرب نبع الأردن على سفح جبل الشيخ، ترجع إلى العهد اليوناني، اتّخذت إسمها من الإله "بان" الذي كُرّست له مغارة ونبع مياه فيها، شيّد هيرودُس فيها هيكلًا لأغوسطُس قيصر وازدهرت في عهد ابنه فيليبُس فدعيت بقيصريّة فيليبُس، فيها سلّم المسيح السلطة لبطرس، احتلّها الصليبيّون وأعادوا بناء قلعة الصُبيبة أو قلعة بانياس ١١٣٠، استعادها العرب ١١٣٤.

٥ ـ ابن القلانسي، مرجع سابق، ص٢٨٩ ـ ٢٩٠، ٣١٤، ٣١٦؛ أبو الفداء، مرجع سابق، ٣: ٢ ـ ٣؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة،١٢٨٤ هـ.) ٦: ٦.

٦ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٦٣، بالإستناد إلى: DE VITRY JACQUES, *THE HISTORY OF JERUSALEM*, TR. AUBREY STEWART (LONDON,1896) P. 79.; DIB, *L'ÉGLISE*, OP. CIT. P,. 94.

ومن أخبار المؤرّخين أيضًا، أنّه في سنة ١٢٤٤، سلّم الملك الصالح إسماعيل الأيّوبي، سلطان دمشق، إلى الفرنجة صيدا وصفد مقابل أن يحمُوه من نسيبه الملك الصالح أيّوب، سلطان مصر، الذي كان عزله واستولى على دمشق.

ومنها أيضًا، أنّه لمّا كان الملك الفرنسيّ "لويس التاسع" في عكّا أثناء قيادته لجيش صليبيّ، استقبل في "مصياف"[1] وفدًا من قبل زعيم "الحشّاشين"[2]: "سنان"[3] الملقّب بـ "شيخ الجبل"، حمل إليه هديّة: فيلاً وزرافة من البلّور وكهرمان ولعبة نرد وشطرنج وخاتمًا وقميصًا؛ أمّا الخاتم فيرمز إلى اتّحادهما وتحالفهما، وأمّا القميص فيرمز إلى أنّ ملك فرنسا قريب إلى شخص زعيم الحشّاشين قرب القميص من الجسم. وقد بعث الملك لويس بهديّة إلى زعيم الحشّاشين هي كناية عن مجوهرات وقماش قرمزيّ اللون وأقداح من ذهب ولجام من فضّة[4].

نكتفي بهذه الأمثلة لنشير إلى أنّ العلاقات، بين الفرنجة والموارنة، برأينا، لم تكن كما تناقلها العديد من المؤرّخين، فريدة في نوعيّتها، وتحالفيّة بالشكل الذي صُوّرت به.

---

١ ـ مِصياف أو مِصيّاد: بلدة سوريّة على سفح جبل النصيريّة الشرقي، هي حاليًا مركز قضاء في محافظة حماة، معروفة بقلعتها، احتلّها الحشّاشون ١١٤٠ ـ ١١٤١، اتّخذها رشيد الدين سنان المعروف بشيخ الجبل مقرًّا له، أصبحت مقرّ حامية في عهد المماليك، معظم سكّانها اليوم من الإسماعيليّين.

٢ ـ الحشّاشون ASSASSINS: لقب أطلق على الإسماعيليّين النزاريّين أتباع الحسن بن الصبّاح وخلفائه، والتسمية مأخوذة من الكلمة الفرنجيّة وهي بمعنى فاتك، أطلقها عليهم الصليبيّون لاشتهارهم بالاغتيال، يبدأ تاريخهم باحتلال "ألموت" ١٠٩٠ على يد الحسن بن الصبّاح. اشتدّ نفوذهم بعد اغتيالهم للوزير السلجوقي نظام الملك ١٠٩٢. عمل السلاجقة على إخضاعهم عبثًا فاستولوا على قلاع مصياف وعليقة وقدموس ١١٤٠ ـ ١١٤١، عُرف رئيسهم بلقب "شيخ الجبل"، كسرهم المغول ١٢٥٦ ـ ١٢٦٠، ووجّه إليهم بيبرس الضربة القاضية ١٢٧٢.

٣ ـ رشيد الدين سنان (ت٥٨٨هـ/ ١١٩٢م): زعيم إسماعيلي، وُلد بالقرب من البصرة وتوفّي في مصياف، جاء من إيران ١١٦٢ ممثّلا لشيخ قلعة "ألموت" شمال بحر قزوين، استولى على عدّة قلاع في الشام حكمها الإسماعيليّون النزاريّون حتّى وفاته.

٤ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٢٧١ ـ ٢٧٢، مرجعه: JOINVILLE, SECS. 456 - 458

بل كانت علاقات مصالح متبادلة، مثلها مثل أيّ علاقة أخرى بين الفرنجة وسائر الفرقاء من المجتمعات / الطوائف التي كانت تتناحر على أرض الشرق يومذاك. بيد أنّ المسيحيّين عمومًا، عندما أحكم الصليبيّون سيطرتهم على بلاد الشام، انتعشت عندهم حريّة إقامة الشعائر الدينيّة بعدما كانت مكبوتة بسبب الشروط التي وضعها بعض الحكّام المسلمين. وإذ أصبح الاتّصال بروما متيسّرًا، توطّدت علاقات الكنائس الخلقيدونيّة، ومنها الكنيسة المارونيّة، مع الكرسيّ الرسوليّ. وقد فصّل باحثون[1] تلك المتغيّرات بمظاهر عمليّة منها: أنّ الموارنة أخذوا يبنون الكنائس بحريّة تامّة ويشيّدون الأديرة في مختلف المدن الساحليّة والقرى الجبليّة. وأصبحوا، منذ ذلك الحين، "يدقّون في أجراس من نحاس للصلاة والقدّاس الإلهي بدلاً من الخشب، لأن الدول الاسلاميّة كانت تمنع رعاياها المسيحيّين من استعمال الأجراس النحاسيّة وتجبرهم على الاستعاضة عنها بنواقيس من خشب"[2]. وازداد الموارنة تقرّبًا من كنيسة روما والأحبار الأعظمين، بعد أن تأمّنت لهم طرق المواصلات، وأُزيل خطر القرصنة البحريّة، وأُبعد عنهم حنق الخلفاء والولاة المسلمين. وقد توطّدت هذه العلاقات بتبادل الرسائل بين الفريقَين من جهة، بعد أن بلغت رسائل الأحبار الأعظمين إلى بطاركة الموارنة، ما فوق الخمس عشرة رسالة في عهد الصليبيّين وبعده بقليل[3]، وبإيفاد القصّاد والممثّلين بين الفريقَين من جهة ثانية. وكان البطريرك يوسف الجرجسي، المقيم في دير سيدة يانوح سنة ١٠٩٩[4]، أوّل مَن سعى إلى هذا التقرّب بإيفاده مَن

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٨.

٢ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، ص٣٠٨، بالاستناد إلى: الدويهي، تاريخ الأزمنة، طبعة فهد، مرجع سابق، ص ١٠٤.

٣ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٨، وأورد هنا هذه الحاشية: هذا ما أكّده جبرائيل ابن القلاعي في رسالته إلى البطريرك سمعان الحدثي سنة ١٤٩٤.

٤ ـ سيأتي الكلام حوله أدناه في مجال تعداد البطاركة الذين جلسوا في الحقبة الصليبيّة.

يمثّله مع الوفد الصليبيّ الذي ذهب إلى روما ليزفّ إلى البابا أُربانُس الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) بشرى دخول القدس. ولمّا عاد ممثّل البطريرك من روما حمل له من عند قداسة أبي المؤمنين تاجًا وعصًا. وبالمقابل، تكرّر إيفاد القصّاد الرسوليّين والممثّلين البابويّين إلى البطاركة الموارنة في أيّام هذا البطريرك وخلفه غريغوريوس الحالاتي، كما سيأتي. وقد تُوّجت علاقات البطاركة الموارنة بالأحبار الأعظمين في أيّام الصليبيّين، عندما وجّه البابا إينوقنطيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) دعوة خاصّة إلى البطريرك إرميا العمشيتيّ لحضور المجمع المسكونيّ اللاترانيّ سنة ١٢١٥. فلبّى البطريرك الدعوة، وسافر إلى المجمع وحضر بعض جلساته[1].

ويختصر باحث كنسيّ مارونيّ معاصر[2] شكل العلاقة بين الموارنة والفرنجة في خلال الحقبة الصليبيّة التي "لم تدم عهد الصليبيين أكثر من مئة وخمسين سنة في الشرق"، بأنّ الموارنة لم ينعموا، طيلة هذه المدّة، بأيّام رخاء وسلام... بل كانت لهم مواقف متناقضة من الفرنجة بحيث كان يناصرهم فريق ويخاصمهم فريق آخر. ولكنّ هذا التناقض في المواقف لم يوفّر عليهم نقمة المماليك الذين عُرفوا بعدائهم المتواصل للموارنة أصدقاء الصليبيّين".

وقبل أن تبرز دولة المماليك إلى الوجود منتصف القرن الثالث عشر، وهي الدولة التي سيتعرّض الموَارنة في ظلّها لأقسى نكبةٍ أصابتهم في تاريخهم على الإطلاق، كانت البلاد الشرقيّة برمّتها قد شهدت اجتياحًا صاعقًا من قبل فريق ثالث لا علاقة له بالمسيحيّة ولا بالإسلام، إنّه اجتياح المغول.

---

١ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣٠٨.

٢ ـ صفير الأب د. بولس، المرجع السابق.

بَطَارِكَــة المَوَارِنَـــة
في الحَقبَة الصَّليبيَّة

كان البطريرك يوسف الجرجسي (١١٠٠ ـ ١١٢٠)[١] أول بطريركٍ مارونيّ جلس في القرن الثاني عشر. وقد جعل مقرّه في قرية يـانوح*. وجـاء فـي التواريـخ الكنسـيّة المارونيّة أنّ قصّاده وصلوا إلـى رومـا مـع قـادة الملـك "غودفـروا"[٢]، وأنّـه قبِل التـاج والعصا من البابا مع التثبيت، وأنّ في عهده تعاون الموارنة مع الصليبيّيـن، وأنّـه كـان يدير الطائفة المارونيّة ومقدّميها، وأنّ في عهد بطريركيّته اسـتعمل الموارنـة النواقيـس النحاسيّة بدلاً من آلات الخشب، وراحوا يبنون الكنائس والأديرة والمـدارس[٣]، وتعـزّز وضع المسيحيّين في المنطقـة، وأصبـح الموارنـة أحـرارًا فـي إدارة شـؤونهم الروحيّـة والزمنيّة برئاسة بطريركهم. وقد حافظ الصليبيّون على امتيازات البطريرك المـارونيّ واحترموه، إذ رأوا فيه رئيسًا دينيًّا وسياسيًّا لأمّته، ورمزًا لوحدتها القوميّة[٤].

خلف البطريـرك يوسـف الجرجسـي بعـد وفاتـه، البطريـرك بطـرس الأول، الـذي انتُخب سنة ١١٢١، فنقل الكرسيّ البطريركيّ من يانوح إلى دير "سـيّدة إيليـج"[٥]. وهـذا الأمر ثابت ممّا كتبه هذا البطريرك في خطّ يده ومفاده أنّه "حضر أمامه إلى دير سـيّدة ميفوق القسّ سمعان وسمّاه رئيسًا على دير قبرص"[٦].

---

١ ـ جاء في بعض المدوّنات أنّ بداية ولايته كانت سنة ١٠٩٩.

٢ ـ غودفروا أو غُدفريد GODEFROY (نحو ١٠٦١ ـ ١١٠٠): إبن أسطاخيوس الثاني أمير بولونيا ودوق اللورين، من قـادة الحملـة الصليبيّة الأولى، نودي به ملك القدس ١٠٩٩ ففضّل لقب حامي القبر المقدّس، توفّي في القدس.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، تاريخ سنة ١١١٢.

٤ ـ فهد، بطاركة الموارنة، ١: ١٥١ ـ ١٥٢، عن REY، تاريخ المستعمرات الفرنسيّة، ص١٢؛ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٢٥.

٥ ـ فهد، بطاركة الموارنة، ١: ١٤٩ ـ ١٥٢؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، تاريخ سنة ١١٢١.

٦ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٢٦.

أمّا دير "سيّدة إيليج" في ميفوق، الواقعة في شرق شمالي منطقة بلاد جبيل على متوسّط ارتفاع ٨٥٠ مترًا عن سطح البحر، فالراجح أنّه مبنيّ على أنقاض هيكل وثنيّ كان مكرّسًا لألهة الشمس[١]. وقد وصف هذا الدير بأنّه أعرق كراسي البطريركيّة المارونيّة في لبنان، كما وصف بأنّه ليس صرحًا، بل هو إلى المغارة أقرب شكلاً، لم يبنَ على قمّة بل في ملتوى الوادي، في مضيق بين جبال عاصية، حجارته من "الدبش" بلون التراب حتّى لا يُعرف، تحت شجرات الجوز والدلب القديمة. حائطه الشرقي ضفّة النهر الفاصل بين بلاد جبيل والبترون، تدخل إلى الكنيسة بعكس السير من الشمال في الوادي تحت قنطرة عتيقة. وفي هذا الدير عاش البطاركة الموارنة بين سنة ١١٢١ وسنة ١٤٤٠، وكان مقرّ البطريرك داخل الهيكل، يرقى إليه بدرج وضيع يوصل إلى غرفة بائسة كانت كلّ قصره من الدنيا. وعلى الحائط العالي للدير كتب بالسريانيّة خطّ يؤرّخ زمن تجديد البناء، وهذا تعريبه:

> باسم الإبن الحيّ الدائم، في سنة ١٧٤٦ ميلاديّة، تجدّد هذا الهيكل على أيدي الأخوَين أمّون ومانيلا (أوميخائيل، أو منيع) وهو من صنع أربعة بطاركة: بطرس وأرميا ويعقوب ويوحنّا سنة ١١٢١[٢].

---

١ ـ ذكر الخوري ميشال الحايك، في مجلّة الرعيّة، عدد ١٤٣، أيّار (مايو) ١٩٧٨، ص١٣ وما يليها، أنّ بعض الباحثين ردّ إسم "إيليج" الذي ورد في عداد الأمكنة الأسقفيّة من بلاد ما بين النهرين، حسب الكتابات السريانيّة، إلى اليونانيّة، على أن يكون محرّفًا عن "هيليوس HELIOS" أي الشمس. وهناك لفظة ألمانيّة مأخوذة دون شكّ عن اليونانيّة تقرب من كلمة إيليج، ومعناها: القداسة، كمعنى قاديشا بالسريانيّة، وسيّدة إيليج، أي السيّدة القدّيسة، هي في التاريخ الماروني قبل قاديشا، أو هي قاديشا الأولى.

٢ ـ أكّد باحثون على أنّ "الكتاب في الرسالة إلى العبرانيّين ١١: ٣٢ قد تنبّأ عن هؤلاء البطاركة حيث قال: إنّه ليضيق بي الكلام لو جئت أخبر عن دانيال وأرميا وشمعون ويوحنّا... أولئك الذين بالإيمان قهروا الممالك، ونالوا المواعيد، وسدّوا أشداق الأسود، وأخمدوا حدّة النيران، فمنهم عُذّبوا ولم يشأوا النجاة بأنفسهم رغبة منهم بقيامة أفضل، وآخرون ذاقوا السخرية والسياط والقيود والسجون، آخرون رجموا ونشروا أو ماتوا تحت النطع، وتشرّدوا لابسين جلود الغنم، معوزين، مضايقين، مجهودين، تائهين في البراري والجبال والمغاور وكهوف الأرض. هؤلاء لم يكن العالم يستحقّهم: إنّنا لأجلك نُمات كلّ يوم، وقد حسبنا كالغنم للذبح. الخوري ميشال الحايك، مجلّة الرعيّة، عدد ١٤٣، أيّار (مايو) ١٩٧٨، ص١٣ وما يليها.

يفهم من هذا التأريخ أنّ بداية بناء الدير كانت سنة ١١٢١، وكان تجديده في عام ١٧٤٦. أمّا نهاية بنائه فيدلّ عليها خطّ آخر، كتب بالسريانيّة أيضًا على بلاطة لصقها المجدّون على المدخل فوق القنطرة، بشكل مقلوب، فأصبحت خطوطها تُقرأ من أعلى إلى أسفل، وهذا تعريبها:

> باسم الله الحيّ إلى الأبد. في سنة ١٥٨٨ يونانيّة، أي سنة ١٢٧٧ ميلاديّة، تمّ هذا البناء، بناء دير والدة الله مريم، صلاتها معنا آمين، على أيدي الخطأة داود ود... وس... (هذا الإسم غير مقروء) وبطرس ويوحنّا[١].

ويذكر مؤرّخون أنّ في عهد البطريرك بطرس، قدم من بلاد الترك الأمير فارس ليحتلّ أنطاكية، فخرج لمحاربته "بلدوين" ملك القدس الفرنجيّ وكان النصر حليفه[٢].

خلفَ البطريرك بطرس على كرسيّ البطريركيّة المارونيّة، بعد وفاته، البطريرك غريغوريوس الحالاتي (١١٣٠ ـ ١١٤٠)[٣]، المنسوب إلى بلدة "حالات"[٤] في ساحل قضاء جبيل. وقد نقل الخوراسقف داغر[٥]، عن العلاّمة المارونيّ مرهج بن نمرون الباني[٦] في كتاب "سلاح الإيمان" أنّ هذا البطريرك أرسل، في سنة ١١٣١، وفدًا ليهنّئ

---

١ ـ الخوري ميشال الحايك، مرجع سابق؛ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، مرجع سابق، ١: ١٢٨؛ وراجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٣ ـ ١٥٤.

٢ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٢٦.

٣ ـ جاء في بعض المراجع ١١٣٠ ـ ١١٤١.

٤ ـ حالات: بلدة ساحليّة على مقربة من مدينة جبيل جنوبًا.

٥ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٢٦.

٦ ـ المطران جرجس بن نمرون الباني (ت١٧٢١): إسمه قبل الأسقفيّة مرهج، درس في روما، أسقف إهدن، عاش في زمن البطريرك الدويهي الذي لقّبه بالكاروز، ذكره الخوري يوسف مارون الدويهي في رسالته الشهيرة على أنّه من علماء عصره، عرّب "ميزان الزمان وقسطاس أبديّة الزمان"، وله "سلاح الإيمان"، وأصل الموارنة وديانتهم (روما،١٦٩٧)، توفّي في حلب.

البابا زخيا الثاني[1] بارتقائه إلى السدّة البطرسيّة ويلتمس له درع كمال الرئاسة. وإذ كان قد حصل انشقاق عرضيّ في الكنيسة الرومانيّة[2]، وانتخب بابا معارض للبابا الشرعيّ، قال البطريرك الدويهي إنّ الكاردينال "غوليلمُس" قدم إلى الأمصار الشرقيّة الشاميّة حاملاً إلى البطريرك غريغوريوس درع التثبيت مع رسالة يطلب بها منه أن يوقّع صكّ الإعتراف بصحّة انتخاب البابا زخيا وأداء يمين الطاعة له[3]. وعلى يدَي ذلك الكردينال "حلف البطريرك غريغوريوس حالاتي وأساقفته[4] اليمين المطلوبة، ووقّعوا بذلك صكًّا حفظ في خزانة الفاتيكان مع الصكوك التي وقّعها أساقفة الغرب". وقال محقّقون أنّ ذلك التوقيع جرى في مدينة طرابلس سنة ١١٣١، حيث انتقل البطريرك ورؤساء الملّة المارونيّة وعلماؤها وحلفوا الطاعة للبابا على يد الكاردينال المذكور، وأعطوه خطوط أيديهم أنّهم لا يتمسّكون بغيره، ولا يكرزون إلاّ باسمه، وهكذا اقتدوا بالفرنجة من الإمارات الساحليّة، مبايعين البابا الشرعي ضدّ مغتصب الحبريّة العظمى[5].

إثر وفاة الطريرك غريغوريوس، انتُخب يعقوب الراماتي بطريركًا خلفًا له (١١٤١ ـ ١١٥١)، وقد أقام في ميفوق. وهو منسوب إلى قرية رامات الواقعة اليوم في قضاء البترون بقرب بلدة جران المجاورة لدير كفيفان. ومن آثاره وثيقة مكتوبة

---

١ ـ زخيا أو إينوقنتيوس أو إينوشنسيوس الثاني، بابا روما ١١٣٠ ـ ١١٤٣، نشأ في عهده بابوان معارضان: أناكليتُس الثاني ١١٣٠ ـ ١١٤٣، وفيكتور الرابع ١١٣٨.

٢ ـ راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة؛ وراجع: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٢٧.

٣ ـ فهد، بطاركة الموارنة، ١: ١٥٦، مرجع سابق، عن: الدويهي، ردّ التهم، الشرح المختصر، ص٣٠٦.

٤ ـ نحن نشكّ في إمكانيّة أن يكون في الكنيسة المارونيّة أساقفة في ذلك التاريخ، وحجّتنا في ذلك أنّ البطريرك يوحنّا اللحفدي الأوّل (١١٥١ ـ ١١٧٣) كان أوّل من رسم الأساقفة كما سيأتي، وأنّ جميع البطاركة المنتخبين قبله لم يكونوا أساقفة.

٥ ـ الخوري ميشال الحايك، مرجع سابق؛ راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

بخطّ يده بالكرشونيّة[1] على هامش الصفحة ٣٠٧ من المجلّد الأول من مؤلّف "مار يعقوب السروجي"، جاء فيها: "لمّا كان تاريخ سنة ١٤٥٢ لليونان، أي ١١٤١ للميلاد، في شهر تمّوز (يوليو) المبارك، في عشرة أيّام مضت منه، حضر إلى عندي أنا بطرس بطرك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي باسم يعقوب من قرية رامات من عمل البترون الولد الراهب "دانيّال" من رهبان "دير كفتون"، وقد أعطيته سلطانًا من الله ومن حقارتي، بأن يكون رئيسًا ومدبّرًا على دير مار يوحنّا الكوزبند في جزيرة قبرص المحروسة"[2]. وفي عهد هذا البطريرك توفّي القسّ "عبدالله أبو الفرج الماروني" المعروف بـ"إبن الطيّب"، وهو الذي ترجم الأناجيل وشرح كتاب أرسطو في المنطق وكُتُب غالينُس في الطبّ. وقد قال فيه "جمال الدين القاضي": "إنّه أحيا من هذه العلوم ما قد دثر وأبان ما خفي. وشهد "ابن بطلان" الطبيب النصرانيّ البغداديّ، تلميذ إبن الطيّب هذا، بأنّ معلّمه لبث عشرين سنة يجهد فكره في تفسير ما وراء الطبيعة، وفي آخر حياته اعترف بأنّه خُدع بترّهات ابن البطريق"[3].

نُشُوء "مؤسَّسة" البَطرِيركيَّة
علَى يَد البَطريَرك يوحنّا اللحفدي

أمّا الذي خلف الرّاماتي بعد وفاته، فكان البطريرك يوحنّا اللحفدي الأول (١١٥١ - ١١٥٤)، وهو السابع بإسم يوحنّا أو يوحنّا مارون. وقد تميّز هذا البطريرك المنسوب إلى بلدة لحفد[4] التي جعل كرسيّه فيها بدير مار الياس، بأنّه كان ذا مكارم وفصاحة،

---

١ ـ الكَرْشُونيّة: لغة عربيّة مكتوبة بالحرف السريانيّ.

٢ ـ فهد، بطاركة الموارنة، ١: ١٥٨، عن: سلسلة لأباتي الخيمي، ص١٧؛ وعن كتابه الإيطالي: مجموعة البيّنات المارونيّة، ص٢١.

٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٢٧.

٤ ـ لحفد: بلدة جبيليّة تقع بين جاج وميفوق، على متوسّط ارتفاع ١,٠٠٠ متر عن سطح البحر، كان منها أربعة بطاركة ومقدّمون أشهرهم المقدّم سعادة اللحفدي، والمطران جبرائيل إبن القلاعي الشهير.

كما وصفه الدويهي. وبالرغم من أنّه جعل إقامته في لحفد، بقي يتردّد على كرسي سيّدة إيليج في ميفوق. وفي مدّة ولايته القصيرة رقّى أربعة أساقفة لمعاونته في تدبير الشعب وأسكنهم في لحفد. وبذلك يكون البطريرك يوحنّا اللحفدي الأول قد حوّل البطريركيّة إلى مؤسّسة، وجعل من لحفد مقرًّا لها، ذلك أنّه أسكن فيها الأساقفة الأربعة الذين رسمهم، فكان أحدهم في دير القدّيس حوشب، والثاني في دير القدّيس سمعان، والثالث في دير القدّيس أليشاع، والرابع في دير سيّدة المرج. إذ لم يكن في تلك الأيّام من تقسيم قانونيّ للأبرشيّات فكان البطريرك يدير الطائفة ويشرف على إدارة كلّ مطران بملء سلطانه[1]. وبقايا تلك الأديار التي سكنها الأساقفة لا تزال موجودة. ويُشار إلى أنّ دير مار الياس في لحفد، الذي جعله البطريرك يوحنّا مقرًّا له، هو خامس دير في تاريخ الكنيسة المارونيّة بعد دير البلور على العاصي، والثاني دير مار مارون كفرحي، والثالث دير سيّدة يانوح، والرابع دير سيّدة إيليج في ميفوق. وبقايا دير مار الياس هذا لا تزال بائنة بجوار كنيسة مار الياس في لحفد إلى اليوم. ويُنسب إلى هذا البطريرك كتابة النافور[2] للقدّاس، وهو النافور الذي يبدأ بـ "أيّها الإله الكلّي القداسة" وهو مثبّت في كتب القدّاس الموجودة في دير قنّوبين[3]. ووُصف هذا البطريرك بأنّه كان حازمًا وفصيح اللسان، وماهرًا في تفسير آيات الكتاب المقدّس، ومتضلّعًا في علم القانون الكنسيّ، ومهتمًّا بتنظيم الرتب والطقوس البيعيّة[4]. وكان قد نقل كرسيّ البطريركيّة المارونيّة من سيدة إيليج في ميفوق إلى دير مار الياس في

---

١ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٢٨.

٢ ـ نافور: لفظة يونانيّة معناها القربان والتقدمة، ويراد به ايضا صلوات القدّاس من بعد "تؤمن" إلى نهاية القدّاس، وهو يقابل "قانون القدّاس" عند اللاتين.

٣ ـ الدبس، الجامع المفصّل، مرجع سابق، ١: ١٢٢.

٤ ـ السمعاني، المكتبة الشرقيّة؛ ١: ٥٢٨.

لحفد سنة ١١٥١، ريثما يتمّ، في قرية "هابيل"[١]، بناء كرسيّ بطريركيّ دائم[٢]. ولم نجد في المراجع التي بين أيدينا أيّ ذكر لاتّصال هذا البطريرك بروما أو لنيله التثبيت والبراءة منها.

يبدو من متابعة سلسلة البطاركة الموارنة أنّ البطريرك الذي خلف يوحنّا اللحفدي الأوّل، سنة ١١٥٤، والذي جعل كرسيّه في دير سيّدة إيليج بميفوق بقرب لحفد، وهو البطريرك لوقا بطرس البنهراني المسمّى بطرس الثاني (١١٥٤ ـ ١١٧٣)[٣]، قد وقع ببدعة "أبوليناريُس"[٤]، ما أدّى إلى انشقاق عابر حصل في عهده داخل الكنيسة المارونيّة. أمّا البطريرك الذي خلف البنهراني سنة ١١٧٣، وهو بطرس الثالث اللحفدي، كان أحد الأساقفة الذين عيّنهم يوحنّا قبل وفاته. وإذ جلس بطرس في دير سيّدة ميفوق[٥]، يتّضح أنّ أمر البدعة الأبوليناريّة كان قد انتهى داخل الكنيسة المارونيّة. وقد جلس بطرس اللحفدي حتّى سنة ١١٩٩. وكان هذا البطريرك على نقيض البنهراني، وعلى خطى يوحنّا اللحفدي، متمسّكًا بالإيمان القويم. وأبلغ روما أنّ الموارنة متمسكين بالكاثوليكيّة القويمة، وطلب من روما درع التثبيت[٦].

---

١ ـ هابيل: قرية في وسط قضاء جبيل، بالقرب من بلدة ميفوق.

٢ ـ الخوراسقف داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٢٧ ـ ٢٨؛ سلسلة البطاركة، للدويهي، ص٢٣؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٨.

٣ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٩. داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٢٧.

٤ ـ أبوليناريُس: أسقف أوديسّة (توفّي حوالى ٣٠٩) أكّد أنّه بينما كان للمسيح جسد بشريّ حقيقيّ وروح بشريّة حقيقيّة، فإنّ الكلمة (LOGOS) تحتلّ في شخصه المقدّس مكان النفس التي هي أسمى جزء في الإنسان؛ راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

٥ ـ العنيسي، سلسلة البطاركة، ص١٨، وكتاب البيّنات، ص٢٢.

٦ ـ راجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٦ ـ ١٧٣.

العَمشِيتي في رومَا

خلف بطرس الثاني اللحفدي على كرسيّ أنطاكية المارونيّ البطريرك إرميا العمشيتي (١١٩٩ ـ ١٢٣٠). وكان هذا البطريرك قد وُلد في عمشيت ونشأ وترعرع فيها، وقيل إنّه عبدالله بن خير الله عبيد[1]. عندما شبّ نزعت نفسه إلى الحياة النسكيّة، فترهّب وشاد بمساعدة أخويَه داود ويوسف في عمشيت كنائس وقلالي ومحابس، وكانت تشتمل على ثلاث كنائس هي: كنيسة سيّدة البحار، وكنيسة مار يوحنّا، وكنيسة القدّيس زخيا، وتُعرف جميعها اليوم بكنائس مار زخيا[2]، واستحبس هناك مدّة[3]، ثمّ انتقل إلى محبسة سيّدة إيليج في ميفوق. وقد حصل التباس حول تاريخ انتخاب هذا البطريرك، إلاّ أنّ الدراسات والتدقيقات دلّت، بحسب بعض الباحثين، على أنّ انتخابه جرى في دير سيّدة إيليج بميفوق سنة ١١٩٩، ثمّ انتقل منه إلى دير سيّدة يانوح[4]. وفي عهده أرسل البابا زخيا الثالث[5] معتمده الكردينال بطرس لتفقّد شؤون الموارنة،

---

١ ـ ذكر فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٧٤، أنّ هذا البطريرك من أسرة عبيد العمشيتيّة، وأنّ في المخطوطات القديمة نسب يذكر أنّ عائلة عبيد التي نشأ منها المترجم، إهدنيّة الأصل، أتى بعضها إلى عمشيت، وأنّ البطريرك إسطفان الدويهي قد أثبت في شجرة عائلته وبخطّ يده ما يؤيّد بأنّ عائلة عبيد هي فرع من عائلة الدويهي الإهدنيّة. نحن نؤكّد على هذه النسبة، ولكنّنا نؤكّد أيضًا على أنّ أسرة الدويهي قد تفرّعت من عمشيت إلى إهدن وليس العكس ـ المؤلّف.

٢ ـ دير مار زخيا: كان هيكلا فينيقيًا حوّله مسيحيّو القرن الرابع معبدًا مسيحيًا، يعلو عن سطح البحر ٥٠ م.؛ نحن نميل إلى اعتبار أنّ العمشيتي قد كرّس هذا المكان على اسم القدّيس زخيا بعد زيارته لروما ونيله درع التثبيت من البابا زخيا الثالث كما سيرد أدناه ـ المؤلّف.

٣ ـ لحّود أديب، الدوحة العمشيتيّة، دار الطباعة والنشر اللبنانيّة (بيروت،١٩٥٤) ص٣١.

٤ ـ العنيسي، سلسلة البطاركة، ص١٩؛ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٢٩؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٧٦؛ قابل: الدويهي، سلسلة البطاركة، ص٢٤، حيث جاء خطأ أنّه انتخب سنة ١٢٠٩؛ وقابل: دريان، مرجع سابق، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥ الذي أورد أسباب الخطأ وتصحيحه إلاّ أنّه وقع في خطأ آخر إذ جعل انتخابه سنة ١١٨٣.

٥ ـ زخيا أو إينوفنتيوس أو إينوشنسيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦): أشهر بابوات القرون الوسطى، بلغت معه البابويّة أوج سيادتها د، فرض سلطته على الملوك فقاومه بعضهم، حارب البدعة الألبيجيّة.

فوجدهم خاضعين للكرسيّ الرسوليّ[1]. سافر إلى روما حوالى سنة ١٢١١[2]، وبقي فيها خمس سنوات وستّة أشهر. فشارك في المجمع اللاترانيّ الرابع سنة ١٢١٥. وفي كنيسة القدّيس بطرس القديمة في الفاتيكان نُسبت أعجوبة إلى هذا البطريرك أثناء قيامه بإحياء الذبيحة الإلهيّة، إذ بقي القربان معلّقًا فوق رأسه إثر رفعه بيدَيه، وأمر البابا زخيا الثالث بتخليد هذه الأعجوبة من خلال رسم واقعتها على جدار الكنيسة. ولمّا كادت أن تمحى، جدّدها البابا زخيا العاشر سنة ١٦٥٥[3]. عاد من روما سنة ١٢١٦، حاملاً معه درع التثبيت وتاجًا وعكّازًا قدّمهما له الحبر الأعظم، ومنذ ذلك التاريخ أخذ الإكليروس يقترب من العادات اللاتينيّة في الملابس الكهنوتيّة وغيرها[4]. وقد اعتبر باحثون أنّه كان للبطريرك إرميا العمشيتي الفضل بالإتّصال المباشر بين الكنيسة المارونيّة والفاتيكان، وبذلك افتتح عهدًا جديدًا أطلّ العِلم فيه على لبنان. وبعد رجوع العمشيتي من روما إلى لبنان، وردت إليه من البابا زخيا براءة موجّهة إليه وإلى جماعة من الروم قد انضمّوا إلى الموارنة في تلك الحقبة، وأبرزوا يمين الطاعة لروما أمام الكاردينال بطرس. وممّا جاء في تلك البراءة:

> ... إنّكم سابقًا كنتم كالخراف الضائعة غير عالمين أنّ خطيبة المسيح واحدة، وأنّ الحمامة الطاهرة هي الكنيسة الجامعة، وأنّ الراعي الصادق واحد وهو السيّد المسيح، ومَن خلفه، أعني رسوله ونائبه بطرس الرسول الذي سلّمه الربّ خرافه

---

١ ـ راجع: فهد الأبلتي بطرس، علاقات الطائفة المارونيّة بالكرسي الرسولي، ص٨؛ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٢٩.

٢ ـ جاء في مراجع أخرى أنّ البابا أنيوشنسيوس الثالث دعا البطريرك العمشيتي لحضور المجمع اللاتراني في روما سنة ١٢١٥، ولبّى العمشيتي الدعوة ووصل روما سنة ١٢١٣.

٣ ـ أكّد حصول هذه الحادثة إبن القلاعي؛ وشاهد الرسم المشار إليه البطريرك الدويهي حين كان طالبًا في روما؛ طالع في هذا الخصوص:الخوري ميشال الحايك، مرجع سابق، ص١٤؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٧٩.

٤ ـ الدبس، الجامع المفصّل، مرجع سابق، ١: ١٢٠ ـ ١٢٧.

ليرعاها... وعندما أرسلنا إلى نواحيكم سابقًا المرحوم الكردينال بطرس قسّيس كنيسة مرشلّينوس، وكان رسول الكرسي الرسولي، رجعتم بإلهام من الربّ إلى راعيكم وأسقف نفوسكم وفهمتم أنّنا نحن رأس الأحبار ونائب المسيح على الكنيسة الجامعة، وفهمتم أنّ أمّكم هي الكنيسة الرومانيّة المقدّسة، وعرفتم أنّ هذا هو الراعي الصادق الصالح الذي يدعو خراف الربّ وغيرهم إلى الحظيرة المسيحيّة في كلّ زمان ومكان، لتكون الرعيّة واحدة كما أنّ الراعي واحد، خشية من أن تضلّ الخراف تابعة أصوات الغرباء، فتحيد بذلك عن سنن الحق. وأنت أيّها الأخ البطريرك، لمّا كنت سابقًا في مدينة طرابلس مع قوم من مطارنتك أعني يوسف مطران مارسيليا، وتاودورُس أسقف كفرفو، وجمع كبير من الكهنة، وجمهور كثير من الخاضعين لك من تلقاء نفوسهم، فأمام بعض أساقفة ورهبان وشمامسة المدينة وشعبها حلفت وإيّاهم عن أنفسكم وعمّن يتعلّق بكم على هيئة الصورة التي بها يتعهّد المطارنة بالطاعة للكرسي الرسوليّ، أي أنّكم من الآن فصاعدًا تكونون طائعين وخاضعين لكنيسة روما لنا وللذين يخلفوننا من بعدنا[1]. ولكن بما أنّ الكردينال المذكور علم أنّكم محتاجون إلى بعض أمور اجتهد في إيضاحها لكم حسب مآل الأمر الرسولي. وأوصاكم أن تقوا بمعزل عن الارتياب بما تمسّكت به الكنيسة الرومانيّة، وهو أنّ الروح القدس ينبثق من الإبن كما ينبثق من الآب، لأنّه هو روح كليهما، كما هو واضح من الشواهد المقدّسة والأدلّة الصادقة. وأن تحفظوا في العماد هذه الصورة: أي أنّ الثالوث الأقدس يُذكر مرّة واحدة في التغطيسات الثلاثة لا أكثر. وأن تستعملوا سرّ التثبيت الذي يتصرّف به رؤساء الكهنة دون غيرهم. وأن لا يدخل في تركيب الميرون إلاّ البلسم والزيت فقط[2]. وأنّ كلّ واحد منكم يعترف بخطاياه لكاهنه الخصوصيّ قلّما يكون مرّة واحدة في السنة. وتتناولوا

---

١ ـ نشير إلى أنّ مثل هذا الحدث تمامًا كان قد جرى في عهد البطريرك الحالاتي سنة ١١٣١ في طرابلس أمام القاصد الرسولي الكاردينال "غوليلمُس"، كما ذكرنا سابقًا في سيرة ذلك البطريرك ـ المؤلّف.

٢ ـ درج التقليد من قبل على استعمال إثنتي عشرة مادة نسبة إلى الإثنتي عشرة فضيلة.

سرّ القربان بنيّة صافية على القليل ثلاث مرّات كلّ عام. وأن لا تستعملوا في إقامة القدّاس كؤوسًا من زجاج ولا من خشب ولا من نحاس، بل من قصدير أو فضّة أو ذهب. وأن تقرعوا نواقيس نحاسيّة للتبشير بمواقيت الصلاة الجمهوريّة. وأن تؤمنوا أنّ في المسيح طبيعتين ومشيئتين إلهيّة وإنسانيّة. وهذه الوصايا، **ولو أنّكم قبلتموها في ما سلف قبول الطائعين الخاضعين، إلاّ أنّ إعادتها عليكم الآن لأجل تأكيدها وتثبيتها**... ثمّ إنّنا نثبّت كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرهم بسلطاننا الرسولي، ونأمرهم **بالخضوع لكرسي سيدة يانوح** كنيستك أيّها الأخ البطريرك المتولّي رئاستها من الله تعالى، وأن يطيعوا لك ولخلفائك، أعني مطارنة مار أصيا[1]، وجبّة بشرّي، وأساقفة المنيطرة[*]، ورشعين[2]، وكفرفو[3]، وعرقة[4]. وكذلك أن تلبس الدرع المقدّس الحاوي كمال الخدمة الحبريّة، على **حسب العادة المألوفة**، ويشملك إيّاه بطريرك أنطاكيا[5] من غيرما صعوبة، **ونحن نثبّت لك العادات الجارية التي كانت لك ولأسلافك في الكنيسة الأنطاكيّة إلى هذا الآن. وبالسلطان الرسوليّ نهبه لك وللذين يتخلّفون بعدك**... نسمح لك ولخلفائك باستعمال الباليوم[6].

حصل الكثير من اللغط حول بعض العبارات الواردة في هذه البراءة: مثل "رجعتم إلى راعيكم الحقيقي..."، ما جعل البعض يؤكّد على نظريّة إبن البطريق القائلة

---

١ ـ لا تزال بقايا دير مار أصيا الذي كان مقرًا أسقفيًا في البلدة التي أصبحت تحمل اسم "أصيا" في منطقة البترون على متوسّط ارتفاع ٩٠٠م. عن سطح البحر، وكان الدير مبنيًا بحجارة قديمة جدًا، وعليه نقوش رائعة، والمقول إنّ القرية قد اتّخذت إسمها من هذا الدير. والقدّيس أصيا، عيده في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ المؤلّف.

٢ ـ رشعين: قرية في قضاء زغرتا.

٣ ـ كفرفو: قرية في قضاء زغرتا.

٤ ـ عرقة: بلدة أثريّة في قضاء عكّار.

٥ ـ لعلّ المقصود هنا بطريرك أنطاكيا اللاتيني آنذاك.

٦ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٧٩ ـ ١٨٢؛ ويلي النص تواقيع أساقفة روما وكرادلتها إضافة إلى توقيع البابا، وتاريخها في ٢ كانون الثاني (يناير) ١٢١٥.

بأنّ "أتباع مارون يتبعون المعتقد القائل بأنّ سيّدنا يسوع المسيح منذ البدء مشيئة واحدة وقوّة واحدة"، فتبنّى المؤرّخ الصليبيّ وليم الصوريّ هذا الزعم وأضاف بأنّهم "عام ١١٨٠ تخلّوا عن هرطقتهم هذه وعادوا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكيّة". غير أنّ مؤرّخي الموارنة قد بيّنوا خطأ هذا الإعتبار، وذلك من خلال تأكيدهم الموثّق على أنّ "تجديد يمين الطاعة للحبر الرومانيّ من قبل الموارنة كان قد حصل سنة ١١٣١ في أيّام البطريرك غريغوريوس الحالاتي، ومرّة ثانية في سنة ١١٨٠ على يد "هيميريك" البطريرك اللاتيني، ومرّة ثالثة على يد الكاردينال بطرس في عهد البطريرك إرميا العمشيتي. فلا نجهل ما جرى لكنيسة روما من بلابل بسبب ما حصل منذ الربع الأول من القرن الثاني عشر حتّى ربعه الأخير من خلافات على رئاسة الكرسيّ الرسوليّ. وما إن استقرّ أمر هذه الرئاسة في سنة ١١٧٧ حتّى أخذ البابا اسكندر الثالث يطلب من الأساقفة أداء يمين الطاعة لنائب المسيح، واشترك الموارنة مع الإفرنج في حلف هذه اليمين في سنة ١١٨٠، فعدّ وليم الصوري ذلك رجوعًا عن الضلال. بينما الواقع أنّ همّ روما قد انحصر، في تلك الأيّام، بأخذ عهود الطاعة فضًّا للمشاكل"[١]. ونحن نضيف إلى ذلك أنّ قراءة ما جاء في البراءة بتمعّن لا يمكن أن يفهم منه أنّ الموارنة لم يكونوا يومًا على المعتقد الخلقيدوني. بل إنّ ما ورد فيها يجيب على بعض التساؤلات التي تدور حول بدع نشأت في أوروبّا، في تلك الحقبة، وأدّت إلى البلبلة التي فصّلنا رواية ملابساتها في الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

---

١ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣٠ ـ ٣١؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٧٦.

خُلفَاء العَمشيتي

عاش البطريرك إرميا العمشيتي، بعد عودته من روما، خمسة عشر عامًا، وكانت وفاته سنة ١٢٣٠[٢]. وإثر وفاته، انتُخب خلفًا له دانيّال الشاماتي (١٢٣٠ ـ ١٢٣٩)، الذي جاء ذكره في كافّة لوائح السلاسل البطريركيّة. وذكره يوحنّا بن يعقوب البشرّاوي على هامش كتاب صلاة محفوظ في كنيسة مار سابا ببشرّي[١]. ويتبيّن من المراجعات أنّ هذا البطريرك قد انتُخب في دير سيّدة ميفوق، وبسبب الفتن والحروب ترك ميفوق[٣] وجعل مقرّه أوّلاً في دير مار قبريانُس كفيفان[٤]، ثمّ نقله إلى قرية "الكفر"[٥]، وأخيرًا إلى دير مار مارون كفرحيّ[*] حيث بقي حتّى وفاته. وممّا سجّله له مؤرّخو الموارنة أنّه جمع زعماء البلاد الذين اتّفقوا، برعايته، على توحيد كلمتهم لتوطيد أركان الأمن، فانصرف الناس عن البلابل وعكفوا على أعمال استصلاح الأرض والزراعة والبناء، وعمّ الاستقرار إلى أن استعرت نيران الحرب بين نوّاب الشام والمصريّين، فامتاز هذا البطريرك بما أبداه من مرونة في السياسة وبما حقّقه من محافظة على حقوق أبناء رعيّته من اهتمام في تخفيف ويلات الشعب وإغاثة المنكوبين[٦]. وقد اختلف المؤرّخون في تعيين سنة وفاته، بيد أنّ كثيرين منهم اعتبروا

---

١ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٦.

٢ ـ الدويهي، سلسلة البطاركة، ص٣٥؛ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣١؛ الدبس، الجامع المفصّل، ١: ١٤٤.

٣ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٦.

٤ ـ دير مار قبريانيوس كفيفان: دير أثريّ هو اليوم من أديرة الرهبانيّة المارونيّة اللبنانيّة، وكفيفان من قرى قضاء البترون في شمال لبنان على متوسط ارتفاع ٤٠٠ م. عن سطح البحر.

٥ ـ الكفر: قرية في قضاء جبيل من أعمال جبل لبنان تقع على متوسط ارتفاع ٤٥٠م. عن سطح البحر، فيها دير أثريّ على اسم القدّيس جاورجيوس جلس فيه البطريرك المذكور.

٦ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣١.

أنّه توفّي سنة ١٢٣٩[١]. وكان من علماء الموارنة الذين برزوا في عهد ذلك البطريرك "نيقيطا الماروني" صاحب المؤلّف النفيس في مسألة انبثاق الروح القدس من الآب والإبن، وقد توفّي في عهد البطريرك الشاماتي[٢].

خلف الشاماتي بعد وفاته البطريرك يوحنّا الجاجي الأول (١٢٣٩ ـ ١٢٤٥). ذكره السمعاني في مقالته. انتُخب في دير ميفوق حيث جعل إقامته على ما يبدو[٣]. هذا البطريرك، الذي ورد اسمه في بعض اللوائح يوحنّا بطرس الجاجي[٤]، نشأ في جاج وترهّب بدير مار دوميط فيها قبل أن يصبح أسقفًا ومن ثمّ بطريركًا. وجاء عنه أنّه كان مثالاً صالحًا وتقيًّا ورعًا وعالمًا كبيرًا[٥]. وقد توفّي سنة ١٢٤٥[٦]. لم نطالع عن آثاره سوى أنّه "أرسل إلى دير قبرص ثلاثماية دينار وحُقًّا للميرون"[٧].

أمّا البطريرك شمعون أو سمعان الذي خلف البطريرك يوحنّا الجاجي بعد وفاة الأخير سنة ١٢٤٥، فقد ذكره بعضهم على أنّه الثاني بهذا الإسم[٨]، بينما اعتبره آخرون أنّه الرّابع[٩]، من دون أن يعيّنوا أسماء الثلاثة الذين سبقوه. على أنّنا لم نجد سوى

---

١ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٦؛ العنيسي، سلسلة بطاركة الموارنة، ص٢٢؛ بطرس ضوّ، تاريخ الموارنة، مرجع سابق، ٣: ٤٦٣، ٤٧٤.

٢ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣١؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٧.

٣ ـ السمراني الأب فيليب، جاج في التاريخ (بيروت، ١٩٨٢)، ص٧٢؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٧.

٤ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٧.

٥ ـ السمراني، جاج في التاريخ، مرجع سابق، ص٧٢؛ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٣٧.

٦ ـ السمراني، جاج في التاريخ، ص ٧٤.

٧ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣٢، عن مقالة السمعاني.

٨ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣٢.

٩ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٩.

بطريرك مارونيّ واحد قبله باسم سمعان، هو الذي خلف يوحنّا الخامس وسبق إرميا الأول. ولم يتوفّر إلى اليوم تحديد لتاريخ وفاة هذا البطريرك، ولكن من المتّفق عليه أنّه كان حيًّا سنة ١٢٧٥، إستنادًا إلى وجود كتابة له، تعود إلى ذلك التاريخ، في كتاب ديريّ كان محفوظًا في دير مار سابا بشرّي، تحدّث عنه البطريرك الدويهي في مجال وضعه لسلسلة البطاركة[1]. وأفاد الدويهي، في تاريخه العام، أنّ البابا اسكندر الرابع (١٢٥٤ ـ ١٢٦١) أرسل إليه درع كمال الرئاسة مع براءة التثبيت المؤرّخة في سنة ١٢٥٦، وقال إنّه رآها في خزانة قنّوبين. ولهذا البطريرك، بحسب بعض المراجع، ذكر في المجمع اللبناني[2]. وفي زمن بطريركيّة شمعون هذا حلّ في قبرص لويس التاسع ملك فرنسا، الذي قاد الحملتَين الصليبيّتَين السابعة والثامنة، ثمّ هاجم، ولكنّه "مُني بهزيمة نكراء ووقع هو نفسه بالأسر، وبعد أن افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال، جاء الأرض المقدّسة في شهر شباط (فبراير) ١٢٥٠، وأقام أربع سنوات في صيدا التي أعاد بناءها ورمّم حصونها، وجعل مقرّه في القلعة التي كان الصليبيّون قد بنوها من قبل، والتي عُرفت في ما بعد بقصر سانت لويس، وتُعرف الآن بقلعة المزّة. كذلك أعاد الملك لويس بناء حصون قيساريّة ويافا، وما تبقّى لديه من وقت أمضاه في المفاوضات والمداولات. وقد توفّي لويس التاسع بالطاعون في تونس، وطُوّب قديسًا سنة ١٢٩٧.

تناقل مؤرّخون ما مفاده أنّ الموارنة قد هُرعوا إلى استقبال ملك فرنسا في عكّا، مرحّبين بقدومه، وأنجدوه بعشرين ألف مقاتل، وقيل ٢٥ ألفًا بقيادة الأمير سمعان، وأنّ القدّيس لويس، وجّه رسالة إلى أمير الموارنة ورؤساء كهنتهم، مؤرّخة في ٢١

---

١ ـ الدويهي، سلسلة البطاركة، ص٢٥؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩١.

٢ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣٢، عن محفوظات المجمع اللبناني، قسم ٣، باب ٦، ص٤٢١.

أيّار (مايو) ١٢٥٠م. يظهر فيها محبّته للموارنة، وامتداح ديانتهم واتّحادهم الدائم مع خلفاء بطرس الرسول، ويعلمهم فيها أنّ "الأمّة المارونيّة" هي جزء من الأمّة الفرنسيّة، ويتعهّد لهم فيها، باسم فرنسا، بإيلاء الموارنة الرعاية التي يتمتّع بها الفرنسيّون أنفسهم. ولكنّ مؤرّخين وباحثين محقّقين مستقلّين[1]، قالوا، كما ذكرنا سابقًا، إنّه لا علم لهم بأنّ مؤرّخي الحروب الصليبيّة[2]، قد أتوا على ذكر رسالة بهذا المعنى بعث بها "الملك لويس التاسع" إلى أمير الموارنة، كما أنّه لم يثبت، حتّى تاريخه، وجود مثل هذه الرسالة بين المحفوظات الفرنسيّة العائدة لمرحلة العصور الوسطى. تجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أنّ الزيارة التي قام بها الوفد الماروني إلى عكّا لتهنئة "لويس التاسع"، قد جاءت في إطار قدوم وفود عديدة إلى عكّا للترحيب بالملك الفرنسي[3].

وممّا ذكره مؤرّخون موارنة أنّه لمّا غُلب الفرنجة على أمرهم في هذه البلاد، لجأوا إلى البطريرك شمعون فاستقبلهم بكلّ ترحاب. وقد وجّه إليه البابا اسكندر الرابع كتاب شكر وأوصاه بأن يعتبر هؤلاء الفرنجة كأولاده وأولاه من التفويضات ما يلزم للخدمة الروحيّة لهؤلاء اللاجئين[4]. وفي تفصيل أوسع، جاء أنّه "لمّا فتح سلطان مصر

---

١ ـ حطيط د. أحمد، نحو مقاربة تاريخيّة، مرجع سابق، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.

٢ ـ أمثال: GUILLAUME DE TYR, JACQUES DE VITRY, R. GROUSSET, J. PRAWER, K. SETTON, J. RICHARD, S. RUNCIMAN...

٣ ـ نقل داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣٢، حول هذا الوضوع عن المطران نقولا مراد الجزّيني قوله: وجدت بطاقة الملك لويس هذه في خزانة الكرسي البطريركي في قنّوبين مترجمة عن الأصل اللاتيني إلى الفرنسيّة والعربيّة، أمّا الأصل فكان فُقد مع ما فقد من أوراق الكرسي البطريركي بسبب طوارئ الحدثان؛ نحن نستغرب القول بأنّ ملك فرنسا قد كتب إلى البطريرك الماروني باللغة اللاتينيّة وأنّ رسالته ترجمت في قنّوبين إلى الفرنسيّة والعربيّة في ذلك الزمن، ونشكّ، مع د. حطيط بصحّة وجود مثل هذه الرسالة ـ المؤلّف.

٤ ـ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص٣٢.

أنطاكية سنة ١٢٤٦، كان عليها بطريرك لا تينيّ إسمه إيليّا، ومنذ ذلك الحين لم يجلس على كرسي أنطاكية لاتينيّ ولا فرنجيّ، فبقي منهم بقيّة من إكليروس وشعب في حالة يرثى لها، فالتجأوا إلى الموارنة الكاثوليك القاطنين في لبنان، فقبلهم البطريرك سمعان بترحاب، وكتب إلى البابا اسكندر الرابع يخبره بحالتهم وقبوله بهم، فأتاه جواب من البابا يمنحه لقب بطريرك أنطاكية"[1]. وهذا ما يفسّر تحدّر أسر مارونيّة لبنانيّة من أصول لاتينيّة فرنجيّة، علمًا بأنّ كثيرين من بقايا الصليبيّين قد اندمجوا بالموارنة نازحين من غير مكان، ومنهم أيضًا أسر اتّبعت الدين الإسلاميّ لا سيّما في طرابلس ومحيطها.

أمرَاء الحقَبة ومُقدّموهَا

في بداية الحقبة الصليبيّة، عقب الأمير جرجس الذي حكم، أميرًا على الموارنة، ١٠٥٠ ـ ١٠٩٠، الأمراء: موسى وبطرس إلى ١١٩٠؛ باخُس ويعقوب إلى ١٢١٥؛ شمعون إلى ١٢٣٩؛ يعقوب بن شمعون إلى ١٢٩٦. وكان مركز أولئك الأمراء في بشرّي.

يرى محقّقون مستقلّون أنّ المسيحيّين الوطنيّين، ومنهم الموارنة، قد وقفوا، في خلال الحقبة الصليبيّة، تارة إلى جانب الصليبيّين، وطورًا أيّدوا المسلمين. فقد ذكرت المراجع التاريخيّة أنّ موارنة بشرّي، ومسيحيّي الكورة ومعظمهم من الملكيّين، قد تعاونوا مع القوّات التركمانيّة بقيادة "بزواش" عندما انطلق هذا الأخير بقوّاته من دمشق إلى طرابلس سنة ١١٣٧، وهزم جيش الكونتيّة على مقربة من "قلعة الحجّاج" حيث

---

١ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٠، نقلا عن: العنيسي، مجموعة البيّنات المارونيّة، ص٢٦، نقلا عن المؤرّخ "بياجو طرزي" في كتابه "سورية المقتسة".

قُتل "بُنس PONS" الصليبيّ سيّد طرابلس، فانتقم منهم ولده "ريموند الثاني" إذ هاجم المناطق الجبليّة القريبة من طرابلس واعتقل عددًا كبيرًا من المسيحيّين، موارنة وملكيّين، مع زوجاتهم وأطفالهم، ونقلهم مقيّدين بالسلاسل إلى طرابلس حيث أنزل بهم مختلف أنواع التعذيب حتّى الموت، على مرأى من أهالي المدينة[١]. وقد كانت حادثة "بزواش" هذه، بحسب بعض المؤرّخين، سببًا لأزمة خطيرة انفجرت بين الفرنجة والموارنة بلغت ذروتها بعصيان هذا الفريق على كنيسة روما، كما سهّل الموارنة إستيلاء نور الدين زنكي على حصن المنيطرة عام ١١٦٥ وتوغّل صلاح الدين في مناطق الموارنة عام ١١٨٦[٢]. ولم تهدأ هذه الخلافات إلاّ بعودة فريق من الموارنة إلى وحدة الكنيسة بتدخّل سيّد جبيل الصليبيّ عام ١١٨٢[٣]. الأمر الذي لم يرُق لفريق آخر، كأبناء العشائر في بشرّي ومرتفعات بلاد جبيل والبترون، فكان من نتائج ذلك أن تعاون مقدّم بشرّي المدعو سالم، مع المماليك، عند اجتياحهم إهدن والحدث[٤].

ويشير باحثون إلى أنّ بشري قد عرفت في تلك الحقبة ما عُرف بحكم الرقباء. وذكرت المراجع أربعة رقباء تولّوا السلطة على بشري ونواحيها وهم:الرقيب الشدياق جرجس، تولّى الحكم على بشرّي ونواحيها سنة ١٢٤٢ وحتّى سنة ١٢٥٠؛ وكان

---

١ ـ حطيط د. أحمد، نحو مقاربة تاريخيّة، مرجع سابق، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ إستناداً إلى:

GUILLAUME DE TYR. OP. CIT. , II, P. 684 ; GROUSSET, *HISTOIRE DES CROISADES* (PARIS,1936) II, PP. 67-69.

٢ ـ حطيط، نحو مقاربة تاريخيّة، مرجع سابق، ص ٢٠٢ إستناداً إلى: إبن القلاعي، حروب المقدّمين، نشر بولس قرألّي، المجلّة البطريركيّة، السنة العاشرة (بيروت،١٩٣٥) حزيران ـ تمّوز (يونيو ـ يوليو) ص ٦٠٥؛ وبطرس ضو، تاريخ الموارنة (بيروت،١٩٧٧) ٣: ٤٧٢.

٣ ـ حطيط، نحو مقاربة تاريخيّة، مرجع سابق، ص ٢٠٢ إستناداً إلى: GUILLAUME DE TYR, OP. CIT., II,. P. 1028.

٤ ـ حطيط، نحو مقاربة تاريخيّة، مرجع سابق، ص ٢٠٢ إستناداً إلى: بطرس ضو، تاريخ الموارنة، مرجع سابق، ٣: ٤٦٤.

خلفاؤه على التوالي: الرقيب سالم وهو إبن الرقيب جرجس؛ الرقيب بنيامين؛ الرقيب نقولا. وينفرد الخوري فرنسيس رحمة بذكر رقيب خامس يُدعى أيّوب، ويُبرّر ذلك بقوله: "إنّ هذا الرقيب الخامس وان لم يذكره المؤرّخون، فالعقل يقتضيه لكونه والدًا للمقدّم يعقوب أبي المقدّمين الذين سيحكمون بعد تلك الحقبة. ونظرًا لشهرة الإبن خبت نار الأب وطُمس ذكره. ويرجّح أنّ الملك برقروق المملوكي، الذي سيأتي ذكره لاحقًا، في أثناء "تدروشه"، أي تخفّيه عن وجه مناوئيه، لم يُدرك الرقيب أيّوب إلاّ في أواخر أيّامه. فآثر أن ينزل في داره لكونه دار الحكم، وقَبْل أن يغادر، أراد أن يكافئه على أريحيّته، فتقدّم إلى الملك معتذرًا لكبر سنّه وطلب إليه أن يحوّل إنعامه إلى إبنه يعقوب. فكان مقدّمًا وأبًا للمقدّمين على بشرّي وبلادها في بداية حكم المماليك[1].

***

قبل أن تبرز دولة المماليك إلى الوجود منتصف القرن الثالث عشر، كانت البلاد الشرقيّة برمّتها قد شهدت اجتياحًا صاعقًا من قبل فريق ثالث لا علاقة له بالمسيحيّة ولا بالإسلام، إنّه اجتياح المغول.

---

١ ـ رحمة الخوري فرنسيس، "تاريخ بشري"، الجزء الأول، مطبعة صفدي للتجارة (١٩٥٦) ص٢٤٣ ـ ٢٤٥.

الفَصلُ السَّادِس

فِي زَمَنِ المَمَالِيك

نَكبَةُ المَوَارِنَة على أيدي المَماليك؛ البطارِكَة المَوارِنَة في زَمَنِ المماليك؛ قَضَاءُ المَماليكُ عَلَى أَعوانِ الصَّليبيِّين؛ إنحِصَارُ المَوَارِنَة في بلاد جُبَيل؛ بَطارِكَةُ الحَقَبَة المُظلِمة؛ المطران جبرائيل إبن القلاعي؛ المقدّميّة بين الصّليبيّين والعُثمانيّين.

نكبة الموارنة على أيدي المماليك

دشّن "جنكيزخان"[1] اجتياح المغول بسلسلة هجمات على العالم الإسلاميّ، أحدثت فيه خرابًا ودمارًا لم تُـزل آثارهما بعد. "وقد تابع حفيده "هولاكو"[1] الزحف غربًا، وبعد أن قضى على قلعة "ألموت"، وخرّب بغداد وقضى على الخلافة العبّاسيّة، ظهر فجأة أمام أسوار حلب، فلمّا فتحها قتل من أهلها ٥٠ ألف نسمة. ثمّ جاء دور حماة فنالت نصيبها، وخرّب بعلبك، وخلّف صيدا أكوامًا من تراب، وألحقت أنطاكية اللاتينيّة بالأمبراطوريّة المغوليّة إذ اعتبر البابا لويس التاسع التحالف بين الإفرنج والمغول أمرًا مرغوبًا فيه لمواجهة الإسلام"[3].

بعد هولاكو، قام قائد مغوليّ إسمه "كتبوغا"[4] وتوغّل جنوبًا نحو فلسطين، وسرعان ما تصدّى له السلطان المملوكي "قطز"[5]، وعلى رأس جيشه المملوك "بيبرس"

---

١ ـ جنكيزخان إبن يشوكي (١١٦٧ ـ ١٢٢٧): منشئ الأمبراطوريّة المغوليّة، وُلد في إقليم دولـون بلدق في بلاد الروس، كان اسمه الأصلي تيموجين، هزّ بفتوحاته أركان الدول جميعًا بين الصين والبحر الأسود، لسّس أمبراطوريّة امتدّت من أطراف الصين الشرقيّة إلى ايران ووادي السند (الأندس) في الهند، عُدّ من أعظم بناة الأمبراطوريّات في التاريخ.

٢ ـ هولاكو أو هولاغو (نحو ١٢١٧ ـ ١٢٦٥): حفيد جنكيزخان، فاتح مغولي ومؤسّس دولة المغول الإلخانيّة في إيران ١٢٥١ ـ ١٢٦٥، قطع نهر أموديا وأخضع أمراء الفرس والإسماعيليّة في ألموت ١٢٥٦، عاد إلى إيران بعد موت أخيه فهاجم المصريّون جيشه في الشام وأبادوه ١٢٦٠.

٣ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٧٣.

٤ ـ كتبوغا: قائد مغوليّ نصرانيّ نسطوريّ.

٥ ـ الملك المظفّر قطز: ثالث المماليك البحريّين (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠)، اشتراه السلطان أيبك ثمّ عيّنه "نائب السلطنة"، أصبح وصيًا على ابن السلطان بعد اغتياله ١٢٥٧ ثمّ عزله وأعلن نفسه سلطانًا.

ذو الأصل المغولي، فعرف كيف يتغلّب على أبناء جلدته المغول في معركة "عين جالوت"[1] سنة ١٢٦٠، ويطاردهم حتّى يجليهم عن مجمل المنطقة السوريّة من جهة، كما عرف كيف يغتال مليكه قطز وهو في طريق العودة إلى مصر ليتوّج انتصاره بالقبض على زمام السلطنة من جهة ثانية.

بعدما أصبح بيبرس سلطانًا، قام بتوحيد سوريا، وراح يضرب الحصار على المراكز الصليبيّة واحدًا بعد الآخر إلى أن أخضعها جميعًا. فأسقط "الكرك" سنة ١٢٦٣، و"قيساريّة" و"أرسوف" سنة ١٢٦٥، و"صفد" سنة ١٢٦٦، و"يافا" فلسطين و"شقيف أرنون" لبنان وأنطاكية[2] سنة١٢٦٨، و"حصن الأكراد" سنة ١٢٧١[3]، كذلك سقطت "مصياف"* وسائر القلاع التي كانت تابعة للحشّاشين. وسارعت "طرسوس"، و"حصن الهيكليّين"[4]، و"قلعة المرقب" التابعة لجماعة الداوية[5]، إلى عقد صلح لعشر سنوات وعشرة أشهر. وقد جُدّد عقد الصلح في عهد خليفة بيبرس "السلطان

---

١ - **عين جالوت**: موضع بالقرب من الناصرة، وهي عين جليات الجبّار في العهد القديم.

٢ - كانت أنطاكية أقدم دولة شرقيّة أسّسها الإفرنج، قُتل من سكّانها ومن أفراد حاميتها في هذا الهجوم ١٦ ألف نسمة، وقيل إنّ مائة ألف أسروا فبيع الفتى باثني عشر درهمًا والفتاة بخمسة، وغنم الفاتحون كثيرًا حتّى إنّهم كانوا يكيلون الدراهم للجنود بالأقداح، وأحرقت المدينة بقلاعها وكنائسها وما عاد قام لها قائمة ــ أبو الفداء، ج٤، ص٤ ــ ٥؛ المقريزي، سلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٧ ــ ٨٦٨؛ إبن العبري، ص٥٠٠.

٣ - **حصن الأكراد أو قلعة الحصن**: في محافظة حمص، عُرف أوّلا باسم حصن السفح، أقام فيه أمير عربي حامية كرديّة ١٠٣١ لمراقبة طريق طرابلس. احتلّه الصليبيّون ١١١٠ وأصبح من أعظم قلاعهم في سوريا، قاوم نور الدين زنكي ١١٦٣ وصلاح الدين بعد معركة حطّين، تعود أكثر عمارته إلى القرن الثالث عشر، سقط بيد بيبرس بعد حصار ١٥ يومًا، وكان تابعًا لكونتيّة طرابلس ويتّسع لألفي رجل محارب في وقت واحد.

٤ - **الفرسان الهيكليّون** TEMPLIERS, TEMPLARS: جمعيّة عسكريّة رهبانيّة أسّست ١١١٨ للدفاع عن الأراضي المقدّسة وتأمين سلامة الحجّاج إليها، أطلق عليها إسم فرسان الهيكل نسبة إلى هيكل سليمان حيث أنشئ مقرّها الأوّل بالقرب من موقعه، انتقلت من ثمّ إلى الغرب حتّى حلّها ملك فرنسا فيليب الرابع مع البابا كليمنضوس الخامس ١٣١٢.

٥ - **الداوية**: هي فريق من فرسان الهيكل، وأحيانًا كان يُطلق إسم الداوية على الجمعيّة ككل.

"قلاوون"[١] سنة ١٢٨٢ لمدّة مماثلة. وفي سنة ١٢٨٥ عقد قلاوون أيضًا معاهدة هدنة مع أميرة صور الصليبيّة التي كانت تحكم بيروت في الوقت نفسه، وضرب الحصار على قلعة المرقب* حتّى استسلمت، وفي سنة ١٢٨٩ هاجم طرابلس ودمّرها تمامًا بعد حصار دام ثلاثين يومًا. وإثر سقوط طرابلس استردّ قلاوون البترون تسليمًا[٢]. أمّا عكّا، وهي آخر المعاقل الصليبيّة الكبرى، فقد سقطت بيد السلطان "الأشرف"[٣] سنة ١٢٩١ بعد حصار شهر واحد، وأباد الأشرف التسعمائة نفر من فرسان الهيكل الذين كانوا فيها بعد أن أمّنهم على أنفسهم ليخرجوا، وهدم المدينة وكاد أن يزيل كلّ أثر لها[٤]. وبسقوط عكّا، استسلم جنود حامية صور، ثمّ سقطت صيدا، واستسلمت بيروت، وتبعتها طرطوس، وغادر فرسان الهيكل "عثليت"[٥] فدخلها المماليك ودكّوها في شهر آب ١٢٩١، أمّا أرواد فقد ظلّت بيد فرسان الهيكل حتّى سنة ١٣٠١. "وبسقوط أرواد نزل الستار على آخر مشهد من تلك المأساة التاريخيّة التي وقعت بين المسيحيّة والإسلام"[٦]. ومن مجمل مدن الساحل الفلسطينيّ واللبنانيّ والسوريّ، حافظ المماليك

---

١ ـ الملك المنصور قلاوون: خليفة بيبرس في سلطنة المماليك البحريّين (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠)، وُلد في كبتشاك حيث وُلد بيبرس، اشتراه الملك الصالح أيّوب ثمّ اعتقه، لُقّب بالألفي لأنّ ثمنه في سوق النخّاسين كان ألف دينار، كان وصيًّا على سلامش ابن بيبرس الذي تسنّم العرش وهو ابن سبع سنين، نودي به سلطانًا بعد عزل سلامش، اشتهر في الحملة على الأرمن ١٢٧٣، انتصر على جيوش المغول والأرمن والإفرنج، بنى البيمارستان المنصوري في القاهرة.

٢ ـ راجع: المقريزي، سلوك، اج١، ق٢، ص٥٩١؛ المقريزي، طبعة كاترمر، م٢، ق٣، ص١٧٢ ـ ١٧٨؛ ابن الفرات، ٤: ١٧، و٨: ٨٠؛ أبو الفداء، ٤: ٢٢ ـ ٢٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق: ذكر الشام، كبعة غيلدمايستر (بون، ١٨٨٥) ص١٨.

٣ ـ خليل الأشرف صلاح الدين: ابن السلطان قلاوون وخليفته ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣.

٤ ـ أبو الفداء، الجزء الرابع، ص٢٥، وقد كان هذا المؤرّخ شاهدًا على المعركة؛ وقد بقيت عكّا خربة إلى أن أعاد بناءها ظاهر العمر في القرن الثامن عشر.

٥ ـ عثليت: مرفأ قديم على الساحل الفلسطيني قرب رأس الكرمل، بنى فيه الصليبيّون حصنًا ١٢١٨ سمّوه "قلعة الحجّاج" وفي اللاتينيّة CASTRUM PEREGRINORUM ويُعرف بالفرنسيّة باسم CHÂTEAU PÈLERIN.

٦ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٧٧.

على ميناءَي بيروت وطرابلس من أجل مقتضيات التجارة والتموين، وخرّبوا جميع باقي الموانئ. ومنذ ذلك التاريخ أخذت بيروت تتقدّم على ما عداها من مدن لبنانيّة، وتلتها في ذلك طرابلس.

البطارِكَة المَوَارِنَة في زَمَنِ المَماليك

خلف شمعون الثاني على سدّة بطريركيّة أنطاكية للكنيسة المارونيّة بطريرك إسمه يعقوب، لم يُعرف تاريخ انتخابه ولا تاريخ وفاته بالتدقيق. غير أنّ أكثر الباحثين قدّر بأنّه جلس في دير سيّدة إيليج في ميفوق حتّى سنة ١٢٧٧. وكاد وجود هذا البطريرك يضيع في مجاهل السنين لولا كتابة نُقشت على عتبة دير سيّدة ميفوق جاء فيها: "أتمّ البطريرك يعقوب هذا البناء سنة ١٢٧٦". فمن الثابت إذن أنّ البطريرك يعقوب كان مقيمًا في ميفوق قبيل تجديد الدير وبعده[١]. وقد ذكر السمعاني هذا البطريرك في لائحته والبطريرك الدويهي في لائحته. وجاء في المدوّنات اللاحقة أنّ البطريرك يعقوب كان جالسًا في يانوح، قبل أن ينتقل إلى ميفوق حيث أتمّ تجديد بناء الدير وجعله مقرًّا لكرسيه[٢].

ومثلما لم يتمكّن الباحثون، حتّى الآن، من تحديد سنة وفاة البطريرك يعقوب، فمن الطبيعيّ ألاّ يكونوا قد تمكّنوا من تحديد سنة انتخاب خلفه دانيال الحدشيتي[٣]، فتراوحت

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٣.

٢ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩١.

٣ ـ نسبة إلى بلدة حدشيت من أعمال قضاء بشرّي.

تقديرات واضعي لوائح سلسلة البطاركة بين أن تكون تلك السنة ١٢٧٧ أو ١٢٧٨. على أنّه وجد في المكتبة الماديشيّة حاشية على هامش إنجيل[1] كتبها "إرميا الدملصي" مفادها أنّه في سنة ١٢٧٨ سامه البطريرك دانيّال الحدشيتي أسقفًا على دير "كفتون"[2] القائم على ضفّة النهر. وقد أثبت البابا نقولا الثالث (١٢٧٧ ـ ١٢٨٠) البطريرك دانيّال الحدشيتي سنة ١٢٨٠، وكرّر عليه أمر سلفه البابا زخيا الثالث إلى البطريرك العمشيتي بأن يُتّخذ الميرون من زيت الزيتون ومن دهن البلسم فقط. ولهذا البطريرك ذكر في كتاب تقديس الميرون الذي نسخه القسّ يوحنّا من "حجولا"[3] وقال في ذيله: "كان النجاز منه في سنة ١٢٨٠ في أيّام الأب المختار دانيّال من حدشيت"[4].
والمعروف أنّ هذا البطريرك قد قاد المقاومة المارونيّة لغزو المماليك بالقرب من إهدن لمدّة أربعين يومًا. وقد جاء في كتاب ابن الحريري في أخبار أحداث سنة ١٣٠٠ أنّ "المماليك لم يتمكّنوا من انتزاع طرابلس من أيدي الصليبيّين إلاّ بعد أن أجهزوا على المقاومة المارونيّة، عندئذ زحفت جيوشهم الجرّارة في أوائل سنة ١٢٨٢ على بلاد الجبّة فقاد رجال الدفاع البطريرك دانيّال من حدشيت بنفسه، وأوقف جيوش المماليك أمام إهدن أربعين يومًا، ولم يتمكّنوا منها إلاّ بعد أن أمسكوه بالحيلة ... ولقد تجبّر هذا البطريرك الحدشيتي واستطال وتكبّر واستقوى أهل تلك الجبال وتحصّن

---

١ ـ حاشية سريانيّة على هامش ص١٧ من كتاب الأناجيل المحفوظ تحت الرقم (١) في المكتبة الماديشيّة في فلورنسا.

٢ ـ كفتون: قرية في قضاء الكورة من لبنان الشمالي، تقع على متوسط ارتفاع ٩٠٠م. عن سطح البحر، فيها دير أثري هو من أهمّ الأديرة في منطقة وادي نهر الجوز لأنّه شيّد على الصخور ويتّكئ على تضاريسها منذ مئات الأعوام، يقول بعض مؤرّخي السريان إنّ السريان قد بنوه (طرازي، أصدق ما كان، ١: ٢٧٧) وإنّه انتقل إلى الموارنة، ثمّ استولى عليه الروم الملكيّون في القرون الأخيرة وأعادوا بناءه سنة ١٦٧٧، وحوّلوه إلى مدرسة تابعة لكرسيّ مطرانيّتهم بطرابلس، ويُعرف اليوم بمدرسة كفتين.

٣ ـ حجولا: قرية في بلاد جبيل من أعمال جبل لبنان.

٤ ـ العنيسي، مرجع سابق، ص١٢٤؛ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٣.

فيها وشمخ بأنفه فقصده التركمان واحتالوا عليه فأمسكوه وكان إمساكه فتحًا عظيمًا، أعظم من افتتاح حصن أو قلعة. وكفانا الله شرّه"[1].

بعد أن قُبض على البطريرك الحدشيتي بالحيلة، اقتيد إلى طرابلس، حيث استُشهد على الأرجح سنة ١٢٨٢، إذ انقطعت أخباره تمامًا[2]. ما جعل أهالي حدشيت يهجرون بلدتهم إلى جزيرتَي قبرص ومالطة خوفًا من إنتقام المماليك. وهجر قسم آخر إلى حمّانا في قضاء بعبدا من أعمال جنوب جبل لبنان، حيث لا يزالون يُعرفون إلى اليوم بـ"الحداشنة"، ونزح سواهم إلى بلاد بعلبك كدير الأحمر، وإلى مناطق الزاوية في الشمال، وقرية مشتى بيت الحلو في سورية القريبة من عكّار[3]. وتمكّن المماليك إذذاك من دخول حصرون وبقوفا والحدث وإهدن...

إثر القبض على البطريرك الحدشيتي سنة ١٢٨٢ من قِبَل المماليك وسوقه إلى طرابلس وانقطاع أخباره، دعا "هوغو دي لامبرياك"، أمير جبيل التابعة كونتيّة طرابلس، إلى اجتماع حضره الأساقفة والخورساقفة والكهنة والأعيان وانتخبوا المطران إرميا[4] الدملصي بطريركًا، على ما كتبه هو بخطّ يده على هامش إنجيل محفوظ في المكتبة الماديشيّة كما سبق أن ذكرنا، وقد جاء فيها:

---

١ ـ مخطوط "تشريف الأيّام والعصور في سيرة الملك المنصور، محفوظ في المكتبة الوطنيّة بباريس؛ راجع: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٢؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩١ ـ ١٩٧.

٢ ـ قابل: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٢، حيث جاء خطأ، من دون الاستناد إلى أيّ مرجع، أنّه توفّي في ميفوق سنة ١٢٨٢، مع أنّه أورد خبر اعتقاله من قبل المماليك وسوقه إلى طرابلس بالتفصيل.

٣ ـ يمكن التوسّع في الاطلاع على هذا الموضوع في دراسة أنطوان يونس المنشورة في جريدة "النهار" عدد ١٩ تموز (يوليو) ١٩٧٧، ص٥، وفي كتاب فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٣ وما يليها.

٤ ـ خلط بعض اللوائح البطريركيّة بين إرميا العمشيتي وإرميا الدملصي حتّى اكتُشف الأثر الكتابيّ الآتي ذكره أدناه.

في سنة ١٢٧٨ في اليوم التاسع من شهر شباط (فبراير) أنا الحقير إرميا من قرية دملصا* أتيت إلى دير سيدتنا مريم في ميفوق في وادي إيليج من عمل البترون[١] ورسمني البطريرك دانيال بيديه المقدّستين مطرانًا على دير كفتون* المقدّس الذي على ضفّة النهر وبقيت هناك أربع سنوات. وكان سكّان الدير المذكور حزقيّال ورفيقه إشعيا ودانيّال ويشوع وإيليّا وداود وغيرهم وجملتهم اثنان وثلاثون راهبًا. وبعد انقضاء السنين الأربع طلبني أمير جبيل والأساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة وألقوا قرعة[٢] فأصابتني وصيّروني بطريركًا في دير حالات* المقدّس ثمّ أرسلوني إلى رومية العظمى وتركت أخانا المطران تواذورُس يدير الرعيّة ويهتمّ بشؤونها"[٣].

لم تزوّدنا المراجع بتاريخ عودة البطريرك إرميا الدملصي من روما، ولكنّه عاد حتمًا قبل العام ١٢٨٢، إذ في ٢٦ شباط (فبراير) من تلك السنة، حضر اجتماعًا في قلعة أنفة[٤] بوجود حاكم طرابلس الصليبيّ للنظر في محاولة "غويدن" صاحب جبيل الصليبي ثلاث مرّات الاستيلاء على مدينة طرابلس. وللبطريرك الدملصي توقيع على محضر الإجتماع: الأخ إرميا بطريرك الموارنة[٥] ...

توفّي البطريرك الدملصي سنة ١٢٩٧ بعد أن شهد نجم الصليبيّين يتوارى عن الأنحاء الشرقيّة. إذ سقطت الممالك الصليبيّة بأيدي المماليك. وفي سنة ١٢٩٠ لم يكن قد بقي بيد الفرنجة من بلدان الشرق التي فتحها الصليبيّون إلاّ جزيرة قبرص. وانتخب خلفًا له البطريرك شمعون في السنة نفسها. وقد شهد هذا البطريرك، كما خليفته، أسوأ

---

١ ـ في التقسيمات القديمة كانت ميفوق تابعة للبترون وأصبحت في ما بعد ضمن منطقة جبيل الإداريّة.

٢ ـ تعبير كان يستعمل قديمًا للدلالة على عمليّة الاقتراع.

٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٤؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٨.

٤ ـ أَنْفة: وردة في المراجع الفرنجيّة NEFIN: بلدة ساحليّة في ساحل قضاء الكورة من شمال لبنان بين البترون وطرابلس.

٥ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٨ ـ ١٩٩، عن الخوراسقف بولس قرألّي الذي طالع هذه الوثيقة في فلورنسا.

حقبة عرفها موارنة لبنان على الإطلاق خلال تاريخهم المديد، إذ اجتاح المماليك في تلك الحقبة بأمر السلطان برقروق الجبال اللبنانيّة، فقتلوا ودمّروا ونهبوا وأحرقوا الأرض، وفرّ الناجون من سكّان تلك الجبال من مختلف المذاهب إلى مناطق متعدّدة، أمّا الموارنة ففرّ بعضهم إلى جزيرة قبرص، وإلى أماكن قصيّة من سوريا ولبنان، وانحصر الوجود المارونيّ اللبنانيّ، إلى حين، في المنطقة الممتدّة بين نهر ابراهيم جنوبًا، ونهر المدفون شمالاً، والعاقورة وموازاتها شرقًا، بالإضافة إلى بعض الوجود في وادي قنّوبين وجبّة بشرّي. أمّا الموارنة الذين كانوا يقطنون شمالي لبنان، وخاصّة في جبّة بشرّي، فقد استقرّوا في تلك الحقبة بسكون لا يتحرّشون بأحد. ولطالما كان البطريرك شمعون يطلب إلى أبناء كنيسته، في تلك الحقبة، الخلود إلى السكينة[1].

قَضَـــاءُ المَمَاليـــكُ عَلَى أعوَان الصَّليبيِّين

لم نجد في المعالجات التاريخيّة أيّة معالجة صريحة للسياسة الواضحة التي اتّبعها المماليك، سواء بالنسبة للفرنجة، أم لمختلف الفئات التي تعاونت من قريب أو بعيد مع الفرنجة، بغضّ النظر عن الانتماء الدينيّ لتلك الفئات. فإنّ الصورة التي تناقل المؤرّخون رسمها لحروب المماليك التأديبيّة التي عقبت قضاءهم على الصليبيّين، هي صورة مذهبيّة. والواقع هو غير ذلك. فالمماليك الذين اتّبعوا نهج "الأرض المحروقة" مع الصيلبيّين، كما لاحظنا من خلال المطالعات الواسعة، راموا من خلال سياستهم تلك الحؤول دون استمرار الحملات الصليبيّة المتتالية التي كانت تتجدّد بعد كلّ انكسار لهم، لذلك لم يكتفِ المماليك بالسيطرة على المدن والقلاع التي كانت بيد الفرنجة، بل

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٧.

دمّروها تمامًا. وعندما انتهت مهمّتهم تلك، تحولّوا إلى المناطق التي تعاون سكّانها مع الفرنجة، في أيّ ظرف من الظروف، وإلى أيّ مجتمع/طائفة انتموا، ليقرّروا لها مصيرًا مماثلا لمصير المناطق التي كانت بأيدي الفرنجة.

من هذه الزاوية الواقعيّة، لا تعود حملات المماليك تلك "حملات تأديبيّة" كما تناقلها المؤرّخون وما زالوا يتناقلونها[1]، إنّما هي حملات تندرج في السياق نفسه الذي ساقه المماليك على الفرنجة. ومن هذا المنطلق "الإبادويّ" والتدميريّ جاءت فتوى إبن تيميّة الشهيرة التي حلّلت إبادة المسلمين المتشيّعين على مختلف فرقهم[2]. ومن هذا المنطلق أيضًا جاءت حملات الإبادة، وليس التأديب، التي شنّها المماليك، بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، على شمال لبنان وعلى جباله التي كانت تضمّ سكّانًا موحّدين دروزًا وعلويّين نصيريّين وشيعة إضافة إلى مسيحيّين موارنة وملكيّين. ذلك بعد أن كان المماليك في خلال احتلالهم لمدن الساحل قد خرّبوها شرّ تخريب. فبعد أن قضى المماليك على الفرنجة تمامًا أقدموا على ردم الموانئ البحريّة لمنع سفن الفرنجة من إمكانيّة الرسوِ فيها. ذلك أنّ قوّة المماليك البحريّة لم تكُن ذات شأن. وهكذا أصبحت مدن الشاطئ الواقعة بين عسقلان وطرابلس خرابًا[3]. وعندما مرّ إبن بطّوطة على هذا الشاطئ سنة ١٣٢٧، وصف عكّا وصور وطبريّا بأنّها كانت خرابًا[4]. وبعدما دكّ المماليك مدن الساحل، توجّهوا إلى الجبال فقتلوا من الإسماعيليّة

---

١ ـ راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٩٥.

٢ ـ راجع: المنجد صلاح الدين، ولاة دمشق في العهد العثماني (دمشق، ١٩٤٩) ص٦.

٣ ـ أبو الفداء، تقويم البلدان، مرجع سابق، ص٢٣٩ وما يليها.

٤ ـ إبن بطّوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة وترجمة: C. Defrémery and B. R. Sanguinatti, vol. I (Paris, ١٨٩٣) pp. ١٢٦ - ١٣٢.

والنصيريّة والشيعة على مختلف مذاهبها عددًا كبيرًا[1]. وقد هرب من الشيعة جماعات لجأت إلى جبال لبنان والبقاع. وكان السلطان قلاوون المملوكيّ قد أرسل جيشه إلى معاقل الموارنة في أعالي لبنان الشمالي سنة ١٢٨٣ وخرّب بشرّي وإهدن وحدث الجبّة كما ذكرنا سابقًا، فنزح بواسطة المراكب البدائيّة ألوف الموارنة إلى جزيرة قبرص هربًا من الإبادة[2]. وهاجم جيش المماليك منطقة عكّار واضطهد فيها الشيعة والمسيحيّين السريان بعنف[3]، فنزح الكثيرون منهم، والقليلون الذين بقوا في عكّار اتّبعوا المذهب السنّي[4]. ثمّ جلب المماليك بني سيفا وأقطعوهم المنطقة[5]. وبين ١٣٠٢ و١٣٠٦ شنّ المماليك على منطقة كسروان، التي كانت تمتدّ بين نهر بيروت جنوبًا ونهر ابراهيم شمالاً، حملات عنيفة أدّت إلى تفريغها تمامًا من سكّانها على مختلف مذاهبهم، وقد قُتل منهم خلق كثير، ومن نجا لجأ إلى مناطق مختلفة[6]. وفي سنة ١٣٠٧ تعرّضت مناطق الموحّدين الدروز لحملات مماثلة كانت المعركة الفاصلة فيها عند عين صوفر في أعالي منطقة عاليه من أعمال جبيل لبنان. "حيث أباد جيش المماليك البالغ عدده خمسين ألفًا قرابة عشرة آلاف نسمة وخرّبوا بلادهم وقطعوا أشجارهم وذبحوا نساءهم وأطفالهم"[7].

---

١ ـ ابن جبير، رحلة ابن جبير (القاهرة، ١٩٥٥) ص٣٠٤.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ١١٣: ١ ـ ٢٤؛ DIB, *L'ÉGLISE*, VOL. I, P. ٢٦٣؛ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٩٧.

٣ ـ راجع: عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبيّة، مكتبة الأنجلو المصريّة (القاهرة، ١٩٦٣) ٢: ١١٤٦؛ فيليب دي طرّازي، أصدق ما كان، مرجع سابق، ١: ٦٤ ـ ٧١؛ HENRI LAMMENS, *LA SYRIE, PRÉCIS HISTORIQUE*, IMPRIMERIE CATHOLIQUE (BEYROUTH, 1921) V.2, P.14-17.

٤ ـ الصليبي كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر (بيروت، ١٩٦٧) ص١٦.

٥ ـ LAMMENS, *LA SYRIE*, V.2, OP. CIT.. P.68.

٦ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٢٢: ٩ ـ ٢٥ و١٢٣: ١ ـ ١٠ و١٢٥: ١ ـ ٢٣.

٧ ـ راجع: بن يحيى صالح، تاريخ بيروت، ص٣٢ ـ ٣٣، ١٠٠ ـ ١٠١.

بعد انتهاء المماليك من حملات "التنظيف"، هدأت طفرتهم الغاضبة، فبدأوا يعملون لتنظيم مملكتهم. وقد جعل التقسيم الإداريّ المملوكيّ السلطنة ستّ نيابات، جُزّئ فيها لبنان إلى ثلاث، بهدف "منع الوحدة والاستقلال"[1]. أمّا النيابات الثلاث فكانت: نيابة طرابلس، التي شملت مناطق لبنان الشماليّة والساحل الممتدّ من جبيل إلى شمالي اللاذقيّة؛ ونيابة صفد، التي ضمّت مناطق لبنان الجنوبيّة بما فيها صور؛ ونيابة دمشق التي ضمّت المناطق الباقية أي صيدا وبيروت وبعلبك وسائر البقاع. وقد قُسّم البقاع إلى قسمين إداريَّين: البقاع الشماليّ أو البقاع البعلبكيّ؛ والبقاع الجنوبيّ أو البقاع العزيزيّ. وجعل المماليك على كلّ نيابة "نائبًا" من الموالي عند السلطان، الواحد منهم مستقلّ عن الآخر في إدارة نيابته. وحرصت السلطنة في مصر على أن تجعل مدّة النائب قصيرة قدر الإمكان، منعًا لتمكّنه من تحقيق أيّ طموحات شخصيّة، أو ربّما انفصاليّة. وقد أدّت كثرة الانقلابات بين المماليك إلى استمرار المؤامرات، لذلك عمد السلاطين دائمًا إلى تغيير النوّاب في مختلف الولايات والنيابات للاطمئنان إلى السيطرة عليهم. وكان بعض سلاطين المماليك يصلون إلى الحكم وهم دون سنّ الرشد، ما كان يوجد المزيد من المؤامرات بين الأمراء. هذه السياسة جعلت حكّام النيابات يسرفون في الظلم والتنازع والفساد، فدفع الناس ثمن هذه الإدارة المتردّية فقرًا ومجاعة وذلاً وعذابًا. وما زاد في الوضع سوءًا، حدوث الزلازل، وانتشار الأوبئة كالطاعون والتيفوس إضافة إلى اثنَي عشر وباءً كاسحًا. كلّ هذا حصد أعدادًا هائلة من السكّان، ما جعل عددهم ينخفض خلال حكم المماليك إلى ثلث ما كانوا عليه من قبل[2].

---

١ ـ القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الرابع (القاهرة،١٩١٤) ص١٦٣ وما بعدها.

٢ ـ راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٤٠١ ـ ٤٠٣؛ بن يحيى، تاريخ بيروت، مرجع سابق، ص١٩٨؛ المقريزي، إغاثة الأمّة في كشف الغمّة، تحقيق ونشر زيادة والشيّال (القاهرة،١٩٤٠) الجزء الخامس.

كان للحكم المباشر الذي فرضه المماليك من خلال "النوّاب المَوالـي" المعيّنين من قبلهم، فِعل القضاء على الحكم المحلّـيّ الذي كان سائدًا قبلاً. فقد أضحى الأمراء مجرّد ملتزمي إقطاع، لا يملكون سوى الالتزام الموقّت لبعض المناطق. وكان النائب، أو السلطان، يجرّد الأمير/الإقطاعيّ من الممتلكات التي تحت التزامه ساعة يشاء. وبذلك، لم تبقَ الإمارة التنوخيّة مثلاً تحت أمرة أمير، بل أصبح هنالك عدّة أمراء من التنوخيّين لكلّ منهم التزام على عدد من القرى[1]. وكان من الطبيعيّ أن ينسحب هذا الأمر على الموارنة، وأن يمنع المماليك الأهالي، على مختلف مستوياتهم وانتماءاتهم الدينيّة، من الاتّصال بالغرب سواء لشؤون تجاريّة أم ثقافيّة أم سواها، وقد عمّموا على رؤساء الكنائس المسيحيّة وجوب الحرص على عدم مقابلة الأجانب أو استضافتهم خصوصًا إذا كانوا ينتمون إلى الدول الغربيّة المسيحيّة المشتبه بها، وعلى ألاّ يراسلوا حاكمًا أو ملكًا أجنبيًا. وبذلك انقطعت صلة البطريرك المارونيّ بروما[2].

في ظلّ هذه الرقابة الصارمة، تمكّن الموارنة في شمال لبنان من ممارسة نوع من الاستقلال الداخليّ بقيادة مقدّميهم الذين كان النوّاب المماليك يكلّفونهم جباية الضرائب وإصدار الأحكام. وكانت الكنيسة المارونيّة بحسب تراتبيّتها التنظيميّة وعلى رأسها البطريرك، تقضي في شؤون الأحوال الشخصيّة[3]. وتطالعنا المدوّنات العائدة إلى تلك الحقبة بأنّ منطقة وادي التيم* كانت تحت حكم الأمراء الشهابيّين المسلمين، وكان مقرّهم في "حاصبيّا"*؛ وأنّ منطقة الشوف كانت تحت حكم الأمراء المعنيّين المسلمين، وكان مقرّهم في بعقلين [4]؛ وأنّ منطقة صور و"جبل عمل" من جنوب لبنان

---

١ ـ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٦٧ ـ ٢٨٧.

٢ ـ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٣١٢) ص١٤٥ ـ ١٤٦.

٣ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٧٩؛ الشدياق، تاريخ الأعيان، مرجع سابق، ١: ٣٣ و٢٤٤.

٤ ـ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٨٩

كانت تحت حكم بني عاملة الشيعة[1]؛ وبعد أن "دحر الظاهر بيبرس المملوكيّ الصليبيّين سنة ١٢٦٨م. واستولى على مملكة "الشقيف" في جنوب لبنان، جعلها دار نيابة قاعدتها القلعة[2]. ونقع على ذكر لأسرة مملوكيّة تُعرف بـ"بني سودون"، أو "أبي سودون"، حكمت جبل عامل أو القسم الجنوبيّ منه في عهد المماليك، وقد تكون هذه العائلة السنيّة متحدّرة من "سودون" نائب الشام المملوكيّ سنة ٨٨٣هـ./ ١٤٧٨م.، وبذلك يتّضح أن بني عاملة قد فقدوا الحكم على جبلهم في الحقبة المملوكيّة، وقد أساء السودونيّون معاملة شيعة جبل عامل إلى أقصى الحدود[3]. وذكر مؤرّخون أنّه قبل الفتح العثمانيّ، كان الوائليّون قد استعادوا حكم جبل عامل على يد علي الصغير الوائلي جدّ بني علي الصغير[4]. أمّا منطقة الغرب، وهي سفوح الجبال المجاورة لبيروت والتي تمتدّ جنوبًا إلى أعالي الدامور، فكانت تحت حكم البحتريّين المتحدّرين من سلالة الأمراء التنّوخيّين، وكان مقرّهم في سرحمول وعرمون الواقعتَين اليوم في قضاء عاليه، وقد عُرفوا منذ ذلك الحين بأمراء الغرب[5]؛ وكانت منطقة كسروان الكبرى تحت حكم الأمراء التركمان الذين فوّض إليهم المماليك حماية المعابر وأسكنوهم الأزواق الممتدّة من منطقة ساحل المتن إلى وسط ساحل كسروان، ومن هؤلاء سوف يتحدّر الأمراء العسّافيّون[6]؛ وقبل نهاية القرن الخامس عشر، أُضيف إلى تلك الأسر الاقطاعيّة الحاكمة بنو سيفا الذين تولّوا عكّار وطرابلس[7]؛

---

١ ـ راجع: محمّد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص٣٦.

٢ ـ القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ١٤: ٤٠.

٣ ـ راجع: صفا آل محمّد جابر، تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة (بيروت، لا.ت.) ص٢٥. ص٣٧ ـ ٤٢.

٤ ـ راجع: صفا، تاريخ جبل عامل، مرجع سابق، ص٤٤ ـ ٤٩.

٥ ـ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ١٢٩.

٦ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٢٥: ٢٥؛ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٣

٧ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٩٣: ١؛ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٤؛ حبلص د. فاروق، تاريخ عكّار الاداريّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ (بيروت، ١٩٨٧) ص ١٧٣.

وبنو شعيب[1] الذين تولّــوا طرابلس وناهضهم بنو سيفا في حكم عكّــار. وبنـو حمـادة الشيعة الذيـن تولّــوا فـي منـاطق جبيـل والبـترون وامتدّت مقاطعـاتهم أحيانًـا شـمالاً وجنوبًا[2]؛ وبنـو الشـاعر[3] السنّـــة الذيـن نـازعهم بنـو حمـادة حكـم البـترون؛ وتنـاوبت عائلات إقطاعيّة على منـاطق البقـاع كبنـي الأعمـى[4] وبنـي الحنـش[5] وبنـي الحرفـوش الشيعة[6]؛ وفي ظلّ هذه التقسيمات، أرسى المماليك نظام إقطاعهم المسـتمدّ من نظـامَي الإقطاع السلجوقيّ والصليبيّ. وكانت الدولة تجدّد أو تغيّر في حدود المقاطعات وتبـدّل الملتزمين في مناسبات مختلفة[7]. وكانت تلك المرحلة الأخيرة من مراحل ما قبل نشـوء الكيان السياسيّ اللبنانيّ الوطنيّ الذي سيقوم على مفاهيم وطنيّة.

إنحِصَارُ المَوَارِنَة في بــلاد جُبَيــل

ذكر الدويهي في حوليّاته عن سنة ١٣٠٢ ما يلي:

> بهذه السنة اجتمعت النوّاب جمـال الديـن أقوش الأفـرم نـائب دمشـق وسـيف الديـن اسندمر نائب طرابلوس وشمس الدين سنقر المنصوري وجمعوا جيـوش الشـام إلـى مقاتلة الجرديّين وأهل كسروان، فاجتمعوا مقدّمين الجبال وتوابعهم وأحاطوا بالجيش من كلّ جهة فهزموه وقتلوا نفرًا كثيرًا وغنموا بأمتعتهم.

---

١ ـ راجع: منير الخوري عيسى أسعد، تاريخ حمص، طرابلس (لبنان، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤) ٢: ٢٩٤؛ أحمد أبو سعد، معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٧) ص٤٨٠.

٢ ـ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٦؛ المعلوف عيسى اسكندر، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، وقف على نشره رياض المعلوف، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت، ١٩٦٦) ص٢١٤؛ أبو سعد، مرجع سابق، ص٢٦٠.

٣ ـ راجع: أبو سعد، مرجع سابق،ص٤٥٧. ٤ ـ راجع: أبو سعد، مرجع سابق، ص٩٥.

٥ ـ راجع: الصليبي كمال، منطلق تاريخ لبنان (بيروت، ١٩٧٩) ص١٥١؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٩٨: ٢.

٦ ـ رلجع: الأمين السيّد محسن، أعيان الشيعة (بيروت، ١٩٨٦) ٢: ٢١٦؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٩٥: ١٧.

٧ ـ راجع: مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٢٣٨ ـ ٢٤١.

ويقول الدويهي إنّ الواقعة كانت عند مدينة جبيل، وإنّ المقدّمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين في العدد..

وكان المشهورون فيهم خالد مقدّم مشمش، وسنان وأخوه سليمان مقدّمي إيليج، وسعادة وسركيس مقدّمي لحفد، وعنتر مقدّم العاقورة، وبنيامين مقدّم حردين؛ فجعلوا ألفين مقاتل يكمنوا على نهر "الفيدار" وألفين غيرهم على نهر "المدفون"، ثمّ انحدروا بثلاثين ألف إلى قتال الجيش فوقعوا بـ"حمدان" قائد الجيش على الطريق منفردًا فقتلوه وهجموا على الجيش فأهلكوا غالبه وغنموا بأمتعتهم وسلاحاتهم وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم؛ وقدمت الأكراد لنجدتهم فوقعوا بيد المكمنين على الفيدار فلم يخلص منهم إلاّ القليل؛ وقتل من الإمارة التّنوخيّة "نجم الدين محمّد" وأخوه "شهاب الدين أحمد" ولدي "جمال الدين حجي"، وغزت الجرديّة بلادهم فأحرقوا منها عين صوفر وشمليخ وعين زوينه وبحطوش وغيرها من بلاد الغرب؛ وقتل أيضًا من المقدّمين بنيامين صاحب حردين فدفنوه عند صاحب الأركان في جبيل ....

ثمّ ذكر في تداوينه لأحداث سنة ١٣٠٤ ما يلي:

في سنة ألف وثلاثماية وأربع مسيحيّة أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليّين والكساروه (أهل كسروان) الشريف "زين الدين إبن عدنان" بسبب الإصلاح مع التّنوخيّة، وأن يرجعوا إلى الطاعة، ثمّ أرسل "تقي الدين بن التيمية" وبصحبته الأمير "بهاء الدين قراقوش" فلم يحصل الإتّفاق؛ فأفتى العلماء بنهبهم لأنّهم فتكوا بجيش الإسلام ... فجرّدت العساكر ثمّ تجمّعت الرجال من كلّ بلاد الشام ولم تزل تزداد من كلّ ناحية إلى سلخ هذه السنة

ثمّ ذكر في تداوينه لأحداث سنة ١٣٠٧ ما يلي:

في سنة ألف وثلاثماية وسبع مسيحيّة يذكر "إبن الحريري" و"إبن سباط" أن سار يوم الإثنين ثاني محرّم "أقوش الأفرام" نائب دمشق بخمسين ألف فارس وراجل إلى

جبال الجرد وكسروان المساقبة بيروت؛ فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل وتلاقوا عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت الكسيرة على الأمراء فهربوا بحريمهم وأموالهم وأولادهم وبنحو ثلاثماية نفس واحتموا في الغار غربي كسروان يُعرف بمغارة نبيه وهي فوق إنطلياس بالقرب من مغارة البلانة، فحاموا عن نفوسهم بالقتال ولم يقدر الجيش عليهم فبذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سدًّا من الحجر والجير ثمّ هدموا على بابه تلّ عظيم من التراب والحجر وجعلوا الأمير "قطلوبك" حارسًا عليهم مدّة أربعين يومًا فهلكوا داخل الردم؛ ثمّ أحاط العسكر بتلك الجبال من كلّ الجهات ووطئوا أرضًا لم يكن أهلها يظنّون أن أحد من خلق الله تعالى يصل إليها فأخربوا القرايا وقطعوا الكروم وهدموا الكنائس وقتلوا وأسروا جميع من بها من الدرزيّة والكساروه وغيرهم فخربت تلك الجبال المنيعة وذلّت قلوب أهلها[1].

وهكذا يتّضح أنّ مقدّمي جبيل، قد صدّوا المماليك ومنعوهم من الدخول إلى بلاد جبيل الممتدّة بين نهرَي المدفون وابراهيم، فأضحت تلك المنطقة بامتدادها حتّى جرود بعلبك، ملجأ للذين نجوا من حملة المماليك، وبقيت ملجأ لهم إلى أن قوّض العثمانيّون أركان الدولة المملوكيّة في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦.

واختصارًا، كان اللاتين قد منحوا موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسيّة والمدنيّة التي كانت لأبناء الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة. تلك الامتيازات جعلت المماليك يخصّون هذه الكنيسة بامتيازات من نوع آخر، فجرّدوا سنة ١٢٨٣ حملة عسكرية ضدّ معاقل الموارنة في بشرّي وإهدن وحدث الجبّة من أعالي لبنان الشمالي وخرّبوها[2].

---

١ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، في تواريخ السنوات المذكورة أعلاه؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ١٥ ـ ١٩؛ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٧ ـ ٢٠٨؛ زجليّات ابن القلاعي، مديحة جبل لبنان.

٢ ـ الدويهي البطريرك إسطفانوس، تاريخ الأزمنة، مجلة المشرق، المجلد ٤٤ (سنة،١٩٥٠) ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

وقد أصدر السلطان قلاوون منشورًا إلى عامله في دمشق "أقوش الأفرم"، وإلى عامله الآخر في طرابلس "أسندم"، وإلى سواهما من القادة، ليشنّوا حرب إبادة على منطقة كسروان التي كان يقطنها مسيحيّون وشيعة ونصيريّة، وأطمعهم "في أنّ مَنْ نهب امرأة كانت له جارية، أو صبيًّا كان له غلامًا، ومَن أتى منهم برأس مقتول كان له دينارًا"[1]. فكانت الحملات العسكريّة التي تعرّضت لها كسروان من أعنف الحملات التي تعرّض لها لبنان ومن أشدّها فتكًا وخرابًا، وقد توافقت مع إفتاء ابن تيميّة، مُفتي دولة المماليك وأحد أعظم فقهاء عصره، بأنّ العلويّين[2]، هم دون النصارى مرتبة ويجب إبادتهم[3]. واشترك إبن تيميّة نفسه في هذه الحملة. وبالرغم من المقاومة العنيفة التي أبداها المسيحيّون، كما الأقليّات الدينيّة المنشقّة، والتي مكّنتهم من الصمود في وجه حملة الإبادة زهاء خمس سنوات، جاءت المعركة الفاصلة سنة ١٣٠٥ التي انتهت في عين صوفر حيث أباد جيش المماليك البالغ عدده حوالى خمسين ألف مقاتل، زهاء عشرة آلاف كسرواني، كان معظمهم من الدروز، وخرّبوا بلادهم، وقطعوا أشجارهم، وذبحوا نساءهم وأطفالهم، وتقاسمت ثلاثمئة عائلة تركمانيّة المنطقة الساحليّة الواقعة شمالي بيروت إلى جنوبي طرابلس كإقطاعات بينها[4].

---

١ ـ راجع: الحتوني الخوري منصور، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية (الطبعة القديمة) ص ٤١ وما يليها؛ إلاّ أنّ هذا المرجع قد ذكر من بين الذين قاتلوا إلى جانب المماليك في تلك الحملة "أمراء الغرب التوخيّين"، وذلك خطأ دون شكّ، كون هؤلاء كانوا قد أضحوا دروزًا فكانوا بدورهم مضطهَدين كما تشهد بذلك معركة عين صوفر.

٢ ـ المقصود بالإفتاء بالعلويّين، أتباع عليّ من شيعة ونصيريّة وسواهم.

٣ ـ صلاح الدين المنجد، ولاة دمشق في العهد العثماني (دمشق، ١٩٤٩) ص ٦ ـ ٧.

٤ ـ راجع: عوّاد ابراهيم، لبنان في عهد المماليك، المشرق، مجموعة ١٩٤٢ المجلد ٤٠، ص١٦ ـ ٢١؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، المشرق، المجموعة ١٩٥٠ المجلد ٤٤، ص ١٦٠ ـ ١٦٤؛ صالح بن يحيا، تاريخ بيروت، ص ٣٢ ـ ٣٣، ١٠٠ ـ ١٠١.

لم تنجح محاولات المماليك في إبادة الكنائس المسيحيّة، كما أنّها لم تنجح في إبادة المذاهب المنشقّة عن السنّة، على أنّها أضعفت هؤلاء جميعًا "وقد وجّهت هذه السياسة أنظار السكّان، في شمالي سورية وفي لبنان وفلسطين التي ظلّت زمنًا طويلاً تحت الحكم الأوروبيّ، وفي الدرجة الأولى الإفرنسيّ، إلى الغرب"[1]. وكما كانت ردّة الفعل ضد الأوروبيّين عميقة في سلبيّتها لدى انكسار هؤلاء على أيدي المماليك، كذلك ستكون ردّة فعل الجماعات الدينيّة التي عانت ظلم المماليك سلبيّة بعمق، وستوجّه أنظار تلك الأقليّات نحو الغرب حتّى بعد زوال حكم المماليك وطوال مدة حكم خلفائهم: العثمانيّين.

وفي هذه الحقبة الممتدّة بين ١٣٠٢ و١٥١٦، اكتظّت منطقة جبيل بالسكّان الموارنة، وما إن نشأت الإمارة اللبنانيّة على عهد الأمير فخر الدين الأول، كما سيأتي لاحقًا، حتّى تدفّق عدد كبير منهم من بلاد جبيل إلى مناطق كسروان - الفتوح والشمال والشوف والجنوب.

بَطَارِكَـــــــةُ

الحقبَةَ المُظلِمة

تكاد أخبار حقبة المئة عام الأولى من حكم المماليك لجبل لبنان أن تكون مغمورة كليًّا، خاصّة تلك التي تختصّ بالكنيسة المارونيّة على كافّة مستوياتها. ذلك أنّ المماليك قد واجهوا الإرساليات بتقييد شديد. وفي كتاب البراءة الذي أرسله السلطان إلى بطريرك الملكيّين، ينبّهه ألاّ يقابل الأجانب وألاّ يستضيفهم، لا سيّما إذا كانوا من المشتبه بهم، وألاّ يراسل حاكمًا أو ملكًا في دولة أجنبيّة. وقد أرسل تنبيهًا مماثلاً إلى

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٩٩.

بطريرك اليعاقبة[1]. وفي الإطار نفسه انقطعت الرسائل بين روما وبطريرك الموارنة الذي استمرّ طيلة عهد المماليك ينقل مقرّه من قرية إلى أخرى نظرًا للحالة القلقة التي كانت سائدة[2]. وجلّ ما كشفت عنه الأبحاث بالنسبة لأخبار البطاركة في خلال تلك المدّة، أنّه قد جرى انتخاب البطريرك شمعون الثالث[3]، بحسب المقالة السمعانيّة، سنة ١٢٩٧. ويتّضح من مخطوط لـ "سابا إبن القسّ جرجس القناتي"[4] كان محفوظًا في كنيسة مار ميخائيل في "عينطورين"[5] أنّ ذلك البطريرك كان حيًّا سنة ١٣٢٢، إذ ذيّل الناسخ المخطوط بعبارة: "كان النجاز منها في سنة ١٣٢٢ في أيّام المختار البطريرك شمعون". كذلك ذكر القسّ "يعقوب" رئيس دير "مرت مورا" في إهدن، في نهاية إنجيل نسخه كان محفوظًا في كنيسة "بجّة"[6] في بلاد جبيل: "كان الفراغ منه سنة ١٣٣٩ في أيّام البطريرك شمعون"، ما يعني أنّ البطريرك شمعون كان لا يزال حيًّا في تلك السنة[7]. وجاء في سلسلة العنيسي أنّ هذا البطريرك قد توفّي سنة ١٣٣٩[8].

ويُستقى من سلسلة العنيسي أنّ البطريرك يوحنّا العاقوري الذي خلف البطريرك شمعون قد انتُخب سنة ١٣٣٩[9]، وجاء في سلسلة الدويهي: "رأينا محرّرًا في كتاب

---

١ ـ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٣١٢) ص١٤٥ ـ ١٤٦.

٢ ـ DIB P., *L'EGLISE MARONITE* (PARIS,1930), PP. 156 - 219.

٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٦؛ قابل: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ٢٠٠ الذي جعله شمعون الثالث، ويرأينا أن هذا الترتيب خاطئ.

٤ ـ **القناتي**: نسبة إلى بلدة قنات بقرب بشرّي.

٥ ـ **عينطورين**: قرية بقرب إهدن تقع على متوسط ارتفاع ١٣٠٠م. عن سطح البحر.

٦ ـ **بجّة**: قرية في قضاء جبيل بقرب ميفوق تقع على متوسّط ارتفاع ٧٠٠ م. عن سطح البحر.

٧ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٦ ـ ٣٧.

٨ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٣٨.

٩ ـ العنيسي، سلسلة البطاركة، ص٢٧؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٤٤.

بكنيسة مار سركيس حدشيت أنّه كمل سنة ١٣٥٧، في أيّام يوحنّا بطرك أنطاكية وجبل لبنان والشطوط البحريّة، ويوحنّا أسقف قبرص. ومات البطريرك يوحنّا سنة ١٣٥٧"[١].
وذكر محقّقون كنسيّون موارنة محدثون أنّ هذا البطريرك قد اتّبع المونوفيزيّة استنادًا إلى إبن القلاعي الذي ظهر بعد هذا البطريرك بمئة عام. ونسب إليه التسبّب في انشطار الكنيسة المارونيّة إلى شطرَين: موارنة بلاد جبيل والبترون الذين تمسّكوا بالإيمان الخلقيدونيّ، وموارنة جبّة بشرّي أو بعضهم الذي انساق مع البطريرك[٢]. وقد ذكر إبن القلاعي أنّ جماعة "من أهل الأمانة المستقيمة هاجوا على البطريرك وأنزلوه عن كرسيه ومات منحطًّا. وأقاموا عوضه راهبًا أصله من حجولا..."

هذا البطريرك الجديد، إسمه جبرائيل، وهو منسوب إلى قرية حجولا الجبيليّة. وقد أدار شؤون البطريركيّة مدّة عشر سنوات مات بعدها شهيدًا في سنة ١٣٦٧. سبب ذلك أنّ "بيار دي لوزينيان"، ملك قبرص الفرنجيّ، قد أغار سنة ١٣٦٥ على الإسكندريّة برجاله فنهبوها وأعملوا السيف في أهلها. فأحدثت هذه الغارة ردّة فعل ضدّ المسيحيّين في مختلف الأنحاء المصريّة والشاميّة، الذين تعرّضوا على الأثر لإضطهادات عنيفة. وكان الموارنة من جملة مَن اضطُهدوا، فقبض المماليك على عدد من أساقفتهم واقتادوهم إلى السجن في دمشق، وهرب البطريرك جبرائيل الحجولاويّ من أمام الإضطهاد واستتر في قريته حجولا بناء على إلحاح الإكليروس والأعيان والشعب. فأرسل نائب طرابلس جنوده في طلبه وألقى القبض على زعماء المقاطعة وأنذرهم بالهلاك إن لم يسلّم البطريرك. عندئذ سار البطريرك إلى طرابلس مستسلمًا، وقد حكم

١ ـ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٤٤.

٢ ـ ضوّ، تاريخ الموارنة، ٤: ٣٠، نقلاً عن إبن يحي، تاريخ بيروت، ص٢٤٩ ـ ٢٥٢.

عليه ظلمًا بالموت ونفّذ فيه الحكم عند جامع "طيلان" خارج المدينة في أوّل نيسان (إبريل) ١٣٦٧[١]. ويستخلص من زجليّة إبن القلاعي أنّ هذا البطريرك قد قضى ضحيّة شهادات زور أدّاها ضدّه فريق من السريان الماردينيّي الأصل[٢]. وقد ذكر استشهاد البطريرك جبرائيل من حجولا كتاب المجمع اللبناني[٣]. وفي سنة ١٩٣٧ جُمع ملفّ حول استشهاده بأمر البطريرك أنطون عريضة[٤].

يرى باحثون كنسيّون موارنة أنّه بعد مقتل البطريرك الحجولاويّ، أقام خلفاؤه في دير سيّدة ميفوق، وظلّوا تحت سيطرة نائب طرابلس. فاضطرّوا إلى الانقطاع عن العالم المسيحيّ في الخارج. غير أنّهم ظلّوا متمسّكين بالاعتاب الرسوليّة والاتّحاد الوثيق بالأحبار الأعظمين. وكانوا، فور انتخابهم، يسعون إلى الحصول على درع التثبيت وكمال الرئاسة من الأحبار الرومانيين بواسطة المرسَلين الفرنسيسكان. وكان هذا التثبيت يتأخّر وصوله أغلب الأحيان، بسبب صعوبة المواصلات، بضع سنوات[٥].

فقد خلف البطريرك الشهيد، البطريرك داود الذي نسبه بعض الباحثين من أبناء جاج إلى جاج[٦]، وجعلوا كنوته يوحنّا، وقالوا إنّه أقام بسبب الإضطّهادات في دير مار

---

١ ـ وذكر الدويهي في تاريخ البطاركة، ص٣٧: "وإلى اليوم قبره يهب الأشفية لمن يطلبها، وقد اتّخذه المسلمون مزارًا يسمّونه الشيخ مسعود".

٢ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٨؛ الدويهي البطريرك إسطفانس، الشرح المختصر، طبعة فهد (١٩٧٤) ص٢٠٨؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص١٢٨.

٣ ـ فهد الأباتي بطرس، المجمع اللبناني، ص٤٣١.

٤ ـ الدبس، الجامع المفصّل، ١: ٢٢٩؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٥٠.

٥ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣١١.

٦ ـ السمراني الأب فيليب، جاج في التاريخ، (بيروت، ١٩٨٢) ص٧٥، إستنادًا إلى الدويهي، تاريخ الأزمنة، أخبار سنة ١٤٠١.

سركيس القرن بأرض حردين لأنّه دير عاصٍ. ولكنّ هذه النسبة ليست ثابتة بحسب بعض الباحثين الذين ينسبون هذا البطريرك إلى لحفد وليس إلى جاج[1]. ولم يحسم واضعو سلاسل البطاركة الموارنة تاريخ انتخاب هذا البطريرك بسبب الاضطهادات التي كانت سائدة عند استشهاد البطريرك الحجولاويّ، ولكنّ بعض المدوّنات يفيد بأنّه قد انتخب قبل سنة ١٣٩٣، إذ ذكر الدويهي في كلامه على سنة ١٣٩٣ أنّه كان جالسًا على كرسي أنطاكية. والثابت أنّ هذا البطريرك قد توفي سنة ١٤٠٤[2]. فخلفه البطريرك يوحنّا الجاجي الذي لقّبه أبناء جاج بالكبير (بطريرك ١٤٠٤ ـ ١٤٤٥). واعتبر مؤرّخو البلدة أنّه بدأ حياته الإكليريكيّة في دير مار ضوميط في جاج. وبعد انتخابه بطريركًا أقام في دير ميفوق. وأعاد الصلة بروما بعد انقطاع بسبب إقفال دروب البحار. وفي العام ١٤٣٨ تلقّى البطريرك يوحنّا دعوة من البابا أوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) لحضور المجمع الفلورنسي،[3] فأرسل "فراجوان" رئيس رهبان القدّيس فرنسيس الأسيزي (الفرنسيسكان) في بيروت، ليُعرب للحبر الأعظم عن استعداده لقبول كلّ ما يحدّده المجمع من عقائد وما يسنّه من قوانين، ويكرّر طلب منحه براءة التثبيت[4].

في ١٢ شباط (فبراير) ١٤٣٩، عُرضت في ذلك المجمع مراسلات البطريرك يوحنا و"أمّة الموارنة في لبنان والقدس وقبرص. وفي ١٠ حزيران (يونيو) من السنة

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٨.

٢ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٣٨.

٣ ـ يقول صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣١١، أنّه عندما اتّضح للبابا أوجانيوس الرابع، قبيل انعقاد مجمع فلورنسا ١٤٣٩، أنّ الكنيسة المارونيّة هي وحدها على علاقة حسنة بكنيسة روما، وكان متسلّمًا زمام سلطتها آنذاك البطريرك يوحنا الجاجي، أرسل إليه دعوة لحضور هذا المجمع.

٤ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٠.

نفسها، تقرّر تثبيت البطريرك وإيلاؤه كل الإنعامات التي تمتّع بها أسلافه. وأرسل إليه البابا، مع الباليوم[1]، رسالة[2] أبان له فيها كلّ ما بذله من جهود حتّى توصّل إلى إقناع ملك الروم وبطريرك القسطنطينيّة بالرجوع إلى حضن الكنيسة الجامعة وإزالة شقاق مضى عليه ٤٥٠ سنة، "حتّى شاهد العالم أساقفة الشرق والغرب على أتمّ وفاق في ما يتعلّق بالقضايا المختلف عليها سابقًا، أخصّها قضيّة رئاسة البابا ومسألة انبثاق الروح القدس من الآب والابن وعدم انفصام عقد الزواج... فتهلّل العالم أجمع وفرحت السماء بهذا اليوم الذي صنعه الرب"[3]. غير أنّ "هذه البهجة" لن تدوم طويلاً، فبعد ثلاثة عشر عامًا، سوف تفضّل القسطنطينيّة "عمائم الشيوخ على تيجان الكرادلة"[4]. وفي ١٤٧٢، سوف ينعقد في القسطنطينيّة مجمع يتقرّر فيه، تحت تأثير سياسة السلطان العثمانيّ، العودة إلى الانفصال.

في هذه الأثناء، كان المماليك لا يزالون يسيطرون على لبنان. ولدى عودة القاصد الرسولي "فراجوان" إلى طرابلس، هرعت الوفود المارونيّة إلى المدينة لاستقباله، فأقلق ذلك نائب طرابلس. وكانت قد سرت إشاعة بين سكّان المدينة المسلمين بأن الروم والفرنجة إنّما اجتمعوا في فلورنسا لرسم خطّةٍ جديدة لاسترجاع الأماكن المقدّسة من يد سلطان مصر. فأمر نائب طرابلس بالقبض على الأخ جوان ورفاقه[5]، بحجّة أنّه عميل للغرب، "وما أن درى السيّد البطريرك بالأمر، حتّى دعا بعض الأعيان وكلّفهم

---

١ ـ يقول صفير، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢١٢، أنّ البابا أرسل إلى البطريرك الجاجي درع التثبيت معترفًا به بطريركًا على أنطاكية وسائر المشرق.

٢ ـ نصّ رسالة التثبيت في كتاب: السمراني، تاريخ جاج، مرجع سابق، ص٩٥.

٣ ـ المرجع السابق.

٤ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ٣: ٣؛ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٥ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٢١٢.

السعي لإخلاء سبيل القاصد الرسوليّ، فشخصوا إلى المدينة وخاطبوا الحاكم في قضيّة الإفراج عن الموفد البابويّ، فصرّح لهم بأنه لا يُطلق سراحه إلاّ لقاء كفالة شخصيّة يتعهدّ القيام بها كلّ أعضاء الوفد الحاضرين، فقالوا: نحن كلّنا كفلاء. عندئذ صدر الأمر بإخلاء سبيل القاصد الذي شخص حالاً إلى ميفوق، وسلّم البطريرك درع الرئاسة ثمّ توارى".

إثر تسلّم البطريرك يوحنّا الجاجيّ التثبيت والإحتفال به في ميفوق، أدرك النائب المملوكيّ بتواري "قراجوان"، فأمر بإحضار الكفلاء، وفرض عليهم غرامة ماليّة باهظة. فمَن تمكّن من الدفع فاز بالنجاة، ومَن عجز كان نصيبه الشنق. ثم أمر الحاكم بمداهمة دير ميفوق والقبض على الرهبان، فأخذهم الجند إلى طرابلس بعد أن قتلوا بعضهم وأحرقوا البيوت والأرزاق، أمّا البطريرك فلجأ إلى وادي قاديشا وسكن دير قنّوبين"[١]. وبانتقال هذا البطريرك من ميفوق إلى قنّوبين، أصبح دير قنّوبين المقرّ الدائم للبطريركيّة المارونيّة في حمى المقدّمين وحمى وعورة المسالك في الوادي المقدّس، ما يقارب الأربعمائة سنة[٢]. وفي سنة ١٤٤٥ توفّي البطريرك يوحنّا الجاجيّ ودُفن في مغارة القدّيسة مارينا في قنّوبين التي صارت من بعده مدفنًا للبطاركة[٣]. وقد أقامت بلدة جاج تمثالاً لهذا البطريرك في ساحتها[٤]، أزاح الستار عنه البطريرك أنطونيوس خريش في ٢٩ آب (تموز) ١٩٨٢[٥].

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤١.

٢ ـ راجع مقال الأب د. بولس صفير بعنوان: البطريرك يوحنا الجاجي من خلال الوثائق والمستندات التاريخية، في كتاب: السمراني، جاج في التاريخ، مرجع سابق، ص٥١.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ٢:١٦٢.

٤ ـ نحت هذا التمثال الفنّان أنطوان كامل من بلدة ترتج المجاورة.

٥ ـ راجع: السمراني، جاج في التاريخ، مرجع سابق، ص١٠١ و٢٣٢ ـ ٢٧٢.

عندما فتح العثمانيّون القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣، ومن ثمّ جعل الفاتحون بطريرك القسطنطينيّة ممثّل المسيحيّين في الأمبراطوريّة تجاه الأمبراطور، كان على السدّة البطريركيّة المارونيّة الأنطاكيّة، في جبل لبنان، البطريرك يعقوب الحدثيّ (١٤٤٥ ـ ١٤٥٨) الذي انتُخب في اليوم التاسع لوفاة سلقه، وقد تلقّى من روما براءتَين كانتا مصونتَين في خزانة دير قنّوبين[1]، وأقام في بلدة ميفوق من أعالي بلاد جبيل. وكانت وفاة يعقوب في ٨ شباط (فبراير) ١٤٥٨[2].

في اليوم التاسع لوفاة البطريرك يعقوب، انتُخب خلفًا له البطريرك بطرس بن يوسف بن يعقوب الحدثيّ الشهير بابن حسّان (١٤٥٨ ـ ١٤٩٢)، فأرسل البادري الفرنسيسكانيّ "فرا غريفون"[3] إلى روما ليجلب له البراءة الرسوليّة ودرع التثبيت سنة انتخابه، فأتاه بهما من البابا بولس الثاني في ٥ شباط (فبراير) ١٤٧٥. وقد نقل غريفون إلى البابا "ما كانت دولة المماليك تحمّل الموارنة من صنوف المحن والمغارم، إذ كانت تبعث إليهم من جندها وجباتها مَن ينهبون بيوتهم بحجّة تحصيل الضرائب، ويضربون الفقراء العاجزين منهم عن الدفع. وأخبر غريفون البابا أن البطريرك بطرس باع آنية الكنائس وتبرّع بمداخيل الكرسيّ البطريركيّ ليدفع الضرائب عن

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤١.

٢ ـ راجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٧٧ ـ ٨٤؛ ضوّ، مرجع سابق، ٣: ٨٥ وما يليها؛ الدويهي، الشرح المختصر، مرجع سابق، ص٢٣٤؛ مسعد، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص١٥٣؛ الباني مرهج بن نمرون، أصل الموارنة، مرجع سابق، ص١٣١.

٣ ـ فرا غريفون: راهب فرنسيسكاني جاء إلى لبنان من القدس موفدًا بابويًا ومكث في لبنان بين الموارنة خمسًا وعشرين سنة يعظ ويشرح أسرار الإيمان ويقوم بالاتصالات بينهم وبين الكنيسة الرومانيّة وأوروبا، انتقل إلى روما مرّتين للاهتمام بشؤون الموارنة عند البابا كاليستوا والبابا بولس الثاني، وقد قبل في رهبانيّته جبرائيل إبن القلاعي اللحفدي الذي سيصبح أسقفًا مصلحًا وعالمًا بامتياز؛ راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ٢: ١٣١ وما يليها.

الفقراء، وأنّه يستغيث بقداسته، فبادر البابا إلى معونته بما خفّف كثيرًا من الأثقال عن شعب لبنان. وبعد ترؤّسه البطريركيّة المارونيّة في إحدى أصعب مراحلها مدّة دامت أربعًا وثلاثين سنة، توفّي البطريرك بطرس الحدثيّ في ١٢ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٤٩٢[1].

خلف البطريرك بطرس الحدثيّ ابن عمّه سمعان أو شمعون الحدثيّ (١٤٩٢ ـ ١٥٢٤) وهو ابن داود بن يوسف بن حسّان الحدثيّ، آخر البطاركة الموارنة في عهد المماليك، وأوّلهم في عهد العثمانيّين.

المطرَان جبرَائيل إبن القلاَعي

برز في هذه الحقبة عدد من الأساقفة الموارنة في العلوم والشؤون الكنسيّة والقياديّة. فبالإضافة إلى الأساقفة الأربعة الذين رسمهم البطريرك اللحفديّ ليعاونوه في إدارة شؤون الرعيّة، كما سبق وذكرنا، وهم أوّل الأساقفة الموارنة برأينا، نلتقي بذكر لأسقف مارونيّ إسمه يعقوب اللحفديّ، وهو من أساقفة الموارنة في القرن الرابع عشر، ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب "ردّ التهم" وقال إنّه نسخ كتاب الناموس للمطران داود الحدشيتيّ وذيّله بحاشية[2]، وهو سابع الأساقفة الموارنة من حيث الأقدميّة[3]. وقيل فيه إنّه كان قاطنًا في لحفد بدير السيّدة المعروف بدير المرج، وإنّه دوّن أخبار المجاعة التي كانت بسورية تلك السنة[4]. ثمّ نلتقي المطران كيرلّس الجاجيّ (١٣٩٩ ـ ١٤٠٥) الذي جاء عنه أنّه كان تاسع أساقفة الموارنة من

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٤٢؛ راجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٨٥ ـ ٩٣.

٢ ـ الدبس، الجامع المفصّل، ١: ١٥٦؛ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، ١: ١٥٤.

٣ ـ الدبس، الجامع المفصّل، ١: ١٥٦.

٤ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ١٥٠: ١٠، ١٥٢: ١٤؛ الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، ١: ١٥٧.

حيث الأقدميّة[1]. يليه المطران جرجس الجاجي (١٤٩٥ ـ ١٥٢١)[2]. وهناك المطران سمعان بن داود بن يوسف الحدثيّ: رقّاه البطريرك بطرس الحدثيّ سنة ١٤٨٠ إلى أسقفيّة العاقورة واليمّونة[3].

أمّا أبرز أسقف، على الإطلاق ومن دون منازع، أنجبته الكنيسة المارونيّة قبل نهاية القرن الخامس عشر، فهو المطران جبرائيل بن بطرس اللحفديّ المعروف بابن القلاعي. علاّمة زمانه. كان له الفضل في ردّ المارونيّة إلى الإيمان المستقيم بعد أن كانت المونوفيزيّة السريانيّة قد تغلغلت إلى داخل المجتمع المارونيّ على يد مرسَلين سريان، فانتشرت بشكل خطير في مناطق الشمال وطالت لحفد وبلاد جبيل بشكل كثيف في خلال حقبة حكم المماليك. وحفظت لنا مدوّنات السريان أنّه قد كان للسريان اليعاقبة (المونوفيزيّين) أمير من لحفد أواسط القرن الخامس عشر كان مقرّه في بشرّي؛ وكان من أساقفة السريان المطران ديوسقورس عيسى إبن ضوّ المولود في لحفد مطران بيت المقدس (١٤٤٥ ـ ١٤٧٧)؛ وفي هذه الحقبة بنى السريان لهم في لحفد دير مار سابا، وسمّوا هذه المنطقة "بوريخا"، والكلمة سريانيّة أصلها: بْريخا، أي: المبارك، ولكن بعد مجيء إبن القلاعي من روما إلى لبنان ومحاربته للمعتقد المونوفيزيّ وطرده (اليعاقبة) من لحفد بمعاونة مقدّميها الموارنة، أصبح اسم هذه المنطقة "غمليتا"، والإسم من مقطعَين سريانيّين: GAMMA أي معبد، والثاني: LÎ¶A أي الملعون من جذر LÃ¶ أي لَعن. GAMMA LÎ¶A: يعني المعبد الملعون.

---

١ ـ راجع: الدبس، الجامع المفصّل، ١: ١٥٤، ١١٥٧ الدويهي، تاريخ الأزمنة، تاريخ سنة ١٤٠٠.

٢ ـ الدبس، الجامع المفصّل، ١: ١٧٠.

٣ ـ الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، ١: ١٦٩.

عاش المطران جبرائيل إبن القلاعي اللحفديّ (١٤٤٧ ـ ١٥١٦)، وُلد في لحفد وتعلّم في القدس عند الفرنسيسكان وترهّب عندهم. إنتقل إلى روما وقضى فيها يحصّل العلم لمدّة عشرين سنة (١٤٧١ ـ ١٤٩٢). تخصّص في ١٦ اختصاصًا. ١)علم اللغتَين اللاتينيّة واليونانيّة. ٢) الخطابة والبيان. ٣) المنطق. ٤) الفلسفة. ٥) الهندسة. ٦) الفلك. ٧) اللاهوت. ٨) الحساب. ٩) فلسفة العلوم. ١٠) الموسيقى. ١١) القوانين الكنسيّة. ١٢) الفيزياء. ١٣) الأبراج. ١٤) الطبيعيّات. ١٥) الجراحة. ١٦) التاريخ. أرسلته روما إلى لبنان فبقي فيه خمس سنوات (١٤٩٢ ــ ١٤٩٦) يحارب البدع التي كانت متفشّية في الشرق وكانت تحاول احتواء الموارنة. إستعمل الشعر العاميّ في كتاباته فكان واضع أسس الشعر العاميّ اللبنانيّ (الزجل). وضع وهو في لبنان ٤٦٥ رسالة في محاربة البدع، ما عدا ما كتب من صلوات ومدائح وما ترجم من كتب إلى العربيّة. وضع في اللاتينيّة ١٢ مؤلّفًا في فلسفة الدين وأخبار القدّيسين لا تزال محفوظة في الفاتيكان. عُيّن أسقفًا على قبرص سنة ١٥٠٧، وفيها توفّي سنة ١٥١٦. وكان للمطران جبرائيل شقيق اسمه الحاج مخايل، انتقل من لحفد إلى قرية "طالا" في جزيرة قبرص مع المطران جبرائيل وزاد على كنيسة السيّدة هناك سوقًا ومذبحًا على اسم القدّيس عبدا[1].

قد يكون المطران جبرائيل إبن القلاعي اللحفدي أهمّ أحبار الكنيسة المارونيّة من بعد البطريرك يوحنّا مارون. وبرأينا أنّ عدم محاولة إبراز تراث هذا الحبر من قِبَل الإكليروس المارونيّ ومن قِبَل أبناء لحفد هو بمثابة تلكّؤ وتقصير، فإنّنا نعجب أشدّ العجب لذلك، كما نعجب لأن يكون لعدد من الشعراء والسياسيّين أنصبة في المدن

---

١ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، ١٧٨: ١٦ وما يليها؛ الدبس، الجامع المفصّل ص ٢٠٩ وما يليها؛ الدويهي، الشرح المختصر، نشر فهد، ١: ١٥٧، ٢: ٢٥٣؛ الجميّل الأب بطرس، زجليّات إبن القلاعي، المكتبة الشرقيّة (بيروت،١٩٨٢)؛ المشرق، عدد ٢ (١٨٩٨) ص٦٤٧ وما يليها؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ١١١ وما يليها.

والقرى التي أنجبتهم، بينما يغيب وجه المطران جبرائيل العظيم عن باحة لحفد، ويغيب اسمه عن شوارعها، وتبقى محاولات إحياء تراثه من غير دعم ومؤازرة.

المقدّميّة بينَ الصّليبيّين والعُثمانيّين

ظلّ الوارنة، في شمالي لبنان، في خلال الحقبة المملوكيّة، يمارسون نوعاً من الاستقلال الداخلي بقيادة رؤسائهم: المقدّمين[1]، الذين كانوا "يجمعون الضرائب وينشئون المحاكم القضائيّة لإجراء العدل. وكانت الأمور التي تتعلّق بالأحوال الشخصيّة تُترك للمحاكم الروحيّة التي كان الاكليرُس يقضي فيها"[2]. وجاء في بعض المدوّنات أنّ الموارنة قد نظّموا أمورهم في شمال لبنان، وفي بلاد جبيل، بعد هدأة اجتياح المماليك، وذلك تحت سلطة البطريرك. وقسّموا مناطق سيطرتهم إلى مقاطعات على رأس كلّ منها مقدّم. وكان المقدّمون، مع خضوعهم لنائب طرابلس، يديرون جماعاتهم على طريقتهم الخاصّة، ويتوارثون الوظيفة. وكان حكم الإقطاع قد ازداد تأصّلاً في عهد الصليبيّين. وعلى هذا الشكل حكم الأمراء والمقدّمون والمشايخ إلى أن فتح البلاد السلطان سليم العثمانيّ سنة ١٥١٦[3].

يرى باحثون أنّه للحدّ من سلطة البطاركة الزمنيّة، شجّع المماليكُ وقوّوا سلطة مقدّمي القرى والبلدات المارونيّة. وراح يتنازع السلطة عندئذٍ، بطريقة خفيّة أو علنيّة، كلّ من الفريقَين. وكان المقدّمون على علاقة حسنة بحكّام طرابلس ونوّابها، ودعم هؤلاء سلطتهم واعترفوا لهم بالزعامة في مختلف مناطق الجبل، وقد وجدوا فيهم خير عون وسند على جباية الأموال والضرائب[4].

---

١ ـ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠١ ـ ٢٢٣.　　٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٤٠٣ ـ ٤٠٤.

٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٢.

٤ ـ راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص٢١؛ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣١١.

يطالعنا من أسماء أولئك الأمراء، في تلك الحقبة، في جبيل: إسطفان ١٢٩٦ ـ ١٣٥٢؛ موسى ويوحنّا إلى ١٣٩٩؛ يوسف العبدلّي إلى ١٤٠٠؛ وفيها انتقلت الإمارة من بلاد جبيل والبترون إلى الجبّة وذلك عند قدوم تيمورلنك، وأصبح الأمراء مقدّمين. وذكر باحثون أنّ الشدياق يعقوب البشرّاني كان أوّل من أنعم عليه الملك برقوق المملوكيّ ليكون مقدّمًا على جبّة بشرّي هو وأولاده من بعده، وكتب لهم ذلك بخطّه على صفحة من نحاس سنة ١٤٤٠[1]. ثمّ خلفه ابنه المقدّم عبد المنعم الذي حكم حتّى وفاته سنة ١٤٩٤؛ ثمّ ابنه يوسف إلى ١٥١٩؛ وكان أوّل مقدّم يتولّى الحكم في بشرّي بعد الفتح العثمانيّ سنة ١٥١٦، المقدّم كمال الدين بن عبد الوهّاب بن عجرمة من أيطو فقتله يوحنّا بن يوسف مقدّم بشرّي سنة ١٥٤٧...

إعتُبرت المرحلة التي حكم خلالها المقدّمون، من جبّة بشرّي، من المراحل المميّزة والمهمّة في تاريخ بشرّي والموارنة عمومًا. وقد وصل نفوذ بشرّي السياسيّ والعسكريّ، آنذاك، إلى أقصاه، بفضل قدرة بعض مقدّميها وحسن درايتهم. وجاءت تسمية بشرّي "مدينة المقدّمين" تعبيرًا عن هذا الواقع، حتّى أنّ هذه التسمية غلبت على الإسم الحقيقيّ أحيانًا. وفي نظرة تأمليّة لأحد الباحثين في تراث بشرّي وتاريخ الجبّة[2]، استنتج أنّ هذه المنطقة لم تكن إطارًا جغرافيًّا فحسب، بل وأرض قداسة ورسالة، ولا تزال مغاور النسّاك فيها تشهد على ذلك. وعلى رغم السقطات الكثيرة، ظلّت هذه المنطقة تنهض في استمرار، وكلّما وصلت إلى حدود الهاوية، كانت تعود إلى الذات. واعتبر الباحث أنّ المقدّميّة لعبت دورًا تخطّى معناها الإداريّ، فقد أُنيط بها

---

١ ـ مكّي محمّد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٧٩) ص٢٦٤.

٢ ـ جعجع غازي، تاريخ بشرّي الحديث ١٤١٥ ـ ١٩٢٠، منشورات بشاريا (لبنان،١٩٩٤)

تنظيم شؤون الموارنة الزمنيّة، ومعاونة البطريرك، والدفاع عن أبناء الكنيسة. حتّى أنّ المقدّم كان يكرّس من قبل البطريرك في احتفال دينيّ، واعتُبر جزءًا من مقدّسات الموارنة. ولا شكّ في أنّ الأدوار التي قام بها المقدّمون اختلفت بين مقدّم وآخر. فالبعض ازدهر عهدهم، وحلّ فيه الأمان، ووصلت أخبارهم إلى الكرسيّ الرسوليّ في روما، فأعطاهم براءة التثبيت، وكافأهم على دورهم وغيرتهم على أبناء قومهم. بينما بعضهم الآخر، نتيجة لمواقفهم المتهوّرة، أثّروا سلبًا في "الوجدان المارونيّ"، فأحدثوا شرخًا داخل التركيبة المجتمعة التي كانت قائمة عند الموارنة. فمركزيّة القرار القائمة على البطريركيّة والتي وجدت في المقدّمين امتدادها التنظيميّ، وفعاليّتها السياسيّة، أضعفها هؤلاء، أحيانًا، بمحاولتهم التفرّد بالسلطة للتمايز عن البطريرك ومنافسته. وتمثّل ذلك في دخول المونوفيزيّة إلى جسم الكنيسة المارونيّة أحيانًا، مع بعض المقدّمين، ما أضعف من مكانة البطريرك الزمنيّة، فأصبح في حاجة إلى دعم البابا الدائم. لا بل إنّ مكانة المقدّم أصبحت، بسبب تلك الأخطاء، أقلّ أهمّية، إذ فقد استقلاليّته، وبات والي طرابلس يتحكّم بتعيينه، وتحوّل عنده جابي ضرائب. أضف إلى ذلك أنّ الخلافات التي وقعت بين المقدّمين، وأدّت إلى حروب تصفية بين بعضهم البعض، زادت في الطين بلّة، وقضت على سلالة المقدّمين في النهاية. وهكذا سوف تنتهي ممارسات المقدّمين السياسيّة إلى سقوط المقدميّة وبالتالي فقدان الموارنة استقلاليّتهم في حكم أنفسهم، مباشرة بعد الفتح العثمانيّ.

الفَصلُ السَّابع

الحَقبة العُثمانيّة

المَوارنة في بِدايةِ الحَقَبة العُثمانيّة: مِنَ المُقدّميّة إلى المدبّرِيّة؛

بطارِكَةُ المَوارِنة في بِدايةِ الحَقَبة العُثمانيّة؛

إسطفانُس الدويهي العالِم والقدّيس؛

بَطارِكَة القَرنِ الثّامِن عَشَر؛ المَجمَعُ اللبنانِيّ؛

صراعٌ على البَطريركيّة؛ البطريَرك إسطفان ومُشكلة هنديّة.

المَوَارِنَة

في بِدَايَةِ الحِقَبَةِ العُثمانيَّة

أدّى الفتح العثمانيّ، على يد السلطان سليم[1] في معركة مرج دابق[2] سنة ١٥١٦، إلى طيّ الصفحة الأخيرة من فصول تاريخ المقدّمين، وإلى فتح الصفحة الأولى من تاريخ لبنان الحديث، الذي بدأ مع اتّحاد كيانات المجتمعات / الطوائف في لبنان في إمارة الجبل اللبنانيّ الذي كانت حدوده تتّسع وتضيق تبعًا للظروف، وسط مجموعة صراعات متزامنة، منها: الصراع السلطويّ على الحكم بين أفراد الأسر الحاكمة، والصراع الحزبيّ القيسيّ اليمنيّ، والصراع "الوطنيّ" مع السلطة العثمانيّة التي كانت تسعى لتحقيق مصالح السلطنة على حساب جميع باقي الاعتبارات.

أجمع المؤرّخون على خبر مفاده أنّه إثر انتصار السلطان سليم في معركة مرج دابق على المماليك سنة ١٥١٦، ذهب وفد من أمراء لبنان إلى دمشق وهنّأ السلطان التركيّ وأبدى له الولاء. وقد ضمّ الوفد رهطًا من الأمراء والمقدّمين اللبنانيّين على

١ - السلطان سليم الأوّل: تاسع السلاطين العثمانيّين ١٥١٢ - ١٥٢٠، قضى على دولة المماليك في موقعة مرج دابق بالقرب من حلب ١٥١٦ وفتح سوريا ومصر فخضعت كلّ البلاد العربيّة للحكم العثماني.

٢ - مَرج دَابِق: موضع في سوريا الشماليّة بين منبج وأنطاكيا على نهر قويق، اتخذه السلطان سليمان بن عبد الملك معسكرًا، وفيه مات، فيه أيضًا أقام هارون الرشيد، وفيه انتصر السلطان سليم على المماليك ١٥١٦.

رأسهم الأمير فخر الدين المعنيّ الأوّل[1]. وبعد خطبة ولائيّة ودُعائيّة إطنابيّة، ألقاها الأمير المعنيّ أمام السلطان الفاتح، وأبدى فيها الاستعداد لكلّ الطاعة والوعد بالوفاء، أُعجب السلطان بالأمير اللبنانيّ "وبشخصيّته الوقورة وبإخلاصه الظاهر"، وخلع عليه لقب "سلطان البرّ"، وأقرّه، كما أقرّ سائر الأمراء اللبنانيّين معه، على إقطاعهم، وسمح لهم بممارسة استقلالهم وامتيازاتهم التي كانوا يمارسونها في حكم المماليك، وفرض عليهم جزية طفيفة في مقابل الضرائب الباهظة التي كان يجبيها المماليك، وأمرهم بأن يعدلوا بين الرعية[2]. ولكنّ هذا الوضع الاستثنائي، أي حسن معاملة الحكّام العثمانيّين تلك، لن يدوم طويلاً. فلم تكن تلك المبادرة سوى مظهر دبلوماسيّ قضى به ظرف معيّن. وحدّد أكثر الباحثين هذا الحدث بدءًا لتاريخ لبنان الحديث. إذ هكذا بدأ الكيان السياسيّ الوطنيّ اللبنانيّ يبصر النور على يد الأسرة المعنيّة.

لمّا استتبّ الأمن في ظلّ حكم السلطان الجديد، أُعيد تنظيم البلدان والأقطار العربيّة وفقًا للنظم العثمانيّة، واستُعيض عن الممالك بالولايات والأيالات. فجُعلت مصر ولاية واحدة وبلاد الشام ثلاث ولايات، هي: دمشق وحلب وطرابلس لبنان. وأصبح الموارنة، في جبّة بشرّي وبلاد جبيل والبترون وجبّة المنيطرة، تابعين لولاة طرابلس والعثمانيّين، كما كانوا تابعين لنوّابها المماليك من ذي قبل[3].

---

١ ـ فخر الدين المعني الأوّل: أمير لبناني من بني معن ١٥١٦ ـ ١٥٤٤، اشتهر بفصاحته، اغتيل بأمر من والي دمشق العثماني ١٥٤٤، خلفه ابنه قرقماز ثم فخر الدين الثاني بن قرقماز.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٤٣٧ ـ ٤٣٨؛ هذا الخبر تناقله المؤرّخون عن: أحمد حيدر الشهابي، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، نشر نعّوم مغبغب (القاهرة،١٩٠٠) ٢: ٥٦١ ـ ٥٦٢؛ عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني (جونيه،١٩٣٤) ص٩؛ أمّا الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٨٤: ٨٣ ـ ٨٥، فذكر أنّ الأمير المعني الذي كان في الوفد إنّما هو الأمير قرقماز إبن الأمير يونس بن معن.

٣ ـ منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٣٣.

ففي تلك الحقبة، ثبّت السلطان سليم إقطاع الأمراء العسّافيّين[1] على كسروان وجبيل، فبدأ الأمير عسّاف بالعمل على فرض سيادة إمارته على منطقته، ويبدو أنّ مقدّم العاقورة المارونيّ يومها: مالك بن أبي الغيث اليمنيّ[2]، قد مال إلى الأمير عسّاف وامتثل لحكمه، خاصّة وأنّ هذا المقدّم، على ما قيل، كان من الذين اشتركوا في الوفد اللبنانيّ الذي زار السلطان سليم مهنّئًا بالنصر سنة ١٥١٦؛ وأبعد إلى الشمال والشمال الشرقيّ، كانت منطقتا جبّة بشرّي وإهدن تشهدان حالاً من الهدوء في ظلّ المقدّمين الموارنة، وذكر باحثون أنّ مقدّم بشرّي كان يُعتبر المقدّم الرئيس لسائر المقدّمين الذين كانوا يحكمون المناطق الممتدّة من نهر بيروت جنوبًا إلى حدود عكّار شمالاً إلى بلاد بعلبك شرقًا[3].

في هذه الأثناء، كانت أسرة هاشميّة الأصل: آل حُبيش، قد سكن جدودها في أوّل عهدهم بلبنان في "دير الأحمر"[4]، ومن هناك انتقلوا إلى محلّة تقع بين يانوح والعاقورة سُمّيت "تدمر"، وهي المعروفة اليوم بالخربة. ومن تدمر انتقلوا مرّة ثانية إلى يانوح المجاورة لها، حيث انضمّوا إلى الكنيسة المارونيّة، وأضحوا من أبرز حماة

---

١ ـ يتحدّر الأمراء العسّافيّون من نسب تركمانيّ، جاء جدودهم مع حملات المماليك قبل القرن الرابع عشر واستقرّوا في مناطق الكورة وعكّار، لمّا أمّر المماليك بعضهم على كسروان الكبير، انقلب أميرهم الأكبر عسّاف على المماليك في معركة مرج دابق وقاتل مع السلطان سليم فكافأه بأن ثبّته على إمارته؛ بخصوص هؤلاء الأمراء راجع: مفرّج طوني، لبنان الأصيل ليس طائفيًا، منشورات بيوغرافيا (جبيل،١٩٩٩)؛ مفرّج طوني، صانعو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانيّة، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد السابع؛ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ٢: ١٤٥ وما يليها.

٢ ـ يتحدّر مالك أبو الغيث أو بن أبي الغيث من أسرة مشايخ مسيحيّة عريقة في العاقورة، أصلها من اليمن، سكنت حوران، ثمّ غوطة الشام، وبسبب الإضطهاد الديني رحلت إلى العاقورة، وكان منها مقدّمون عام ١٥٢٣، ولسلالتها فرعان كبيران: فرع المقدّم مالك، وفرع أخيه المقدّم حنش، وإليهما تنتسب أسر عديدة اليوم.

٣ ـ راجع: الخوري فرنسيس رحمة، تاريخ بشري، مطبعة صفدي للتجارة (١٩٥٦) ١: ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

٤ ـ دير الأحمر: بلدة كبيرة بجوار بعلبك سكّانها موارنة إلى اليوم، ترتبط اجتماعيًا ببلدة بشرّي.

البطريرك، وأصبح للحبيشيّين حقّ المشورة في تثبيت البطريرك المارونيّ. وعندما ثبّت السلطان سليم الأمير عسّاف التركمانيّ المسلم السنّي أميرًا على كسروان الكبرى التي كانت شبه خالية من السكّان منذ اجتياح المماليك لها حوالى سنة ١٣٠٥، انتقل الحبيشيّون من يانوح إلى غزير، حيث دخلوا في خدمة الأمير عسّاف التركماني. وجاء في بحث للأب شيخو اليسوعيّ أنّ "أهل غزير كانوا في تلك الحقبة كلّهم مسلمين، فلمّا دخل بينهم الشيخ حبيش المارونيّ ولقي عندهم حظوة، اقتدى بمثله غيره من الموارنة فأتوا غزير عام ١٥٤٦"[1] . وإذ أدّى أفراد الأسرة الحبيشيّة خدمات جلّى لحفيد عسّاف: الأمير منصور العسّافي[2] الذي اتّخذهم مدبّرين له، فكانوا من أكبر أعوانه وفي مقدّمة أنصاره، وأحبطوا مكيدة لقتله، فوّض هذا الأخير إليهم عهدة غزير والكفور وفتقا من نواحي كسروان ومنحهم رتبة المشايخ. فعمل هؤلاء على استقدام أسر مارونيّة كثيرة من مناطق جبيل، حيث كان الموارنة قد انحصروا طوال حقبة الحكم المملوكيّ، وأسكنوهم في نواحي غزير وفتوح كسروان. ولمّا قضى "يوسف باشا سيفا"[3] على العسّافيّين، مال الحبيشيّون إلى المعنيّين، وناصروا فخر الدين الثاني[4]،

---

١ ـ وثائق غزيريّة، وصفحات ومخطوطات عن غزير، جمعها حبيب مرعي (غزير،١٩٧١).

٢ ـ الأمير منصور العسّافي (١٥٢٢ ـ ١٥٨٠): أبرز الأمراء العسّافيين اللبنانيّين، امتدّت سلطته حتّى بيروت حيث بنى الجامع المعروف باسمه، كان مركز حكمه في غزير.

٣ ـ يوسف باشا سيفا (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥): من أمراء التركمان في بلاد عكّار وطرابلس، عاصر فخر الدين المعني الثاني وحالفه ثمّ ناصبه العداء ونازعه الولاية مترئسًا الحزب اليمني فيما كان فخر الدين على رأس الحزب القيسي؛ راجع: مفرّج طوني، صانعو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانيّة، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد الثامن، ص٩ ـ ٣٩.

٤ ـ فخر الدين المعني الثاني (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥): أمير لبناني، ولد في بعقلين، والده الأمير قرقماز بن فخر الدين الأوّل، والدته الأميرة نسب التنوخيّة، خلف أباه في حكم الإمارة اللبنانيّة، أنشأ جيشًا حديثًا لها ١٥٩١، نظّم الضرائب وسعى إلى توحيد البلاد، تحالف مع توسكانا وتعاقد مع أمرائها ثمّ لجأ إليها زمنًا، مدّ نفوذه على صيدا وصفد ونابلس وعجلون، عمل على تنمية الزراعة فاستقدم مزارعين من إيطاليا لتعليم اللبنانيّين طرقهم فيها، نزع إلى الاستقلال، نفاه العثمانيّون إلى الأستانة حيث قتلوه؛ راجع: مفرّج طوني، صانعو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانيّة، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد الثامن، ص٧٧ ـ ١٢٨.

وبرز منهم يومذاك الشيخ "يونس بن سليمان[1]" الذي أضحى من رجال فخر الدين وخاصّته[2]. كما استقدم الأمير منصور العسّافيّ أبناء مقدّمي بلدة جاج الموارنة الذين نشأت منهم عائلات مارونيّة قياديّة، كالمشايخ آل الجميّل في بكفيّا، والمشايخ آل الخازن في كسروان، والمشايخ آل غبريل في بيت شباب، فشجّع هؤلاء الأسر المارونيّة على الانتقال إلى نواحي المتن وكسروان لإحياء تلك المناطق وإعادة بنائها.

مِنَ المُقدّميّة

إلَى المدَبِّريَّة

ذكرنا سابقًا، في نهاية عهد المماليك، أنّ أوّل مقدّم تولّى الحكم في بشرّي بعد الفتح العثمانيّ سنة ١٥١٦، كان المقدّم كمال الدين بن عبد الوهّاب بن عجرمة من أيطو. ويذكر مؤرّخو بشرّي أنّ كمال الدين هذا قد قُتل على يد يوحنّا بن يوسف مقدّم بشرّي السابق سنة ١٥٤٧... ثمّ تولّى المقدّم "عاشينا" وقتله المسلمون في طرابلس ١٥٧٥، وفيها سار المسلمون إلى افتتاح قبرص وتولّى المقدميّة ابن أخي عاشينا: عسّاف بن موسى وأخوه داغر إلى ١٥٧٧؛ وتولّى خاطر الحصروني "الإيبوذياكن"[3] إلى ١٥٩٤؛ ثمّ ابنه رعد إلى ١٦١٢؛ ثمّ مقلّد إلى ١٦١٤؛ ثمّ ظهر أبو نادر الخازن في كسروان ووُلد له أولاد نالوا الحظوة عند الأمراء وانتشرت أخبارهم شرقًا وغربًا[4].

---

١ ـ الشيخ أبو ضاهر يونس بن سليمان حبيش: أمين خزانة الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير، كبير قومه، عيّن فخر الدين ضاهر بن يونس حبيش وكيلا للشيخ أبي نادر خازن الخازن حاكم بيروت؛ حول الأمير منصور العسّافي وآل حبيش راجع: مفرّج طوني، صانعو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانيّة، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد السابع، ص٩١ ـ ١٩٧.

٢ ـ المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين، مرجع سابق، ص٦٩.

٣ ـ الإيبوذياكن: رتبة كنسيّة شرقيّة، والكلمة يونانيّة، يقابلها في العربيّة "الشدياق" وهي من أصل سرياني.

٤ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.

إنّ ما قصد به الدويهي من عبارة "ظهور أبو نادر الخازن وسلالته ونيلهم الحظوة عند الأمراء"، يعني بعبارة أخرى: بداية عهد المدبّرين الموارنة مع نشوء الإمارة اللبنانيّة الموحّدة، وقد أصبح بذلك المدبّر ممثّلاً للمجموعة المارونيّة في الإمارة، وبالتالي لسائر المسيحيّين فيها، وبذلك انتهى عهد المقدّمين.

في وسعنا اعتبار معادلة المقدّميّة في عهد الإمارة اللبنانيّة بداية ما أصبحنا نسمّيه اليوم "الصيغة اللبنانيّة"، التي رُدّت بدايتها، من دون تعمّق، إلى سنة ١٩٤٣. علمًا بأنّ مرتبة المدبّر الأوّل للأمير في عرف الإمارة، كانت بمثابة المرتبة الثانية بعد الأمير في بنائيّة الحكم. وما يجب إدراكه في هذا المجال أنّ هذه الصيغة التي بدأ الأمير منصور العسّافي العمل بموجبها، وطبّقها الأمير فخر الدين الثاني، قد استمرّت طوال حكم الإمارة.

فقد اختار الأمير منصور العسّافي، في كسروان، مدبّريه الموارنة من آل حبيش، كما مرّ. وتميّزت زعامة آل حبيش، بنوع خاص، بالانفتاح على المسلمين من جهة، والسعي لحماية مصالح الموارنة من جهة ثانية. وهي لم تكن زعامة دينيّة روحيّة كزعامة البطاركة، كما أنّها لم تكن زعامة محليّة ضيّقة ذات أطماع ومآرب خاصة كزعامة المقدّمين. فوقفوا موقفًا محايدًا من الكنيسة، ولم يكن هناك أيّ تنافس بينهم وبين البطاركة كما كان بين هؤلاء والمقدّمين، بل أظهروا، بالعكس، غيرة قويّة على مصالح الكنيسة المارونيّة، فكانوا يحمونها من جور حكّام طرابلس، بما لهم من نفوذ لدى الأمراء، ويدعمون بطاركتها وأساقفتها ضدّ مقدّمي بشري وغيرهم الذين استمرّوا يناوئونهم من وقت إلى وقت[1]. واعتبر باحثون آخرون معاصرون متخصّصون أنّ

---

١ - راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص١٢٥؛ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣١٤.

"مدبّريّة آل حبيش قد أرست التوازن السياسيّ في انطلاقة لبنان الحديث (١٥٢٣ ـ ١٥٩٣)"[١]. وفي الإطار نفسه، لم يجد فخر الدين أفضل من الرجلَين اللذَين ائتُمنا على حياته وهو حدِث، ليجعلهما أقرب الموارنة إليه، فمنح سنة ١٥٩٨ لقب المشيخة لأبي صقر ابراهيم الخازن وشقيقه أبي صافي رباح، واتّخذ الأول مدبّرًا وجعل الثاني رئيسًا لجيش المشاة[٢]. وكان من الطبيعيّ أن يقوم الخازنيّان بالسعي إلى ضمّ ما أمكن من الرجال إلى جيش الإمارة. وذكر مؤرّخون أنّه بعد أن تقلّبت الأحوال على الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني، واضطرّ إلى التخلّي عن الإمارة طيلة خمس سنوات، وبعد أن عاد إلى بلاده سنة ١٦١٨، تعاظم شأنه مرّة أخرى، وحارب "يوسف سيفا"* واستولى على بلاد جبيل والبترون وجبّة بشرّي. وباستيلائه على هذه البلاد، انتهى فيها أمر سطوة المقدّمين، وجعل فخر الدين عوضًا عنهم مشايخ آل الخازن وكلاء عليها، كما جعلهم وكلاء على بلاد جبيل. وكان آل الخازن قد تسلّموا، سنة ١٦١٥، حكم كسروان عن يد شقيقه الأمير يونس، عندما كان فخر الدين مقيمًا في إيطاليا. وبعد أن أضيفت إليهم بلاد جبيل وجبّة بشرّي، أصبحوا الأسرة الأولى بين الموارنة دون منازع، وسار آل الخازن على خطى مَن سبقهم من مشايخ آل حبيش. فاتّبعوا تجاه ملّتهم السياسة نفسها التي اتّبعها أولئك قبلهم، فسهروا على تعزيز شأن الموارنة وخدمة مصالح بني قومهم الماديّة والمعنويّة بشتّى الوسائل، وبكلّ ما كان لهم من نفوذ لدى الأمراء المعنيّين[٣].

---

١ ـ ضوّ د. طوني، لبنان والكيان ومؤسّسة المدبريّة (لبنان،١٩٩٤) ٢: ٧٩.

٢ ـ المعلوف، تاريخ فخر الدين، ص٦٦.

٣ ـ راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص٢٨؛ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

وكان المعنيّون، منذ عهد الأمير قرقماز والد فخر الدين الثاني، قد جعلوا مدبّرهم الأوّل مارونيًا، وهو الحاج كيوان نعمة ضوّ من دير القمر[1]، وأصل عائلته من لحفد في بلاد جبيل. وذلك قبل أن يجعل الأمير فخر الدين الثاني مدبّريه من المشايخ آل الخازن، مع المحافظة على معاونه الحاج كيوان حتّى وفاة الأخير. وبذلك امتدّ الموارنة إلى بلاد الشوف وجزّين بشكل كثيف[2]. وسوف يزداد هذا الامتداد ويتوسّع إلى بلاد عكّار في عهد فخر الدين الثاني، وإلى وادي التيم من أعمال البقاع الغربيّ وجنوب لبنان في عهود الأمراء الشهابيّين[3]. ويقول المؤرّخ يوسف مزهر، في معرض حديثه عن الأمير فخر الدين الثاني: "كان سكّان بشرّي من أشهر مربّي دود القز، فشجّعهم الأمير على النزوح إلى بقيّة المقاطعات لإصلاح أراضيها واستثمارها، فنشروا هذه الصناعة في لبنان وحتّى في الخارج، وكان الحرير اللبنانيّ يستهوي أصحاب مصانع النسيج في أوروبا[4]..." وبعد نكبة سنة ١٥٨٥ التي قتل فيها إبراهيم باشا ستّين ألفًا من الدروز، لم يعد باستطاعة الأمير فخر الدين أن يجنّد منهم أكثر من اثني عشر ألفًا، فاستعان عندئذٍ بالموارنة الذين انضوى من شبّانهم إلى ألوية جيشه عشرون ألفًا، وكان أكثر قادة هذا الجيش منهم[5]. ونُقل عن البطريرك الدويهي قوله

---

١ ـ إعتبر ضوّ د. طوني، لبنان والكيان ومؤسّسة المدبريّة، ٢: ١٠٣، الحاج كيوان رجل المدبّريّة الأوّل ورائد التحوّلات في كيان الإمارة المعنيّة حوالى ١٥٥٠ ـ ١٦٢٣.

٢ ـ بدأ نزوح الموارنة من الشمال إلى الشوف قبل أن يتولّى الأمير فخر الدين الإمارة سنة ١٥٨٤، كما ألمح إلى ذلك الأب "جيوفاني بطيستا إليانو" في تقريره الذي رفعه إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٨، وجاء فيه عن الموارنة: "إنهم بدأوا يسكنون بين الدروز". راجع الخوري بولس قرألي: فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان إدارته وسياسته (حريصا ـ لبنان،١٩٣٧) ص ٣٦؛ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣١٤؛ ANAÏSSI TOBIA, *COLLECTIO DOCUMETARUM*, (LIVOURNE, 1921, PP. 56- 61.

٣ ـ حول هذا الموضوع راجع: مفرّج طوني، لبنان الأصيل، مرجع سابق.

٤ ـ مزهر يوسف، تاريخ لبنان العام، ١: ٣٦٢.

٥ ـ راجع قرألي، مرجع سابق، ص ٣٨؛ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣١٥.

في كتاب "الإجتماع": "ففي سنة ١٦٢٢ كان جبل لبنان في أمان واطمئنان بسبب الأمير فخر الدين الثاني (الذي) ولّى مشايخ آل الخازن، أبا نادر وأبا صافي، على بلاد جبيل والبترون وجبّة بشرّي. ولأجل ذلك إعتمد الناس على خدمة اللّه وحياة النسك وعلى بنيان الكنائس والمدارس. وقدم أناس من بلاد الإفرنج، كثيرون من الأخوة الكبّوشيّين وأناس حبساء وأخذوا السكن في جبّة بشرّي...".

وسوف تستمرّ المدبّريّة المارونيّة في المعادلة إلى جانب الأمراء المعنيّين وخلفائهم الشهابيّين من دون انقطاع، حتّى تنصُّر الشهابيّين وصيرورة الأمير نفسه مارونيًّا، كما هي الحال في عهدَي الأميرَين يوسف، ربّما، وبشير الثاني مؤكّدًا. إذ سوف يتوالى على المدبّريّة، إضافة إلى آل حبيش في عهد العسّافيّين، مع وبعد الحاج كيوان (نحو ١٥٥٠ ـ ١٦٢٣) في العهد المعنيّ، آل الخازن في نهاية العهد المعنيّ وبداية العهد الشهابيّ (١٥٩٨ ـ ١٦٩٧)، آل الخوري صالح (١٧٥٤ ـ ١٧٩١)، وآل باز (١٧٩٢ ـ ١٨٠٧) في العهد الشهابيّ. وقد تولّى، في خلال تلك الحقبات، شخصيّات من عائلات سياسيّة مارونيّة مسؤوليّات رسميّة كبرى، منهم: الحاج كيوان المارونيّ الذي تعاطى، إضافة إلى أعمال المدبّريّة، المفاوضات الدبلوماسيّة والدوليّة وتأسيس جيش إمارة فخر الدين وتنظيمه على أسس حديثة؛ واهتمّ الخازنيّون بتمتين العلاقات المتبادلة بين الأمير والبطريرك المارونيّ، وتبوّأوا المراكز القنصليّة والمعاهدات الدوليّة وقاد بعضهم جيش الإمارة في أكثر الأحيان، وشكّلت المدبّرية في عهدهم واجهة التحالف المسيحيّ ـ المعنيّ؛ وتسلّم بارزون من آل الشدياق وآل الدحداح وآل الضاهر وآل إدّه وآل أبي صعب وآل باخوس وسواهم من الموارنة أرفع المناصب في تدبير شؤون الإمارة على مدى تاريخها[1].

---

١ ـ للتوسّع في الاطلاع حول هذا الموضوع راجع: ضوّ د. طوني، لبنان والكيان ومؤسّسة المدبريّة، جزءان، مرجع سابق.

بطَــارِكَةُ المَوَارِنَــــة
فِي بِدَايةِ الحقَبَة العُثمانيّة

ذكرنا سابقًا أنّ سمعان أو شمعون الحدثيّ (١٤٩٢ ـ ١٥٢٤)، كان آخر البطاركة الموارنة في عهد المماليك، وأولهم في عهد العثمانيّين. وقد ذكر مؤرّخو البطريركيّة المارونيّة أنّ السلطان سليم "لم يفرض على البطريرك المارونيّ الفرمان السلطانيّ مع أنّه فرضه على كلّ بطاركة المشرق". وقد كان وراء ذلك عدّة أسباب سياسيّة، منها أنّ السلطان سليم أراد أن ينال تأييد تلك الأقلّيات التي طالما عانت من ظلم المماليك، وأنّ أكثر الأمراء اللبنانيّين قد ساندوا السلطان سليم في معركته الفاصلة بمرج دابق ضدّ المماليك، وكان من بين جنود أولئك الأمراء مقاتلين موارنة.

هذا البطريرك "قاسى الأهوال، في بداية عهده، جرّاء خروج مقدّم بشرّي عبد المنعم المتوفّي سنة ١٤٩٥، عن الإيمان المستقيم، وانحرافه إلى المونوفيزيّة[١]. وهناك مشكلة أخرى عاشها البطريرك سمعان تتعلّق بموضوع طلب التثبيت من روما. ذلك أنّه، في الرسالة التي بعثها سنة ١٥١٤ مع القسّ بطرس المارونيّ إلى البابا لاون العاشر، كتب يقول:

> إنّ الموارنة بأجمعهم هم حافظون ومتمسّكون بتأكيد على الأمانة الأرثذوكسيّة، وإنّهم، كالأبناء الصالحين والمتعبّدين، يكرّمون كنيسة رومية المقدّسة غاية التكريم، ولم يختلفوا عنها بشيء ما البتّة بما يجب ويختصّ بخلاص النفوس، ما خلا بعض عوائد تعمّ كهنة الشرق وقد أثبتها لهم "فرا غريفون" قاصد الكرسي الرسولي[٢].

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٣.

٢ ـ الدويهي، الشرح المختصر، ٢: ٢٢٦؛ راجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٩٧.

ولكن يبدو، بحسب سلسلة البطاركة المجدّدة للبطريرك الدويهي، أنّ الموفد البطريركيّ لم يتمكّن من الوصول إلى روما بسبب الحروب، رغم محاولته السفر مرّتَين. غير أنّ مراجع أخرى[1] ذكرت أنّه في سنة ١٥١٤ و١٥١٥ أرسل البابا لاون العاشر إلى بطريرك الموارنة ١٢ رسالة يذكر فيها أنّ مكاتيب البطريرك الكرشونيّة انتهت إليه مع البراءات الأصليّة للبابوات إينوشنسيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) واسكندر الرابع (١٢٥٤ ـ ١٢٦١) وأوجين الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧) ونقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) وكاليكستُس الثالث (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨) وبولس الثاني (١٤٦٤ ـ ١٤٧١) ويثبّته بطريركًا أنطاكيًا، ويمنحه الدرع المقدّسة علامة ملء الخدمة الحبريّة[2]. ويقول الدويهي:

> في سنة ١٥١٥، وصل القاصد الرسولي (فرا غريفون) إلى رومية، وبعد تقبيل أقدام الحبر الأعظم (لاون العاشر) قدّم له السجلاّت المذكورة مع مكاتيب البطرك شمعون والبادري فرنسيس سوريانو[2]، فلمّا وقف عليها البابا وتحقّق حسن أمانة البطريرك وسائر الملّة المارونيّة وعوائدهم وسلوكهم المستقيم واحتمالهم المظالم بصبر جزيل، أشهر في الرسالة التي كتبها البطريرك أنّه أقبل عليه فرح عظيم وامتلأ قلبه سرورًا لم يوصف. حتّى إنّه رفع التسابيح للّه سبحانه وتعالى الذي آثر بحلمه العظيم بأنّ بين الكنائس الشرقيّة يكونوا وسط الكفر والبدع، عبيده المؤمنين منصانين كالورد في وسط الشوك لتسبحة اسمه القدّوس، ولاسترجاع غير المؤمنين، وأنهم يكونوا بغير عيب متمسّكين في أمانة الكنيسة الجامعة المقدّسة الرومانيّة وعوايدها من غير أنهم يبتعدوا عن أمانة المسيح بسبب المظالم والخسائر

---

١ ـ العنيسي، سلسلة البطاركة، ص٣٣.

٢ ـ راجع هذه البراءات المارونيّة باللاتينيّة في بولاريوم العنيسي، من عدد ١٣ إلى عدد١٢٣؛ راجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٩٩.

٣ ـ راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ٢: ١٣٩ وما يليها.

والاضطهادات التي يحتملونها من ذوي البدع والانشقاق، ومن غير المؤمنين الذين يمقتون اسم المخلص... ومن خصوص الأمور التي بعث (البطريرك) طلبها منه (البابا) أرسل له مكتوبًا تحرّر في أوّل شهر أيلول (سبتمبر) يعلمه به أنّه أرسل إلى "ليوناردُس لاوردان" أمير البندقيّة مكتوبًا بأن يكون ذا حلم وشفقة على الموارنة القاطنين في قبرص، ومكتوبًا آخر إلى المتقدّم "الياس الماروني[1]" بأن يكون غيورًا على أمور البيعة ومنتبهًا على سياسة طائفته، ومكتوبًا آخر إلى مطران "الأفقسيّة" في الجزيرة (قبرص) ينبّهه فيه بأمر الطاعة عن أرزاق "دير ماري يوحنّا" وعن وقوفات الطائفة المارونيّة، ثمّ مكتوبين آخرين: أحدهما للبطرك والآخر عمومًا بأن كنيسة "ماري يوحنّا" التي في أرض الأفقسيّة وسائر الوقوفات التي للموارنة في قبرص يكونوا بتصريف البطرك الماروني، وأنّ المخالف يسقط تحت الحرومات القاطعة، وإن كان أسقفًا أو مطرانًا يكون مربوطًا. ثمّ أرسل أيضًا مكتوبًا إلى البادري "فرنسيس" والبادري "سوريانو" بأن يستمرّوا على زيارة البطرك الماروني وطائفته ليرشدوهم بما يخصّ أمور الإيمان، إذا دعت الضرورة...وعندما وصلت هذه المكاتيب مع البدلات ودرع الرئاسة إلى البطريرك شمعون، حصل له فرح جزيل، وشكر الباري تعالى الذي لم يخيّب عبيده من تسلية رحمته[2]...

أمّا بشأن مقدّم بشرّي، فيروي مؤرّخو بشرّي أنّه قَبْل عبد المنعم، كان مقدّمًا على بشرّي: رزق اللّه الكبير، وهو من أشهر مقدّميها. وكان والده قد أوكل أمر تهذيبه، وإخوانه، إلى "الأب يوحنّا" رئيس دير مار تقلا في "قلعة الحصن" التي كانت تعرف باسم قلعة "بيتوكيكي"، فانطبع باخلاق مهذّبة ونشأ على حبّ الوطن وإقامة العدل بين الرعيّة، كما ذكر الأب لامنس. وقد لُقّب بـ"أمير الأرز"، وذاعت شهرته إلى روما بعد أن بنى قصرًا من الطراز العربيّ والنسق الغوطيّ، فغدا ملتقى بعض رجال الأدب

---

١ ـ هو المقدم اليلس إبن المقدم يوسف إبن المقدم عبد المنعم أيّوب البشرّاني الذي سيرد خبره لاحقًا.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، أخبار سنة ١٥١٥، مرجع سابق، ص٢٣٠.

والفكر... إلاّ أنّ المونوفيزيّة قد تسرّبت في أيّامه إلى لبنان والجبل، فأوفد إليه بابا روما، القاصد الرسولي "فراغريفون*" وتشاوروا بحضور الأب يوحنّا وبعض مقدّمي المناطق بشأن اتّخاذ التدابير الفعّالة لصدّ دخول "بدعة الطبيعة الواحدة" إلى الجبل، خاصة بعد أن تأثّر المقدّم "عبد المنعم أيّوب"، الذي نصّبه عمّه "أمير الأرز" على جبيل، بهذه البدعة. وكان هذا الأمير قد أقسم، في خطاب شهير ألقاه أمام القاصد الرسوليّ ومقدّمي المناطق بأنّه "سيعاقب بالموت كلّ من يعبث بالسلام... وبأنّه لا ينثني ولا يرعوي عن أن يوطّد السلام ويصون الكنائس ويحمي الأديار ويعضد اليتيم وينصف الأرملة ويفرّج عن الملهوف ويعين مَن يستعين به ويطلب مؤازرته..." وطلب إلى ابن أخيه المقدّم عبد المنعم الإبتعاد عن "أهل البدعة" فوعده بذلك، ولكن ما أن توفّي "أمير الأرز" حتّى عاد المقدّم عبد المنعم إلى مناصرة المونوفيزيّين، وأفسح في المجال لهم حتّى استقدموا من القدس أسقفهم "ديوس قورُس" الذي استولى على عدّة أديار في لبنان. وقدّم عبد المنعم للسريان الأرض قرب "بقوفا" بين بشرّي وإهدن ليسكنوا فيها، وناوأ بطريرك الموارنة الذي أتاه بحرمٍ لم يأبه المقدّم به، وقد كان شديد الصولة فلم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه، فراح يضايق رجال الدين الموارنة ويدعم السريان المونوفيزيّين المعروفين باليعاقبة. "عندئذ أوقد البطريرك نار الحمية في نفوس أبنائه، فنهض الإهدنيّون وحملوا على الهراطقة حملة شتّتت شملهم. فغضب عبد المنعم واستنجد بأولاد الشيخ زعزوع المتاولة (الشيعة) أصحاب (قرية) بشنّاتا، فحشدوا جيشًا من رجال مقاطعة الضنيّة وقصدوا إهدن، حتّى إذا وصلوا إلى محلّة "تولا" انقضّ عليهم الإهدنيّون وضربوهم الضربة القاضية، ولمّا رأى اليعاقبة أن لا قبل لهم بالإقامة بين الموارنة رحلوا عن لبنان مكرهين[1].

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٣.

ومع أنّ عبد المنعم كان قد أوصى ولده يوسف بأن يحمي "اليعاقبة" بعد موته، فإنّ الإبن، على ما يبدو، لم يعمل بمشيئة والده. ويفيد المطران يوسف الدبس نقلاً عن الدويّهي عن "أنّ المقدّم يوسف أصلح ما أفسده أبوه، وظلّ مجاهدًا في سبيل العمران... وجاء بعده إبنه المقدّم الياس الذي سار على خطى "أمير الأرز" رزق اللّه، وامتدّت سلطته حتّى البقاع والضنّية، وذاعت شهرته بأن أرسل له البابا لاون العاشر براءة بابويّة تعيّنه معتمدًا بابويًّا، يحثّه فيها على أن تكون له العناية بأمر الدين الكاثوليكيّ واليقظة لسياسة ملّته[1]...

وقد رأى مؤرّخون مستقلّون أنّه مع نهاية القرن الخامس عشر، ونهاية وجود الطائفة السريانيّة (اليعقوبيّة) في لبنان، ونهاية عبد المنعم مقدّم بشري، كان وضع المقدّمين الموارنة في الشمال قد تدهور بسبب طغيانهم وخروجهم على الدين أحيانًا، وبرز الدور الفعّال للبطاركة ورجال الدين الموارنة في خدمة المجتمع المارونيّ، نظرًا للصلة الوثيقة بين هؤلاء وعامة الشعب[2]. وقد كان البطريرك شمعون الرابع الحدثيّ واضع هذا التحوّل من خلال قضائه على المقدّم الخارج على الدين: عبد المنعم.

وكان البطريرك شمعون، بعد وفاة عبد المنعم، قد اهتمّ بإصلاح ما أحدثته سياسة الأخير من فساد. وعاش بعدها تسعًا وعشرين سنة، وتوفّي في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٥٢٤، وله من العمر مئة وعشرون سنة، وقد دام بطريركًا مدّة اثنتَين وثلاثين سنة[3].

---

١ ـ الدويّهي، تاريخ الأزمنة، أخبار سنة ١٥١٥؛ خلفه إبنه يوحنّا الملقّب بعبد المنعم الثالث، وسار على خطى والده، ورمّم دير مار اليشاع في الوادي المقدّس ونال براءة البابا بولس الثالث، كما نال سنة ١٥٣١ براءة البابا كليمنضُس السابع. وبالمقدّم يوحنّا توقّفت سلسلة المقدّمين من أبناء أبي المقدّمين المقدّم يعقوب، لصغر سن إبن المقدّم حنّا، فجاء دور المقدّمين "العفاحلة" (نسبة إلى عين حليا في سورية التي قدم جدودهم منها، ومنهم أسرة الحلو الشهيرة في لبنان) وغيرهم من مقدّمي بشرّي.

٢ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٢٧٩.

٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٣.

خلف البطريرك شمعون الحدثي **البطريرك موسى سعادة العكّاريّ** الذي انتُخب في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٢٤. ويتحدّر هذا البطريرك أصلاً من آل سعادة من قرية بجّة في بلاد جبيل، وهو منسوب إلى "الباردة" في عكّار. وكانت المسألة الشرقيّة، في عهده، قد استعادت أهميّتها وأعارها الكرسي الرسوليّ التفاتًا خاصًّا. ذلك أنّه في هذه، المرحلة كانت العلاقات قد بدأت تسوء بين الحكم العثمانيّ والأقليّات اللبنانيّة وأكثريّتها الممثّلة بالموارنة، ممّا قرّب بين الدروز والموارنة إلى درجة جعل الأوّلين يشاركون في وفد قصد روما طالبًا مساعدتها للتخلّص من الحكم العثمانيّ، ضمّ أيضًا، إضافة إلى الموارنة، ملكيّين. فعيّن الحبر الأعظم مَن يمثّله تجاه هذا التحالف بين أبناء الملل في الإمارة اللبنانيّة. وبسبب موت موفد البطريرك في البحر متأثرًا بمشقّات السفر، وعدم تجرّؤ أحد بعده على السفر، لم تسمح الظروف بأن ينال هذا البطريرك درع التثبيت إلاّ في سنة ١٥٦٢ أي قبل وفاته سنة ١٥٦٧ بخمس سنوات، إذ أرسل إليه البابا الباليوم مع براءة قال فيها:

> الحمد لله الذي أبقى في الأمصار المشرقيّة آلافًا من أناس لم تجثُ ركبهم للبعل، ولم يفسدهم القرب من الهراطقة[1].

وكان العكّاري قد راسل الأمبراطور الفرنسيّ "شارلكان"[2] سنة ١٥٢٧ يدعوه لاستخلاص لبنان من أيدي العثمانيّين، واعدًا بأن يضع بتصرّفه خمسين ألف مقاتل. وقد جاء في الرسالة:

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٥.

٢ ـ شارلكان أو كارل الخامس CHARLES QUINT : ولد ١٥٠٠، ملك إسبانيا ١٥١٦ ـ ١٥٥٦، أمبراطور الغرب ١٥١٩ ـ ١٥٥٦، احتلّ تلمسان ١٥٣٠، وتونس ١٥٣٥، ونصف الجزائر ١٥٤١، انزوى في دير "يوستْ" وفيه توفّي.

منذ أربع سنوات ونحن نترجّى جلالتكم لكي تهتمّوا بمساعدتنا على نيل استقلالنا وعندنا خمسون ألف من الرماة مدرّبون أحسن تدريب وعلى أتمّ استعداد لخدمتكم في الحرب الاستقلاليّة[1]...

ومتى ربطنا هذه الرسالة المؤرّخة في سنة ١٥٢٧، بموضوع زيارة وفد من الموارنة والملكيّين والدروز اللبنانيّين للفاتيكان ومقابلة البابا في الحقبة نفسها، وبموضوع قيام والي دمشق "مصطفى باشا" باغتيال الأمير فخر الدين الأوّل سنة ١٥٤٤، أدركنا أن البطريرك موسى سعادة العكّاري كان يتكلّم باسم الإمارة اللبنانيّة وليس باسم الموارنة فقط. وكان يحاول تحقيق ما سوف يحاول تحقيقه الأمير قرقماز إبن فخر الدين الأوّل، ومن ثمّ ابن قرقماز فخر الدين الثاني الكبير، من استقلال للإمارة اللبنانيّة عن الدولة العثمانيّة. وعندما يئس هذا البطريرك الوطنيّ الطموح من مساعدة الغرب، أرسل في سنة ١٥٥٠ الأب "أنطون الحصروني"[2] إبن الحاج فرحات إلى حلب لمقابلة السلطان سليمان[3] الذي كان فيها يومذاك. وكان الأب المذكور يجيد التكلّم باللغة التركيّة، فأُعجب السلطان بفصاحته وقوّة برهانه، وأنفذ أمرًا همايونيًّا إلى قاضي طرابلس كي لا يسمح لأحد بأن يتعرّض للبطريرك المارونيّ بشيء، وأن يصير السهر على أن تبقى حقوق الكنيسة المارونيّة مرعيّة بنوع خاصّ، وأن يعاقَب

---

١ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٥؛ راجع أيضًا تعريب هذه الرسالة لكميل الرام البستاني بعنوان "رسالتان إلى الأمبراطور شارلكان"، مجلة "الفصول" عدد ١٢ (١٩٨٤)، ص ٨٦ - ٩٢؛ راجع: صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣١٣.

٢ - نسبة إلى حصرون، بلدة في أعالي قضاء بشرّي من شمال لبنان، ويتحدّر هذا الكاهن من الأسرة الحصرونيّة المشروقيّة التي أنجبت للكنيسة المارونيّة بشقّيها الإكليريكي والزمني بطاركة وأساقفة وعلماء ومقدّمين.

٣ - السلطان سليمان القانوني: عاشر السلاطين العثمانيّين وأعزّهم ١٥٢٠ - ١٥٦٦، لقّبه الأتراك بالقانوني والإفرنج بالعظيم، قاد بذاته ثلاثة عشرة حملة في أوروبا وآسيا، دوّن القوانين والشرائع، بلغت الأمبراطوريّة العثمانيّة بعهده أوج مجدها فازدهرت الآداب والفنون، أوثق عرى الصداقة بين الباب العالي ودول أوروبا ومنح فرنسوا الأوّل ملك فرنسا الامتيازات الأجنبيّة.

بشدّة كلّ مَن يتجاسر على مخالفة هذا الأمر. وعليه، بقي البطريرك المارونيّ معفًى من طلب الفرمان السلطانيّ[1].

وكان هذا البطريرك، المميّز ببعد نظره الثاقب وسعة آفاقه، قد زار الأراضي المقدّسة سنة ١٥٦١ حيث تداول مع رئيس الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة حارس القبر المقدّس[2] بشأن إرسالها علماء من رهبانيّته لتدريس العلوم الفلسفيّة واللاهوت في مدارس لبنان. وفضّ خلافًا كان ناشئًا بين أبناء كنيسته والأقباط حول كنيسة مار جرجس في القدس. وقد نُسب إلى هذا البطريرك إجراء مصالحات بين العائلات المارونيّة المتخاصمة، واهتمامه بالأوقاف والمدارس والأديار. وفي عهده تفرّعت عائلات مارونيّة كثيرة من مناطق جبيل إلى مناطق كسروان والمتن والشوف، وتقارب الموارنة والدروز في لبنان إلى ما يشبه اللحمة الوطنيّة. فانتشر العمران في جبال لبنان. ويرى باحثون أنّه لا يمكن أن يكون من المصادفة تدفّق الأسر المارونية من شماليّ لبنان إلى جباله الغربيّة الجنوبيّة في عهد ذلك البطريرك الداهية. فإنّ القرائن تدلّ على أنّه كان للبطريرك موسى سعادة العكّاري اليد الطولى في التشجيع على ذلك الانتقال. وقد ورد في بعض المدوّنات أنّ العكّاري قد سعى لنقل الشدياق سركيس الخازن، جدّ الأسرة الخازنيّة، من جاج إلى عجلتون، وأولاد الجميّل من جاج إلى بكفيا، وبيت كميد إلى غزير[3]. ونُسب إليه أنّه كان وراء علاقة الصفاء والمودة التي قاربت بين الموارنة والدروز الذين عقدوا في عهده تحالفًا مكّنهم من الوقوف في وجه أهل الفساد وتجاه باشوات الباب العالي، حتّى جعلوا ولاية هؤلاء تقتصر على بعض المدن الساحليّة.

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٥ ـ ٤٦.

٢ ـ راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، نشر فهد، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

وتوفّي البطريرك موسى سعادة العكّاري في ١٩ آذار (مارس) ١٥٦٧ بعد إدارته لشؤون الكرسيّ البطريركيّ الأنطاكيّ المارونيّ، بنشاط يدعو للإعجاب الشديد، طيلة أربع وعشرين سنة[١].

حاول **البطريرك مخايل الرزّي**، الذي خلف العكّاري إثر وفاة هذا الأخير سنة ١٦٥٧، أن يسير على خطى سلفه. وكان أهمُّ نشاط له أنّه سعى إلى انشاء مدرسة الكنيسة المارونيّة في روما، وبدأ بإعداد مجمع مارونيّ لن ينعقد إلاّ بعد وفاته سنة ١٥٨١. وقد خلفه شقيقه **سركيس الرزّي** الذي نشأت في عهده المدرسة المارونيّة في روما سنة ١٥٨٥. وقد قامت هذه المدرسة بدور هام في تاريخ الكنيسة المارونيّة، وساهمت إلى حدّ بعيد في النهضة العلميّة والثقافيّة التي قام بها مشاهير علمائها وتوزّع طلاّبها في لبنان والشرق[٢]؛ يوم كان البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ - ١٥٥٨) على سدّة روما. وعلى أثر رجوع الأفواج الأولى من هذه المدرسة إلى وطنهم الأم، نشطت الاتّصالات بين الكنيسة المارونيّة والكنيسة الكاثوليكيّة، وأفضت البعثات التي قام بها المرسلون الأجانب، من فرنسيسكان ويسوعيّين وغيرهم، إلى عقد أوّل مجمع مارونيّ، في دير قنّوبين المقرّ البطريركيّ آنذاك، حضره ممثّل البابا الأب "هيرونيمس دنديني" اليسوعي[٣]، وثبّت هذا المجمع صلات الإتّحاد الوثيقة التي كانت

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٤٦ ـ ٤٧.

٢ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣١٥؛ حول هذا الموضوع راجع المحاضرات والندوات التي أُلقيت في جامعة الروح القدس ـ الكسليك بعنوان: الذكرى المئوية الرابعة لتأسيس المدرسة المارونية، ١٥٨٤ ـ ١٩٨٤، (الكسليك ـ لبنان،١٩٨٦)؛ أيضاً: مجلة المنارة (١٩٨٤) عدد خاص عن المدرسة المارونية؛ GEMAYEL NASSER, *LES ÉCHANGES CULTURELS ENTRE LES MARONITES ET L'EUROPE*, 2VOLS. (BEYROUTH,1984)

٣ ـ DANDINI GIROLAMI, *MISSIONE APOSTOLICA AL PATRIARCA E MARONITI DEL MONTE LIBANO*, (CESÈNE,1956)

قائمة منذ نشأة البطريركيّة بين روما والكنيسة المارونيّة[1]. وقد عُقد ذلك المجمع قبل وفاة البطريرك سركيس الرزّي بسنة واحدة، فخلفه ابن أخيه البطريرك **يوسف الرزي** الذي نقل الكنيسة المارونيّة إلى اتّباع التقويم الغريغوريّ المنسوب إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، فكانت ردّة فعل الروم على اتّباع الموارنة التقويم الغربيّ بالغة المعارضة والاستنكار، إذ سارع بطريركهم إلى مراسلة حافظ مدينة دمشق، "بقوله إنّ الأمّة المارونيّة بلبلت جميع الكنائس الشرقيّة بتغييرها حساب السنين وزمن الأعياد". فما كان من الباشا إلاّ أن أمر بإلقاء القبض على كهنة الموارنة وأعيانهم، وقد بذل البطريرك الرزّي أقصى الجهود لفكّ أسرهم[2].

في آخر سنيّ هذا البطريرك، شهد لبنان أزمة اقتصاديّة خانقة، بسبب رفع الضرائب من قبل السلطة على أبناء الجبل انتقامًا من انتفاضة قام بها "علي باشا جنبلاط"[3]، وهو من حلفاء الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني الكبير، فكان الانتقام يصل إلى جميع المناطق التي كانت تحت سلطة هذا الأخير. وقد سجّلت المدوّنات لهذا البطريرك أنّه: "احتمل من أتعاب الكفاح في سبيل إعادة السلم ما لا يمكن وصفه. فاعتلّت صحّته وانتقل إلى جوار ربه في شهر آب (أغسطس) ١٦٠٨. وبقي الكرسيّ البطريركيّ شاغرًا مدّة تسعة أشهر بسبب ذلك الاضطراب[4].

---

١ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣١٥.

٢ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٩ ـ ٥٠.

٣ ـ عليّ باشا جنبلاط (ت١٦١١): عُيّن في بدء شبابه حاكماً على البقاع العزيزيّ، ثمّ تولّى كلّس وعزاز وعينتاب والمعرّة وأخضعنة عنوة وسك النقود باسمه ١٦٠٧، تحالف مع الأمير فخر الدين المعني الثاني ضد ابن سيفا، ثمّ حصلت حوادث أدّت إلى قتله لدسائس عليه عند السلطان.

٤ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٥٠؛ الدويهي تاريخ الأزمنة، نشر توتل، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

خلف البطريرك يوسف الرزّي سنة ١٦٠٩ بطريرك إهدنيّ هذه المرّة، هو: **يوحنا مخلوف الإهدناني أو الإهدنيّ**. وكان هذا البطريرك بعد سيامته كاهنًا ترأس على دير قزحيّا وحسّن أملاكه، ثمّ رقّاه البطريرك يوسف الرزّي إلى الأسقفيّة واتّخذه مساعدًا له في شؤون قنّوبين. وإثر وفاة البطريرك يوسف الرزّي، "اجتمع الرؤساء وأكابر الشعب وأجلسوا على الكرسيّ الأنطاكيّ الأسقف يوحنّا مخلوف الهدنانيّ باختيار كلّ الرعيّة"[1]. وقد دوّن الدويهي في سيرة هذا البطريرك التالي:

> من كثرة المظالم التي كانت صائرة على الكرسي من القشلق ومن الشدياق خاطر مقدّم بشرّي[2]، اضطر (البطريرك) إلى أن يتوجّه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين. وعندما حضر على الأمير فخر الدين، قبله بكلّ كرامة. وصدف، قبل ذلك الزمان، أن وقعت الفتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل المعوش وكثرت القتلى بين الجانبين حتى أنهم اتّفقوا على بيع القرية والخروج منها. فاشتراها منهم الأمير علي ابن الأمير فخر الدين باثني عشر ألف ودفعها للنصارى. فنزل البطريرك في مجدل المعوش وعمّر كنيسةً ودارًا واستمرّ فيها حتى قصد زيارة القدس[3].

وكان هذا البطريرك الشفوق، كما وُصف، قد نال درع التثبيت من البابا بولس الخامس سنة ١٦١٠. وكان "مسموع الكلمة لدى الباب العالي، يأتمر بأمره الحكّام". وقد تمكّن من استصدار أوامر العفو من الباب العالي عن محكومين قبيل إعدامهم بساعات. واقتنى للكرسيّ البطريركيّ أملاكًا واسعة. وفتح للموارنة مدرسة إكليركيّة في "حوقا"[4]،

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، أحداث سنة ١٩٠٦.

٢ ـ المقدّم الشدياق خاطر الحصروني.

٣ ـ راجع الدويهي، تاريخ الأزمنة، نشر توتل، مرجع سابق، ص٤٦٢.

٤ ـ حوقا: قرية في قضاء زغرتا من لبنان الشمالي بقرب إهدن على متوسّط ارتفاع ١٫٣٥٠م عن سطح البحر، أنشأ البطريرك يوحنّا مخلوف مدرسة حوقا ١٦٢٤ في دير سيدة حوقا الذي بناه "إبن الصبحا الكفرصغابي" في وادي قاديشا ١٢٨٣ ـ مسعد، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص١٥٩.

أعدّت لمدرسة الموارنة في روما طلاّباً متفوّقين، وقد أشرف شخصيًا على إكليريكيّة حوقا هذه، وكانت علاقته مع الطلاّب مباشرة. وكان مخلوف أوّل من سام مطرانًا متخرّجًا من مدرسة روما. هذا المطران هو "أسحق الشدراوي" الذي رُسم أسقفًا على طرابلس، واشتهر ببراعته في العلوم الطبيعيّة والفلسفيّة واللاهوتيّة. وبرز أسقف آخر من تلامذة روما في هذه الحقبة هو "يوحنّا الحصروني"، الذي ترجم بعض مؤلّفات القدّيس "توما الأكويني" إلى اللّغة العربيّة، ونادى بـ"الحساب الغريغوريّ" في حلب. وعندما استدعاه والي دمشق لمحاكمته إثر "قيام القيامة" عليه من قبل رؤساء الكنائس الشرقيّة، دافع هذا الأسقف عن صحّة تقويم حساب السنين الحديث ببراهين أفحمت الحاضرين، وكان لها الأثر الفعّال في إدخال هذا التقويم إلى الشرق. بيدَ أنّ هذا الأسقف كان قصير العمر فتوفّي سنة ١٦٢٨، وتبعه البطريرك مخلوف بعد خمس سنوات، وكان قد أدار شؤون البطريركيّة مدّة ربع قرن[١].

يُستفاد من هذه المستجدّات أنّ الكنيسة المارونيّة كانت قد بدأت تحقّق، في الربع الأوّل من القرن السابع عشر، بعض التقدّم على دروب العلم والتحصيل. وكان لمدرسة روما المارونيّة أعمّ الفضل في ذلك. وكانت هذه الحقبة زمن ازدهار نسبيّ بالنسبة للكنيسة المارونيّة التي عمّرت معابد عديدة. "وتحرّر أبناؤها من شروط أهل الذمّة، فركبوا الخيل بسروج، ولفّوا شاشات بِكرور، وحملوا البنادق المجوهرة"[٢]. واستقبلوا الإرساليّات، وكان أوّلها الكبوشيّين[٣]. وكان الأمير فخر الدين يرجع في أهمّ الأمور إلى البطريرك المارونيّ. وكان أكثر جنده ومستشاريه وكواخيه[٤] من

---

١ ـ راجع: داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص٥١ ـ ٥٥.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، طبعة فهد، مرجع سابق، ص٤٩٧؛ وطبعة توتل، مرجع سابق، ص٣٢٩.

٣ ـ راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

٤ ـ كاخية: جمعها كواخي، كلمة تركيّة، بمعنى وزير أو مفوّض أو مستشار.

المسيحيّين، وخاصّة الموارنة. وفي هذه الحقبة حاول الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني الكبير توحيد الإمارة وتحصيل استقلالها، وتوسيع حدود البلاد. وعقد التحالفات مع أوروبا. حتّى إنّه طمع بالآستانة ذاتها. وبرز في هذا الدور المطران جرجس عميره الذي سيجلس بطريركًا بعد مخلوف، وهو الذي أرسله البطريرك مخلوف[1] سفيرًا إلى روما و"توسكانا"[2] للمفاوضة مع البابا ومع الغراندوق "فردينان" الأول أمير توسكانا، وسائر أمراء وملوك أوروبّا لخلق حلف ضدّ تركيا[3]. وكان العلاّمة ابراهيم الحاقلي[4] صاحب مكانة خطيرة في الفاتيكان، فساعد كثيرًا البطريرك والأمير على ما فيه خدمة الجبل اللبنانيّ. وعندما حضر الأمير فخر الدين إلى روما، كلّف المطران جرجس عميره بوضع كتاب في الاستراتيجيّة الحربيّة يومذاك، يتناول هندسة الأبراج والحصون والقلاع، " أتمّه على أحسن ما يرام، حتى خيّل للمطّلعين عليه كأنّه من صنع ذوي الإختصاص في بناء القلاع والحصون وفي معرفة فنون

---

١ ـ جاء في بعض التواريخ الموثوقة أنّ أرسال عميرة سفيرًا إلى إيطاليا جاء نتيجة اتفاق بين الأمير فخر الدين والبطريرك مخلوف للمفاوضة مع البابا أوربانُس الثامن، والغراندوق فردينان الأول، أمير توسكانا، لإيجاد صيغة تحالف بينهما وبين الأمير فخر الدين للتخلّص من العثمانيين، وكان ابراهيم الحاقلاني* ذا مقامٍ خطير في إيطاليا والفاتيكان، فساعد كثيرًا البطريرك والأمير المعني على ما فيه خدمة وطنه لبنان، حتى لُقّب بسفير الأمير المتجول. وشملت مهمّة الحاقلاني شراء أسلحة وذخائر وانتقاء خبراء في صبّ المدافع، وبيع كميّة من حرير الأمير في توسكانا وإيداع ثمنه في مصرف "الرحمة" في فلورنسا؛ راجع: صفير، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص٣١٦؛ قرألّي، فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان وفردناندو الثاني أمير توسكانا ١٦٢١ ـ ١٦٣٥، (حريصا ـ لبنان،١٩٣٨) ص٣١٥.

٢ ـ توسكانا TOSCANA: مقاطعة في إيطاليا الوسطى قاعدتها فلورنسا، هي بالتقريب أتروريا القديمة، نشأت فيها دوقيّة كبرى حكمتها أسرة مديتشي ١٥٦٩ ـ ١٧٣٨، خضعت للنمسا ثمّ ضُمّت إلى الدولة الإيطاليّة ١٨٦٠.

٣ ـ راجع: مفرّج، صانعو التاريخ، مرجع سابق، الجزء الثامن.

٤ ـ إبراهيم الحاقلي أو الحاقلاني (١٦٠٥–١٦٦٤): من مشاهير علماء الموارنة، ولد في حاقل من أعمال بلاد جبيل في جبل لبنان، تعلّم في روما، عمل كاتباً في خدمة فخر الدين المعني الثاني، علّم اللغات الساميّة في روما وبيزا وباريس، توفّي في روما، له: "مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب".

الحرب[1]".

غير أنّ رياح الأقدار جرت بما لم تشته سفينة فخر الدين. فكانت حرب الثلاثين سنة التي اشتدّت وطأتها في أوروبا. وكان تفشّي وباء الطاعون في إيطاليا، ممّا شغل البابا والغراندوق عن الأمير والبطريرك، فاغتنمت السلطنة هذا الانشغال وجهّزت حملة قاضية على فخر الدين، الذي توقّفت عنه الإعانات الغربيّة، فاضطرّ إلى الإستسلام، ونُقل مع أنجاله إلى اسطنبول حيث غُدر بهم بعد وفاة البطريرك مخلوف بسنتَين (١٦٣٥). وتلاشى حلُم[2].

بوفاة البطريرك يوحنّا مخلوف سنة ١٦٣٣، وإعدام الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني سنة ١٦٣٥، خلف الأوّل بطريرك إهدنيّ آخر هو **جرجس عمَيرَه**، وخلف الثاني ابن أخيه يونس: الأمير ملحم. وقد تعاون الخلفان مثلما تعاون السلفان. وسعى البطريرك عميره لدى الفاتيكان ليتوسّط مع فرنسا كي يقنع ملكُها حليفَه العاهل العثمانيّ

---

١ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣١٦، الذي أضاف: لم تقتصر علاقة فخر الدين برؤساء الموارنة على البطريركين مخلوف وعميرة، بل تعدّتهما إلى بعض الأساقفة وأعيان الشعب، فاستعمل هذان البطريركان نفوذهما لدى الأحبار الأعظمين والحكّام الغربيّين، ووضعا تحت تصرّف الأمير نخبة من الأساقفة والعلماء لبدء المفاوضات وإعداد المعاهدات، كالمطرانين سركيس الجمري وجرجس ابن مارون، فقاما بالمهمّة خير قيام. وكان الهدف من سفارة المطران جرجس ابن مارون، من قبل الأمير فخر الدين إلى الغرب المسيحي، مفاوضة الكرسي الرسولي ودولتي اسبانيا وتوسكانا في احتلال الأراضي المقدّسة واستخلاصها من يد الدولة العثمانية؛ راجع قرألي، مرجع سابق، ص ٢٦٦.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص٣٠١ ـ ٣٠٢، ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٥، ٣٣٣؛ بولس قرألي: فخر الدين المعني الثاني (حريصا،١٩٣٧) ص١٣ ـ ١٤، ٣٧ ـ ٣٨؛ المعلوف، تاريخ الامير فخر الدين، مرجع سابق؛ الصفدي أحمد الخالدي، تاريخ الأمير فخر الدين، نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، (بيروت،١٩٣٦)؛ النصولي أنيس، رسائل الأمير فخر الدين (بيروت ١٩٤٦)؛ CARALI PAOLO, *FAKIR AD-DIN II, LA CORTE DI TOSCANA* (ROME, 1936); CHURCHILL COLONEL, *MOUNT LEBANON: A TEN YEAR'S RESIDENSE* (LONDON,1853); DE LAMARTINE, *VOYAGE EN ORIENT* (PARIS,1859); SANDYS GEORGE, *A RRELATION OF A JOURNEY* (LONDON,1621); CHEBLI MICHEL, *FAKHREDDINE II MAAN, PRINCE DU LIBAN* (BEIRUT, 1946).

بأن يعترف بالأمير ملحم خلفاً لعمّه في الإمارة، وقد تمّ ذلك بفضل وساطة البطريرك[1].

بيدَ أنّ عُمر هذا البطريرك كان قصيرًا، فتوفّي سنة ١٦٤٤، كما توفّي الأمير سنة ١٦٥٨. وكان عمر خليفة الأول: البطريرك **يوسف العاقوري** أقصر من سلفه، فتوفّي سنة ١٦٤٦، بعد أن أشرف على عقد مجمعَين مارونيَّين صدر عنهما قوانين كنسيّة هامّة. ويُعزى إليه أنّه كان المؤسّس الروحيّ لكنيسة السريان الكاثوليك[2]. وقد انتقلت السدّة البطريركيّة بعد وفاته إلى البطريرك **يوحنّا الصفراوي**، وهو البطريرك الثاني عشر من البطاركة الذين أقاموا في قنّوبين[3]. أصله من أسرة البوّاب، وقد نُسب إلى بلدة الصفرا في فتوح كسروان حيث نشأت عائلته. وفي السنة التي انتُخب فيها البطريرك الصفراوي، صدر عن الملك الفرنسيّ لويس الرابع عشر مرسوم جاء فيه:

> ننهي إلى سفيرنا في الشرق وإلى الذين سيخلفونه أن يُسعفوا الموارنة لدى صديقنا المعظم (السلطان) لينجزوا أعمالهم ويتصرّفوا بمقتضيات مراتبهم الروحيّة بتمام الحريّة. ونأمل من قناصل دولتنا في كلّ موانيء الشرق بأن يساعدوا السيّد البطريرك وكلّ أبنائه الموارنة. ونطلب من السادة الكبار، باشوات ومأموري الحضرة السلطانيّة العليّة، أن يعاونوا البطريرك ورئيس أساقفة طرابلس وجميع الإكليروس المارونيّ وكلّ أبناء الطائفة المارونيّة[4].

بلغت مكانة البطريركيّة المارونيّة في هذه الحقبة شأوًا أصبح فيه البطريرك يعيّن قناصل فرنسا في لبنان. فقد أرسل الصفراوي إلى فرنسا المطران اسحق الشدراوي* ليطلب باسمه قنصليّة فرنسا في مدينة بيروت للشيخ أبي نوفل الخازن فأُجيب إلى

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٥٦.

٢ ـ راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ للدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ص٣٤٦.

٤ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٥٨.

طلبه[١]. ومن شأن رواية ما جرى للبطريرك المنتخب **جرجس حبقوق البشعلاني** الذي كان من المفروض أن يخلف يوحنّا الصفراوي المتوفّي سنة ١٦٥٦، أن تفيدنا عن مدى الزهد الذي كان يتحلّى به رجال إكليروس الكنيسة المارونيّة في ذلك الزمان. علماً بأنّ القداسة تُنسب إلى صاحب السيرة السابق، البطريرك الصفراوي، الذي دُوّنت عنه شهادات تُفيد بأنّ نورًا سماويًا كان يسطع منه وحوله عندما كان ينفرد للصلاة ساعات وساعات.

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك الصفراوي، اجتمع الأساقفة والمشايخ والأعيان وانتخبوا المطران **جرجس حبقوق البشعلاني** بطريركًا على الكرسيّ المارونيّ لأنطاكية وسائر المشرق. أمّا المطران جرجس فقد خرج من المجمع واختبأ في صومعة أحد الرهبان، فخلع الشعب باب الصومعة وحملوه عنوة إلى دهليز الكنيسة، حيث قال: "دعوني أسترح قليلاً وما ترغبون فيه سيكون". فتركوه ليأخذ بعض الراحة، غير أنّه تمكّن من الفرار واختفى في وادي قنّوبين إلى أن تمّ انتخاب **البطريرك البسبعلي**[٢]، وهو جرجس ابن الحاج رزق الله من قرية بسبعل من أعمال زاوية طرابلس، الذي عُرف عنه أنّه أجاد جميع اللغات الشرقيّة، وخاصّة التركيّة، وكان بارعًا في علم الحقوق البيعيّة. وكان يخاطب حكّام البلاد وأولياء الشأن في الآستانة، ويضع التقارير لإطلاع الباب العالي مباشرة على أحوال البلاد، ولإبلاغه شكاوى المظلومين[٣].

---

١ ـ وطّد مكانة مشايخ آل الخازن، بوجه خاص، تعيين دولة فرنسا الشيخ أبي نوفل الخازن قنصلاً لها في مدينة بيروت. وقد تمّ تعيين الشيخ أبي نوفل الخازن نائب قنصل لدولة فرنسا ثم قنصلاً لها في بيروت سنة ١٦٥٥، وظلّ أحفاده بعدئذٍ يتوارثون هذا المنصب حتى ١٧٥٨. وجرى، في ما بعد، تعيين مارونيّين آخرَين في هذا المنصب، أحدهما غندور السعد من عين تراز، كبير معاوني الأمير يوسف. راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٤٢.

٢ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص٣٥٤.   ٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٦٠ بالاستناد إلى: DE LA ROQUE.

في هذه الأثناء كان شأن الامارة قد ضعف نسبة لِما كان عليه في عهد فخر الدين. وقد توفّي الأمير ملحم في السنة نفسها التي تمّ فيها انتخاب البطريرك جريس البسبعلي (١٦٥٧) لينتقل الحكم إلى ولده الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيّين. أمّا شأن البطريركيّة المارونيّة فكان يزداد خطورة، خاصّة إثر انتخاب إسطفانُس الدويهي بطريركًا خلفًا للبطريرك جرجس البسبعلي سنة ١٦٧٠.

ويقول باحث مارونيّ كنسيّ معاصر حول هذه الحقبة وما سليها مباشرة:

إذا تطلّعنا إلى الماضي، يبان لنا، على ضوء الأحداث التاريخيّة المتتالية، تأثير الكنيسة المارونيّة في الإمارات اللبنانية الثلاث: العسّافية، والمعنيّة، والشهابيّة. فمنذ بداية القرن السادس عشر، بدأ الانفتاح، من خلال نزوح العائلات المارونيّة إلى الوسط فالشوف فالجنوب، على بقيّة الطوائف والحكّام المحلّيين. ثم خرجت الكنيسة المارونيّة من معقلها القديم في وادي قاديشا وقزحيّا وقنّوبين، وراحت تتغلغل في الجبل اللبناني من الشمال إلى الجنوب. فدخل الموارنة كعنصر فعّال في الإمارات الثلاث، والتقت مصالح كنيستهم مع مصالح هؤلاء الأمراء من الناحية الماديّة والاقتصاديّة والمعنويّة والسياسيّة. وكانت حيويّة الشعب الماروني تستمدّ قوّتها من قداسة سيرة، وصلابة عقيدة، وشدّة مراس، وثبات عزيمة، في الإكليرس المارونيّ والرهبانيّات. فاستقرّ الفلاّحون والمزارعون من أبناء الشعب المارونيّ، بعد نزوحهم من الشمال إلى المناطق الشوفيّة، في المزارع والقرى الجبليّة، حيث تعاطوا حراسة الأرض وتربية دود القزّ، في حين زاول غيرهم الأعمال التجاريّة في المدن الكبرى. وهكذا توطّدت وحدة الحال بين الطرفين. فأصبح نشاط الفلاّحين والتجّار قوامًا لاقتصاد الإمارة، كما كان تأييد البطاركة والأساقفة الموارنة دعامة لسطوة الأمراء... ولم يقتصر الانفتاح على المجتمع اللبناني، وعلى أبناء سائر الكنائس المشرقيّة فحسب، بل تعدّاه إلى الغرب المسيحيّ، عن طريق المراسلات وإيفاد المرسلين الكاثوليك من فرنسيسكان وكبّوشيين وكرمليّين ويسوعيّين

ولعازريّين وغيرهم. ونتيجةً لذلك، توطّدت العلاقات بين الكنيستَين المارونيّة والرومانيّة، وزاد اهتمام الأحبار الأعظمين بشؤون الكنيسة المارونيّة، فأخذوا يعيّنون لها كردينالاً من كرادلة الكنيسة لرعاية مصالحها. وأنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر، سنة ١٥٨٤، المدرسة المارونيّة في رومة. وعُقد سنة ١٥٩٦ أوّلُ مجمعٍ إصلاحيّ في الكنيسة المارونيّة جدّدت فيه تمسّكها بالاعتاب الرسوليّة وخضوعها لروما... ومع رجوع تلامذة المدرسة المارونيّة بدأت الكنيسة المارونيّة تقطف ثمار انفتاحها على الغرب المسيحيّ. ففي غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر، تبوّأ الكرسي الأنطاكيّ ستّة من خرّيجي هذه المدرسة، كما رُقّي عشرات الكهنة منهم إلى الدرجة الأسقفيّة. فراحوا ينشطون معًا في إعادة تنظيم كنيستهم وتدبير أبنائها وإدارة معابدها وأوقافها، وضبط طقوسها، وتعزيز النشاط الرسوليّ في الأبرشيّات. فساهموا إلى حدّ بعيد، في ارتداد بعض أبناء الكنائس الشرقيّة الأرثوذكسيّة إلى الكنيسة الكاثوليكية، ووفّروا لرؤسائهم الروحيّين، من أساقفة وبطاركة، مع بعض العائلات المارونيّة النافذة، مقرًّا لسكناهم في جبل لبنان. وتوصّل الاكليرس المارونيّ، بواسطة مداخلاته ونفوذه، وبدافعٍ من غيرته الرسوليّة، إلى تنصيرِ الأمراء الشهابيّين في نهاية القرن الثامن عشر... وعلى الصعيد الثقافي، تجلّى نشاط الكنيسة المارونية في بعث النهضة العلميّة التي قام بها تلامذة المدرسة المارونيّة في لبنان والشرق. فمن هذه المدرسة المارونيّة انطلقت الشرارة الأولى التي أضاءت مشعل الحضارة والنهضة الثقافيّة التي قاد مسيرتها تلامذتها المجلّون، وإليها يعود الفضل في انفتاح الغرب المسيحيّ على كنوز الشرق وبقيّة الأديان والمذاهب، كما أفسحت في المجال لأبناء الشرق لاكتشاف حضارة الغرب، عن طريق الترجمات وتعليم اللغات الأوروبيّة على أنواعها. فكانت المدرسة المارونية نقطة انطلاق لدفع عجلة العلم والتربية في لبنان، وإنشاء المدارس المحليّة العديدة التي تخرّج منها، وبوجهٍ خاص، من مدرستي عين ورقة وعينطورا، عددٌ وافر من الشبّان الموارنة الذين أدّوا أجلّ الخدمات لوطنهم ولمحيطهم المشرقيّ، فدخلوا في خدمة الأمراء الحاكمين، وأصبحوا، مع توالي

الأيّام، طبقةً مارونيّة متعلّمة ذات شأن في البلاد. وجلّى منهم غيرُ واحد في العلم والأدب والشعر في لبنان والبلدان العربيّة، فرفعوا مستوى اللغة، وأغنوا آدابها بالتآليف النفيسة، كما رأس العديدون منهم تحرير المجلّات والجرائد اليوميّة. وأفسحت المدرسة المارونيّة في مجال تفوّق بعض تلامذتها في شتّى العلوم في المجتمعات الأوروبيّة، حتى عُرِّف بهم في تلك الأوساط والأندية العالمية هناك، بلقب "عالم كماروني". وتعتبر مصنّفاتهم، حتى يومنا هذا، مرجعًا أوليًا لا يُستعاض عنه بسهولة. فتآليف السمعاني* الكبير (العلّامة يوسف سمعان السمعاني) كانت ولا تزال مفتاح العلوم الشرقيّة ومنهلاً للآداب السريانيّة العريقة. وللسمعاني أنداد قبله وبعده، كابن القلاعي*، وشلق[1] والدويهي*، والحاقلاني*، والسماعنة الآخرين[2] ونمرون الباني* في روما*، والصهيوني* والحصروني* في باريس، والغزيري[3] في إسبانيا، وتادروس العضم وأنطون عريضة* في براغ وغيرهم[4].

---

١ - **نصرالله شلق العاقوري** (ت١٦٣٥): من رجال النهضة الشرقيين، ولد في العاقورة لبنان، تعلّم في المدرسة المارونيّة بروما حيث علّم العربيّة والسريانيّة، أسّس مدرسة للموارنة في رافينا.

٢ - **المونسينيور الياس شمعون الحصروني** (١٦٧٣ - ؟): ولد في حصرون، سافر إلى روما ملتحقًا بالمدرسة المارونية ١٦٨٥ برفقة الخوري يعقوب عواد الذي أصبح بطريركًا، عاد إلى لبنان ١٦٩٧ حيث سامه البطريرك الدويهي كاهنا ثمّ أرسله مبعوثًا إلى روما وفرنسا لاستحصاله على مرسوم لتخفيف الضرائب على أهل الجبّة؛ **المطران إسطفان عوّاد السمعاني** (١٧٠٩ - ١٧٨٢): ولد في حصرون، سافر إلى روما ١٧٢٠ حيث نال الملفنة، عُيّن في المكتبة الفاتيكانيّة تحت إدارة خاله يوسف السمعاني، سيم كاهناً وبقي في وظيفته إلى ١٧٣٦، حضر إلى لبنان مع خاله السمعاني لعقد المجمع اللبناني وكان من آبائه، أسقف على حماه ووكيل للبطريرك يوسف الخازن في الدول الأجنبيّة وروما التي عاد إليها في العام نفسه وعُيّن حافظاً للمكتبة الفاتيكانيّة، جال في مصر وسوريا وما بين النهرين مرسلاً للمجمع المقدّس باحثاً عن الآثار الشرقيّة، انتدبه البابوات لمهمّات دينيّة وعلميّة في بلدان أوروبيّة، له مؤلّفات شهيرة منها "فهرست المكتبة الشرقيّة الخطّية في المكتبة الماديشيّة"، و"شرح أعمال الشهداء الشرقيين والغربيين لأوسابيوس القيصري"، و"المحاماة عن القدّيس يوحنّا مارون" بالإيطاليّة، وفهارس عديدة، توفّي في روما؛ **المونسينيور يوسف لويس السمعاني** (١٧١٠ - ١٧٨٢): ولد في حصرون، تخرّج باللغات والعلوم والفنون من مدرسة الموارنة في روما، عيّنه البابا بنديكتوس الرابع عشر معلّمًا للغات الشرقيّة والطقوس الملكيّة في كليّة سابيانسا، له مؤلفات منها باللاتينيّة "كوديكس ليتورجيكوس" أي كتاب رتب القدّاس، ومجموعة نصوص طقسيّة في ١٣ مجلّدًا، ومؤلفات في تاريخ بطاركة الكلدان والنساطرة، والوحدة الكنسيّة، وفي الكنائس واحترامها وحمايتها، ومقالات كنسيّة، ترجم الشحيم إلى أربع لغات، وقدّاس الكلدان إلى اللاتينيّة، وله شرح على كتاب يوحنّا مورنيُوس في الرسامات ١٧٥٦، عضو الأكاديميّة البابويّة، توفّي ودفن في روما.

٣ - **الأسقف ميخائيل الغزيري** (ت١٦٩٧): ذكر الدويهي وفاته وقال إنّه كان مطران دمشق، وإنّه دُفن بدير طاميش.

٤ - صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٣١ - ٣٣٤.

إسطفَانُس الدوَيهي

العالِــم والقدّيــس

البطريرك إسطفانُس الدويهي، أحد أعظم بطاركة الموارنة فـي التـاريخ (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤) وُلد في إهدن من أعالي شمالي لبنـان. تعلّم فـي رومـا وعـاد إلـى بـلاده يعظ ويعلّم. عُيّن أسـقفًا علـى أبرشـيّة قبرص قبل أن يُنتخب بطريركًا. لـه مؤلّفـات دينيّـة وتاريخيّـة أهمّهـا: "منـارة الأقـداس" و"ردّ التّهـم" و"تـاريخ الأزمنــة" و"تـاريخ الطائفـة المارونيّة". أرسله البطريرك يوحنًّا الصفراوي إلى حلب حيث أقام خمس سنوات أقنـع في خلالها عددًا غير قليل من روم ونساطرة ومونوفيزيّين باتّبـاع الإيمـان الكـاثوليكيّ. كان هذا البطريرك أوّل من سكن مطوّلاً قريبًا من مركز الإمارة في الشـوف، إذ جعل له مقرًّا موقّتًا في قرية مجد المعوش، التي كان لجأ إليها قبلـه البطريـرك مخلوف كمـا ذكرنـا سابقًا. ثمّ انتقل الدويهي إلــى كرسـي قنّوبيـن، حيث عـانى مـن مطاحنـات أهليّـة كثيرة جرت في أيّامه، جعلته يتحمّـل مشـقّات ومظـالم عديـدة، مـا اضطـرّه فـي أحيـان كثيرة إلى أن يلجأ إلى أماكن نائية ليجتهد في تصنيف مؤلّفاته. وقد بلــغ تحمّلـه لشظف العيش أقصى الحدود، فهو لم يأكل لحمًا طيلة حياته إلاّ عند اعتلال صحّته وبناءً علـى إشارة الطبيب. وقد ركّز الدويهي على إصــلاح شـؤون كنيسته مـن النواحـي الإيمانيّـة والتنظيميّة. فطاف في مختلـف الأبرشـيّات، فجمـع المدوّنـات والوثـائق، واختـار كهنـة ذوي علم وتقوى، وتفحّص الكتب البيعيّة، وأصلح ما أوقعـه فيهـا النسّـاخ مـن أغـلاط، وردّ القواعد إلى أصولها، وغربل مصاحف المؤرّخين، ومصنّفات الآباء القدّيسين مـن شرقيّين وغربيّين، وزادت مؤلفاته على الثلاثين كتابًا جلّها محفوظ في مكتبة الفاتيكـان. وبفضـل عنايـة هـذا البطريـرك الفـذّ، نشـأت حوالـى سـنة ١٦٩٤ رهبانيّــة القدّيـس أنطونيوس المارونيّة، التي ازدهرت بتدريبه وتوجيهاته، فصار إثباتها من قبلـه أولاً ثـم

من قبل الحبر الأعظم. وعندما تعرّض مسيحيّو لبنان للحيف من قبل السلطات العثمانيّة، تدخّل في سنة ١٧٠٠ مع ملك فرنسا طالبًا المؤازرة لرفع الحيف عن رعايا كنيسته، فكان له ما أراد بفضل تدخّل السفير الفرنسيّ بقوّة لدى الباب العالي. وعندما طالبته السلطنة بأن يقدّم إليها طلبًا لتثبيته من قبل الباب العالي بطريركًا عبر فرمان سلطانيّ، اعتصم البطريرك الدويهي بامتيازات طائفته رافضًا الخضوع للباب العالي. وبعد أربع وثلاثين سنة قضاها البطريرك إسطفانُس الدويهي جادًّا ساعيًا دون أن يذوق طعم الراحة، توفّي سنة ١٧٠٤، وقد أصبح ضريحه مزارًا لمؤمنين كثيرين ذكروا أنّهم نالوا بشفاعته منحًا ونعمًا غزيرة[١]، ونسبت إليه مكرمات عديدة في حياته وبعد مماته. وهناك اليوم دعوى بطلب إعلان طوباويّته قدّم ملفّه إلى روما، وبدأ العدّ العكسيّ لهذا الإعلان. كرّمه أبناء بلدته إهدن بإقامة نصب تذكاريّ عملاق لشخصه المبارك في وسط المدينة[٢].

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٦٠ ـ ٦٢؛ راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، بطاركة القرن السابع عشر، ص١٥٩ ـ ٢٢٨؛ الكفرنيسي القس بولس مبارك الخوري، تاريخ عائلة الخوري تادي (بيروت،١٩٥٧) ص٣٨٨.

٢ ـ أنجبت أسرة الدويهي في إهدن العديد من الكهنة والأساقفة، منهم بحسب الأقدميّة: **المطران إبراهيم الدويهي الإهدني:** أسقف ١٤٨٨ ـ ؟؛ **المطران قرياقوس الدويهي الإهدني:** مطران إهدن ١٥١٣ ـ ١٥٥٠؛ **المطران جبرايل الدويّهي الأوّل:** أسقف ١٥١٩ ـ ١٥٥٦؛ **المطران سركيس الدويّهي الإهدني:** أسقف ١٥٦٥ ـ ١٥٧٧؛ **المطران الياس بن يوحنّا صرصر الدويهي:** أسقف ١٦٣٨؛ **المطران بولس الدويّهي:** أسقف ١٦٥٩ ـ ١٦٩٠؛ **المطران بطرس الدويهي الهدناني (١٦٣١ ـ ١٦٨٣):** سامه البطريرك الدويهي أسقفًا مساعدًا له في مصالح الكرسي؛ **المطران جبرايل الدويهي الثاني:** أسقف ١٦٩٣ ـ ١٧٣٩؛ **المطران إسطفان الدويهي الأوّل:** أسقف ١٧٢٨ ـ ١٧٦٢؛ **المطران إسطفان الدويهي الثاني** (ت١٨٤٤): تلميذ مدرسة الموارنة في روما، مطران عرقا ووكيل بطريركي ١٨١٠، تنازل عن الوكالة وتسلّم رعاية أبرشيّة إهدن ١٨١٣ حتّى وفاته؛ **الخوراسقف إسطفان الدويهي (١٨٨٢ ـ ١٩٥٩)؛ الخوري سمعان الدويهي (١٩٢١ ـ ١٩٨٨):** كاهن وسياسي، نائب في ثلاث دورات، عضو كتلة نوّاب حزب الوطنيّين الأحرار؛ **المطران إسطفان هكتور الدويهي:** لاهوتي ومربٍّ وأستاذ جامعي وناشط إجتماعي معاصر، خوراسقف ١٩٨٣، رقّي إلى الدرجة الأسقفيّة ١٩٩٧، حامل العديد من الأوسمة؛ **الأب روفايل الشيخا الدويهي:** رئيس عام للآباء الكرملتيّين في المكسيك.

بَطَارِكَـــــــــــةُ

القَرنِ الثَّامِنَ عَشَرَ

خلف الدويهي بطريرك لم يعش سوى سنة واحدة: ١٧٠٤. هذا البطريرك هو **جبرائيل البلوزاني**، الذي انتُخب في دير ما شليطا مقبس في كسروان. وللدلالة على مكانة البطريرك المارونيّ في بداية القرن الثامن عشر، تفيد المراجع أنّه لمّا تقرّر موعد انتقاله إلى كرسيه في قنّوبين، أعدّ له استقبال حافل على مستوًى وطنيّ، إذ أرسل الشيخ "عيسى حمادة" الشيعيّ، متولّي مقاطعة الجبّة آنذاك، أحد أنجاله على رأس أربعين خيّالاً لمواكبته. وأرسل باشا طرابلس الفرقة الموسيقيّة الرسميّة مع عدد من الموظّفين ليشتركوا في استقبال البطريرك مع المشايخ والأعيان وجمهور الشعب.

غير أنّ مكانة هذه البطريركيّة قد تزعزعت في بداية القرن الثامن عشر، إثر انتخاب **يعقوب عوّاد** بطريركًا سنة ١٧٠٥ وتثبيته من قبل روما سنة ١٧٠٦. فقد حصلت ضجّة داخل الكنيسة إثر رواج إشاعات حول سلوكه، اعتقد صحتها المطران جرجس يمّين الإهدني، الذي استدعى الأساقفة إلى اجتماع طلبوا بخلاله محاكمة البطريرك الذي لم يتأخّر عن الحضور، وقد صدر الحكم بعزله، وأُقيم مكانه السيّد **يوسف مبارك الريفوني**. وعندما وصل الخبر إلى روما، سارع البابا كليمانضُس الحادي عشر (١٧٠٠ ـ ١٧٢١) إلى توجيه حارس القبر المقدّس إلى جبل لبنان ليحقّق في الأمر. وبعد أن نظر المجمع المقدّس في تقرير الموفد الباباويّ سنة ١٧١١، تأكّدت له براءة البطريرك عوّاد، فأمر بإرجاعه إلى منصبه وبمعاقبة المطران يمّين بفرض الإقامة الجبريّة عليه في روما، وبمنعه من الرجوع إلى لبنان. وعاد البطريرك إلى كرسيه بعد أن رضخ جميع خصومه لحكم روما، وبقي يدير شؤون البطريركيّة بعد

ذلك مدّة اثنتَين وعشرين سنة انتهت بوفاته سنة ١٧٣٣، ليخلفه البطريرك يوسف ضرغام الخازن[1].

المَجمَعُ اللبنَانِيّ

كان هذا البطريرك من أسرة مشايخ إقطاع كسروان، وهو أول بطريرك من تلك الأسرة. في عهده عُقد "المجمع اللبناني"[2] الشهير سنة ١٧٣٦ في دير سيّدة اللويزة من أعمال كسروان. وبخلال هذا المجمع، فُضّت الخلافات التي كانت قائمة داخل المؤسّسة

---

١ ـ راجع: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٦٤ ـ ٦٧.

٢ ـ المجمع اللبناني: قرّر نهائيًا إتّحاد الكنيسة المارونيّة بالكنيسة الكاثوليكيّة في روما، وقد جاء إنعقاد المجمع نتيجة حركة بدأت قبل هذا الموعد بستّة قرون، غايتها ضم الكنيسة المارونية إلى كنيسة روما. كان المجمع أكثر من مجمع كنسيّ مارونيّ إذ ضمّ علمانيين من مشايخ الأعيان الموارنة وممثّلين عن الكنائس الشرقيّة الأخرى، واشترك فيه ثلاثة عشر مطراناً. كان أساس البحث في المؤتمر رسالة بابويّة ترجمها السمعاني إلى العربيّة. أقرّ المجمع بالمجامع الكنسيّة السابقة، والإيمان الروحانيّ على طريقة السؤال والجواب، وأدخل اسم البابا في خدمة الذبيحة الإلهيّة، وحصر زواج الخوارنة بالرتب الكهنوتيّة الدنيا، وحرّم سكنى الرهبان والراهبات في دير واحد، وسمح باستضافة الرهبان والراهبات في الأديار دون العلمانيّين. قرارات هذا المجمع يمكن إعتبارها إعادة صياغة للقرارات التي اتّخذت قبلاً في مجمع عقد من قبل في قنّوبين لتنظيم الكنيسة المارونيّة كما نعهدها اليوم. كما قرّر المجمع إعادة النظر في القوانين الكنسيّة التي لها علاقة بالأحوال الشخصيّة التي كان قد وضع أساساً لها المطران "عبدالله قرألّي" في مؤلف حول هذا الموضوع، وكان قرألّي قد انتقل من حلب إلى لبنان منتصف القرن ١٧ حيث أسّس الرهبانيّة المارونيّة قبل أن يصبح أسقفًا. وحتّى تاريخ هذا المجمع لم يكن للكنيسة المارونيّة في جبل لبنان سوى أبرشيّة واحدة هي الأبرشية البطريركيّة يعاون البطريرك فيها مطارينه، موزّعاً عليهم بعض المدن والقرى ليقوموا فيها بوظيفة الأسقف الأبرشيّ، فأوجد المجمع الأبرشيات بحصر المعنى، فقسّم البطريركيّة المارونيّة إلى ثماني أبرشيّات منها أبرشيّة البطريرك الخاصّة، غير أن تلك التقسيم ظلّ حبراً على ورق حتى سنة ١٨١٩. وعندما أراد السمعاني أن يضع بعض القضايا موضع العمل، عاكسه البطريرك يوسف ضرغام الخازن، ورفع الأمر إلى المجمع المقدّس، ففضّ الخلاف البابا بنديكتُس الرابع عشر وثبّت المجمع تثبيتاً خاصاً في سنة ١٧٤٤. وفي نيسان (إبريل) ١٨١٨ عُقد المجمع الثاني في اللويزة تحت إشراف القاصد "غوندلفي"، وكان مدار هذا المجمع ثلاثة مواضيع: إفتراق الرهبان عن الراهبات في الأديار التي كانت لا تزال مختلطة، تدبير الكرسي الإنطاكي، تعيين كرسي ثابت لكلّ مطران ضمن أبرشيّته. وقد ثبّتت هذه المقررات من قبل البابا ببراءة مؤرخة في ٢٥ أيار (مايو) ١٨١٩؛ راجع كتاب: المجمع اللبناني (جونيه ـ لبنان،١٩٠٠)؛ فهد، بطاركة، مرجع سابق، بطاركة القرن الثامن عشر، ص١٦٦ وما يليها؛ فهد الأباتي بطرس، المجامع المارونيّة (جونيه ـ لبنان،١٩٧٥)؛ الدبس، الجامع المفصّل، مرجع سابق.

الكنسيّة المارونيّة على يد البابا بنِديكتُس الرابع عشر (١٧٤٠ ـ ١٧٥٨). وكان أبرز مَن وضع مقرّرات ذلك المجمع الشهير، أحد عظماء علماء الموارنة في الشؤون الشرقيّة، وهو **يوسف سمعان السمعاني** (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) الحصرونيّ الأصل، المولود في طرابلس والمتوفّى في روما، والمعروف بالسمعانيّ الكبير، لتمييزه عن "يوسف لويس السمعاني*" (١٧١٠ ـ ١٧٨٢)، المولود في حصرون لبنان والمتوفّى هو الآخر في روما، وهو ابن اخت السمعانيّ الكبير الذي ألّف مجموعة نصوص طقسيّة. ولتمييزه أيضًا عن "إسطفان عوّاد السمعاني*" (١٧١١ ـ ١٧٨٢)، أمين المكتبة الفاتيكانيّة. وأيضًا عن "سمعان السمعاني*" (١٧٥٢ ـ ١٨٢١) الذي وُلد في حصرون وتوفّي في "بادوا"[١] حيث علّم اللغات الشرقية.

أمّا السمعاني الكبير، فتعلّم في روما، وعمل أحد أمناء المكتبة الفاتيكانيّة قبل أن يعيّن موفدًا باباويًّا للمجمع اللبنانيّ سنة ١٧٣٦. له: "المكتبة الشرقيّة الكليمانتينيّة الفاتيكانيّة" باللاتينيّة، التي صنّف فيها المخطوطات العربيّة والسريانيّة والفارسيّة والتركيّة والعبريّة والسامريّة والأرمنيّة والحبشيّة واليونانيّة والمصريّة والأندلسيّة والمَلاباريّة[٢] التي تحويها هذه المكتبة وجغرافيّة وتاريخ الشرق.

صــــــــراعٌ
علَى البَطريَركيَّة

رغم أنّ المجمع اللبنانيّ قد حلّ جميع الشؤون العالقة داخل الكنيسة المارونيّة، فإنّ عمليّة انتخاب بطريرك ليخلف البطريرك يوسف الخازن المتوفّى سنة ١٧٤٢، قد أدّت إلى حصول انقسامات. ذلك أنّ المقام البطريركيّ، كان قد أضحى، عند الموارنة،

---

١ ـ بادوَا PADOVA : مدينة في شمال إيطاليا غربي البندقيّة، اشتهرت بجامعتها.

٢ ـ المَلاباريّة: لغة هنديّة. راجع الكنيسة الملاباريّة في الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

رمز القيادتَين الدينيّة والسياسيّة على السواء، ولم يكن هناك، مارونيًا، مركز آخر مماثل أو قريب منه مكانة. فأضحى التنافس على هذا المركز تنافسًا سياسيًا في أحد وجوهه، لعبت فيه العائليّة والإقليميّة دورًا خطيرًا. وإذا لم يكن ذلك التنافس بين المرشّحين على البطريركيّة أنفسهم، فقد كان بين القريبين منهم بصلة الدم أو بصلة الإقليميّة. وكانت بوادر هذا الصراع قد بدأت في عهد البطريرك إسطفانُس الدويهي. ويمكن القول إنّ مجتمع الكنيسة المارونيّة كان دومًا، ولا يزال، يتّحد عندما يتعرّض للخطر الداهم من الخارج، ويتفرّغ للتصارع على القيادة والزعامة عندما يتراءى له، ولو خطأ، أن لا خطر عليه من الخارج. تجدر الإشارة إلى أنّ أعيان الموارنة وأسرهم الاقطاعيّة، كانوا يشتركون في انتخاب البطريرك.

وسط هذه المعطيات، عندما انتُخب الأسقف **سمعان عوّاد** بطريركًا ليخلف البطريرك يوسف ضرغام الخازن، إثر وفاة هذا الأخير ربيع ١٧٤٢، وإذ رفض عوّاد قبول هذا المقام السامي زهدًا وتعففًا، صار انتخاب الأسقف **الياس محاسب** الغوسطاوي[1] بطريركًا. وكان أحد أبناء الأسرة الخازنيّة الإقطاعيّة المارونيّة: المطران طوبيّا الخازن، غائبًا، فلمّا حضر ادّعى أنه لم يبلّغ الدعوة إلى مجمع الانتخاب، واعترض على قانونيّته، واتّفق مع اثنَين من المطارنة على رَسم أسقفَين جديدَين انضمّا إلى مريديه، ضامنًا بذلك الأكثريّة اللازمة لانتخابه. وهكذا عقد مريدوا الخازنيّ مجمعًا أقاموه فيه بطريركًا. وكانت النتيجة أن أصبح للكنيسة المارونيّة، لأول مرّة في تاريخها، بطريركان. ثم رفع كلّ من المنتخَبَين أمره إلى روما التي سارعت إلى الحكم ببطلان الانتخابَين معًا، وأقدم البابا بنديكتُس الرابع عشر، أيضًا لأوّل مرّة في تاريخ الكنيسة المارونيّة، وتفاديًا للخلاف والبلبلة، على تعيين الأسقف **سمعان عوّاد** بطريركًا،

---

١ ـ **الغوسطاوي**: نسبة إلى بلدة غوسطا من أعمال كسروان في جبل لبنان.

وهو الذي كان قد رفض قبول هذا المقام عند انتخابه. وقد رأت روما في ذلك أنّها لم تقدِم على تعيين بطريرك للكنيسة المارونيّة، إنّما هي فرضت على البطريرك المنتخب شرعيًّا القبول بمنصبه[1].

أقام هذا البطريرك في ناحية الشوف، ليبتعد عن مسرح الخلافات في كسروان والشمال، بحجّة رغبته في أن يكون قريبًا من مركز الإمارة لتسهل عليه المراجعات مع أمير لبنان. وقد اختار محلاً لسكنه في إقليم جزّين، قرب صيدا، حيث بنى ديرًا للرهبان اللبنانيّين يُعرف بدير "مشموشة[2]". غير أنّ البطريرك **طوبيّا الخازن**، الذي خلف عوّاد بعد وفاته سنة ١٧٥٦، وهو أحد البطريركَين المنتخبَين اللذَين أبطلت روما انتخابهما، قد نقل كرسي البطريركيّة إلى مسقط رأسه عجلتون[3] وترأس هذا البطريرك السدّة مدّة عشر سنوات، ليخلفه سنة ١٧٦٦ البطريرك **يوسف اسطفان**[4].

البطريَرك إسطفَان
ومُشكلَة هنديّة

يبدو واضحًا، من خلال مراجعة سيرة البطريرك يوسف إسطفان، وهو من أسرة غوسطاويّة كسروانيّة مرموقة، أنّ الصراعات السياسيّة كانت لا تزال دارجة على السدّة البطريركيّة، إذ كانت هذه الأخيرة لا تزال تشكّل المركز القياديّ الروحيّ والزمنيّ الأوحد لدى الموارونة.

---

١ ـ راجع: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٦٧ ـ ٧٣.

٢ ـ مشموشة أو مشموشي: قرية في قضاء جزّين من جنوب لبنان على تماسّ مع قضاء الشوف في جبل لبنان، تقع على متوسط ارتفاع ٨٠٠م. عن سطح البحر، وعلى مسافة ٧٤ كلم عن بيروت عبر صيدا ـ جزّين.

٣ ـ عجلتون: مصيف في كسروان من أعمال قضاء كسروان ـ الفتوح في جبل لبنان، على متوسّط ارتفاع ٨٥٠ م. عن سطح البحر.

٤ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٥٥ ـ ٧٢.

كان هذا البطريرك صلب العود لا يهادن في الحقّ ولا يداور ولا يعرف مرونة أو لينًا[1]، ومن أبرز إنجازاته أنّه، بناءً على إلحاح الشيخ غنـدور بن سعد الخوري[2]، قد حوّل دير "عين ورقة"، الذي كان موقوفًا لأسرة البطريـرك فـي غوسطا، إلـى مدرسـة إكليريكيّة وعامّة، فتحت عبرها الكنيسـة المارونيّـة تـاريخ التربيـة فـي لبنـان، إذ مثّلت عين ورقة، أمّ المعاهد في لبنان، دورًا خطيرًا في الحقـول الدينيّـة والوطنيّـة والثقافيّـة، فخرّجت للموارنة خمسة بطاركة وثلاثين مطرانًا وعددًا كبيرًا من الكهنـة، إضافـة إلـى معظم مؤسّسي المعاهد اللاحقة. كما تخرّج منها عدد كبير من رجـال العلم والسياسـة، كـالمعلّمين مـن آل البسـتاني والشـدياق والدحداح وغيرهم ممّن ذاعـت أسـماؤهم فــي الشرق[3].

ويبـدو أنّ الطموحيـن مـن خصـوم هـذا البطريـرك، لـم ييأسـوا مـن إيجــاد مســألة ليحاربوه من خلالها، فأوجدوا مشكلة بدأت صغيرة ولكنّها ما لبثت أن تعاظمت فعُرفت بـ"قضيّـة هنديّـة". وهنديّـة هـي راهبـة مارونيّـة اسـم مولدهـا حنّـة عجيمـي (١٧٢٠ ــ ١٧٩٨)، قيل إنّ أصل عائلتها من بشـرّي، وُلـدت فـي حلـب وجـاءت إلـى لبنـان سـنة ١٧٥١ وبمعيّتهـا بـادري يسـوعي هـو الأب "فـانتوري"، ونزلـت فــي ديـر عينطـورة

---

١ ـ العقيقي انطوان، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت،١٩٣٨)

٢ ـ الشيخ غندور السعد (١٧٥٧-١٧٩٠): من أعيان الموارنة اللبنانيّين في القرن التاسع عشر، ولد في رشميا (قضـاء عاليـه ـ لبنـان) خلف أباه مدبّرًا للأمير يوسف الشهابي، عُيّن قنصلاً لفرنسا في بيروت سنة ١٧٨٧ بناءً على طلب من البطريرك الماروني يوسـف إسطفان إلى الملك لويس السادس عشر، لحق بالأمير يوسف إلى عكّة حيث قتل مع الأمير يوسف بأمر الجزّار.

٣ ـ لمزيـد مـن المعلومـات حـول معهـد عيـن ورقـة راجـع: مفرّج طونـي، الموسـوعة اللبنانيـة المصـورة، منشـورات مكتبـة البسـتان (بيروت،١٩٧١) ٣: ٢٥٧ ـ ٢٦٢؛ الحتّوني، المقاطعة الكسروانية، مرجع سابق؛ الشبابي الأب مخـايل غبريل، كشـف النقـاب عن بقعة بيت شباب (العقيبة ـ لبنان، ١٩٦٣)؛ المعلوف عيسى اسكندر، دواني القطـوف فـي تـاريخ بنـي المعلـوف، المطبعـة العثمانيـة (بعبدا ـ لبنان،١٩٠٧ ـ ١٨٠٨)؛ خاطر لحد، آل السعد في تاريخ لبنان، مطبعة الرهبانيّة المارونيّة اللبنانيّة (بيروت،١٩٧٠).

للراهبات. وقد ألحّ عليها البادري اليسوعيّ بالإنضمام إلى تلك الرهبانيّة، لكنها أصرّت على الرفض لأنّها كانت تخطّط لتأسيس رهبانيّة مستقلّة باسم راهبات قلب يسوع، ولم تشأ أن تلتحق بأيّة رهبانيّة أجنبيّة. وإذ رأى منها البادري اليسوعيّ ذلك الإصرار، أرسلها مع إحدى النساء إلى "دير حراش" للراهبات المارونيّات في كسروان. وفي ذلك الدير، لاقت الراهبة هنديّة من المصاعب ما استطاعت أن تتغلّب عليها، إلى أن تعرّفت إلى المطران "جرمانوس صقر" واتّخذته مرشدًا لها وأطلعته على غايتها، فساعدها الأسقف المارونيّ على تحقيق أمنيتها، إذ أقدم على شراء دير سيّدة بكركي[1] ووضعه بتصرّفها، فاتّخذته مركزًا أساسيًّا لرهبانيّتها[2]. ويذكر الحتّوني في "المقاطعة الكسروانيّة" أنّه كان لهنديّة شقيق مترهّب في الرهبانيّة اليسوعيّة، قد عارض مشروعها بشدّة، إلاّ أنّه تركها في النهاية وشأنها.

ما أن تسلّمت الراهبة هنديّة دير سيّدة بكركي حتّى بدأت في إنشاء مبنًى جديد "على أسلم بناء وأجمل أسلوب، ثمّ جمعت إليه الشابّات واعتنت بتثقيفهنّ وإدخالهنّ في رهبانيّتها، ولم يلبث مشروعها أن ازدهر ازدهارًا عجيبًا بتوافر عدد المنتميات والمنتمين إليه، وصار لها ذكر قداسة فائقة في كلّ مكان". وأخذت النذور تتدفّق على دير سيّدة بكركي، حتّى أضحى من "أغنى الأديرة وأبعدها شهرة"، كما أضحى مركزًا ممتازًا للنقل والترجمة والتأليف. وقد اعتبر بحّاثون ذلك المركز "امتدادًا لحركة النقل التي شهدتها حلب في القرن الثامن عشر. وأهمّ ما نُقل في ديرها إلى الفكر العربيّ:

---

١ ـ دير سيدة بكركي: في كسروان من أعمال جبل لبنان، اشتراه المطران جرمانوس صقر من الرهبانيّة الأنطونيّة بعد أن وقفه لها مفرّج الحادي الزوقي، وهو الدير الذي سيصبح المقرّ الشتويّ للبطريرك المارونيّ كما سيأتي لاحقًا؛ راجع: صفير الأب د. بولس، بكركي في محطّاتها التاريخيّة ١٧٠٣ ـ ١٩٩٠.

٢ ـ خاطر لحد، آل السعد في تاريخ لبنان، مرجع سابق.

التصوّف، اللاهوت، القانون، الكتاب المقدّس والفلسفة، وقد تطعّم هذا التراث في بكركي بروح شرقيّة لبنانيّة".

وما لبثت هنديّة أن ضمّت إلى ديرها ثلاثة أديرة أخرى في كسروان هي: دير سيّدة البزاز في جونيه، ودير مار جرجس ساحل علما، ودير ماريوسف الحصن. وعندما برزت أعمال هنديّة الناشطة واحتلّت تلك المرتبة الرفيعة ونالت شهرتها الواسعة "ظهر لها أعداء أقوياء على رأسهم بعض المرسلين الأجانب، فتصدّى للوقوف في وجههم الإكليروس المارونيّ، وكان على رأس مَن دعموا تلك الراهبة، البطريرك سمعان عوّاد، وهو البطريرك الأسبق قبل البطريرك يوسف إسطفان. وقد رفع الخصوم الشكاوى ضد هنديّة إلى روما التي وجّهت سنة ١٧٥٣ أحد مبعوثيها ليحقّق في أمر الراهبة، فكان تقريره مبرّئًا لها من أي اتّهام.

في عهد بطريركيّة طوبيّا الخازن، الذي استمرّ عشر سنوات، نامت مسألة هنديّة، كون البطريرك الخازنيّ قد أحسن علاقة الكرسيّ البطريركيّ مع جميع الأطراف، فلم تحرّك ضدّ الأمّ هنديّة أيّ مسألة. وبوصول يوسف اسطفان إلى السدّة البطريركيّة، واختلافه مع فريق من الأساقفة جرّاء قيامه بالإصلاحات في أبرشيّاتهم، ألّف هؤلاء حزبًا ضدّه ضمّ فريقًا من الأعيان، وانضمّ جميع هؤلاء إلى خصوم هنديّة السابقين، وراحوا يناصبون البطريرك العداء، ما دفعه إلى انزال التأديبات الكنسيّة بهم دون هوادة. فاحتدم النزاع حتّى أجمع خصوم البطريرك على تنظيم عرائض ورفعها إلى الكرسيّ الرسوليّ وإلى الأمير "يوسف شهاب"[1]، مضمّنين محتواها شتّى الاتّهامات

---

١ ـ الأمير يوسف شهاب (ت١٧٩٠): أمير لبناني ابن الأمير ملحم، من آل الشهاب القريشيّين الذين حكموا حوران إلى عهد نور الدين في القرن ١٣، انتقلوا إلى وادي التيم في لبنان حيث حكموا لبنان بعد الأمراء المعنيّين، حكم يوسف بلاد جبيل ١٧٦٣ ـ ١٧٧١، نودي به أميرًا للجبل اللبناني في مؤتمر الباروك ١٧٧٠ بعد تنازل عمّه الأمير منصور، أقرّ الأمن في بلاد جبيل والشمال، قاوم ضاهر العمر ثمّ حالفه على الجزّار واستنجد على هذا بالأسطول الروسي لاسترجاع بيروت ١٧٧٣، قتله الجزّار في عكّا.

ضدّ البطريرك وهنديّة. فما كان من روما إلاّ أن أرسلت قاصدًا جديدًا إلى لبنان أواخر سنة ١٧٧٨ لإعادة النظر في موضوع الراهبة هنديّة. فكانت توصية القاصد الرسوليّ، هذه المرّة، تقضي بحلّ رهبنة هنديّة للشكّ في صحّة إيمانها بموضوع اللاهوت والناسوت، وصدر الأمر الفاتيكانيّ بنفي تلك الراهبة التي ماتت في العذاب والشقاء. وكان قد شارك في مخاصمة البطريرك الأمير يوسف شهاب الذي كان يطمع بثروة الدير[١]، إلاّ أنّ البطريرك إسطفان قد أكمل ولايته حتّى توفّاه الله في نيسان (إبريل) ١٧٩٣ فخلفه البطريرك **مخايل فاضل** الذي لم يعش سوى سنة ونيف. جاء بعده البطريرك فيليبُّس الجميّل الذي عاش عشرة أشهر فقط.

---

١ ـ لمزيد من المعلومات حول الراهبة هندية راجع: مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، مرجع سابق، ٣: ٤٤ ـ ٤٤٦؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية، مرجع سابق؛ خاطر، آل السعد في تاريخ لبنان، مرجع سابق؛ فهد، بطاركة الموارنة، بطاركة القرن الثامن عشر، ص٢٨٩ وما يليها.

الفَصلُ الثّامِن

تبدّلاتٌ سياسيّةٌ

بدايةَ القَرنِ التّاسع عَشَر

تَبدّلاتٌ سِياسِيّةٌ؛ تَداعِياتُ الصّراعِ بينَ البطريَركِ والأمير؛

في عهدِ القائمقاميّتين؛ البَطريَركُ مَسعَد وأحداث ١٨٦٠؛

المَوارنَــــةُ وعَهد المُتصرّفيّة؛

تبدُّلات سياسيَّة

بوفاة آخر أمير معنيّ سنة ١٦٩٧، وهو الأمير "أحمد"، انتقل حكم الإمارة من إلى الأمراء الشهابيّين الذين تسنّموا كرسيّ الإمارة إثر اجتماع قوميّ عقده وجهاء لبنان سنة ١٦٩٧ في مرج "السمقانيّة" بالقرب من "بعقلين" في منطقة الشوف، حيث أجمعوا على انتخاب الأمير "بشير الشهابيّ الأوّل"، من "راشيّا الوادي" من أعمال وادي التيم* أميرًا للبنان. وكان هذا الأمير ابنًا لأخت الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيّين. ولمّا أُرسل قرار اجتماع السمقانيّة إلى اسطنبول، أصرّ الباب العالي على أنّ "حيدر الشهابيّ" من حاصبيّا* في وادي التيم، إبن بنت الأمير "أحمد المعنيّ"، آخر المعنيّين، هو أحقّ بالولاية من بشير الشهابيّ إبن أخت أحمد. وإذ كان حيدر ابن اثنتَي عشرة سنة، وافق الباب العالي على أن يتولّى بشير الحكم بالنيابة عن حيدر إلى أن يبلغ هذا الأخير أشدّه. واحتفظ الأمير بشير الأوّل بولايته حتّى ١٧٠٧ لمّا توفّي مسمومًا. وقد اتُّهم من كانوا يتولّون أمر وصيّه بدسّ السمّ له[١].

حكم حيدر حتّى سنة ١٧٣٢، وقضى على الحزب اليمنيّ المناوىء في معركة عين دارة سنة ١٧١٢، وأعاد التقسيم الإقطاعيّ لصالح القيسيّين[٢].وكان مشايخ الإقطاع المارونيّ من الحزب الأخير، بحيث أنّ التوافق الذي نشأ بين الإمارة والبطريركيّة في

---

١ ـ راجع: مفرّج، لبنان الأصيل، مرجع سابق.

٢ ـ حول الحزبين القيسي واليمني راجع: مفرّج، لبنان الأصيل، مرجع سابق، حيث المعلومات الوافية.

عهد المعنيّين، قد استمرّ مبدئيًا في بداية عهد الشهابيّين. وسوف يستمرّ الشهابيّون في الحكم قرابة قرن ونصف (١٦٩٧ ـ ١٨٤١)، وقد عمل الشهابيّون خلال هذه المدّة من أجل المحافظة على نوع من التوازن السياسيّ بين الموارنة والدروز، بتحريض حزب على حزب، أو إثارة شيخ ضد شيخ آخر[١]. فبعد أن استتبّ الأمر للأمير حيدر، إثر معركة عين دارة، وانتزع معظم مناطق اليمنيّين من زعمائها ووزّعها على أنصاره من القيسيّين، اعترف، في الوقت ذاته، بمشيخة آل الخازن في كسروان، ومشيخة آل حبيش في قاطع غزير، فوضع هاتَين الأسرتَين على قدم المساواة مع المشيخات الدرزيّة في الجرد والغرب والشوف. وهكذا أصبحت الإمارة الشهابيّة شراكة اقطاعيّة بين المشايخ الدروز والموارنة على حدّ سواء، يترأسها الأمير الشهابيّ السنّيّ كوالٍ للبلاد[٢]. فارتاح الموارنة إلى هذا التنظيم الجديد الذي ساوى بينهم وبين الدروز في المكانة. وشكّل هذا التنظيم منعطفًا تاريخيًا في حياة الموارنة إذ لم يسبق، حتّى في عهد المعنيّين، أن تساوى رجال الإقطاع الدروز برجال الإقطاع الموارنة. فدعم الفلاّحون والتجّار منهم الإمارة الشهابيّة، إذ وجدوا فيها ضمانة لهم ضدّ سطوة الغزاة. ولم يختلف آل الخازن وآل حبيش في دعمهم للإمارة عن سائر الموارنة[٣].

كان قد خلف ثاني الأمراء الشهابيّين الأمير حيدر: الأمير موسى شهاب (أمير ١٧٠٦ ـ ١٧٣٢) الذي خلفه ولده الأمير ملحم شهاب (أمير ١٧٣٢ ـ ١٧٥٣). وقد تمكّن هذا الأخير من إسقاط ثلثَي الضرائب التي كان يتقاضاها السلطان من لبنان. وأقرّ سيادته على البقاع واتّخذ بيروت مرفأ لإمارته. وفي سنة ١٧٥٤ تنازل الأمير

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٤٧١ ـ ٤٧٢.

٢ ـ صفير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

ملحم عن الإمارة وانقطع إلى حياة تديّن وزهد وأقام في بيروت. علمًا بأنّ الشهابيّين لم يكونوا يومًا دروزًا بل كانوا من المسلمين السنّة. وقد عكف الأمير ملحم، بعد تزهّده، على درس الفقه، ومعاشرة علماء الإسلام. أمّا ولداه، فقد اعتنقا المسيحيّة على الطقس المارونيّ، ثمّ تبعهما أقاربهما، بالمصاهرة، من الأمراء الدروز اللمعيّين[1]. وأمّا أخواه: الأمير منصور، الذي كان يميل إلى الحزب الجنبلاطيّ، والأمير أحمد الذي كان يميل إلى الحزب اليزبكيّ[2]، فقد اختصما وتحاربا في سبيل الحصول على الإمارة.

في خضمّ الصراع على السلطة، وبعد الحروب الحزبيّة القيسيّة اليمنيّة، استمرّت الاضطرابات الأهليّة في الجبل اللبنانيّ إلى أن نودي بالأمير يوسف شهاب، ابن الأمير ملحم، أميرًا على لبنان في مؤتمر الباروك سنة ١٧٧٠ بعد تنازل عمّه الأمير منصور. وقد أقرّ يوسف الأمن في جرود جبيل والشمال بعد أن شهدت هذه المناطق نزاعات بين الموارنة والشيعة. وكان الوصيّ على الأمير يوسف مارونيًّا من "رشميّا"[3] اسمه سعد الخوري[4]. هو والد غندور سعد الخوري الذي كان البطريرك يوسف إسطفان عمل على تعيينه من قبل فرنسا قنصلاً لها في لبنان[5]. ويعتبر باحثون الأمير يوسف

---

١ ـ ذكر باحثون أنّه إضافةً إلى الأسباب الدينيّة التي أدّت إلى اعتناق الأسرة الحاكمة الدين المسيحي، هناك أسباب أخرى منها: النزاع اليزبكي ـ الجنبلاطي الذي جعل من الدروز أقليّةً في مناطقهم، وازدياد قوة الموارنة في شتى الميادين، وتوسّعهم الشامل، وارتباطهم بصناعة الحرير التي أحيت الصلات التجارية بين أوروبا والشرق وعزّزت تفوّقهم الاقتصادي في البلاد، فتأثّر الأمراء باختلال هذا التوازن بين الملل، وأفضى ازدياد النفوذ الماروني إلى اعتناقهم دين هذه الكنيسة. راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص٤٠ ـ ٤١؛ ويرى باحثون كنسيّون موارنة أنّه مهما تكن الأسباب السياسية التي أدّت إلى تنصّر الحكّام الشهابيين، إلاّ أن حكمة الاكليرس الماروني وتقواه ومثّله الصالح والسهر الدائب على خلاص النفوس قد ساعدت كثيرًا ورافقت عن قرب طريقة اعتناق الأسرة الحاكمة للديانة المسيحيّة. ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣١٩.

٢ ـ حول الحزبين الجنبلاطي واليزبكي رلجع: مفرّج، لبنان الأصيل، مرجع سابق، حيث المعلومات الوافية.

٣ ـ رشميّا: بلدة في قضاء عاليه من جبل لبنان، أنجبت سياسيّين وقادة كبارًا في التاريخين الحديث والمعاصر.

٤ ـ رلجع: حيدر شهاب، الغرر الحسان، ص٧٨٣.

٥ ـ بشأن السيرة الكاملة لسعد الخوري وغندور السعد راجع: مفرّج، صانعو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانيّة، مرجع سابق.

شهاب (١٧٧٠ ـ ١٧٨٨) أول أمير مسيحيّ يتمتّع بالسلطة التّامة من السلطنة العثمانية[1]. ومع نهاية القرن الثامن عشر انتقلت الإمارة الشهابيّة إلى الأمير بشير الثاني الكبير، بعد أن أمر والي عكّة، أحمد باشا الجزّار[2] سنة ١٧٨٨ وجهاء لبنان بأن ينتخبوا بشير، وهو أحد أقارب يوسف الذي قتله الجزّار في سجن عكّة، وكان بشير في الحادية والعشرين من عمره. ولن يطول الزمن حتّى يدرك الجزّار "أنّ الأمير بشير لم يكن بالحاكم الذي يتلقّى التعليمات، ويدرك المشايخ والمقاطعجيّة والوجهاء أنّ سلطتهم ستزول عندما يتسلّم أميرهم الجديد سلطاته كحاكم على لبنان"[1].

تَدَاعِيَاتُ الصّراعُ

بينَ البطريَرك والأمير

تجدر الإشارة هنا إلى أنّه إذا كان بطاركة الكنيسة المارونيّة جهة من الجهات التي كانت تفرض، بشكل أو بآخر، بعض المواقف على الأمير، فإثر استلام بشير الثاني الحكم لن يكون للبطريركيّة المارونيّة من سلطة، بعد بداية القرن التاسع عشر، كما كان لها من قبل.

---

١ - CHURCHIL CHARLES, *THE DRUZES AND THE MARONITES UNDER THE TURKISH RULE* (LONDON, 1862) P.109.

٢ ـ أحمد باشا الجزّار (١٧٢٠ ـ ١٨٠٤): ولد في البوسنة مسيحيًا، في السادسة عشرة من عمره اعتدى على امرأة أخيه وهرب إلى اسطنبول وباع نفسه إلى تاجر رقيق يهودي، استقرّ مباعاً كعبد إلى علي بك في القاهرة الذي أقامه جلاداً. بعد أن أعتقه سيده انتقل إلى دمشق حيث التحق بالجيش السوري. جزاءً لخدماته في الجيش أعطي ولاية صيدا. سرعان ما استولى على بيروت ثم جرّد لبنان من أقسامه الداخلية فأحكم قبضته على الجبل. لقّب بالجزّار بعد المجزرة التي أوقعها بالبدو في مصر فذهب ضحيتها نحو سبعين ألفاً منهم. حصّن عكّة وقاوم فيها حصار بونابرت بمساعدة الاسطول الانكليزي ١٧٩٩.

٣ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٥٠٠.

صادفت نهاية القرن الثامن عشر عمليّة زحف القائد الفرنسيّ نابوليون بونابرت على المنطقة أوائل سنة ١٧٩٩. وقد وجّه نابوليون إلى الأمير بشير منشورًا شهيرًا قال فيه:

> افتتحت مصر وقطعت التيه ودخلت سورية وهزمت جيش الجزّار وحصرته في عكّة فأطلب أن توافوني لنسحق العدو المشترك...

ولمّا كان الأمير مدركًا قوة عكّة الدفاعيّة التزم الحياد، ناويًا، بحسب أكثر الباحثين، الإنضمام إلى الجيش الفرنسيّ إذا ما سقطت قلعتها.

في هذا الوقت كان قد انتُخب الأسقف **يوسف التيّان** بطريركًا للكرسيّ الأنطاكيّ المارونيّ سنة ١٧٩٦. فأوعز إلى أبناء زعماء رعيّته بأن يقودوا المتطوّعين إلى ساحات القتال ضدّ العثمانيّين. وأمر بإرسال المؤن والذخائر إلى الجيش الفرنسيّ مع وفد أعيان البلاد. ولكنّ حملة نابوليون قد فشلت أمام هجوم الجزّار في ربيع ١٧٩٩. وبذلك قوي مركز الأمير وضعف موقع البطريرك.

هنا بدأ الصراع واضحًا بين الأمير الطامح إلى الاستفراد بالحكم، والبطريرك المارونيّ الذي أراد أن يحافظ على موقع كرسيه ونفوذه. وإثر خلافات مبدئيّة، أقدم الأمير على رفع قيمة الضرائب ستّة أضعاف، فعارضه البطريرك دون جدوى إلى أن هدّده بالحرم إن لم يتراجع عن قراره. فما كان من الأمير إلاّ أن استدعى القاصد الرسوليّ إلى قصره في بيت الدين، ونقل إليه أنّه من المستحيل عليه التفاهم مع هذا البطريرك، وأنّه لم يعد بإمكانه الصبر. فنقل السفير تهديد الأمير إلى البطريرك في دير مار شلّيطا مقبس في كسروان. وكان ردّ البطريرك أنّه بذل كلّ ما بوسعه لأجل الاتّفاق مع هذا الأمير الذي أناء الشعب تحت وطأة الضرائب والفتن، فكانت نتائج سياسته حروبًا ومداهمات، نخصّ منها بالذكر الثورتَين المعروفتَين بـ"عاميّة إنطلياس"

الأولى و"عاميّة لحفد" اللتَين ذهب ضحيّتهما أبرياء[1]. وتدخّل الأمير في الشؤون الروحيّة، فأحدث تشويشًا في إدارة الكنيسة.

أنهى البطريرك كلامه إلى القاصد الرسوليّ بتسليمه نصّ استقالة كان قد أعدّها لتنقل إلى الحبر الأعظم. وقد أصرّ هذا البطريرك على استقالته رغم مبادرة الأساقفة الموارنة إلى مطالبة الأب الأقدس بعدم قبولها. وعندما أدركت روما أنّ البطريرك التيّان قد أراد من خلال تنحّيه عن الكرسيّ البطريركيّ خير البلاد[2]، ورد جواب من المجمع المقدّس يثني على فضيلة هذا البطريرك وتواضعه وتنازله، وسرعان ما دعا القاصد الرسوليّ الأساقفة إلى انتخاب بطريرك في دير مار يوسف عينطورة كسروان فانتخبوا المطران **يوحنّا الحلو** في ٨ حزيران (يونيو) ١٨٠٩ بطريركًا.

سجّلت الإمارة عبر هذا الحدث انتصارًا على البطريركيّة. ونجد البطريرك الذي خلف البطريرك المستقيل، ينصرف إلى إعادة ترميم دير قنّوبين البعيد عن مركز الإمارة. وفي عهده عُقد "المجمع اللبنانيّ الثاني" في دير سيّدة اللويزة في نيسان (إبريل) ١٨١٨ تحت إشراف القاصد الرسوليّ، وقد قرّر هذا المجمع فصل الرهبان عن الراهبات في الأديار المختلطة، وتعيين كرسيّ ثابت لكلّ مطران ضمن أبرشيّته.

---

١ ـ من شهداء هاتين العاميّتين المطران يوسف إسطفان الثاني. فعندما هدّد البطريرك الأمير بشير الثاني بالحرم لدى رفعه الميرة من قرش إلى ستّة قروش، وقف المطران إلى جانب الشعب الماروني الكادح في عاميّتي لحفِد وإنطلياس، وقد دسّ الأمير بشير السمّ القتّال للمطران في فنجان القهوة عندما كان يقوم الأخير بزيارة للأمير في بيت الدين سنة ١٨٢٢، فمات على أثر ذلك ودُفن في دير مار روحانا البقيعة ـ كسروان.

٢ ـ يرى باحثون كنسيّون موارنة أنّه بالرغم من تنصّر الحكّام الشهابيين، أخذت الكنيسة المارونية بشخص بطاركتها وأساقفتها موقفًا حكيمًا عادلاً وشجاعًا من هؤلاء الحكّام، فكانت تساندهم في الملمّات وتشدّ إزرهم لإحقاق الحق وإحلال العدل، وتقف بوجههم عندما كانوا يعرّضون مصالح المواطنين للخطر، ويرهقون كاهل الشعب الكادح بفرض الضرائب الباهظة واستنزاف أمواله بمضاعفة الميرة المفروضة عليه. ومثل هذا الموقف الحازم من هؤلاء الأمراء كلّف البطريرك يوسف التيّان (١٧٩٦ ـ ١٨٠٨) تقديم استقالته من أعباء البطريركيّة إلى الكرسي الرسولي، بينما كثيرون يعتقدون أن استقالة البطريرك التيّان كانت حبًا للزهد والتنسّك، أمّا في الواقع فكانت احتجاجًا على سياسة الأمير بشير الثاني الكبير الظالمة. راجع: صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣١٩.

فانتقل بذلك اهتمام الكنيسة المارونيّة إلى الشأن الراعويّ، وبقي البطريرك ينظر في الأحوال الشخصيّة لأبناء كنيسته. إلاّ أنّ البطريرك الذي خلف الحلو بعد وفاته سنة ١٨٢٣، وهو البطريرك **يوسف حبيش**، قد حاول استعادة مكانة البطريركيّة المارونيّة، فانتهز مناسبة تحالف الأمير بشير مع المصريّين ضد العثمانيّين، وغضَب الآستانة عليه، ونقمة اللبنانيّين على الحكم المصريّ الذي جاء إلى لبنان نتيجة تحالفه مع الأمير بشير، ودعا إلى اجتماع صار عقْده في إنطلياس بحضور عدد من الإكليروس والمشايخ والأعيان من دروز ونصارى ومسلمين، يتقدّمهم الأمير حيدر اللمعيّ، صديق البطريرك. وفي هذا الاجتماع الذي عُرف بعاميَّة إنطلياس الثانية، تعاهد الدروز والنصارى والمسلمون على طرد المصريّين وإسقاط الأمير بشير. وقد انتهت ثورتهم بتحقيق أهدافهم. ونُفي الأمير بشير إلى مالطة في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٠. وكانت ردّة فعل الباب العالي على موقف البطريرك "تقديرًا"، فأهدى السلطان العثمانيّ البطريرك حبيش الوسام العثمانيّ المرصّع. واستجاب السلطان لطلب البطريرك تعيين "الياس الحلبي" وكيلاً عنه في الآستانة، ليكون همزة الوصل مع الباب العالي مباشرة دون المرور بوزارة الخارجيّة. ثمّ طلب تخفيض الضرائب عن لبنان فأُسقطت إلى ربع ما كان يُدفع في أيّام المصريّين. غير أنّ ما حقّقه البطريرك حبيش من تعزيز لكرسيه، لن يذهب من دون ثمن غالٍ. فقد عينّت الدولة العثمانيّة الأمير بشير قاسم ملحم عساف الشهابيّ المعروف ببشير أبو طحين خلفًا لبشير الثاني. ولا يدري أحد ما الذي حصل بعد هذا التعيين، لينقضّ دروز الشوف على موارنة دير القمر وجزّين وباقي القرى المارونيّة بمساعدة المتسلّم التركيّ. ثمّ هاجم المدينة المسيحيّة البقاعيّة: زحله، ستّة آلاف مقاتل درزيّ سلّحهم والي الشام، ولكنّ القوى المارونيّة التي جمعها البطريرك قد تمكّنت، مع الزحليّين، من صدّ الهجوم وإيقاف المذبحة عند حدّ.

إنّ ما جرى في جبل لبنان قبل نهاية النصف الأوّل من القرن التاسع عشر بتدبير تركيّ، ونتيجة حالات سلطويّة داخليّة، لم يكن سوى محاولة فاشلة شبيهة بعملية إفناء المسيحيّين وتهجيرهم التي ستجري لاحقًا، بعد حوالى أربعين سنة، في مناطق عراقيّة وتركيّة. ومثلما استعمل العثمانيّون الدروز هنا، استعملوا الأكراد هناك. ولكنّ البطريرك المارونيّ سارع إلى الصراخ، فاحتجّ لدى الباب العالي كما احتجّ لدى الدول الغربيّة. وإذ رأى الباب العالي الفرصة مناسبة لضمّ لبنان إلى الولايات العثمانيّة، أوفد إلى بيروت "مصطفى باشا نوري" الذي جمع أعيان البلاد وطلب إليهم أن يوقّعوا على عريضة يلتمسون فيها من الباب العالي تعيين حاكم عثمانيّ على لبنان، سرعان ما أوعز البطريرك إلى أمراء الموارنة ومشايخهم بالامتناع عن توقيعها، فامتنعوا. على أنّ استطنبول لم تبالِ بهذه الممانعة، وعيّنت سنة ١٨٤٢ "عمر باشا النمساوي" حاكمًا على لبنان. وقد كان هذا مسيحيًّا فأسلم وتسلّم فرقة من الجيش العثماني لمحاربة المصريّين. وفي محاولة استرضاء البطريرك، عيّن الحاكم العثمانيّ "أبو سمرا غانم[١]" قائداً للجيش، و"يوسف الشنتيري[٢]" مساعدًا له، والشيخ "فرنسيس

---

١ - ابو سمرا غانم (نحو ١٨٠٢–١٨٩٥): بطل لبناني مارونيّ، ولد في بكاسين من أعمال قضاء جزّين في لبنان الجنوبي وتوفي فيها، انخرط في خدمة الأمير بشير الثاني ١٨٢٥، اشترك في الثورة على ابراهيم باشا ١٨٤٠، وثورة جبل الاكراد ١٨٤٧، قاد جزءًا من المقاومة الزحليّة سنة ١٨٤٠، عُيّن شيخاً على شمال لبنان ثم تقلّب في المناصب الإداريّة والعسكريّة.

٢ - يوسف آغا الشنتيري (١٨٠٨ - ١٨٧٨): بطل لبناني ماروني، في عمر السابعة عشرة هاجم المختارة باسم بشير الكبير وصرع بسيفه زعيم مقاتليها "علي هلال" واحتلّ سرايا كبير الجنبلاطيّين، كان في مقدّمة الثائرين على ابراهيم باشا المصري ١٨٤٠ وإلى جانبه البطل الآخر أبو سمرا غانم - راجع أعلاه - فانتصرا، نُفي إلى سنار مع الأمير حيدر أبي اللمع، خاض الحروب في حركات منتصف القرن التاسع عشر، أدخله عمر باشا النمساوي قائدا في جيشه على الجنود المسيحيّين، قهر بني العريان في المسقانيّة، نفّذ للدولة بشخص الأمير حيدر أبي اللمع مهام حفظ الأمن وجمع الضرائب فقهر العصاة في الكورة وأسر عشرين زعيمًا في بزيزا من شمال لبنان، عاون الفرنسيّين ١٨٦٠، دخل سلك الحكومة إلى أن مات ابنه فحزن واعتزل الخدمة وانصرف لتدبير أملاكه حتّى مماته إثر مرض عضال.

الخازن[1]" حاكمًا على كسروان. وكان هؤلاء الثلاثة من الموارنة الأشدّاء الذين يناصرون البطريرك. وضيّق الحاكم العثمانيّ على الدروز الذين نقموا عليه وحاولوا الاتّفاق مع الموارنة فلم يرضَ البطريرك بذلك. ولعلّ ذلك كان من جملة أسباب حركة ١٨٦٠ المشؤومة[2].

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى أحدث العثمانيّون فتنة بين المشايخ الدحادحة الموارنة وأندادهم المشايخ الحبيشيّين الذين قُتل ثلاثة منهم. وكالعادة تحجّج الوالي العثمانيّ بهذه الفتنة ليرسل فرقتَين عسكريّتَين إلى القرى المارونيّة في شمال لبنان حيث أحرقت الكنائس وعبثت بالقرى. وبدت ملامح ثورة مارونيّة عارمة اضطر على أثرها الوالي التركيّ إلى زيارة البطريرك، حيث أكثر له من الوعود ليقبل به حاكمًا على لبنان. فأجابه:

> أنت من الأشخاص الأكفاء لتولّي الحكم، إنّما عيبك الوحيد هو أنّك أجنبيّ ونحن لا نقبل أجنبيًا[3].

إثر هذا الاجتماع الذي لم يحقّق منه مصطفى باشا أهدافه، إذ لم يتمكّن من إقناع البطريرك بقبول حاكم عثمانيّ، لجأ إلى تزوير أختام بعض الأعيان وإلى اغتصاب تواقيع قسم من المسيحيّين في الجنوب، ونظّم عريضة تطالب بعمر باشا حاكمًا على لبنان. غير أنّ البطريرك أوفد إلى اسطنبول مبعوثًا من قِبَله لينقل إلى سفراء الدول مطالبته بإيقاف المحاولة العثمانيّة للقضاء على الحكم الذاتيّ في جبل لبنان، ورغبته

---

١ ـ الشيخ أبو نادر فرنسيس الخازن: قائد عاميّة إنطلياس ١٨٤٠، بعد فشل العاميّة فرّ من وجه الأمير بشير إلى قبرص، عاد إلى كسروان محارباً ضدّ المصريّين إلى جانب الجيوش العثمانيّة والبريطانيّة، عيّنه العثمانيّون شيخاً على كسروان بعد انهزام المصريّين.

٢ ـ حول ملابسات هذه الوقائع راجع: مفرّج، لبنان الأصيل، مرجع سابق.

٣ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٨٨.

بإعادة الأمير بشير الثاني إلى حكم لبنان لأنّه وحده القادر على ضبط أموره. وكان هذا الأمير، قد اقتنع بمشورة البطريرك، بعد أن زال النفور من بينهما، وانتقل إلى اسطنبول مع أسرته ساعيًا لاسترضاء الباب العالي.

في عهدِ القائمقاميّتين

نجح الموفد البطريركيّ في حمل سفراء الدول على تأييد رغبة البطريرك. وقد جابه الصدر الأعظم هؤلاء السفراء بالعريضة المزعومة التي يطالب فيها اللبنانيّون بحاكم عثمانيّ. وإذ أبانوا له أنّ تلك العريضة مزوّرة، اعترض السلطان على إعادة الأمير بشير إلى الحكم بحجّة أنّه خان الدولة وحارب إلى جانب المصريّين، وبأنّ الدروز لا يقبلون حاكمًا نصرانيًّا. وقد رأى السفير البريطانيّ الفرصة ملائمة لعرض اقتراحه بشطر لبنان إلى قائمقاميّتين، يتولّى أمير درزيّ القائمقاميّة الجنوبيّة الآهلة بأكثريّة درزيّة، ويحكم الشطر الآخر، حيث الأكثريّة المسيحيّة، أمير مارونيّ. وسرعان ما أيّد سفير النمسا هذا الاقتراح، وجرّ وراءه باقي السفراء ما عدا سفير فرنسا الذي قبله بصورة موقّتة على سبيل التجربة. ورأى الباب العالي أنّ من شأن هذا التقسيم أن يزيد شقّة الخلاف ويفسح في المجال للقضاء نهائيًا على استقلال لبنان فسرّ به، وعزل مصطفى باشا وعمر باشا فورًا وأرسل يسأل البطريرك المارونيّ عمّن يريده حاكمًا على القائمقاميّة المسيحيّة. وإذ لم يجد البطريرك مناصًا من القبول بهذا الحلّ، اختار الأمير "حيدر اللمعي" لهذا المنصب، وهو يتحدّر من أسرة مارونيّة كانت درزيّة وتنصّرت منذ عهد قريب، تولّى اقطاع جدوده في منطقة المتن من جبل لبنان. وقد بقي هذا الأمير من سنة ١٨٤١ إلى يوم وفاته في ١١أيار (مايو) ١٨٥٤ يدير شؤون القائمقاميّة المسيحيّة، مع رجال أكفاء بينهم كهنة يتولّون القضاء. وكان يحكم مع مجلس مؤلّف من اثنَي عشر عضوًا، وكانت بكفيّا من أعمال المتن في جبل

لبنان عاصمة حكمه. وكان حجم القائمقاميّة المسيحيّة، الذي يمكن تسميتها بالإمارة المارونيّة، يشكّل ثلثَي لبنان آنذاك. وإذ أدرك الباب العالي أنّ من شأن هذه المساحة أن تزيد في مكانة تلك الإمارة، سلخ عنها مقاطعات جبيل والبترون والكوره والجبّة، وضمّها إلى ولاية طرابلس، وعيّن لها حاكمًا عثمانيًا، وفرض عليها جزية إضافيّة. فسارع البطريرك من جديد إلى إرسال مندوبه إلى باريس ليقدّم لحكومتها تقريرًا يبيّن الإجحاف اللاّحق بالموارنة وعموم المسيحيّين اللبنانيّين جرّاء هذا التدبير، لأنّ لبنان الشماليّ هو مهد المارونيّة وقلبها ومركز بطريركها.

تلقّت الحكومة الفرنسيّة هذا التقرير باهتمام بالغ، وأوعزت إلى سفيرها في الآستانة فاحتجّ على ذلك الاقتطاع الجائر، واقتنع الباب العالي بإرجاع المقاطعات المسلوخة، فبقي موضوع القرى المارونيّة الواقعة في حكم القائمقام الدرزيّ، وقد أطلع البطريرك سفراء الدول على ما في وضع الموارنة تحت رحمة خصومهم من خطر، فألحّ على الباب العالي حتّى رضي بتعيين وكيل مارونيّ في كلّ من تلك القرى، يرجع إليه بنو ملّته في جميع مشاكلهم، وهو يتعاطى حلّها مع القائمقام[1]. وتوفّي البطريرك يوسف حبيش مع بداية أحداث ١٨٤٥ التي سوف تقضي على نظام القائمقاميّتَين وعلى كلّ من القائمقاميّتَين المسيحيّة والدرزيّة، وستمهّد لأحداث أكثر منها خطورة، هي أحداث ١٨٦٠ التي ستؤدّي بدورها إلى نشوء المتصرّفيّة.

عندما صار انتخاب المطران **يوسف الخازن** بطريركًا للكنيسة المارونيّة في ١٨ آب (أغسطس) ١٨٤٥ ليخلف البطريرك يوسف حبيش، كانت الغيوم المكفهرّة المتلبّدة في الأفق السياسيّ تنذر بشرّ مستطير. فبعد أن أحرق الموارنة أربع عشرة قرية

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٨٨ ـ ٩٠؛ راجع: سجل بكركي III ص٤٧٧ وما يليها؛ الشدياق، تاريخ الأعيان، مرجع سابق، ١: ٩٩ وما يليها.

درزيّة، زحفوا على المختارة مقرّ "الجنبلاطيّين[1]" حيث كان بانتظارهم فيلق تركيّ أصلاهم نارًا حامية. وفي حادثة "عبيه[2]" انحاز الأتراك أيضًا إلى جانب الدروز. وامتدّت نار الفتنة إلى "جزّين[3]" و"دير القمر[4]" وأماكن أخرى[5]. فسارعت اسطنبول إلى إرسال وزير خارجيّتها "شكيب أفندي" في صيف تلك السنة ومعه مطلَق الصلاحيات، معزّزًا بقوة عسكريّة لنزع السلاح من جميع السكّان، مبدئيًّا. وإذ سارع الوزير إلى البدء في تنفيذ مهمّته، لاقى مقاومة مارونيّة في شمال لبنان حيث نشبت معركة بين المقاومين وعسكر السلطان، تدخّل البطريرك الخازن لإيقافها بعد أن مالت كفّة الحسم لمصلحة العثمانيّين. وراح شكيب أفندي، الذي وضع نظامًا موقّتًا ساد لبنان إلى سنة ١٨٦١ وعُرف بنظام شكيب أفندي، يسعى للحدّ من سلطة الأمراء والوجهاء، ما سيؤدّي، في النهاية، إلى الانفجار العنيف: حركة ١٨٦٠.

---

١ ـ الجنبلاطيّون: من أُسر لبنان الدرزية السياسيّة، تنتسب إلى جان بولاد الكردي، استقلّت بحكم كلس قرب حلب في بداية القرن السابع عشر، هاجرت إلى لبنان ١٦٣٠ بدعوة من فخر الدين ٢ المعني، فأصبح مشايخها من زعماء الإقطاع في لبنان.

٢ ـ عَبَيْه أو أعْبَيه: بلدة في قضاء عاليه من جبل لبنان، مقرّ أمراء الغرب التنوخيّين الدروز في القرن ١٤، والأمراء الشهابيّين في القرن ١٧، فيها قبر الأمير عبدالله التنّوخي المتوفي ١٤٩٧، والتنوخيون أو بنو تنّوخ: قبيلة عربية مسيحيّة الأصل من شعوب مملكة الحيرة في العراق، انتقلت إلى بلاد حلب واعتنقت الإسلام في عهد المهدي العباسي (خليفة ٧٧٥ ـ ٧٨٥)، استوطنت جماعة منهم جبل لبنان اعتنق أفردها مذهب التوحيد الدرزي مع ظهور الدعوة، استولوا على بيروت بعد نزوح الصليبيّين منها ١٢٩٤؛ راجع: الدروز، الجزء الحادي والعشرين من هذه الموسوعة.

٣ ـ جزّين: بلدة في جبل لبنان الجنوبي، مركز قضاء جزّين المتصل بالشوف. بالقرب منها المغارة التي لجأ إليها فخر الدين الثاني، سكّانها مسيحيّون جلّهم من الموارنة.

٤ ـ دير القمر: بلدة في قضاء الشوف من جبل لبنان، عاصمة التكّل الماروني فيه، عاصمة الأمراء المعنيّين والشهابيّين، تحفظ آثاراً من عهد الإمارة: سرايا فخر الدين، ودورًا لبنانيّة من عهد الأمير بشير ٢، معبد سيدة التلّة الماروني الشهير.

٥ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٢٩؛ اسكندر أبكاريوس، نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان (مخطوط) CHURCHCIL, *DRUZES*, OP. CIT., PP. 91-92; *CORRESPONDANCE RELATIVE TO THE AFFAIRS OF SYRIA*, PT. I, 1834, 1844, 1845, (LONDON,1844) PP. 106 SEQ.

أبقى شكيب أفندي لبنان مقسومًا إلى قائمقاميّتَين، على الرغم من كلّ ما بُذل من مساعٍ لإعادة الإمارة إلى الشهابيّين. وأنشأ مجلسًا إداريًّا في كلّ من القائمقاميّتَين يمثّل المذاهب جميعًا، ونظّم القضاء والإدارة والضرائب، وأوجد هيئات إداريّة أشرك فيها السكّان على اختلاف طبقاتهم ومللهم، وبقي القائمقامان موظّفَين يختارهما والي صيدا. وكان كلّ قائمقام يرأس مجلس الإدارة في قائمقاميّته، ويراقب أعماله، دون أن يكون له حقّ مخالفة رأي المجلس، الذي كان يتّخذ قراراته بالأكثريّة، إلاّ أنّ القائمقام كان مسؤولاً عن تنفيذ القرارات.

بالرغم من أنّ نظام شكيب أفندي قد أضعف الاستقلال الإداريّ لجبل لبنان، فقد وافقت الدول الأوروبيّة عليه، إذ كانت ترغب في إنهاء المشكلة بأيّ ثمن. كما كان اللبنانيّون بحاجة ماسّة إلى الراحة والاستقرار، للانصراف إلى أعمالهم المنتجة، بعد أن أنهكتهم القلاقل وأفسدت عليهم حياتهم. بيد أنّ هذا النظام قد أضعف نفوذ الإقطاعيّين في الحقلَين: القضائيّ والإداريّ، بل وتعدّاهما إلى الحقل الماليّ، إذ أوجب أن تكون الضرائب عامّة ومتناسبة مع الملكيّة. وقد اتّضح أنّه كان لذلك النظام ميّزة رئيسيّة هي: إضعاف النظام الإقطاعيّ بشكل كبير، خاصّة وأنّه أوجب المساواة أمام القانون في دفع الضرائب، وفتَح باب التوظيف وعضويّة المجلس الإداريّ أمام جميع اللبنانيّين، دون تفرقة في الطبقات. ويتّضح من خلال مراجعة سيرة البطريرك يوسف الخازن أنّه، رغم تحدّره من أسرة إقطاعيّة، ورغم أنّ نظام شكيب أفندي، بإضعافه نفوذ الإقطاعيّين قد أضعف نفوذ المقامات الروحيّة وخاصّة البطريرك المارونيّ، فإنّ هذا البطريرك قد أصدر جملة مراسيم، وأوجب وضعها موضع التنفيذ، استهدف بعضها امتيازات الإقطاعيّين، منها مرسومه الذي شدّد فيه على عدم سماع الإعترافات خارج منبر التوبة. ولمّا كان من عادات المشايخ استدعاء الكاهن إلى بيوتهم لسماع

اعترافاتهم، تهدّد البطريرك بالحرم كلّ كاهن يسمع اعترافًا في بيت أيّ كان من مشايخ أو غيرهم، إلاّ في حالات المرض الشديد. ومن مراسيمه أيضًا تلك التي منعت النساء من الدخول إلى الكنائس كاشفات الرأس وبلباس غير لائق. ولا شكّ في أنّه قد استهدف منهنّ نساء المشايخ لأنّهن الوحيدات اللواتي كنّ يقدمن على "مثل هذه الجرأة". وكثيرًا ما كان هذا البطريرك ينذر بسوء العاقبة بعض أقاربه من جرّاء ما كانوا يأتونه من تصرّفات غير لائقة[1].

البَطريَرك مَسعَد وأحدَاث ١٨٦٠

عندما انتُخب **بولس مسعد** بطريركًا للكنيسة المارونيّة بعد عشرة أيّام من وفاة البطريرك يوسف الخازن في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤، كان نظام شكيب أفندي في منتصف عمره! وكان بولس مسعد من عائلة مارونيّة كسروانيّة من بلدة "عشقوت"[2]، وهو من خرّيجي مدرسة روما المارونيّة. وقد اشتهر ببراعته في العلوم الدينيّة والتاريخيّة، وبتقواه، وبحكمته. وشهدت المدوّنات على أنّه عالج بفطنة نادرة الأحداث التاريخيّة التي عايشها. وقد انصرف بشكل أساسيّ إلى تنظيم الشؤون

---

١ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٩٥ ـ ٩٦.

٢ ـ **عَشقُوت**: بلدة في وسط قضاء كسروان. إسمها سريانيّ الأصل: "عسقوته" أي "الوعرة والعاصية"، علماً بأن كسروان نفسه كان يعرف بالعاصية، سكنها الشيعة بعد أن خرب المماليك المنطقة في القرن الرابع عشر قبل أن يعود الموارنة إليها في أوائل القرن السابع عشر، وأصل أسرة مسعد من بني المشروقي الذين منهم عائلات عوّاد والشدياق والسمعاني... راجع: مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانية المصورة، مرجع سابق، ٣: ٢٠٦ ـ ٢٠٨؛ مفرّج طوني، بنو المشروقي أصول وفروع، منشورات بيوغرافيا (جبيل ـ لبنان،١٩٩٩)؛ الشبابي الاب ميخايل غبريل، كشف النقاب عن بقعة بيت شباب، مرجع سابق؛ عواد المحامي ابراهيم، ابرشية قبرص المارونية (بيروت ١٩٥٠)؛ فريحة د. انيس، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، الجامعة الاميركية (بيروت،١٩٥٦): الحتوني، المقاطعة الكسروانية، مرجع سابق؛ مفرّج كوني، قرى ومدن لبنان، منشورات نوبليس، ٢١ جزءًا (بيروت،٢٠٠٢) الجزء السادس عشر؛ مفرّج طوني، حصرون ٢٠٠٠ منشورات بيوغرافيا (جبيل ـ لبنان،٢٠٠٠).

الكنسيّة، فعقد بأمر من البابا بيّوس التاسع (١٨٤٦ ـ ١٨٧٨) مجمعًا مارونيًا في بكركي من ١١ إلى ١٣ نيسان (إبريل) ١٨٥٦، وُصف بأنّه أطول وأفضل مجامع الموارنة بعد المجمع اللبنانيّ. أمّا الأحداث والقلاقل التي حصلت في الحقبة التي تولّى فيها مسعد البطريركيّة المارونيّة فأهمّها: ثورة الفلاحين على المشايخ الخوازنة في كسروان، وضع "نظام لبنان الأساسي" سنة ١٨٦١ ونشوء المتصرفيّة. وفي هذه الحقبة كان قائمقام النصارى الأمير بشير أحمد اللمعيّ.

سنة ١٨٥٨ كثرت القلاقل والفتن في المجتمع المارونيّ، وقد بدأت بغزو الحماديّين الشيعة بلدة "قرطبا" في أعالي بلاد جبيل، ثم وقعت فتنة بين المتزعّمين في "زحلة" وفي منطقة "المتن" وفي "العاقورة"، ونشأ خلاف بين مدينتَين مارونيّتَين تُعدّان من أهمّ البلدات المارونيّة في شماليّ لبنان هما: "إهدن" و"بشرّي". كذلك اقتتل فلاّحو بلدة "غزير" مع مشايخها من الحبيشيّين. وإذ كان للقائمقام خصوم يتزعّمهم الشيخ ابراهيم الخازن، قرّر القائمقام، المنتمي إلى أسرة إقطاعيّة، محاولة القضاء على الإقطاع في كسروان أوّلاً، ثم في سائر المقاطعات. ذلك أنّ الحزب الذي كان يخاصم القائمقام، كان جلّه من الإقطاعيّين.

كان أبرز معاوني القائمقام على إثارة هذه الفتنة الهوجاء رجل من الروم الكاثوليك من بلدة "زوق مكايل" الكسروانيّة الساحليّة، يُدعى "الياس المنيّر"، نشر فكرة الثورة في قرى كسروان الجنوبيّة، وأقام في كلّ قرية وكيلاً لبثّ الدعاية، ووكيلاً عامًّا إسمه "صالح صفير العجلتوني". وكان القائمقام يرسل الأوامر من بيروت إلى الزوق، و"المنيّر" يرسلها بدوره إلى "العجلتونيّ" الوكيل العام. وأخذ المشايخ يستعدّون للمقاومة. ولمّا أدرك "العجلتُونيّ" غوائل الثورة، استقال من الوكالة العامّة، فعيّن مكانه "شيخ شباب ريفون" القريبة من عجلتون،"طانيوس شاهين سعادة" (١٨١٥ ـ ١٨٩٥)،

وهو رجل شديد المراس كان يتعاطى البيطرة. وسرعان ما هاجم الشعب بقيادته دُور المشايخ آل الخازن بإطلاق الرصاص، فهرب المشايخ بنسائهم وأولادهم إلى جهات جبيل والبترون ومنطقة "بيت شباب" من أعمال قضاء المتن، ونهب الفلاّحون بيوتهم ووضعوا أيديهم على المواسم، وقتلوا عددًا من النساء والرجال والأولاد[١].

هكذا رأى بعض مؤرّخي الكنيسة المارونيّة ما عُرف بحركة طانيوس شاهين، غير أنّ بعض المؤرّخين الأكثر شموليّة واستقلاليّة قد رأى أنّه "في سنة ١٨٥٨ نشبت ثورة مارونيّة قام بها الفلاّحون بزعامة رجل من العامّة: طانيوس شاهين من ريفون، الذي كان بيطارًا يعمل في دير للعازاريّين هناك[٢]. فطردوا آل الخازن وجماعة أخرى من أعيان الموارنة من إقطاعاتهم واستولوا عليها ووزّعوها على الفلاّحين. وفي السنة التالية أعلن شاهين قيام حكومة فلاّحين ونصّب نفسه حاكمًا مطلقًا[٣]. أمّا البطريرك المارونيّ، بحسب هذا النصّ، فقد تجاهل الأمر. وأمّا الخوارنة والقسس الذين كانوا من عامّة الناس، فقد شجّعوا الناس على الثورة هذه وأيّدوها، لأنّ سلطة الأكليروس المارونيّ ونفوذه كانا قد تضاءلا كثيرًا إزاء نفوذ الاقطاعيّين الموارنة وسلطتهم الواسعة. أمّا موظّفو الأتراك فإنّهم وقفوا يترقّبون أن تنتهي الحوادث الجارية إلى ما فيه صالحهم ونفعهم. وفي هذه الأثناء كانت حياة المسيحيّين وممتلكاتهم في المناطق الدرزيّة على كفّ عفريت. فإنّه في غضون عشر سنوات قُتل منهم ما يربو على سبعمئة قتيل بدون أن يعاقَب قاتل واحد وبدون أن يجري أيّ تحقيق قضائي"[٤].

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٩٨.

٢ ـ COMTE DE PARIS, *DAMAS ET LE* LIBAN (PARIS, 1861) P.102

٣ ـ العقيقي أنطوان، ثورة وفتنة في لبنان، مرجع سابق، ص٨٢ ـ ٩٠.

٤ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٥٣٠.

بيدَ أنّ مؤرّخي البطريركيّة المارونيّة يبيّنون أنّ البطريرك بولس مسعد قد قام بجهود كبرى بخلال هذه الفتنة، خلافًا للرأي السابق، إذ "استدعى وكلاء القرى وكبار المشايخ وأشار بعقد اجتماع لانتخاب أحد المشايخ حاكمًا للمقاطعة الكسروانيّة. وقبِل الوكلاء بهذا الحلّ. أمّا المشايخ فلم يرضوا بأن يشترك معهم الفلاّحون بهذا الانتخاب، وكانوا يأملون بأنّ "خورشيد باشا"[1] سينجز وعده بإرجاع الأهالي إلى طاعتهم. عندئذ ازداد طانيوس شاهين اندفاعًا في شنّ الغارات. وكرّر المشايخ عرائضهم إلى الباشا الذي أتى بعسكره إلى "المديرج"[2] ليدخل كسروان من الجهة الغربيّة، فاحتجّ البطريرك على دخول العسكر النظاميّ إلى لبنان بدون إنباء مجلسه، فرجع الوزير بجيشه إلى "بيت مري" من أعمال المتن، وطلب رأي ديوان قائمقاميّة النصارى الذي أشار بتنبيه الأهالي ونصحهم بالإخلاد إلى السكينة قبل اللجوء إلى القوّة العسكريّة، وكلّف الشيخ "عيد حاتم" القيام بهذه المهمّة، فقام بها خير قيام وهدأت العاصفة... وأقام المشايخ ثلاثة وكلاء في بيروت للمطالبة بحقوقهم، فلم ينالوا سوى وعود فارغة. وظلّ البطريرك المرجعَ الوحيد، وتوصّل بحكمته وطول أناته إلى كبح جماح الثائرين[3].

في الوقت الذي كان الموارنة يقتتلون في عرينهم، كان الدروز يدًا واحدة بزعامة أعيانهم. وما كاد الإقتتال المارونيّ ينتهي إلى ما انتهى إليه، حتّى جاءت سنة الشؤم في تاريخ لبنان: سنة ١٨٦٠ التي عُرفت أحداثها بـ "مذابح الستّين" أو "حركة الستّين" كما تعرفها العامّة، وهي الحرب الأهليّة التي وقعت بين الدروز والموارنة، والتي لم يكن

---

١ ـ خورشيد باشا: والي بيروت وصيدا العثماني ١٨٥٧ ـ ١٨٦٠، كانت له اليد الطولى في اشعال الفتن في لبنان، حُكم عليه بالنفي المؤبّد.

٢ ـ المدَيْرِج: منطقة جبليّة قرب "ضهر البيدر" على الطريق بين بيروت ودمشق، تصل جبل لبنان بالبقاع.

٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص٩٨.

هنالك من أسباب مباشرة لنشوبها. "بل كان ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّها كانت فتنة مدبّرة"[1]. وقد بدأت الفتنة في شهر نيسان (إبريل) وظلّت نيرانها تستعر حتّى آخر شهر تمّوز (يوليو) من تلك السنة المشؤومة. وكانت الحوادث التي أدّت إلى نشوب الفتنة قد بدأت في صيف السنة السابقة عندما تشاجر صَبيان، مارونيّ ودرزيّ، كما يتشاجر الصبيان. ولكنّ هذه الحادثة أدّت إلى قتال بين دروز القرية والمسيحيّين فيها أسفر عن مقتل عدد من الدروز، أكبر من عدد قتلى المسيحيّين. وقد حدثت مناوشات متقطّعة بين الدروز والمسيحيّين في المناطق التي يقطنها من الفريقين. ثمّ حلّ الشتاء، وكان شتاءً باردًا قاسيًا، فخُيّل للناس أنّ هذه المدّة من الهدوء النسبيّ كانت فترة تهيّؤ واستعداد لأمر لا مفرّ منه. وكان مشايخ الدروز يتّصلون علنًا بخورشيد باشا في بيروت ويجرون معه مفاوضات. ويقال إنّهم تسلّموا أسلحة بواسطته. ولمّا نشبت الثورة شعر كلّ مسيحيّ قاطن في المنطقة الدرزيّة أنّ حياته في خطر شديد. وفي خلال أسابيع قليلة أُحرق أكثر من ستّين قرية من قرى المتن والشوف. أمّا الجيش التركيّ النظاميّ (باش بزق) فإنّه لم يحاول أن يوقف القتال، بل كان موقفه على نقيض هذا، إذ إنّه أساء معاملة (المسيحيّين) الهاربين اللاجئين إلى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه من ثياب وأموال. أمّا كسروان ومنطقة شمال لبنان فلم يصبهما أذى من هذه الفتنة التي لم يكن لها من أثر حاسم في القتال، فقد جاءت قوّتان رمزيّتان من تلك المناطق لمساعدة إخوانهم في (جبل) لبنان الجنوبيّ وفي المتن، وكان على رأس أحديهما "يوسف بك كرم[2]" من إهدن، وكان زعيمًا وطنيًا في منطقته، وطانيوس شاهين* من ريفون، وقد

---

١ ـ راجع: مفرّج، لبنان الأصيل، مرجع سابق.

٢ ـ يوسف بك كرم (١٨٢٢-١٨٨٩): زعيم ماروني سياسي وعسكري وأديب وشاعر ولاهوتي، اشتهر بفضائله وبسالته في مقاومة العثمانيين، ولد في إهدن من أعالي لبنان الشمالي، قائمقام النصارى ١٨٦٠ ـ ١٨٦١، اضطر إلى ترك لبنان فسافر إلى إيطاليا وبقي فيها ٢٢ سنة، وفيها مات ١٨٨٩، وقد نقل الإهدنيّون رفاته إلى مسقط رأسه في إهدن، ووضعوه في قبر خاصّ داخل كنيسة

سبقت الاشارة إليه. غير أنّ الموظّفين الأتراك حاولوا، بالوعد والوعيد، أن يمنعوا اتّصال هذين الزعيمَين بإخوانهم في الجنوب. وكذلك كان لتدخّل فرنسا في الأمر يد في وقف هذه المساعدة. أمّا رجال الدين، من الموارنة، فكانوا يهاجمون الخصم بسيل من الاحتجاجات والتقبيح ويشجعّون أتباعهم على متابعة القتال بشتّى الوسائل والوعود. ويرى باحثون أنّ مواقف الإكليروس، عمومًا، في هذه الفتنة، كانت أقرب إلى الضرر منه إلى النفع. أمّا المعسكر المقابل: الدرزيّ، فقد انهالت عليه المساعدات العسكريّة من حوران، إذ جاءته نجدة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة "اسماعيل الأطرش". وأمّا قائد الثورة في لبنان فقد كان "سعيد جنبلاط" يعاونه "خطّار العماد" و"علي حماده"، وجميعهم من أسر موحّدة درزيّة قياديّة[1]. ثم جاء دور المدن. وكانت أساليب الثورة في المدن الأساليب ذاتها في الأرياف: كان قائد الحامية التركيّة في المدينة يعرض حمايته للنصارى مقابل تسليم الأسلحة، ثم يقف يتفرّج عليهم يُذبحون. هكذا كان مصير دير القمر* حيث قُتل ٢٦٠٠ نسمة. وفي جزّين* وجوارها قُتل ١٥٠٠ نسمة. وفي "حاصبيّا[2]" وادي التيم* قُتل من الروم الأرثوذكس حوالى ١,٠٠٠ نسمة من أصل مجموع سكّانها الأرثذوكس البالغ ستة آلاف. وفي "راشيّا

مارجرجس، من آثاره الأدبيّة: "رسالة الاسكندرية" ١٨٦٣، و"رسالة المحموديّة" ١٨٦٤، و"مذكرة إلى حكومات أوروبا وشعوبها" بالفرنسيّة ١٨٧١، و"مفكرة لمن يريد أن يطالعها" دعا فيها مفكري العالم إلى تأليف جمعية دوليّة باسم "جمعيةُ حقّ العباد" وذلك قبل نشوء "عصبة الأمم" و"شرعة حقوق الإنسان" بعشرات السنين، وله "الرد على الأونيفر" ١٨٧٢، و"مذكرة إلى الكنيسة وفرنسا" بالفرنسية والعربية ١٨٧٦، و"موالف الموارنة" بالفرنسيّة، و"إيضاحات" ١٨٧٧، و"رسالة بشأن الأرمن" ١٨٧٤، و"مشروع اقتصادي سياسي" بالفرنسيّة، و"تقارير"، و"مذكرات روحية" طبعت ١٨٨٣، و"رسائل"، و"غراماطيق"، و"مختصر اللاهوت"، وله منظومات شعريّة.

١ ـ راجع: الجزء الحادي والعشرين من هذه الموسوعة.

٢ ـ حاصبيّا: بلدة في لبنان الجنوبي، قاعدة قضاء حاصبيا (وادي التيم سابقاً) بالقرب منها خلوة البياضة للدروز، وهي المقام الديني الأعظم لدروز لبنان وفيه مجلس شوراهم، وهي غير حاصبيّا قضاء بعبدا! راجع: مفرّج، قرى ومدن لبنان، مرجع سابق، ٩: ١٣١.

الوادي[1]" هلك ثمانمئة نسمة[2]. أمّا "زحلة[3]" أكبر المدن في داخليّة لبنان، وكان عدد سكّانها آنذاك قرابة ١٢ ألف نسمة، فقد صمدت في بادىء الأمر بشجاعة إلى أن غُلبت على أمرها في وجه هجمات جماعات كبيرة من الحوارنة ومن بدو الصحراء. هذه المدينة، القابعة في وادي نهر "البردَوني" المنساب سلسبيلاً من سفح صنّين، لم ينجُ بيت واحد فيها من الحريق... وقد ازدحمت الطرقات المؤدّية من القرى إلى مدن الساحل بالهاربين الذين لم ينجْوا من تعدّيات الجند التركيّ. فقتل مسلمو صيدا نحوًا من ثلاثمئة لاجيء[4]. وقد كان عدد الضحايا الذين سقطوا خلال أشهر ثلاثة وفي بقعة قطرها بضعة أميال، اثنَي عشر ألف قتيل. وكانت الخسارة في الأملاك تُقدّر بأربعة ملايين ليرة انكليزيّة ذهبيّة، خاصّة وأنّ الفتنة قد وقعت في موسم تربية دود الحرير، ذلك الموسم الرئيسيّ في حياة الناس الإقتصاديّة. ولم يقتصر الخراب والحريق على البيوت بل شمل الكنائس والأديرة"[5]. وعندما لم يعاقب المجرمون في لبنان، وقد تواطأ

---

١ ـ راشيا الوادي: بلدة في البقاع الغربي من لبنان فيها قلعة للأمراء الشهابيين، عندها قاتل الزعيم الدرزي شبلي العريان جيش ابراهيم باشا ١٨٤٠، وعندها سوف تقع المعركة بين الفرقة الأجنبيّة الفرنسيّة وبين فرسان الدروز ١٩٢٥، وإليها سوف تنفى حكومة الاستقلال ١١ ـ ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٣؛ راجع: مفرّج، قرى ومدن لبنان، مرجع سابق، ١٢: ١٠٠.

٢ ـ راجع: FURTHER, *PAPERS RELATING TO THE DISTURBANCES IN SYRIA*, JUNE 1860(LONDON,1860) PP.40-46.

٣ ـ راجع: مفرّج، قرى ومدن لبنان، مرجع سابق، ١٣: ١٤.

٤ ـ بيّنت دراساتنا الموضعيّة الموثّقة أنّ قيادات وأسر مسلمة سنيّة وشيعيّة في صيدا والنبطيّة وسائر جنوب لبنان، قد حمت العديد من الأسر المسيحيّة اللاجئة في خلال تلك الأحداث المجنونة والمشؤومة.

٥ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٥٣٠ ـ ٥٣٢؛ أبكاريوس اسكندر، نوادر الزمان، ص ٤٢ وما يليها؛ مشاقة ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، نشر ملحم عبده وإندراوس شخاشيري (القاهرة، ١٩٠٨)، ص١٥٨ ـ ١٦٨؛ ابو شقرا حسين، الحركات في لبنان، نشره عارف ابو شقرا (بيروت،١٩٥٢) ص١١٣ ـ ١٣١؛ للأطلاع على الوثائق الرسمية: *CORRESPONDENCE RELATING TO THE AFFAIRS OF SYRIA 1860 - 1861* (LONDON,1861); DRIAULT EDWARD, *LA QUESTION* D'ORIENT, 8E ED. (PARIS,1921) PP. 194 -195; *SOUVENIRS DE SYRIE*, (PARIS,1903) PP.32 - 89; F. CHARLES-ROUX, *FRANCE ET CHRÉTIENS D'ORIENT* (PARIS,1939) PP. 183 - 186; DE TESTA I., *RECUEIL DES TRAITÉS DE LA PORTE OTTOMANE*, VOL. VI, PP. 67 -101; ISAAC, *RILEY SYRIAN HOME - LIFE* (NEW YORK,1874) PP.250

الموظّفون الأتراك معهم، تشجّع أهل دمشق المسلمون على مهاجمة المسيحيّين فأحرقوا الحيّ المسيحيّ في المدينة وقتلوا عشرة آلاف نسمة. وفي العام ١٩٢٦ طوّب البابا بيّوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) ثلاثة إخوة من أسرة مسابكي المارونيّة كانوا قد استُشهدوا عند مذبح الكنيسة الفرنسيسكانيّة في دمشق حيث كانوا لجأوا يومذاك هربًا من القتل[١].

كان أكثر ضحايا أحداث سنة ١٨٦٠ من الموارنة. وقد هزّت تلك المذابح الضمير العالميّ. فعُقد مؤتمر دوليّ دعت إليه فرنسا ضمّ بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا تقرّر فيه التدخّل لإيقاف المذابح، وإيفاد قوّة مشتركة إلى الجبل اللبنانيّ قوامها أثنا عشر ألف جنديّ. غير أنّ فرنسا وحدها نفّذت القرار وأرسلت جيشًا مؤلّفًا من سبعة آلاف جنديّ. وقد قال الأمبراطور الفرنسيّ نابوليون الثالث (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣؛ امبراطور ١٨٥٢ ـ ١٨٧٠) في مجال شرحه لذلك: "إذا كُنت قد اقترحت بعثة عسكريّة إلى لبنان وسورية، فلأني أشعر كالشعب الذي انتخبني رئيسًا عليه، ولأنّ أنباء سورية ولبنان أثارت مزيد استيائي. أنا أتمنّى أن لا أضطرّ إلى إرسال هذه البعثة لأسباب عديدة، إنّما يتعذّر عليّ مقاومة الرأي العام في بلادي"[٢]. ومنذ ذلك الحين أصبح موارنة لبنان يرون في فرنسا السند القويّ، وأصبح تقليدهم يطلق عليها اسم "الأمّ الحنون".

كان على رأس الحملة العسكريّة الفرنسيّة الجنرال "بوفور دوتيول"، الذي كان اشترك في حروب سورية لمّا كان ضابطًا في أركان جيش الكولونيل "سيف SEVE". وقبل أن تصل الفرقة العسكريّة إلى لبنان منتصف صيف ١٨٦٠، كانت السلطنة

---

١ ـ *ACTA APOSTOLICAE SEDIS*, VOL XVIII (1926) PP. 411 - 415؛ راجع: مفرّج، بنو المشروقي، ص٥٥، ٢٠٥.

٢ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٠٠.

العثمانيّة قد أرسلت جيشًا على رأسه وزير الخارجيّة "فؤاد باشا" الذي راح يعاقب الموظّفين الأتراك الذين تواطأوا مع القتلة، متشدّدًا في ملاحقة الأخيرين، وقد أعدم أكثر من مئة جنديّ تركيّ رميًا بالرصاص وشنق بعض الأهالي. ولمّا كان الأمير المغربيّ اللاجئ إلى سورية هربًا من الفرنسيّين في الجزائر، قد حمى في دمشق أكثر من ألف مسيحيّ من القتل، فقد قلّده وزير الخارجيّة التركيّ وسامًا رفيعًا لعمله الشريف. ثم شكّل فؤاد باشا لجنة دوليّة مهمّتها اكتشاف المسؤولين عن الفتنة، وجميع الذين اشتركوا في أعمال القتل، وتعيين التعويضات الواجب أداؤها للمتضرّرين، ودرس الأنظمة التي من شأنها أن تمنع حدوث مثل هذه الكوارث في المستقبل، ورفع تقرير إلى حكومات تلك الدول لإجراء المقتضى. وإذ كان فؤاد باشا رئيسًا لهذه اللجنة، سيّرها بدهائه وتحايله على هواه. وراح يماطل مدّعيًا بأنّ الخلافات بين أعضاء اللجنة هي التي تؤخّر الوصول إلى اتّفاق[1]. وكذلك استطاع اللورد "دوفرل" الإنكليزيّ، بدهائه، أن يتفوّق على موفد نابليون الثالث ويضعف من شأنه. وكان دوفرل يقف إلى جانب فؤاد باشا ويدافع عن سيادة تركيا وسلامتها. وطالب بشدّة بأن تُخفّف الأحكام الصادرة بحقّ الدروز. وكان يماشيه في سياسته هذه ممثّلا النمسا وبروسيا. أمّا فرنسا فكانت تدافع عن وجهة نظر المسيحيّين وتحاول أن تدعم قضيّتهم. وكانت روسيا تقف إلى جانبها وقفة المتردّد. وقد تسلّمت اللجنة قائمة بأسماء حوالى ٤,٦٠٠ متّهم درزي. فحكمت على ٤٨ بالإعدام، وعلى ١١ بالسجن المؤبّد، وعلى ١٣ بالحبس ٦ سنوات، وعلى ٢٤٩ بالحجر أو بالنفي الموقّت[2]. واستُبدل حكم الإعدام الصادر بحقّ سعيد

---

١ - *Souvenirs de Syrie*, pp. 274 -276.

٢ - للاطّلاع على هذه اللوائح وعلى أسماء المتّهمين: - Correspondence Relating to the Affairs of Syria, 1860 (London,1861), p.509; Souvenirs, op. cit., pp. 238, seq., 270, seq.; Churchill, Druzes, op.1681 cit.,, p. 222; Driault Edward, La Question d'orient,, op. cit., pp. 403 - 410.

جنبلاط، وهرب كثيرون من اتباع "خطّار العماد" إلى حوران، ونُفي حوالي ١٢٠ شخصًا إلى طرابلس الغرب. ونجا خورشيد باشا من الموت. ولكنّ والي دمشق أُعدم، كما أُعدم قائد حامية حاصبيّا، ونُفي بعض الموظّفين الأتراك من ذوي المناصب الدنيا إلى قبرص ومالطة واسطنبول. وفي دمشق حُكم على ثلاثمئة رجل بالأشغال الشاقّة مدى الحياة، وقد أُحضروا مكبّلين إلى بيروت في مظهر استعراضيّ سيرًا على الأقدام، ومنها نُقلوا إلى اسطنبول... ولكن بعد غياب ستّة أشهر، عادوا ليظهروا في أسواق بيروت وهم في طريقهم إلى دمشق[1]. وقد قُدِّرت مبالغ التعويضات التي كانت ستدفع للمتضرِّرين بمليون ومئتَين وخمسين ألف ليرة إنكليزيّة. واقتُرح في اللجنة أن يقوم الدروز بدفع هذه التعويضات. غير أنّ فؤاد باشا اعترض قائلاً إنّ الدولة العليّة ستدفعها من خزينتها. ولكنّ الخزينة العثمانيّة دفعت قسطًا ضئيلاً منها ثمّ امتنعت بعد ذلك عن الدفع واعتبرت الأمر منتهيًّا"[2].

عندما سارع الباب العالي، بعد وقت قصير، إلى إعلان العفو عن المجرمين، كانت حالة المسيحيّين الهاربين والمهجّرين من بيوتهم وأرزاقهم إلى بعض المدن والبلدات تسوء كثيرًا. وإذ أصيبوا بالمجاعة والأمراض الفتّاكة كما أفادت تقارير معاصرة لتلك الأحداث، مات منهم كثيرون، وباعت نساء أولادهنّ بيع العبيد، وأُخذ بعضهنّ عنوة إلى حريم الرجال الذين سبوهنّ[3].

---

١ - RILEY, OP. CIT., PP. 87 - 88.

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٥٣٤-٥٣٥.

٣ - THE WORLD REVUE, APRIL 23 (NEWYORK, 1861)

المَوَارنَـــــــــة
وعَهد المُتصرّفيّة

إنّ أحداث ١٨٦٠ التي دفع الموارنة بشـكل خـاص، والمسـيحيّون بشـكل عـامّ فـي لبنان، وفي دمشق، ثمنًا باهظًا جرّاءها، أدّت إلى خلق نظام جديد لجبل لبنـان مضمـونٍ من الدول الست الكبرى في ذلك الوقت، ضمن استقلال لبنان من قبل الدول الأوروبيّة، وكان بمثابة خاتمة عهدٍ من الفوضى والعنف. وقد وقّع على ذلك النظام فـي اسـطنبول فـي التاسـع مـن شـهر حزيـران (يونيـو) ١٨٦١، كل! مـن فرنسـا وبريطانيـا والنمسـا وبروسيا وروسيا وتركيا، وانضمّت إلى هذه الدول سنة ١٨٦٨ إيطاليا. وقد عُرِف هذا النظام رسميًّا بنظام المتصرفيَّة، وبنظام لبنان الأساسيّ. وكان عدد بنوده سبعة عشـر. وفي السادس من أيلول (سبتمبر) ١٨٦٤ جرت تعديلات طفيفة على ذلك النظام مـدّدت ولاية المتصرّف إلى خمس سنوات، مع إمكانيَّة تجديد ولايتـه. ونـصّ النظـام علـى أن يكون المتصرف مسيحيًّا أجنبيًّا تُوافق عليه الدول الموقِّعة عليه. وقد اعترض بطريرك الموارنة بولس مسعد على بعض ما جاء فـي نظـام المتصرفيّـة خاصّـة لجهـة الأحكـام الشرعيّة، فطالب بتأليف هيئة تشريعيّة وطنيّة، غير أنّ المتصرّف اتّخذ لنفسـه السلطة التشريعيّة. فوقع الخلاف بين البطريـرك والمتصـرّف رستم باشا (١٨٧٣ ـ ١٨٨٣)، وهو المتصرّف الثالث الذي حكم جبل. أمّـا مجلس الإدارة فقد تـألّف مـن اثنَـي عشـر عضوًا منتخبًا بواسطة مشايخ الصلح. وكان الهيئة الوحيدة التـي تمثّـل الشـعب اللبنـانيّ في الحكم، إلاّ أن سلطته كانت استشاريّة وقراراته لا تلزم المتصرّف التقيُّد بها[1].

---

١ ـ للاطّلاع على النص الكامل لنظام المتصرفية وتعديلاته: *British and Foreign State Papers*, 1860 - 1861, Vol. LI (London, 1868) pp. 288-292; Holland Thomas E., *The European Concert in the Eastern Question* (Oxford, 1885) pp. 122-218.

إنّ لبنان المتصرفيّة لم يكن، لا لبنان الإمارة التي سبقتها، ولا لبنان الدولة التي لحقتها، بل كانت المتصرفيّة مسلوخة عنه مناطق البقاع، ووادي التّيم، وبيروت وصيدا وطرابلس وعكّار. فلقد كان لبنان المتصرفيّة الجزء الجبليّ من لبنان الإمارة فقط.

قُسّم لبنان المتصرفية إلى سبعة أقضية، على رأس كلّ قضاء قائمقام من الملّة التي تمثّل الأكثريّة في القضاء. وعلى هذا كان للموارنة ثلاثة قائمقامين، بينما كان الأربعة الباقون: درزيًا ومسلمًا وأرثذوكسيًا وكاثوليكيًا.

رغم أنّ هذا النظام قد أعطى الموارنة حجمهم من خلال إعطائهم ثلاثة قائمقامين من أصل سبعة، فإنّهم قد شعروا بكثير من فقدان الإستقلاليّة وخفض للشّأن عندما تسلّم "داود باشا"[1] الحكم في ٩ حزيران (يونيو) ١٨٦١، فسرت فيهم حركة نفور ظهرت بوادرها في أوساط "يوسف بك كرم*" الذي ثار القوم بقيادته على داود باشا مثلما ثار آباؤهم على عمر باشا سنة ١٨٤٢.

كان يوسف من مشايخ إهدن وتعلّم في مدرسة الآباء اليسوعيّين في عينطورة كسروان. فأحسن الفرنسيّة ومال بجوارحه إلى ثقافتها وحضارتها. وكان أبوه يستضيف السيّاح الفرنسيّين وهم في طريقهم إلى زيارة الأرز. وكان يوسف بك شابًا وسيمًا شجاعًا دَمِث الخلق وقور الشخصيّة محبوبًا بين قومه وعشيرته. وكان الجنرال الفرنسيّ "ديكرو"، وهو الجنرال الثاني في قيادة الجيش الفرنسيّ في لبنان، قد سمّى يوسف بك كرم، الذي ولاّه فؤاد باشا قائمقاميّة النصارى في نهاية أحداث ١٨٦٠، ليكون متصرّفًا على لبنان. وقد أيّدت روسيا اقتراح فرنسا بدون حماس، وقاومته

---

١ ـ داود باشا (١٨١٨-١٨٧٣): سياسي عثماني، أول متصرّف على جبل لبنان ١٨٦١ ـ ١٨٦٨، ولد في الأستانة، عدّل النظام الأساسيّ وطبّقه، أنشأ جريدة رسمية.

السلطنة العثمانيّة مقاومة عنيفة، وكذلك فعل البريطانيّون. وظلّ يوسف بك كرم يتطلّع إلى منصب المتصرفيّة، لذلك رفض قائمقاميّة جزّين عندما عرضها عليه المتصرّف الأول. ووجّه كتابًا مفتوحًا إلى كلّ من الفاتيكان وباريس يحتجّ فيه على كون الحاكم غير لبنانيّ، وعلى صلاحيّاته المطلقة، وعلى تحديد بعض الأقضية المسيحيّة، وعلى الفصل في القضايا التجاريّة في محاكم خارج لبنان (في بيروت)، وعلى سدّ العجز في ميزانيّة لبنان من مال الخزينة العثمانيّة، ما يجعل لبنان خاضعًا لسلطة الباب العالي[1].

أعلن يوسف بك كرم العصيان ورفع لواء الثورة وخاض بعض المناوشات الدامية. ولكنه لم يكن بحجم الدولة العثمانيّة، فتمكّن المتصرّف من إلقاء القبض عليه وإرساله إلى اسطنبول، حيث بقي هناك حتّى سنة ١٨٦٤ قبيل نهاية ولاية المتصرّف، آملاً في أن يعيَّن متصرّفًا. وكانت عودته خلسة، واستقرّ في شمالي لبنان. غير أنّ الولاية الثانية كانت من نصيب المتصرّف الأوّل نفسه الذي جُددّت له، فراح كرم، على مدى ثلاث سنوات، يطوف البلاد داعيًا إلى محاربة الحاكم الأجنبيّ، فتألّب حوله محازبون سار بهم سنة ١٨٦٧ زاحفًا إلى بيت الدين، مقرّ المتصرّف. ولدى وصوله إلى بلدة بكفيّا الواقعة في منطقة وسط قضاء المتن، منتصف المسافة بين الشمال وبيت الدين، نشب القتال بينه وبين العسكر النظاميّ. وفيما كان العراك على أشدّه وصل شيخ خازنيّ ليبلّغ كرم طلب قنصل فرنسا بأن يكفّ عن القتال، وبأن ينتقل إلى ملاقاته في بكركي[1]. وإذ أدرك كرم أنّ الذين كان يعتمد عليهم قد تخلّوا عنه، سار في درب

---

١ ـ كرم بطرس، قلائد المرجان في تاريخ جبل لبنان (بيروت،١٩٣٢) ١: ١٩١ ـ ١٩٢.

٢ ـ كان دير سيدة بكركي الواقعة على كتف مدينة جونيه الشرقيّ الجنوبيّ، قد أضحى مقرًا شتويًا للبطريركيّة المارونيّة، وأول بطريرك دُفن في بكركي، كان فيليبوس الجميّل الذي تُوفّي في عجلتون سنة ١٧٩٦ فنُقل إلى بكركي ودُفن فيها. غير أنّ دير سيدة بكركي، حتى تلك التاريخ، لم يكن قد أصبح مقرًا ثابتًا للبطريركيّة المارونيّة، إنّما عُقد فيه عام ١٨٥٦بعهد البطريرك بولس مسعد

منفاه: إلى الجزائر أوّلاً، ثمّ إلى باريس، وأخيرًا إلى نابولي إيطاليا حيث توفّي وهو في الثالثة والستين من عمره سنة ١٨٨٨[1]، ونُقل جثمانه إلى مسقط رأسه إهدن ووضع في كنيستها ليُعرض على الناس. وما زال بعض موارنة تلك المنطقة من شمالي لبنان يقولون بقداسة هذا الرجل الذي أقيم له نصب على مقبرة الكنيسة، ويروون أنّ جثمانه الذي لم يبلَ، غير محنّط.

بالرغم من أنّه كان للموارنة مآخذ على نظام المتصرّفية، وأهمّها أنّ النظام أخذ الحكم من أيدي اللبنانيّين ووضعه في أيدٍ غريبة، فقد أتاحت الترتيبات الإداريّة، التي أوجدها هذا النظام، لعدد كبير من الموارنة الإشتراك مع المتصرّفين في الحكم، وقد جاء ذلك نتيجة النضوج السياسيّ الذي كان الموارنة قد أحرزوه، كفئة حاكمة. فأخذوا يتدرّبون على تولّي المسؤوليّة، وتحوّلت هكذا تدريجًا طموحاتهم الفرديّة كملّة إلى ولاء

(بطريرك ١٨٥٤ ـ ١٨٩٠) مجمع عام عُرف بالمجمع البلدي. في عهد البطريرك يوسف إسطفان (بطريرك ١٧٦٦ ـ ١٧٩٣)، وهو من غوسطا في كسروان، عقدت ثلاثة مجامع عامّة للطائفة المارونيّة قرّر في خلالها الآباء المجتمعون نقل المقرّ البطريركي من دير سيدة قنّوبين إلى دير سيدة بكركي. ونلاحظ أنّ المجامع الثلاثة المذكورة قد ترأسّها أحبار وبطاركة كسروانيّون، فالمجمع الأول عقد في ميفوق في تموز (يوليو) ١٧٨٠ وترأسه النائب البطريركي المطران ميخائيل حرب الخازن بحضور قاصد رسوليّ؛ والمجمع الثاني عقد في عين شقيق بالقرب من وطى الجوز في كسروان في أيلول (سبتمبر) ١٧٨٦ وترأسه البطريرك يوسف اسطفان الغوسطاوي؛ أمّا المجمع الثالث فقد عقد في دير سيدة بكركي بالذات سنة ١٧٩٠ على عهد البطريك يوسف إسطفان وبرئاسته أيضًا وبحضور قاصد رسوليّ. ورغم بعض الاعتراضات التي برزت في المجمع الثالث، فقد تقرّر في المجامع الثلاثة المذكورة نقل مقرّ الكرسي البطريركي الماروني إلى دير سيدة بكركي على أن يكون هذا الدير "مقرًا ثابتًا، وأن تكون كلّ خيراته الثابتة وغير الثابتة ملكًا مؤبّدًا لكرسينا البطريركي... وأن يقيم البطريرك دائمًا في هذا الدير ولا يذهب إلى غير أمكنة إلاّ لأسباب داعية ضروريّة، وفي مدّة غيابه الوجيزة يستمرّ السادة الوكلاء في المكان نفسه، وأن ينقل كلّ مقتناه إلى هذا الكرسي ويوجّه إليه كلّ المداخيل البطريركيّة".

١ ـ راجع: البشعلاني إسطفان، لبنان ويوسف بك كرم (بيروت،١٩٢٥) ص٣١٢ ـ ٦٤٤؛ نوفل نسيم، بطل لبنان، (الاسكندرية، لا.ت.)، ص ٢٢٤ ـ ٢٤٨؛ الدبس، تاريخ سورية، مرجع سابق، ٨: ٧٢٦ ـ ٧٣٣؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، بطاركة القرن التاسع عشر، ص١١٢ وما يليها.

للبنان كوطن يجمع بينهم وبين جميع الأقليّات الأخرى في البلاد، ضامنًا مصالح كل فئة ومؤمنًا بالعيش الحرّ الكريم للجميع. فنشأت فكرة القوميّة اللبنانيّة وترعرعت في ظلّ طموحات مارونيّة، وغدت الكنيسة المارونيّة القوام الأساسيّ لهذه الفكرة والمؤسّسة المجسدّة لها في غياب دولة لبنانيّة تقوم بهذه المهمّة[1].

ختم عهد المتصرفية العهد العثمانيّ بالنسبة إلى لبنان، موئل الموارنة في الشرق، وكانت ثورة يوسف بك كرم آخر ثورة مارونيّة في ذلك العهد الذي ستكون خاتمة ويلاته عليهم سنوات الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التي علّق العثمانيّون بخلالها نظام المتصرّفية سنة ١٩١٥[2]، ودخلوا لبنان عسكريًّا، وحاصروا السكّان، فدفع الموارنة من أرواحهم وكراماتهم وأرزاقهم، هذه المرّة أيضًا، الثمن الباهظ. فقد مرّت على لبنان في سني الحرب العالميّة الأولى، كما هو معروف، أيّام ضيق وشدّة لم يسبق أن احتمل الشعب اللبنانيّ مثلها من ذي قبل. فعمّت المجاعة والعوز جميع أنحاء الوطن، وقضت أسراب الجراد على مواسمهم الزراعيّة. فمات الآلاف من الموارنة وسائر اللبنانيّين جوعًا ومرضًا، وأوغرت المقابر أفواهها وابتلعت الكثيرين منهم. ولمّا ضاقت على جثث الموتى، كان الناس الأحياء يدفنون موتاهم بالقرب من البيوت[3].

---

١ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٢٣.

٢ ـ احتلّت تركيا لبنان وحلّت حكومته الشرعيّة التي كنت قائمة في عهد المتصرّف أوهانس باشا، وألّفت هيئة حكومية جديدة برئاسة "جمال باشا" المعروف بالسفّاح قائد الجيش العثماني الرابع، دامت حتى انتهاء الحرب. ولمّا تسلّم القائد الجديد مهامّه العسكريّة والإداريّة، أعلن الاحكام العرفيّة، وعلّق العديد من اللبنانيّين على أعواد المشانق، وأرغم البطريرك الياس الحويّك على طلب الفرمان من الدولة العثمانية. وكانت قد جرت قبل هذا التاريخ محاولات عدّة من قبل سلاطين بني عثمان لفرض طلب الفرمان على البطاركة الموارنة، وكان هؤلاء لا يطلبون تثبيتهم على الكرسي الأنطاكي إلاّ من أحبار روما الأعظمين، وكانوا كلّما تعرّضوا لمثل هذا الطلب من الدولة العثمانيّة يجدون مخرجًا للتخلّص من تلبية رغبة السلاطين، وأمّا البطريرك الحويّك فلم يجد مهربًا تحت وطأة الحرب وتهديد جمال باشا من طلب الفرمان، ولو مكرهًا، تفاديًا لشر مستطير قد ينزل بشخصه أو بأبناء كنيسته.

٣ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٢٣.

الفَصلُ التَّاسِع

المَوَارِنَة والوَطَن اللبنَانيّ المعَاصِر

فِي الوَطَن اللبنَانيّ المعَاصِر؛

آخرُ بطَاركَة القرن التَّاسِع عَشَر وأوّل بطَاركَة لبنَانَ الكَبيـر؛

البَطريَرك اليَاس الحوِيّك رائدُ لبنَـــان الكَبيـر؛ المَوَارِنَة والجُمهُورِيَّة اللبنَانيَّة؛

بطَاركَــة المَوارِنَــة في الجُمهُورِيَة اللبنَانيَّة؛

البطريرك أنطون عَرِيضَة؛ "بَطريَــرك العــرب" مار بولس المعوشي؛

البَطريَركيَّة المَارونيّة والحَـربُ اللبنَانيَّـة؛ المَارونيَّة ولُبنانَ اليوم.

فِي الوَطَن اللبنانيّ المعَاصِر

في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨، وضعت الحرب العالميّة الأولى أوزارها وجلا الأتراك عن لبنان بعد أن حكموه مع معظم بلدان الشرق الأدنى أربعمائة سنة (١٥١٦ ـ ١٩١٨). وفي تشرين الأول (أكتوبر)، عُيّن الكولونيل "دي بياباب" الفرنسيّ حاكمًا عامًّا إداريًا في بيروت[1]. وكان أول عمل أتاه الحلفاء، بعد أن خسرت تركيا الحرب، إرجاع حكومة لبنان الشرعيّة إلى سابق عهدها. فعاد مجلس الإدارة المنبثق عن إرادة الشعب بانتخاب حرّ، إلى مزاولة مهامه الإداريّة والسياسيّة، وهو المخوّل، دون سواه، بأن يتكلّم باسم الشعب اللبنانيّ. وعلى أساس هذا العرف، سوف تستمدّ الوفود الثلاثة التي سيرسلها لبنان إلى مؤتمر الصلح في "فرساي" سلطتها التشريعيّة والقانونيّة من مجلس الإدارة الذي استمدّ بدوره سلطته من الشعب اللبنانيّ.

آخرُ بطَاركَةَ القرن التَّاسِع عَشَرَ
وأوّل بطَاركَـةَ لبنَـانَ الكَبيـر

ومثلما أدّت أحداث ١٨٦٠ إلى ما يشبه الكيان لهم في نظام المتصرفيّة، فإنّ معاناة الحرب العالمية الأولى سوف توصلهم إلى ترؤس جمهوريّة لبنان الكبير، ليتوهّموا بأنّ

---

١ ـ راجع: حرفوش الخوري ابراهيم، دلائل العناية الصمدانية، (جونيه،١٩٣٤) ص٥٨٣ ـ ٥٨٨.

كياناً متيناً قد تحقّق لهم هذه المرّة، تشاركهم فيه أقليّات متعدّدة أخرى. ومثلما قضى نظام المتصرّفية على نفوذ الإقطاعيّين ومكانتهم، كذلك هو انتزع، أو أنّه ألغى، دور البطريركيّة المارونيّة كممثّلة للموارنة تجاه السلطان. ومنذ ذلك التاريخ، وحتّى إشعار آخر، لم يعد للبطريرك ذلك التأثير الذي كان له في شؤون السياسة والمجتمع. إلاّ أنّ الجبل اللبنانيّ قد بقي، في الحقبة الفاصلة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، ملجأً للملل المسيحيّة الكاثوليكيّة التي اضطُهدت في الجوار. وبقي للبطريركيّة المارونيّة وللإكليروس المارونيّ ذلك الدور الذي وصفه الكاردينال "لودوكفسكي" رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس بأنّه قد "حمى وحفظ في الشرق على مدى الأجيال الإيمان الكاثوليكيّ... ولم يألُ جهدًا عن العمل في هداية قسم معتبر من الكنائس الشرقيّة المنفصلة إلى الإيمان القويم"[١]. وجاءت هذه الرسالة بمناسبة براءة التثبيت الفاتيكانيّ سنة ١٨٩٠ للبطريرك **يوحنّا الحاج** الذي انتُخب خلفًا للبطريرك بولس مسعد المتوفّى في ١٨ نيسان (إبريل) من تلك السنة. وكان البطريرك بولس مسعد قد سام الخوري يوحنّا الحاج مطرانًا لأبرشيّة بعلبك بناءً على طلب أهل الأبرشيّة. كما كان هذا البطريرك، قبل انتخابه، شغل منصب قاضٍ في عهد القائمقاميّة، وفي ديوان الأمير بشير أحمد، وتقلّد وظيفة كاتب سرّ للقصادة الرسوليّة في لبنان، وكان ذا بعد نظر سياسيّ، وهو أوّل من نصح المشايخ الخوازنة بإعادة النظر في سياستهم تداركًا لسوء العاقبة قبل ثورة طانيوس شاهين. وكان بخلال أحداث ١٨٦٠ قد انتقل سرًّا إلى فرنسا حيث راح ينشر التقارير في الصحف حول المذابح التي كان يتعرّض لها شعبه في لبنان، ما جعل الرأي العام الفرنسي يتحرّك بفعالية. وكان المسؤول الوحيد الذي رفض توقيع الاتفاق الذي نصّته اللجنة الدوليّة لعدم

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٠٥.

إنصافه. ومن أجلّ أعماله أنّه رطّب الأجواء بين المشايخ الخوازنة والعامّة الذين ثاروا عليهم، فعاد الأوّلون وتسلّموا أرزاقهم التي كان رجال الثورة قد اسولوا عليها.

حاول السلطان العثمانيّ أن يسلب البطريرك المارونيّ آخر امتيازاته، فأرسل إلى المتصرّف يطلب إليه إبلاغ البطريرك المنتخب حديثًا أنّ عليه طلب الفرمان من السلطان وإلاّ اعتُبرت ولايته غير شرعيّة. فكان ردّ يوحنّا الحاج:

نحن الموارنة أبناء لا غرباء، والأبناء ليسوا بحاجة لأن يُعترف بحقوقهم.

جعل يوحنّا الحاج للبطريركيّة المارونيّة صرحًا شتويًّا في بكركي، حيث شيّد بناءً فخمًا فسيح الأرجاء على أنقاض الدير القديم، لا يزال قائمًا حتّى اليوم شاهدًا على أنّه كان أهمَّ صرح عرفه لبنان يومذاك. وقد تمكّن من ضمّ أملاك واسعة إلى البطريركيّة، كما رصد أموالاً كثيرة لتجديد المدرسة المارونيّة في روما التي كانت قد أُقفلت مدّة قرن بسبب الأحوال الاقتصاديّة، وأنشأ وكالتَين بطريركيّتَين مارونيّتَين في كلّ من أورشليم وباريس. ومن أهمّ مراسيمه أنّه حرّم تعاطي الميسر وحضور مجالسه. وكان هذا البطريرك آخر بطاركة القرن التاسع عشر، إذ توفّي نهايَة سنة ١٨٩٨، ليلة الميلاد.

البَطريَرك اليَاس الحويّك
رائدُ لبنَان الكَبير

خلف البطريرك الحاج أوّل بطاركة القرن العشرين: الياس الحويّك، الذي انتُخب بداية سنة ١٨٩٩، فاستهلّ منشوره الأوّل بقوله إنّه سيبذل جهده لتعزيز رعيّته. ثمّ إنّ اسم هذا البطريرك قد اقترن بـ "لبنان الكبير". فلقد كان من أهمّ الدّاعين إلى إعادة نطاق جبل لبنان إلى ما كان معروفًا به من التخوم تاريخيًّا وجغرافيًّا، ذلك أنّ ممثّلي

الشعب اللبنانيّ قد انتدبوه إلى مؤتمر الصلح في باريس بعد الحرب العالميّة الأولى، للمطالبة باستقلالهم واسترجاع الأراضي المسلوخة من لبنان. وقد قام بمهمّته بحماس وإخلاص، واثقًا من أنّ قيام دولة حديثة مركّبة من شأنه أن يبعد عن رعيّته مخاطر المستقبل، وقد اعتقد أنّ من شأن هذا الاتّحاد أن يزيل الأحقاد من قلوب المتخاصمين. غير أنّ المستقبل لن يكون عند حسن ظنّ هذا البطريرك. وسوف تعود ظروف الشؤم لتعيد الاقتتال بعد أكثر من مئة عام كانت قد مرّت على أحداث بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ففي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩، ألّف مجلس إدارة لبنان وفدًا من أعضائه ليعرض على مؤتمر الصلح مطالبه، وكان هذا الوفد مؤلّفًا من: داود بك عمّون مندوبًا أوّلاً، والأعضاء: محمود بك جنبلاط وأميل إدّه وإبراهيم بك أبو خاطر وتامر بك حمادة. وأمّا مطالب مجلس الإدارة، فتتلخّص بما يلي:

أولاً: إستعادة الأنحاء المنسلخة عن لبنان في عهد الدولة العثمانيّة.

ثانيًا: الإعتراف باستقلال لبنان التام وبحقّه في اختيار نوع الحكم الذي يصلح له.

ثالثًا: إنشاء مجلس نوّاب منتخب على قاعدة التمثيل النسبي تأمينًا لحقوق الأقليات، ويكون لهذا المجلس حقّ التشريع والتمتّع بجميع ما تتمتّع به مجالس النوّاب في الحكومات الديموقراطيّة في العالم من الحقوق والامتيازات.

رابعًا: مساندة فرنسا له ومساعدتها لحكومته الوطنيّة وتأييدها لاستقلاله.

وفوّض مجلس الإدارة إلى المندوبين المذكورين أعلاه عرض هذه المطالب على مؤتمر الصلح المشار إليه، وملاحقة تأييدها وتقريرها. وعاد الوفد بعد بضعة أشهر دون الحصول على مبتغاه، لأنّ الأمير فيصل لم ينفكّ عن مواصلة مسعاه في ضمّ لبنان إلى سورية، وحمل الحلفاء على الاعتراف بأنّ هذَين البلدَين هما من البلدان والممالك العربيّة. وفي ٣ شباط (فبراير) ١٩١٩، تقدّم هو بنفسه إلى مؤتمر الصلح

بمطالبه مدّعيًا أنّهـا مطـالب الأقطـار العربيّـة برّمتهـا، وفـي مقدّمتهـا المطلـب المتعلّق بسيطرته على لبنان وسورية. وبالرغم من أنّ المؤتمر لم يستجب إلى طلبه بضمّ لبنـان إلى سورية، فقد تمكّن، خلال وجوده فـي بـاريس، مـن حمـل الحكومـة الفرنسيّة علـى الاعتراف بحكمه لسورية، مقابل وعد حرّ من جانبه بأن يوعـز إلـى "الحـزب العربـيّ" في دمشق بالاعتراف بالانتداب الفرنسيّ. وبعد رجوعه فـي أيّـار (مـايو) ١٩١٩، أخذ يجهد بكلّ قواه من أجل استمالة لبنـان إليـه، علـى أن يكـون هـذا البلـد مضمومًـا إلـى سورية التي هو أمير عليها. وممّا زاد فيصل تشبثًا بمطلبـه مـا شـهده فـي بـاريس مـن فشل للوفد اللبنانيّ الذي أخفق في مهمّته، رغـم مجاملـة الحكومـة الفرنسـيّة لأعضائـه، وما رآه من سعي الفرنسـيّين لحمـل اللبنـانيّين علـى الانضمـام إلـى دمشـق. فلـم يذعـن اللبنانيّون لِما كان يصبو إليه الأمير، واتّفقـوا علـى ألاّ يمكّنـوه مـن بسـط سـيادته علـى لبنان. فعزموا على عدم ضمّ بلادهم إلى سورية ونادوا باستقلالهم، وأجروا مظـاهرات سلميّة أمام سرايا بعبدا وسرايا وجونيه وغير أماكن. وتألّفت وفود من كبار القوم وأتت إلى بكركي تطلب إلى البطريرك الياس الحويّك تحقيق رغبتها بأن يسـافر إلـى بـاريس سـعيًا وراء اسـتقلال لبنـان[1]. وقـد انضـمّ إليهـم مسـيحيّو بـيروت والبقـاع والشـمال ومرجعيّون وقسم من دروز لبنان. أمّا البطريرك فجمع أسـاقفة الكنيسـة المارونيّـة فـي بكركي وفاوضهم في هذا الأمر الهامّ؛ فأجمع الأحبار على الاستجابة لرغبـة اللبنـانيّين. وبالرغم من أنّ البطريرك كان قد بلغ السادسة والسبعين من سنيه، فلم يحجم عن تجشّم مشـقّات السـفر وركـوب البحـر، مسـتهينًا فـي سـبيل اسـتقلال لبنـان أغلـى التضحيـات ومستسـهلاً أقسـى المشـقّات. وفـي يـوم الثلاثـاء ١٥ تمّـوز (يوليـو) ١٩١٩، سـافر البطريرك الحويّك بتفويض من مجلس الإدارة، على ظهر الباخرة "كسـار" إلـى رومـا،

١ ـ لمزيد من التفاصيل عن سفر الحويّك إلى باريس، راجع حرفوش، مرجع سابق، ص٥٩٤ ـ ٦٠٠.

ومنها إلى باريس، بصحبة المطرانين: اغناطيوس مبارك، وبطرس الفغالي، والخوري إسطفان الدويهي، وشقيقه لاون بك الحويّك، وانضمّ إليهم في باريس المطرانان شكر الله خوري ويوسف الخازن لوجودهما صدفة في العاصمة الفرنسيّة، وكذلك المطران كيرلّس مغبغب مطران زحله للروم الكاثوليك الذي انتُخب في ما بعد بطريركًا، والكاهنان تودوسيوس معلوف وقبريانُس شهاب معاونا المطران مغبغب.

وصل البطريرك إلى روما في ٢٠ تمّوز (يوليو) وهناك قضى مدّة شهر راح يمهّد فيها لنجاح زيارته إلى فرنسا. وفي ٢١ آب (أغسطس)، سافر إلى باريس حيث قوبل بأجمل مظاهر الترحاب والإجلال. وبعد أن استقبله الرئيس "ريمون بوانكرّه[1]" رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة في قصر الإليزيه في ٢٨ آب (أغسطس) ١٩١٩، و"جورج كليمنصو[2]" رئيس الوزراء وبعد أن اجتمع مرارًا بأقطاب السياسيّين الفرنسيّين وتبادل الزيارات مع ممثّلي الحلفاء في باريس، وباحثهم في ما قدِم لأجله إلى العاصمة الفرنسيّة، تقدّم البطريرك في ٢٧ تشرين الأوّل (أكتوبر) إلى مؤتمر الصلح بمذكّرة إضافيّة ضمّنها مطالب اللبنانيّين، وأثبت فيها أهليّة لبنان للحكم الذاتيّ والاستقلال التام، وحقّه في الحياة الحرّة من القيود السياسيّة بالحجج والبيّنات، معلّلاً صواب مطالبه بما تجلّى لعيون العالم المتمدّن من فضائل قومه وأهليّتهم لاقتباس أفضل ما في الحضارة العصريّة من المميّزات المثبتة للأخلاق والمهذّبة للنفوس والموسّعة للإدراك[3].

---

١ - ريمون بوانكرّه RAYMOND POINCARRÉ (١٨٦٠ - ١٩٣٤): محام وسياسي فرنسي، عضو الأكاديميّة الفرنسيّة، رئيس الوزراء الفرنسي ١٩١٢، رئيس الجمهوريّة ١٩١٣ - ١٩٢٠، رئيس الوزراء ١٩٢٢ - ١٩٢٤ و١٩٢٦ - ١٩٦٩، احتلّ "الرور RUHR" ليضغط على ألمانيا لتوقّع معاهدة فرساي.

٢ - جورج كليمنصو CLÉMENCEAU (١٨٤١ - ١٩٢٩): صحافي وسياسي فرنسي، رئيس الوزارة الفرنسيّة إبّان الحرب الكونيّة الأولى ١٩١٧، لقّب بأبي النصر، وقّع معاهدة الصلح في باريس المعروفة بمعاهدة فرساي ١٩١٩.

٣ - صفير، الكنيسة المارونية، ص٣٢٥ - ٣٢٦، حيث وضع الحاشية التالية: هناك نسخة عن هذه المذكّرة في أرشيف البطريرك الياس الحويّك الذي نظّمناه حديثًا، وقد ضُمّت إلى إضبارة "سفر البطريرك الحويّك إلى باريس سعيًا وراء استقلال لبنان".

وبعد هذه المراجعات والاتّصالات، قدّم رئيس وزراء فرنسا السيّد كليمنصو إلى البطريرك الحويّك وثيقة يعترف فيها بحقوق لبنان وصواب مطالبه، ويعاهده، باسم الحكومة الفرنسيّة، على العمل لصيانة هذه الحقوق وتحقيق تلك المطالب. وممّا جاء في هذه الوثيقة:

> إنّ رغبة اللبنانيّين في المحافظة على حكومة ذاتيّة ونظام وطنيّ مستقلّ تتفق تمام الاتفاق مع التقاليد الحرّة الفرنسيّة. وليكن اللبنانيّون على ثقة من أنّهم بمعاضدة فرنسا ومساعدتها سيحافظون على تقاليدهم ويوسّعون نطاق نظمهم السياسيّة والإداريّة ويعملون بأنفسهم لاستثمار كلّ منافع بلادهم، وذلك بالاستقلال عن كلّ جماعة خارجة عن نطاق وطنهم[١].

بعد تسلّمه عريضة رئيس الوزراء الفرنسيّ بسرور لنجاح مهمّته في باريس، غادر العاصمة الفرنسيّة مرتاح الضمير مطمئنّ البال إلى ما لقيه من الحفاوة والإكرام، وإلى ما أدّت تلك المساعي من تحوّل في السياسة الأوروبيّة بوجه عامّ، والسياسة الفرنسيّة بوجه خاص لصالح استقلال لبنان. وصادف وجود البطريرك الحويّك في باريس آنذاك ذهاب الأمير فيصل إليها. ولمّا قابل هذا الأخير كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسيّ وباحثه بشأن مسألة لبنان والشواطئ البحريّة، حصل منه على هذا الجواب الفاصل:

> قد كان لبنان دائمًا مستقلاً، ولا أريد منذ الآن وصاعدًا أن تفكّر به أو تطمع بضمّه إلى سورية.

وحمل البطريرك معه إلى لبنان، الذي وصل إليه في ٢٥ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩١٩، وثيقة كليمنصو المؤرّخة في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩، وحمل الأمير فيصل معه معاهدة موقّعة منه ومن كليمنصو نفسه، جاء في أحد بنودها:

---

١ - حرفوش، مرجع سابق، ص٦٠١ - ٦٠٢.

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الفرنسيّ، وستعيّن الحدود في مؤتمر الصلح ويؤخذ هذا بعين الاعتبار لإتمام حقوق ومصالح وأماني الأهلين[1].

غير أنّ الأمير فيصل لم يتقيّد بالمعاهدة في ما يتعلّق بحدود لبنان، وخصوصًا بعد عقد مؤتمر "سان ريمو"[2] ، وصرّح بعد عودته من مؤتمر الصلح، وبيده المعاهدة، بأنّ لبنان لا تتوسّع حدوده، وإنّما يستقلّ عن سورية فقط. فقلقت الخواطر لهذا التصريح، واضطرب بال البطريرك وأوجس خيفة من أن تهدم أنواع السياسة المعادية ما بناه في باريس من أسس واتفاقيّات لقيام دولة الاستقلال. فعمد عندئذٍ إلى إيفاد نائبه المطران عبد اللّه خوري رئيسًا للوفد الثالث، لإكمال ما بدأ به ومتابعته. فرافق المطران خوري في مهمّته هذه كلّ من "الأمير توفيق أرسلان" و"الشيخ يوسف الجميّل" و"إميل أدّه"، ولحق بهم في ٢٤ آذار (مارس) ١٩٢٠، المطران كيرلّس مغبغب. وقد غادر المطران عبد اللّه خوري بكركي في أوّل شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأبحر مع الوفد المرافق في الثاني منه، بعد أن أصحبه البطريرك الحويّك بكتابات توصية إلى رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة ورئيس وزرائها والوزراء. ودفع إليهم بعد وصوله إلى العاصمة الفرنسيّة صكّ التوكيل الرسميّ من البطريرك المارونيّ ومن مجلس إدارة لبنان. وهذا أهمّ ما جاء فيه:

لمّا كان المجلس الممثّل للشعب اللبناني نيابيًا قد وجّه، في مضبطته الصادرة في تاريخ ١٩ حزيران (يونيو) ١٩١٩، رجاءً وتكليفًا إلى غبطة البطريرك المارونيّ الياس الحويّك بالسعي لدى مؤتمر الصلح وسائر رجال الحلّ والعقد في باريس

---

١ ـ حرفوش، مرجع السابق، ص ٦١١؛ راجع: صفير، الكنيسة المارونية، ص٣٢٦ ـ ٣٢٧.

٢ ـ مؤتمر سان ريمو SAN REMO : عقده مجلس الحلفاء الأعلى في مدينة سان ريمو في غربي إيطاليا ٥ أيّار (مايو) ١٩٢٠ لدرس قضايا الانتداب والبترول في الشرق الأوسط، تقرر فيه تقسيم البلاد العربيّة ووضعها تحت الانتداب على أن يكون لبنان وسوريا لفرنسا، والعراق وفلسطين لبريطانيا.

وغيرها "في سبيل" تأييد استقلال جبل لبنان الكبير بحدوده التاريخيّة والطبيعيّة، استقلالاً تامًّا إداريًّا وسياسيًّا وفقًا لقرارات المجلس السابقة؛ ولمّا كان من الضروري للمصلحة الوطنيّة أن يوجد الآن من يلاحق المطالب اللبنانيّة المقدّم ذكرها لدى المراجع الإيجابيّة؛ فبناءً على ذلك كلّه، قد قرّر هذا المجلس توكيل سيادة المطران عبد الله خوري الموجود الآن في باريس لإكمال السعي لدى مؤتمر الصلح وسائر المراجع الإيجابية في باريس وغيرها للحصول على المطالب والأماني المارّ بيانها على الشكل المصرّح به في هذه المضبطة، وتقرير هذه الحقوق في مؤتمر الصلح بالصورة النهائيّة في ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠. وتلي التواقيع: حبيب باشا السعد رئيس المجلس، خليل عقل، سعد الله الحويّك، عبد الحليم الحجّار، محمود جنبلاط، داود عمّون، سليمان كنعان، محمد الحاج محسن، محمد صبرا دلاغور، فؤاد عبد الملك، الياس شويري، نقولا غصن، يوسف بريدي[1].

وصل الوفد إلى باريس في ١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأخذ فور وصوله في مباشرة مهمّته. فزار أوّلاً "جورج بيكو" المطّلع على ماجريات الحوادث في لبنان، فأعلمه هذا أنّ أرباب الأمور عقدوا العزم على توسيع حدود لبنان بضمّ بيروت والبقاع إليه. وبعد اتّصالات عديدة واجتماعات مطوّلة وزيارات فرديّة وجماعيّة لشخصيّات فرنسيّة بارزة، وبعد مناقشات في المجالس الخاصّة والعامّة، وبوجه خاصّ في مجلسَي الوزراء والنوّاب الفرنسيّين، عُيّنت حدود لبنان بموجب الخارطة التي كان قد رسمها أركان حرب الحملة الفرنسيّة سنة ١٨٦٠، وهي تضمّ، إضافة إلى الجبل اللبنانيّ، بيروت وطرابلس وصور وصيدا، وسهل البقاع مع راشيّا وحاصبيّا ومنطقة الهرمل ـ

---

١ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٢٧ ـ ٣٢٨، حيث جاء هذه الحاشية: نستقي هذه المعلومات الدقيقة من يوميات سفر المطران عبد الله خوري إلى باريس التي ما تزال محفوظة في إضبارة خاصة به في أرشيف بكركي؛ ومن مؤلّف الأب حرفوش، مرجع سابق، ص ٦١٤ ـ ٦١٨؛ ومن مخطوطة أطروحة دكتوراه، أعدّها حكمت الحدّاد، وناقشها بإشرافنا في قسم التاريخ في جامعة الروح القدس، ١٩٨٥، بعنوان: الأوضاع السياسية في لبنان بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠، ودور البطريركيّة المارونيّة في إعلان دولة لبنان الكبير.

بعلبك. ولمّا رأى رئيس الوفد مع مرافقيه أنّ مهمّتهم قد انتهت، عادوا إلى لبنان في ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠. وفي هذه الأثناء كان "الجنرال غورو" قد أعلن في اليوم الأوّل من أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠، استقلال دولة لبنان الكبير في قصر الصنوبر في بيروت، وكان إلى يمينه البطريرك الياس الحويّك، وإلى يساره الشيخ مصطفى نجا[١]، ومن حولهم الأساقفة والرجال الرسميّون والوجهاء والأعيان. وعلى أثر هذا الإعلان، صدر مرسوم بتنظيم دولة لبنان الكبير؛ فقُسّمت البلاد إلى متصرّفيات وأقضية، وأُعيد تنظيم دوائر الحكومة المركزيّة على قاعدة الوزارات المصغّرة، وعيّن لها مستشارون فرنسيّون. أمّا منصب الحاكم العام فعُهد إلى "الكومندان ترابو" الذي بقي في منصبه حتّى ١٢ أيار (مايو) ١٩٢٣. وظلّ لبنان بحدوده الحاضرة تحت الانتداب الفرنسيّ من ١٩٢٠ حتّى ١٩٤٣. ولمّا كان، طيلة هذه المدّة، فريق من اللبنانيّين يأبون الاعتراف بلبنان كدولة مستقلّة ويطلبون من حين إلى آخر الإلتحاق بسورية، عُقد في سنة ١٩٤٣ مؤتمر عامّ حضره أصحاب رأي ورجال سياسة مسيحيّون ومسلمون، وفي طليعتهم "الشيخ بشاره الخوري" و"رياض الصلح"، وتمّ الاتّفاق فيه بالإجماع على أن يعترف المسلمون بلبنان ضمن حدوده الحاضرة وطنًا لهم ويعدلوا عن طلب الإلتحاق بأيّة دولة في الجوار، مقابل تخلّي المسيحيّين عن التمسّك بأيّ حماية غربيّة وموافقتهم على أن يكون لبنان وطنًا لجميع أبنائه على السواء، وأن يتّجه في سياسته اتّجاهًا قوميًا استقلاليًا وطنيًا. وهذا ما أسموه "بالميثاق الوطنيّ"، منذ سنة ١٩٤٣، حتّى يومنا هذا[٢].

---

١ ـ الشيخ مصطفى نجا (١٨٥٢ ـ ١٩٣٢): علاّمة، أحد كبار شيوخ العلم والشرع والوطنيّة في بيروت، مفتي بيروت الأكبر ١٩٠٩ وهو أوّل مفتي باسم مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة ١٩٣٢ حتى وفاته، أحد أركان إعلان دولة لبنان الكبير ١٩٢٠ مع البطريرك الياس الحويّك والجنرال الفرنسي غورو، من مؤسّسي جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، من آثاره: "مولد الصفا في مولد المصطفى"، "مظهر الصعود سيّد الوجود"، "فتاوى"، "ديوان شعر وأناشيد"، "قصّة المعراج"، "بيان مشروعيّة الحجاب"، "كشف الأسرار لتنوير الأفكار"، "نصيحة الاخوان بلسان الإيمان".

٢ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٢٧ ـ ٣٢٩.

المَوَارِنَة والجُمهُورِيَّة اللبنَانيَّة

مهما قيل في شكل النظام السياسيّ للبنان، ومهما تعدّدت النظريّات والدعوات، يبقى أمر واقع لا يستطيع أحد طمسه، وهو أنّ هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التي تقع وسط الشاطىء الإسلاميّ المقابل للشاطىء الغربيّ المسيحيّ، هي الموئل الأخير للمسيحيّة الحرّة في الشرق. ولم يأتِ هذا صدفة، بل جاء نتيجة تفاعلات سياسيّة وعسكريّة متواصلة منذ الفتح الاسلاميّ دون انقطاع. هذا الموئل المسيحيّ قد صهر في داخله أتباع جميع الكنائس المسيحيّة التي تقاتلت وتصارعت في الشرق عبر التاريخ. ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الكنيسة المارونيّة التي اتّخذت من لبنان قاعدة، والتي بقي قرارها بيدها عندما كانت قرارات سائر الكنائس المشرقيّة بأيدي سواها، قد صمدت في أرضها بوجه كلّ الفتوحات. وقد دلّت أحداث القرن التاسع عشر، بوضوح، على أنّ مجتمع الكنيسة المارونيّة في لبنان ليس منسيًّا في ضمير الغرب المسيحيّ الذي، رغم تعارض النظريّات، كان له الفضل في إنقاذه من المصير الذي شهدته مجتمعات كنائس أخرى كانت منسيّة في ضمير الغرب، مثل الأرمن والأشوريّين والسريان وسواهم من الشعوب المسيحية التي هُجِّرت أو ضُربت كياناتها ضربات قاضية. وبتمكّن الكنيسة المارونيّة، القائلة بالكاثوليكيّة الرومانيّة، من البقاء على ما بقيت عليه من وجود كيانيّ في لبنان، صار لبنان مقصدًا لتلك الكنائس المسيحيّة التي شتِّتت أو هُجِّرت من أنحاء الشرق. وبذلك بقي الطابع المسيحيّ طاغيًا على هذا البلد الذي كانت رقعته تتّسع حينًا أو تضيق، على أنّ اسم لبنان قد اقترن باسم الكنيسة المارونيّة اقترانًا غير قابل للانفصام، مثل اقترانه بالمسيحية الحرّة في الشرق.

خرج لبنان من الحرب العالميّة الأولى التي استشرى فيها جور الأتـراك وظلمهم، جائعًا مريضـًا مهدّمًا منهوك القوى. وبعد أن وُضـع لبنـان تحت الانتداب الفرنسـيّ لسنتَين، أعلن المفوّض السامي الأول: الجنرال غورو، في أوّل أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ في بيروت، إعادة لبنان الكبير إلى الوجود. وقد أعيد إلى لبنان، تبعًا لذلك، بيروت التي أصبحت العاصمة، وصيدا وصور وطرابلس، إضافة إلى المدن والمقاطعات الداخليّة مثل كامل البقاع وبعلبك وحاصبيّا وراشيّا ومرجعيون، وقد كانت سابقًا جزءًا من لبنـان تاريخيًّا وجغرافيًّا. مسـاحة الأرض هذه التي أعيدت إلى لبنـان وكـادت أن تضـاعف مساحة لبنـان المتصرفيّـة وأن تضيف إلـى عدد سكّانه النصف، شكّلت كسبًا للبنـان الدولة، قد قابله "عدم تجانس في السكّان ونقص فـي التمـازج والترابط. ذلك أنّ لبنـان فقد التوازن الداخليّ الذي كان ينعم بـه سـابقًا... أمّا الأكثريّـة المسيحيّة فلم تعد تلك الأكثريّة الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل"[١]. فإنّ عدد سكّان لبنان حسب إحصـاء ١٩١٣ كان يقدَّر بـ ٤١٤,٨٠٠ نسمة منهم ٣٢٩,٤٨٢ من المسيحيّين (ومن هذا العدد ٢٤٢,٣٠٨ من الموارنة). أي أنّ نسبة المسيحيّين من مجموع عدد السكّان كانت تشكّل ٤٣،٧٩ بالمائة. ونسبة الموارنة كانت تشكّل، في ذلك الإحصاء، ٥٨،٤١ بالمائة. غير أنّه بعـد إعـلان لبنـان الكبير أصبح مجمـوع عـدد السكان، ٦٢٨ ألفًا و ٨٦٣ نسمة. وأكثريّة عدد السكّان الذين أصبحوا لبنـانيّين بعد إعلان لبنان الكبير، أضحت من المسلمين الشيعة الذين كانوا يسكنون في مناطق مهملة ومتأخّرة اقتصاديًّا واجتماعيًّا[٢].

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٥٩٨.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٧٩؛ راجع: HIMADEH SAÏD , *ECONOMIC ORGANISATION OF SYRIA* (BEIRUT,1936) PP. 6, 410-411.

بطارِكَــةُ المَوارِنَـــة

في الجُمهُورِيَّة اللبنَانيَّة

في ٢٦ أيار (مايو) ١٩٢٦ أعلنت دولة لبنان جمهوريّة. وكانت أول جمهوريّة من نوعها أسّست في العالم العربيّ. وقد وُضع لهذه الجمهوريّة دستور مستمدّ في روحه من الدساتير الغربيّة العصريّة، فلم ينصّ على أنّ للدولة دينًا معيّنًا كما هي الحال في دساتير البلدان العربيّة المجاورة، بل إنّ حريّة العبادة في لبنان حقيقة ثابتة. وفي سبيل المحافظة على التوازن الإجتماعيّ الطوائفيّ، نشأ تقليد يكون بموجبه رئيس الجمهوريّة مارونيًّا، كون الموارنة هم المجموعة الدينيّة الأكبر في لبنان، ورئيس المجلس النيابيّ شيعيًّا، ورئيس الوزراء مسلمًا سنيًّا، ووزير الدفاع درزيًّا[1].

في هذه الأثناء أصبح الحكم الفرنسيّ في لبنان غير مباشر، وقد استعيض عن "المفوّض السامي" الفرنسيّ بـ "مستشار". هذا لناحية التسمية، أمّا عمليًّا فقد كانت صلاحيّات المستشار أضعف بقليل من صلاحيّات المندوب، خاصّة وأنّ القوى الأمنيّة كانت لا تزال في أيدي الفرنسيّين. وقد شهدت حقبة الانتقال من وضع الحدود والدستور للبنان الكبير إبّان الانتداب الفرنسيّ إلى مرحلة الاستقلال التامّ الناجز بعض الأحداث السياسيّة والأمنيّة، إذ كان الفرنسيّون، قبل الحرب العالميّة الثانية، يسعون إلى الحفاظ على موقع لهم في لبنان عن طريق المعاهدات الأمنيّة والسياسيّة، بينما كان القادة الوطنيّون يعملون على تحقيق استقلال كامل لبلدهم. وقد اشترك زعماء جميع المجتمعات / الطوائف، أو أكثر أولئك الزعماء على الأقلّ، في العمل من أجل هذا الهدف الذي تحقّق فعلاً في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣. وفي ٣١ كانون الأول

---

١ - راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٩٩؛ نشير إلى أنّ العرف قد أصبح في صلب نصّ الدستور بعد تعديله بموجب اتّفاق الطائف وتعديلاته ١٩٩٨.

(ديسمبر) ١٩٤٦ تمَّ جلاء الجيوش الفرنسيّة عن كامل الأراضي اللبنانيّة، فأصبح لبنان بذلك بلدًا سيّدًا حرًّا مستقلاً يتمتّع بكامل الصفات الحقوقيّة الدوليّة والإقليميّة.

قبل ذلك التاريخ، وبينما كان الحلفاء يقرّرون الشكل الجيوسياسيّ لمستقبل الشرق الأوسط، كانت قد عمّت البلاد العربيّة دعوة لإنشاء دولة عربيّة آسيوية واحدة. وكان الداعي لذلك الحسين بن عليّ (١٨٥٦ ـ ١٩٣١)، شريف مكّة المولود أصلاً في الآستانة حيث نشأ حتّى عُيّن شريفًا على المدينة الإسلاميّة المقدّسة: مكّة، وعلى الحجاز سنة ١٩٠٨. ومن هذا الموقع راح يدافع عن حقوق العرب ويعرقل التدخّل التركيّ ويرفض التجنيد الإجباريّ قبل الحرب العالميّة الأولى وفي خلالها. وقد أقام اتصالات سرّيّة مع الإنكليز من جهة، ومع الجمعيّات السريّة العاملة ضدّ العثمانيّين في مصر وسورية. وبينما كانت الحرب العالميّة الأولى مشتعلة، انتهز الشريف حسين الظروف فأعلن الثورة العربيّة في صيف ١٩١٦ ضدّ الأتراك، الذين طردهم من مدن الحجاز، وأعلن نفسه ملكًا عليها ثم خليفة سنة ١٩٢٤. لكنّ سياسة الحلفاء، واتفاقيّة سايكس ـ بيكو[1]، حالتا دون تحقيق هدفه القاضي بإنشاء دولة عربيّة آسيويّة واحدة تحت التّاج الهاشميّ. وقد هاجمه ابن سعود سنة ١٩٢٤ فاضطّر إلى ترك الحجاز وأقام في نيقوسيا القبرصيّة. ثمّ توفّي في عمّان ودُفن بالحرم الشريف. وكان ابنه فيصل (١٨٨٣ ـ ١٩٣٣) الذي ثار هو الآخر على العثمانيّين في الحرب العالميّة الأولى، قائدًا عامًّا للجيش العربيّ المحارب في فلسطين. وقد نودي به ملكًا عربيًّا على كامل منطقة الهلال الخصيب سنة ١٩٢٠، فتزعّم تيّارًا مناهضًا لتقسيم

---

١ ـ إتفاق سايكس ـ بيكو SYKES - PICOT : هو اتفاق سرّي جرى بين فرنسا وبريطانيا وروسيا حول مناطق النفوذ في آسية الصغرى بعد انهيار الأمبراطوريّة العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى. حول بنود هذه الاتفاقيّة السريّة راجع: زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتَي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، (بيروت، ١٩٧٧) ص٧٠ ـ ٧١.

المنطقة إلى دول متعدّدة، وقاد ثورة التحق بها تيّار كثيف من تلـك البلـدان، فكـان ذلـك التيّار جامعًا بين المسـلمين السـنّة الذيـن حلمـوا بإعـادة الخلافـة العربيّـة، وسـائر أبنـاء المذاهب الاسلاميّة المنشقّة التي عجزت عن تحقيق أهدافها بإنشاء كيانـات مستقلّة لهـا في النظام الجديد لهذه المنطقة الذي رسمه الحلفـاء. غير أنّ المسـيحيّين اللبنـانيّين قد ناهضوا التيّار الفيصليّ من منطلقهم الاستراتيجيّ الطبيعيّ. هذه هـي الخلفيّـة الأساسيّة لاختلاف الرؤية الكيانيّـة لـدى مختلـف القوى التـي بـاتت تشكّل شـعب "لبنـان الكبير" وبالتالي شعب "الجمهوريّة اللبنانيّة".

فعندما أقرّ مجلس الحلفاء الأعلى في "سان ريمو*" الانتداب الفرنسيّ على سـورية ولبنان في ٢٨ نيسان (إبريل) ١٩٢٠، بالرغم من احتجـاج الحكومـة الفيصليّـة العربيّـة في دمشق، صُعق القوميّـون العـرب للنبـأ، فيمـا اسـتقبلته أغلبيّـة المسـيحيّين فـي لبنـان بالارتياح. وقد عقب ذلك مقاومة من قبـل جيش فيصـل للجيش الفرنسـيّ الـذي هـزم الجيش العربـيّ فـي معركـة "ميسـلون" غـرب دمشـق فـي ٢٢ تمّـوز (يوليـو) ١٩٢٠، وواصل زحفه فاحتلّ دمشق التي غادرها فيصل. وبينما أدّى تعاون اللبنانيّين مع سلطة الانتداب إلى قيام الجمهوريّة اللبنانيّة، تعذّر حصول مثل ذلك في سورية نتيجة للموقف العدائيّ الذي اتّخذه القادة الوطنيّون سنة ١٩٢٥ ليشمل سورية كلّهـا سـنة ١٩٢٧. وقد امتدّت هذه الثورة إلى المناطق اللبنانيّـة التـي يسـكنها دروز وشـيعة. وكـانت الأكثريّـة المسلمة في المناطق التي أعيدت إلى "لبنان الصغير" سـنة ١٩٢٠ قد اعـترضت علـى هذا الإجراء. فلقد كان المسلمون، "وخاصّـة السـنيّون منهـم، يـرون أنّ انضمـامهم إلـى الدولة اللبنانيّة التـي يسـيطر عليهـا المسيحيّون، يهدّد بفصلهـم فصـلاً تامًّا عن العـالم العربيّ الإسلاميّ الذي ينتمون إليه. فما أن أُعلن لبنان الكبير حتّى هـبّ المسـلمون فـي بيروت والبقاع ومناطق طرابلـس وصيـدا وصـور إلـى المعارضـة، فـأعلنوا مقـاومتهم

للانضمام وطالبوا بإلحاق مناطقهم بسورية"[1]. وعندما شبَّت الثورة الدرزيّة في حوران انضمَّ دروز لبنان إلى مسلميه السنّة في مقاومتهم للسياسة الفرنسيّة. وإذ وجد الروم الأرثذوكس أنّ الفرنسيّين يُظهرون عناية خاصّة بالموارنة "أحجموا عن إظهار الولاء الكامل لدولة كان الموارنة فيها العنصر المسيطر"[2]. كذلك انضمّ الشيعة في بداية تلك المعارضة إلى مقاومي الدولة الجديدة، ومع الأيّام، "أقلع جانب كبير منهم عن المقاومة... إذ أدركوا، تدريجًا، أنّ وضعهم كأقليّة كبرى في لبنان خير لهم من وضعهم كأقليَّة صغرى في دولة سوريّة شاملة"[3]. وعندما دعا هنري دي جوفينيل[4] المجلس التمثيليّ إلى سنّ دستور للبنان سنة ١٩٢٥، قامت المظاهرات وأعمال الشغب في مختلف المناطق الإسلاميّة بحجّة أنّ المسلمين لا يرغبون في دستور لبنانيّ لا بدّ من أن يكرّس حدود لبنان الكبير.

وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، حدث ما أقلق مسيحيّي لبنان، إذ قصد فريق من وجهاء المسلمين اللبنانيّين العاصمة السوريّة دمشق، حيث كان ينعقد اجتماع الجمعيّة التأسيسيّة السوريّة، وطالبوا بأن يتضمّن الدستور السوريّ الذي كان قيد الوضع "حقّ سورية بالمناطق الإسلاميّة في لبنان". فكان من نتيجة ذلك أن برز تيّار مارونيّ بزعامة "إميل إدّه" يشدّد على ضرورة إيجاد الضمانة الخارجيّة لاستقلال لبنان، يناهضه تيّار مارونيّ آخر بزعامة "بشارة الخوري" رأى في البلاد العربيّة مجالاً طبيعيًّا لنشاط لبنان الاقتصاديّ. وقد أصرّ قادة هذا التيّار على ضرورة توثيق

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص ٢١٢.

٢ ـ المرجع السابق، ٢١٣. ٣ ـ المرجع السابق.

٤ ـ هنري دي جوفنيل JOUVENEL (١٨٧٦ ـ ١٩٣٥): ولد وتوفي في باريس، مندوب فرنسا السامي في سورية ولبنان ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦، في عهده وضع دستور الجمهورية اللبنانية وانتخب الرئيس اللبناني الأول شارل دبّاس.

العلاقات مع البلدان العربيّة دون الوصول إلى حدّ الوحدة[1]. ومن هذَين المنطلقَين كان تيّار إدّه الذي سيُعرف في ما بعد بحزب "الكتلة الوطنيّة"، يرى في استمرار الانتداب الفرنسيّ ضمانة لاستقلال لبنان، بينما كان تيّار الخوري وهو الذي سيُعرف في ما بعد بالحزب الدستوريّ، يعتبر الانتداب حائلاً دون تحقيق التعاون بين المسيحيّين والمسلمين، "وفيما امتعض تيّار إدّه من إصرار اللبنانيّين المسلمين على معارضة الكيان اللبنانيّ بوضعه الراهن، رأى تيّار الخوري بأنّ هذه المعارضة الإسلاميّة لا بدّ من أن تزول، أو على الأقلّ تتعدّل، إن أبدى المسيحيّون بعض التفهُّم لموقف المسلمين من الانتداب وكفُّوا عن المغالاة في إظهار الصداقة لفرنسا"[2].

كان من الطبيعيّ أن يتسلّم الموارنة، كلبنانيّين، دفّة الحكم في جمهوريّة كان لهم الدور الأساسيّ في خلقها. وكان من الطبيعيّ أيضًا، بعد أن قامت الجمهوريّة اللبنانيّة لتجسّد فكرة الاستقلال والدفاع عن حدود الدولة وسلامة أراضيها، أن تحلّ هذه الدولة محلّ الكنيسة المارونيّة في تحمّل المسؤوليّات السياسيّة والوطنيّة. إلاّ أنّ الكنيسة، كمؤسّسة دينيّة وروحيّة، بقي عليها أن تدافع عن حرية المعتقد والأخلاق، وأن تُنعش الروح الوطنيّة في الكيان اللبنانيّ، وأن تحارب الإلحاد والذود عن الإيمان في مواجهة الهرطقات، وأن تقاوم الجشع والطمع وكَبْت الحريّات، وأن تُكافح الظلم والإباحيّة وتردّي الأخلاق من استرسال في استباحة المحرّمات والإدمان على المخدّرات، وأن تسهر على القيم والآداب السليمة والمُثُل العليا. هذا ما برح ينادي به، ويدافع عنه، ويدعو له جميع البطاركة الموارنة على مرّ التاريخ، وبوجه خاص بطاركة القرن

---

١ - راجع: HOUANI ALBERT, *LEBANON FROM FENDALISM TO MODERN STATE, MIDDLE EAST STUDIES*, II (1966) PP. 262-263

٢ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٢١٧.

العشرين: من الياس الحويك إلى أنطون عريضة، فإلى بولس المعوشي، فإلى الكردينال أنطونيوس خريش[1]، إلى الكاردينال نصرالله صفير*، الذي لم يترك سانحة دون أن يُسمع صوته في المحافل الدينيّة والمدنيّة المحليّة والدوليّة، ويتّخذ الموقف الحكيم والرزين الذي يمليه عليه الضمير، من الأشخاص والأحداث.

على صعيد الكيان، شهد لبنان المستقلّ على مدى الخمسين سنة من استقلاله خضّات سياسيّة وأمنيّة، كان أخطرها تلك التي وقعت بين سنتَي ١٩٧٥ و١٩٩٠، ناهيك عن تلك التي وقعت سنة ١٩٨٥. ومهما حاول المجمّلون ترميم صورة تلك الأحداث، فلا شكّ في أنّ "الطائفيّة" التي تشكِّل أساس الانتماء الاجتماعيّ السياسيّ في لبنان، كانت المرتع الخصب لوقوع تلك الأحداث. وإنّ إلقاء نظرة سريعة على ما حفلت به الصراعات السياسيّة بين المجتمعات / الطوائف اللبنانية حول مواضيع شكل الدولة وهويّتها السياسيّة ونظامها، منذ إعلان لبنان الكبير، من شأنه أن يظهر الصورة الواضحة لحقيقة مسألات المسيحيّين وسائر المجتمعات / الطوائف في لبنان. وعلى ما لعبه كلّ من بطاركة لبنان الجمهوريّة من أدوار بنّاءة في المجال الوطنيّ وغير مجال.

البطريَــــــرك
أنطُون عَريضَة

إلى جانب قيام البطريرك الياس الحويك بدوره الوطنــيّ الرائد الذي ساهم بشكل أساسيّ في نشوء دولة لبنان الكبير، أسّس هذا البطريرك العظيم مدرسة مارونيّة في باريس وأخرى في روما. كما أنشأ الدار البطريركيّة في القدس. وبنى المقرّ

[1] ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٣٠ ـ ٣٣١.

البطريركيّ الصيفيّ في الديمان[1]. وخصّص جميع أمواله لإنشاء جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات ورعايتها، وبنى لها ديرًا في بلدة عبرين من أعمال البترون ثم اشترى لها ديرًا في بيروت[2]. وبنى معبد "سيّدة لبنان"[3] الشهير في حريصا

---

١ ـ الديمان: قرية في قضاء بشرّي بجوار حصرون على متوسّط ارتفاع ١,٤٠٠ م. عن سطح البحر، وعلى مسافة ١٠٠ كلم عن بيروت عبر كوسبا ـ حدث الجبّة ـ بريسات. نقلت البطريركيّة المارونيّة مقرّها الصيفي من وادي قنّوبين إلى الديمان سنة ١٨٢٣ في عهد البطريرك يوحنّا الحلو، الذي أقام في منزل قريب من المركز الحاليّ للبطريركيّة، المشرف على الوادي المقدّس. بعد الحلو، بنى البطريرك يوسف حبيش كنيسة مار يوحنّا مارون في الديمان سنة ١٨٦٠، ثم خلفه البطريرك يوحنّا الحاج الذي باشر بتشييد الكرسيّ البطريركيّ القديم، وتوفّي قبل الانتهاء منه. فتلاه البطريرك الياس الحويّك الذي قرّر أن يبني الصرح البطريركيّ الحالي ١٩٠٠، وانتهى العمل ١٩٣٩. ثمّ أكمل البطريرك عريضة بناء الكنيسة بتمويل من شقيقه رشيد عريضة. أمّا البطريرك المعوشي فأدخل تجديدًا عمرانيًا على الكرسي. ثمّ جاء عهد البطريرك خريش الذي رمّم الطابق العلويّ. أمّا البطريرك الكاردينال صفير فقد كسى الكنيسة بالقرميد، وجدّد بعض الأقسام والغرف القديمة، وأدخل عددًا من التحسينات على الكرسيّ.

٢ ـ راجع: راهبات العائلة المقدّسة، في فصل "الرهبانيّات" من هذا الكتاب.

٣ ـ معبد سيّدة لبنان: يروي التقليد أنّ أوّل من بنى كنيسة في المكان كان جدود أسرتي رزق ويونس الذين جاؤوا من منطقة حريصا قرب تنّورين وجلبوا معهم صورة كنيستهم سيّدة حريصا هناك، وبنوا معبدًا صغيرًا في المكان المسمّى بالرويس من درعون فعُرف المكان مذذاك بحريصا. وفي ١٩٠٤أسّس معبد حريصا الحالي في محلّة الصخرة السعيد الذكر البطريرك مار الياس الحويّك والمونسنيور كارلوس دوفال القاصد الرسولي في لبنان وسوريا لمناسبة اليوبيل الخمسينيّ لتحديد عقيدة الحبل بلا دنس التي أعلنها البابا بيوس التاسع ١٨٥٤. أما النصب فهو من البرونز المسكوب صنع فرنسا، طوله ٨,٥م. وعرضه ٥، ووزنه ١٥ طنًا. أمّا القاعدة فمبنيّة من الحجر الطبيعيّ. علوّها ١٢م.، محيطها الأسفل ٦٤م. والأعلى ١٢، إذ لها شكل مخروطيّ، يُصعد الى قمّتها بدرج لولبيّ محاط بحاجز، فهي، وإن خلت من الفنّ الزخرفيّ، تلفت الأنظار بشكلها وروعتها. وقد بلغ مجموع ما أُنفق على بناء القاعدة ورفع التمثال ما يزيد على ٢٠,٠٠٠ فرنك ذهبًا. وبلغ ثمن التمثال مع كلفة إيصاله الى حريصا ١٤,٦٠٠ فرنك ذهبًا، وهو مبلغ باهظ يعجز عنه فرد. فكان من البديهيّ أن يشترك فيه الشعب المسيحيّ بأسره بعد أن وجّه البطريرك الحويك منشورًا إلى أبناء كنيسته كما وجّه القاصد الرسوليّ المونسنيور كارلوس دوفال نداء إلى الكنيسة اللاتينيّة لأجل جمع الإعانات والتبرّعات، فكان أنّ كلاً من الكنيستين جمعت نصف المبلغ تمامًا. وتمّ إنجاز العمل ١٩٠٧ على يد الملتزم إبراهيم مخلوف من عين الريحانة تحت إشراف الرئيس العام للرسالة اللبنانيّة الأب شكرالله خوري مطران صور في ما بعد. وتمّت حفلة التدشين في الأحد الأوّل من أيّار ١٩٠٨. وأُسندت خدمة المعبد وإدارته الى جمعية المرسلين اللبنانيّين؛ البازليك: عندما لم تعد كنيسة المعبد تستوعب العدد الكبير الذي يقصد زيارته خاصّة في الشهر المريميّ، قرّرت الإدارة بناء كنيسة كبرى تستوعب ٢,٠٠٠ شخص جلوسًا، تتوسّط ساحات تستوعب ١١٥ ألف شخص، وشمل المشروع مدرسة مجّانية داخليّة وخارجيّة، وبيت الرياضات الروحيّة وقاعة محاضرات. ووُضع الحجر الأساس لهذا البناء في ٣١ أيّار (مايو) ١٩٧٠ في خلال حفل رسميّ وشعبيّ كبير، وبارك الحجر البطريرك مار بطرس بولس المعوشي والسفير البابلويّ. كان ذلك على أثر نجاح تصميم المهندس الشيخ بيار خوري في مسابقة لأجمل تصميم، وكان قوام اللجنة التحكيميّة كبار المهندسين العالميّين. وكان المنفّذ المهندس لويس القرداحي وتمّ إنجاز كامل المشروع ١٩٧٥.

ودفع من أمواله الخاصّة نصف التكاليف. وفي مدّة ثلاث وثلاثين سنة أصدر مناشير كثيرة ألّفت مجموعة كبرى طبعت سنة ١٩٣١ في مطبعة المرسَلين اللبنانيّين. و"بعد جهاد طويل في خدمة الدين والوطن قضى قرير العين بما شاهده من ثمار جهاده، وله من العمر تسعون عامًا، وفي البطريركيّة ثلاث وثلاثون سنة. وكانت وفاته يوم عيد الميلاد سنة ١٩٣١، فدُفن في دير سيّدة بكركي ثمّ نُقل رفاته بناء على رجاء بنات جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة، غرسة يمينه، إلى دير عبرين من أعمال قضاء البترون، وهو أوّل دير لهذه الجمعيّة ومقرّ رئاستها العامّة. وأودع رفاته ضريحًا فخمًا يعلوه تمثال عظيم من وضع أخيه النحّات يوسف الحويّك[1].

بعد انقضاء أسابيع على وفاة البطريرك الحويّك، اجتمع السينودوس المارونيّ في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢، وانتخب مطران طرابلس **أنطون عريضة** بطريركًا خلفًا للراحل العظيم.

وُلد هذا البطريرك في بشرّي في ٨ آب (أغسطس) ١٨٦٣، والده عبد الأحد، تلقّى دروسه العربيّة والسريانيّة في مدارس بشرّي، دخل مدرسة مار يوحنّا مارون الإكليريكيّة سنة ١٨٧٩ ثمّ انتقل إلى مدرسة "سولبيس" الإكليريكيّة لينهي دروسه العالية، سيم كاهنًا سنة ١٨٩٠. بعد عودته إلى لبنان عيّنه البطريرك يوحنّا الحاج كاتمًا لأسراره ومحاميًا لدعاوى الزواج وفاحصًا للكهنة. رقّاه البطريرك الياس الحويك إلى درجة خوراسقف سنة ١٩٠٥ واصطحبه معه إلى روما حيث منحه البابا رتبة "حاجب سرّي" مع لقب "مونسينيور". عيّنه البطريرك الحويّك مطرانًا لأبرشية طرابلس سنة ١٩٠٨. عايش حقبة الحرب العالميّة الأولى وهو أسقف فكان من جملة ما فعله أنّه رهن صليبه الذهبيّ لإطعام جياع خلال الحرب العالميّة الأولى وقد لُقّب بـ

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٢١.

"أب الفقراء". بعد انتخابه بطريركًا بنى جناحًا واسعًا في الديمان وأقام فيه كنيسة فخمة زيّنها الفنّان صليبا الدويهي بتصاوير رائعة. اشترى دارًا في "مرسيليا" فرنسا وجعلها مقرًا لكاهن يمثّله ويقوم بخدمة الزائرين اللبنانيين والجالية الساكنة هناك. بنى كنيسة ومدرسة للراهبات في "أميون" من أعمال الكورة في شمال لبنان. أسّس شركة الترابة اللبنانيّة في ساحل "شكّا" من أعمال قضاء البترون في شمال لبنان. أنشأ "الإكليريكيّة العامّة" في مدرسة القدّيس مارون في دير الآباء اليسوعيّين في غزير وسلّم إدارتها إلى الآباء اليسوعيّين، إضافة إلى إكليريكيّة ثانية بإدارة البطريرك في مبنى معهد "عين ورقة" في غوسطا ثمّ نقلت إلى "مار عبدا هرهريا"[1]، شيّد مزارًا لـ "قلب يسوع الأقدس" في بشرّي سنة ١٩٣٨. بنى كاتدرائيّة مار سابا في بشري. أنشأ ميتمًا في طرابلس. وعندما وقعت كارثة فلسطين، أصدر أوامره لاستقبال المنكوبين في الأديار وكان يُرسل إليهم الإعانات. ويوم الطوفان في سوريا أرسل إلى أحد التجّار السوريّين ستّين ألف كيس دقيق ليوزّعها باسمه على المنكوبين. له مؤلّفات منها: "احكام القراءة السريانية والعربيّة" ١٩١٤، "رتبة الشهر المريمي" ١٩٣٤، "رسالتان في فن الزراعة"، ١٩٣٥، "لبنان وفرنسا" أو "الكتاب الأزرق" ١٩٣٦، "رسالة في تربية دود القزّ"

---

١ ـ بنت أسرة أصاف المارونيّة دير مار عبدا هرهريّا في القطّين بقرب غزير على مراحل منذ ١٦٥٥، كان اول البناة الخوري يوسف ابن الخوري أصاف من عرمون الذي لبس إسكيم الرهبان وتبعه في ذلك إخوته إندراوس وأنطونيوس ويوحنّا وأختهم رفقا، ثمّ تبعهم والداهم بعد أن تاركا حقوق الزواج طوعًا وبإذن مطران الأبرشيّة، وسكنوا جميعا في هذا المكان الذي حولوه إلى دير، (الدويهي، تاريخ الأزمنة، تاريخ ١٦٥٥؛ الدبس، الجامع المفصّل، ص٢٥٧.) تعاقب على الدير قسس من آل أصاف فرمّموه ووسّعوه. بقي ديرًا مختلطا إلى أن فصل مجمع اللويزة ١٨١٨ بين أديار الرهبان والراهبات، وجعل دير مار عبدا هرهريّا واحدًا من الأديار السبعة التي خصّصت لإقامة الراهبات. (الدبس، الجامع المفصّل، ص٣٧١، ٣٧٢.) حول إلى مدرسة إكليريكيّة بأمر من البطريرك يوسف حبيش ١٨٣٠ووزّعت الراهبات اللواتي كنّ فيه على أديرة الراهبات في كسروان ما عدا الرئيسة وكانت من بيت أصاف، التي فضّلت الإقامة في محلّ قرب الدير. نشأ من هذه المدرسة رجال أفاضل منهم المطران يوسف أبي نجم الذي أصبح نائباً بطريركيّاً، والمطران إسطفان عوّاد، والمطران جرمانوس الشمالي، والمطران يوسف مسعد، ولفيف من الخوازنة. (الحتّوني، المقاطعة الكسروانيّة.)

١٩٣٨، "رتبة منح البركة بالصليب المقدس" ١٩٣٨، "رفيق الإكليريكي" ١٩٣٩، كتاب "الطقوس" لخدمة الأسرار المقدّسة ١٩٤٢، "إرجاع الكلام إلى لغة سام" مخطوط، وفي عهده طُبع كتاب الطقوس المارونيّة القديمة. في آخر أيّامه قضى سنتَين في الفراش مقاسيًا الآلام مصليًّا، توفّي في ١٩ أيّار (مايو) ١٩٥٥ ودُفن في كنيسة الديمان. ترك وصيّة أمر بموجبها توزيع أمواله الوافرة الموروثة من عائلته على البطريركيّة وللمشاريع الخيريّة، ولإعالة الكهنة خدمة الرعايا[١].

في بداية ولاية البطريرك عريضة على سدّة البطريركيّة المارونيّة، كان بعض المسلمين يتعاملون مع النظام اللبنانيّ الناشىء، من خلال اشتراكهم في مؤسّساته الرسميّة، بينما استمرَّت أكثريّتهم في وضع المُعارض للكيان. وكان بعض هؤلاء يُطالب بالاتّحاد مع سورية، بينما بعضهم الآخر يدعو إلى وحدة عربيّة شاملة. وكان بعض زعماء المسلمين قد دعا في ١٩٣٣ إلى مؤتمر برئاسة الزعيم البيروتي السنّي "سليم سلام"، عُرف بمؤتمر الساحل الأوّل، قرَّروا بخلاله بالإجماع المطالبة بضمّ المناطق اللبنانيّة الإسلاميّة إلى سورية. وعندما وقعت الاضطرابات في سورية في بداية سنة ١٩٣٦ بين الوطنيّين والفرنسيّين، اضطربت الأحياء الإسلاميّة في بيروت، وقامت التظاهرات في طرابلس وصيدا، وسارع سليم سلام إلى عقد مؤتمر الساحل الثاني في آذار (مارس) ١٩٣٦، وصدرت المقرّرات نفسها التي كانت قد صدرت عن المؤتمر الأوّل بشأن المطالبة بضمّ المناطق اللبنانيّة الإسلاميّة إلى سورية، وقد لاقت هذه الدعوة هَبَّة إسلاميّة في لبنان ظهر معها وكأنّ الكيان غير قابل للاستقرار.

في مقابل هذا التيّار الإسلاميّ، تكوّن تيار مسيحيّ جديد قال بوجوب التمسُّك بالكيان اللبنانيّ الراهن. وقد تمثّل هذا التيّار في منظّمة أسّسها فريق من الشباب

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٢٢ ـ ١٢٦.

المسيحيّ على رأسه بيار الجميّل المارونيّ، عُرفت باسم الكتائب اللبنانيّـة. بينمـا ظهـر داعية مسيحيّ آخر، هو "أنطون سعادة" الأرثذوكسيّ المذهب، الذي قال بقوميّة تختلـف عن القوميّتَين: العربيّة المسلمة، والمسيحية اللبنانيّة، وكانت تلك القوميّة السوريّة، التـي التقت مع المسلمين في ضمّ كلّ لبنان إلى سورية دون أن تلتقي معهم فـي ضـمّ أجـزاء منه إليها أو إلى سائر العالم العربيّ المسلم. وبينمـا لاقت دعـوة "الكتـائب" إقبـالاً بيـن المسيحيّين الموارنة بشكل خاص، راجـت الدعـوة إلـى القوميّـة السـوريّة فـي الأوسـاط الأرثذوكسيّة والإنجيليّة وعند بعض الشيعة والدروز.

وفي الجهة الأخرى، أنشأ المسلمون مجلسًا استشاريًّا لتنسيق مطالب أبناء المذاهب الإسلاميّة في البلاد، فقال هـذا المجلـس بتشـجيع الشـباب المسـلم علـى تأسيس منظّمـة "النجّادة" أوائل سنة ١٩٣٧ للوقوف في وجه "الكتائب".

بقيت الأحوال مضّطربة سنة ١٩٣٦ حتّى تمّ توقيع المعاهدة الفرنسيّة السوريّة فـي باريس. فهمد المسلمون في لبنان حينذاك، ما سمح ببدء المفاوضــات فـي بيروت لعقد معاهدة مماثلة بين فرنسا ولبنـان. وبمـا أنّ السـوريّين كـانوا قـد وقّعـوا تلـك المعـاهدة، أصبح القادة المسلمون في لبنان قابلين بتوقيع معاهدة مماثلـة. غـير أنّ القـوى الشـعبيّة الإسلاميّة التي كانت لا تزال غير مستعدّة علـى الإطـلاق للاعتراف بالكيـان اللبنـانيّ، وقد وجدت في المعاهدة تكريسًا نهائيًّا له بحدوده القائمـة، هبّت للمعارضـة مـن خـلال تظاهرات عنيفة في المناطق الإسلاميّة من بيروت، كمـا أضربـت طرابلـس، ووقعـت مواجهات دامية "طائفيّة" في المناطق المختلطة. إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من توقيع المعاهدة.

أحكم الفرنسيّون قبضتهم على لبنان بخلال الحرب العالميّة الثانية، فـاضطّر جميـع القوى السياسيّة إلى الركون. بيدَ أنّه مع سيطرة "الديغوليّين" على الموقف في المنطقــة، وإعلانهم مع الانكليز منْح لبنان وسورية الاستقلال، عادت الحركة السياسيّة فـي لبنـان

سنة ١٩٤٢ إلى سابق نشاطها. وعاد المسرح ليشهد المبارزة بين الكتلة الوطنيّة (إدّه) وبين الكتلة الدستوريّة (الخوري)، وتجدّدت الدعوة في أوساط المسلمين إلى الوحدة العربيّة، بينما دعت الكتلة الدستوريّة إلى استقلال لبنان استقلالاً تامًّا، ودعت الكتلة الوطنيّة، التي تحفّظت بشأن هذا الاستقلال، إلى الحفاظ على بعض الصلات السياسيّة مع فرنسا.

أمام هذا الواقع، كان من الطبيعيّ أن تكون دعوة الكتلة الدستوريّة أقرب إلى المسلمين من دعوة الكتلة الوطنيّة. وشيئًا فشيئًا وجد بعض القادة المسلمين أنّ الظرف لا يسمح بأكثر من تحقيق موقع فعّال داخل الكيان القائم، وفسّروا موقفهم الجديد بمقولة إنّ لبنان جزء لا يتجزّأ من الأمّة العربيّة، له خصائص مميّزة تستدعي، إلى حين، استقلاله التامّ. فتمّ على هذا تفاهم بين الدستوريّين وكبار الزعماء المسلمين على أساس ما أصبح يُعرف في ما بعد بـ "الميثاق الوطنيّ". وعلى هذا حقّقت الكتلة الدستوريّة انتصارًا على الكتلة الوطنيّة، تُرجم في انتخابات نيابيّة جرت سنة ١٩٤٣.

في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤، وقّع لبنان بروتوكول الإسكندريّة إعدادًا لتأسيس الجامعة العربيّة الذي سيتمّ في ٢٢ آذار (مارس) من السنة التالية، إلى جانب سورية وشرقيّ الأردنّ والعراق ومصر. وإذ أثار هذا الحدث ضجّة سياسيّة مسيحيّة لأنّ البروتوكل يحوّل لبنان إلى بلد غير مستقل، طلب البطريرك أنطون عريضة تشكيل لجنة من المحامين والقضاة، لدراسة بنود البروتوكول وتعديله، فاستُبدل بـ "ميثاق القاهرة".

عايش البطريرك عريضة عهدَين إستقلاليّين: عهد الرئيس بشارة الخوري (١٩٤٣ ـ ١٩٥٢) ونصف عهد الرئيس كميل شمعون (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨) إذ توفّي سنة ١٩٥٣. ومنذ فجر الاستقلال كان عريضة يشدّ أزر الحكم الوطنيّ ويمدّه بكلّ عون يعود بالخير

على الجميع. وكان للبطريرك شأنه وكلمته المسموعة في القضايا الحيويّة الكبرى. وقد مدّ هذا البطريرك يدًا مخلصة لكلّ من الرئيسَين من أجل تحقيق أماني الشعب المشروعة، فاستفاد العهدان من تأييده، وأتى التعاون بين البطريرك وبين رئيس الجمهوريّة بثمار طيّبة. ذلك أنّ البطريرك عريضة لم يكن يبغي من دنياه سوى خير الوطن وشعبه. حتّى إنّه في ساعاته الأخيرة أوصى الرئيس كميل شمعون بأن يحافظ دائمًا على استقلال الوطن وكيانه[1].

"بطريَرك العرب"

مار بولس المعوشي

بعد مرور عشرة أيّام على وفاة البطريرك عريضة، وصل إلى مقرّ البطريركيّة المارونيّة في بكركي في ٢٩ أيّار (مايو) ١٩٥٥ القاصد الرسوليّ في القدس المطران "سيلفيو أودّي"، موفدًا من البابا بيوس الثاني عشر، واجتمع إلى أساقفة الكنيسة المارونيّة، بعد أن طُلبوا رسميًّا للاجتماع في الرابعة من بعد ظهر اليوم المذكور، لسماع براءة موقّعة من الحبر الأعظم. فتلا عليهم الموفد البابويّ البراءة باللغة اللاتينيّة، كما تلا ترجمتها باللغة الفرنسيّة. وهي تعلن تسمية مطران صور بولس المعوشي بطريركًا على كرسي أنطاكية وسائر المشرق للكنيسة المارونيّة خلفًا للبطريرك أنطون عريضة. فتلقّى البطريرك المعيّن وجميع الأساقفة هذا التدبير البابويّ بمنتهى الخضوع والاحترام[1].

هو الشيخ فريد بن الشيخ أسعد بن شديد بن عازار بن بطرس المعوشي، وُلد في جزّين في أوّل نيسان ١٨٩٤. تلقّى علومه الأولى في مدرسة جزّين وانتقل بعدها إلى

---

١ ـ داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

٢ ـ المرجع السابق.

مدرسة الأخوة المريميّين في دير القمر ثمّ إلى معهد الحكمة في بيروت ١٩٠٨. أُرسل إلى مدرسة روما حيث تخرّج ١٩١٧ مجازًا في الفلسفة واللاهوت وسامه المطران نعمة الله أبي كرم كاهنًا باسم بولس على مذبح دير مار أنطونيوس روما، أتقن العربيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والإنكليزيّة. عاد إلى لبنان ١٩١٩ فعيّنه المطران أغوسطين البستاني كاتمًا لأسراره. رُقّي إلى درجة الأسقفيّة وعيّن أسقفًا على أبرشيّة صور ١٩٢٧، فوجّه عناية خاصّة لرعاياه في حيفا ويافا والناصرة والجليل. عُيّن رئيسًا للجنة الأسقفيّة الرسوليّة[1] في عهد البطريرك عريضة سنة ١٩٤٨[2]. في عهد بطريركيّته أنشئت ثلاث أبرشيّات في المهاجر، وطُوِّب الأب شربل مخلوف لدى اختتام المجمع المسكونيّ الثاني. وأنشأ المعوشي مؤسّسة في جزّين نذر لها جميع ما ملكت يداه. وكان من ذوّاقة الأدب والرواية والشعر وسيّد قلم وأمير منابر. لعب دورًا كبيرًا في المسار السياسي محليًّا وإقليميًّا. لُقِّب ببطريرك العرب. تميّز بشخصيّته القويّة وجرأته وشجاعته. زار عددًا من الرؤساء الفرنسيّين والأميركيّين الذين منحوه أوسمةً رفيعة، توفّي ودُفن في بكركي ١٩٧٥.

عندما بدأ البطريرك المعوشي عهده لم تكن الصيغة اللبنانيّة قد أصبحت متينة البنيان بعد. ذلك أنّ أكثر القادة المسلمين، قد ساروا بهذه الصيغة وبما عُرف بالميثاق

---

١ ـ في يوم الأحد ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٨، زار السفير البابوي "المونسينيور مارينا" صرح بكركي، وأعطى البطريرك عريضة رقيمًا بابويًّا صادرًا في ٢٨ أيار (مايو) ١٩٤٨ يعيّن فيه، إلى جانب البطريرك، بناء عل طلب من الأساقفة الموارنة، لجنة أسقفيّة رسوليّة من ثلاثة أساقفة مزوّدين بالسلطات الخاصّة ليكونوا إلى جانب البطريرك في شيخوخته، وذلك "لأنّ الكنيسة المارونيّة، لأسباب عدّة، كانت تعاني صعوبات خاصّة". وقد عيّنت تلك اللجنة برئاسة المعوشي وعضويّة الأسقفَين عبدالله الخوري وبطرس ديب، وحلّ محلّ الخوري بعد وفاته في شباط (فبراير) ١٩٤٩ المطران اغناطيوس زيادة. وانتهت مهمّة اللجنة الأسقفيّة بتعيين المعوشي بطريركًا. (خاطر لحد، لبنان والفاتيكان، دار لحد خاطر (بيروت،١٩٨٩) ص٨٨ ـ ٨٩.

٢ ـ يفهم من الرقيم البابوي الصادر عن البابا بيوس الثاني عشر بتاريخ ٢٥ أيّار (مايو) ١٩٥٥ الذي عيّن بموجبه المعوشي بطريركًا من قبل روما، أنّ ذلك التعيين كان استثنائيًا.

الوطنيّ انطلاقًا من مقولة إنّ "للبنان خصائص مميَّزة تستدعي، إلى حين، على الأقلّ، استقلاله التام"، وأن يكون استقلال لبنان "تدبيرًا عابرًا". ولقد عبَّر مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة صراحة عن خلفيّة موقف المسلمين هذا بعد حوالى خمس وثلاثين سنة، إبّان الأحداث "الطائفيّة" الدامية التي عصفت بلبنان بين منتصف السبعينات وبداية التسعينات من القرن العشرين، إذ قال إنّه "لم يكن بإمكانهم أن يغيّروا ما حصل، أملاً بأن يأتي يوم آخر يكون أبرك من هذا اليوم، وظرف أحسن من هذا الظرف، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا..."[1].

ولم يكن الميثاق الوطنيّ، بنظر المسلمين في لبنان، حاظيًا باعتبار أفضل من الاعتبار الذي حظيت به الصيغة. ففي بداية تلك الأحداث اللبنانيّة المشؤومة في الربع الأخير من القرن العشرين، ومع اشتداد قوّة المقاومة الفلسطينيّة التي نشأت وترعرت في لبنان، حيث نشأ وترعرع بينها وبين المسلمين تحالف استراتيجيّ وثيق، وقد شعر المسلمون بأنّهم، بالتعاون مع تلك المقاومة، بات بوسعهم أن يقلبوا المعادلة القائمة، قال مفتي المسلمين: "إنّ المواثيق في حال حصولها، تفقد قيمتها إذا تضمّنت تكريس التمايز بين المواطنين في الحقوق والواجبات... أولَيس الميثاق عقدًا أجري بين طرفَين إختاراه بالتفاهم بينهما منهجًا خاصًّا للتعايش والتعاون؟!. فهل إذا رأى أحد هذَين الطرفَين أنّ هذا العقد لم يعد صالحًا، وأنّه على العكس، أصبح ضارًّا بمصلحته، ويسيء إلى قضاياه، بل ويمزّق وحدته وتعاونه مع الطرف الآخر، يجوز أن يستمر هذا العقد قسرًا وجبرًا؟... أفليس من الحكمة والمصلحة العامّة وحسن المواطنيّة استجابة الطرف الآخر لأمنية الآخرين!"[2].

---

١ ـ خالد الشيخ حسن مُفتي الجمهورية اللبنانية، المسلمون في لبنان والحرب الأهليّة، دار الكندي (بيروت،١٩٧٨) ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

٢ ـ خالد، مرجع سابق، ص ٨٢ ـ ٨٣.

لم يكن جميع المسيحيّين في لبنان بحاجة إلى وقوع أحداث ١٩٧٥ واستمرارها أكثر من خمس عشرة سنة ليتوقّعوا حقيقة ما ينتظر الصيغة والميثاق من سوء مصير، وإن كان بعضهم الآخر قد اعتبر أنّ تمكّن عهد بشارة الخوري من توطيد دعائم الإستقلال اللبنانيّ يعني نشوء دولة ثابتة الأركان لن تقوى رياح السياسة الإقليميّة والدوليّة على تقويضها. إلاّ أنّ الأوّلين، مع هذا، ماشوا سيّد العهد وتيّاره في سياسة تقوية العلاقات بين لبنان والدول العربيّة.

ورغم أنّ الدول العربيّة كانت قد أعربت، عبر ميثاق القاهرة وميثاق جامعة الدول العربيّة، عن ثقتها بسياسة لبنان العامّة، وتعهّدت باحترام سيادته وكيانه ضمن حدوده القائمة، فقد استمرّ أصحاب النزعة إلى القوميّة العربيّة من المسلمين على ما كانوا عليه. وجاء إخفاق الأنظمة العربيّة التي كانت قائمة في محاولتها منع قيام دولة إسرائيل في أرض فلسطين، ليُفقد الحكومات العربيّة، ومنها الحكومة اللبنانيّة، الكثير من دعائم الإستقرار، ما أدّى بالفعل إلى إطاحة الجيش السوريّ في ربيع ١٩٤٩ حكومةَ سورية الدستورية، وإطاحة المعارضة اللبنانيّة المختلطة حكمَ بشاره الخوري صيف ١٩٥٢، وإلى إطاحة الملكيّة المصريّة بعد الأحداث التي وقعت هناك على يد الضبّاط الأحرار بين ١٩٥٣ و١٩٥٤ وأسفرت عن تسلّم "جمال عبد الناصر" قيادة الثورة المصريّة. وقد شرع الزعيم المصريّ الجديد، في السنوات التالية، في بسط نفوذه على العالم العربيّ، محاولاً بذلك تحقيق الوحدة العربيّة. وأيقظت سياسة عبد الناصر، في لبنان، حماس دعاة الوحدة العربيّة من المسلمين الذين راحوا صيف ١٩٥٧ يقومون بأعمال الشغب، فقامت الفئة الدرزيّة المعارضة للنظام اللبنانيّ القائم بنسف الجسور وسدّ الطرق في منطقتها: الشوف. وأُلقيت القنابل المتفجّرة في بعض أحياء بيروت، وانهار الأمن في المناطق الأخرى. وفي ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨،

حين اتّحدت الدولتان السوريّة والمصريّة باسم الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، هنّأت الحكومة اللبنانيّة الرئيس عبد الناصر لهذه المناسبة. وقد كان رئيس الجمهوريّة آنذاك أحد دهاة الساسة الموارنة في لبنان: كميل شمعون. بيدَ أن تلك التهنئة الحكوميّة بقيام الوحدة بين مصر وسورية، لم تمنع من ازدياد تدهور الوضع اللبنانيّ الداخليّ. فاستمرّت الأعمال المخلّة بالأمن في مختلف المناطق. وتكثّفت التظاهرات الاسلاميّة المؤيّدة للوحدة وللرئيس عبد الناصر، ما جعل الكيان اللبنانيّ يبدو مهدّدًا جديًّا. وفي أيّار (مايو) من تلك السنة، أقدمت يد مجهولة على قتل الصحافيّ المارونيّ المعارض لسياسة شمعون: نسيب المتني، أمام منزله في بيروت، وسرعان ما اتُّهم "العهد الشمعونيّ" باغتيال الصحافيّ، ودعت المعارضة، ذات الصبغة الإسلاميّة، إلى إضراب شامل إعرابًا عن الإحتجاج. ولم يمضِ يومان حتّى تحول الإضراب إلى ثورة مسلّحة في الأحياء المسلمة من المدن الرئيسيّة اللبنانيّة المختلطة وخاصّة العاصمة بيروت. وفي اليوم الذي بدأت فيه الاضطرابات في طرابلس، هاجمت عصابة مسلّحة من الأراضي السورية الموقع اللبنانيّ في المصنع، على الحدود، وقتلت خمسة من حرّاسه. "ولم يمضِ وقت طويل حتّى كادت الحكومة اللبنانيّة تفقد السيطرة على حدودها الشرقيّة والشماليّة بكاملها"[1]، خاصّة وأنّ الجيش اللبنانيّ الذي كان قادرًا على سحق الثورة بالقوّة آنذاك، بقي على الحياد، لكون قائده اللواء "فؤاد شهاب"، الذي سيصبح رئيسًا للجمهوريّة بعد كميل شمعون، قد أصرّ على أنّ هذا الجيش لا شأن له في دعم موقف العهد ضدّ المعارضة، بل إنّ مهمّته تقتصر على الدفاع عن البلاد ضدّ العدوان الخارجيّ والحفاظ على الأمن الداخليّ عند الحاجة.

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص٢٤٦.

بينما كانت الحالة في لبنان تزداد سوءًا، وقع انقلاب عسكريّ في العـراق فـي ١٤ تمّوز (يوليو) أطاح الحكم الملكيّ الهاشميّ هناك. وإذ بدا هذا الانقلاب في مصلحة عبد الناصر، زادت حماسة دعاة الوحدة العربيّة بين المسلمين اللبنانيّين. ما دفع بسيّد العهد: كميل شمعون، إلى دعوة الولايات المتّحدة الأميركيّـة، بإلحـاح، لإرسـال قـوّة عسكريّة تحمي الكيان اللبنانيّ من الانهيار. فلبّت الولايات المتّحدة هذه الدعوة وأنزلت في تمّوز (يوليو) قوّة من "المارينز" على الشاطىء الشماليّ لضاحية بيروت، حيث السكّان من المسيحيّين الموالين للجمهوريّة. على أنّ هؤلاء المارينز لم يحـاولوا وضـع حدّ للثورة في البلاد، إنمّا هم أوقفوا، بمجرد نزولهم، التدخّل الخارجيّ. وكـان هذا كافيًا لتحويل أهداف الثورة من الوحدة العربيّة إلى منع التجديد للرئيس شمعون، الذي كان قـد أعلن بلسان رئيس وزرائه: سامي الصلح، قبل ذلك التـاريخ بـأكثر مـن شـهر، أنّـه لا ينـوي التجديد لنفسه. وقد أكمل شـمعون ولايتـه حتّـى آخـر سـاعة منهـا. وكـان وكيـل وزيـر الخارجيّة الأميركيّة: "روبرت مورفي"، قد زار بيروت فـي السـادس عشـر مـن تمّـوز (يوليو) واجتمع إلى الفريقَين: الموالي والمعارض، وعاد إلى بلاده بعد أن اتّضح له أنّ الحلّ الأنسب هو فـي انتخـاب قـائد الجيش اللبنـانيّ اللـواء فـؤاد شـهاب خلفًـا لـلرئيس شمعون[1]، وقد تمّ هذا الانتخاب في ٣١ تمّوز (يوليو). إلاّ أنّ الرئيس المنتخب لم يستلم مقاليد الحكم من سلفه إلاّ بعد نهاية الساعة الأخيرة مـن ولايـة هـذا الأخـير فـي الثـاني والعشرين من أيلول (سبتمبر).

في خضمّ تلك الأحداث الخطيرة، تعاطى البطريرك المعوشي مـع الأزمـة اللبنانيّـة تعاطي المترفّع عن الحالات السلطويّة والانتمائيّـة. فعـارض، جهـارًا وعمليًّـا، التجديد

---

١ ـ راجع: MURPHY ROBERT, *DIPLOMAT AMONG WARRIERS* (NEWYORK,1964), PP. 43 9 - 466; MILLER RICHARD L., *DAG HAMMARSKGOLD AND CRISIS DIPLOMATY* (NEWYORK.1961), P. 178

للرئيس كميل شمعون. حتّى أنّه زار واشنطن، بل البيت الأبيض بالذات، الذي خرج عن تقاليده لاستقبال رئيس روحيٍّ من لبنان، وتمكّن من عقد خلوةٍ مع الرئيس كنيدي جرى فيها التفاهم على عدم التجديد للرئيس شمعون، دون أن يتنبّه للأمر لا السفيرُ اللبنانيُّ ولا وزير خارجيّة أميركا[1].

ما أن تسنّم اللواء شهاب كرسيّ الرئاسة حتّى سارع إلى تأليف وزارة جديدة من معارضي العهد السابق من المسلمين، ومن المسيحيّين المحايدين، برئاسة أحد كبار زعماء الثورة، الزعيم الطرابلسي المسلم السنّي: رشيد كرامي. وإذ أعلنت هذه الوزارة، في بيانها الأوّل، عن عزمها على "قطف ثمار الثورة"، ثارت نقمة الفئات الموالية للعهد السابق بما في ذلك أكثريّة المسيحيّين. "وحدث في اليوم التالي أن اختُطف الأديب والصحافيّ المسيحيّ الكتائبيّ "فؤاد حدّاد" الملقّب بـ"أبو الحن"، وانتشرت الأخبار عن تعذيبه وقتله. فدعا حزب الكتائب على الفور إلى إضراب عام، وساندت هذا الإضراب الفئات المستاءة من تباشير العهد الجديد، ومنها الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ. وسرعان ما تطوّر إضراب ٢٣ أيلول (سبتمبر)، كما تطوّر إضراب ٨ أيّار (مايو)، إلى ثورة مضادّة وقفت في وجه الثّورة الأولى. فعادت الأحوال فجأة إلى التدهور، حتّى اصبحت البلاد مهدّدة بحرب أهليّة"[2].

لم يستطع موارنة لبنان إلاّ أن يظنّوا على الأقلّ، بأنّ يدًا معيّنة كانت تسعى إلى القضاء على الكيان اللبنانيّ، في ذلك الموسم الوحدويّ العربيّ. وأنّ تلك اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافيّ نسيب المتني، الذي كان إضراب الاحتجاج على مقتله

---

١ ـ سكاف جورج، صفحات من لبنان، منشورات نوبليس (بيروت، ٢٠٠٢) ٥: ١٩٥، حيث جاء أنّ الذي دبّر هذه الخلوة كان الدبلوماسي اللبناني كميل شكري نوفل.

٢ ـ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٢٤٩.

يوم الصفر لانطلاق ثورة ١٩٥٨ المسلمة، هي اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافي فؤاد حدّاد ليكون يوم الإضراب، احتجاجًا على مقتله، يوم الصفر لبداية ثورة مضادّة تعيد شقّ ما كان يُعمل على إعادة لحمة الدولة. غير أنّ المداخلات الأجنبيّة لدول القرار جعلت السيّد الجديد للعهد: اللواء الأمير فؤاد شهاب، الذي دعم الأميركيّون انتخابه رئيسًا، يعي أنّه لن يتمكّن من تثبيت أركان الحكم إلاّ متى تمثّلت قوى البلاد الأخرى في الوزارة. لذلك سعى إلى تأليف وزارة أقطاب مثّل الثورة فيها رئيس الوزارة رشيد كرامي، ومثّل الثورة المضادّة رئيس الكتائب بيار الجميّل، وكان الوزيران الآخران: "الحاج حسين العويني" من وجهاء السنّة في بيروت، و"ريمون إدّه"، نجل اميل إدّه... وعميد حزب الكتلة الوطنيّة. وأُطلق على هذه الحكومة شعار: "لا غالب ولا مغلوب". وبذلك عادت الحياة الطبيعيّة إلى البلاد، بلمح البصر، لتستقرّ بضع سنوات، وسوف تكون نهاية ذلك الاستقرار الهشّ مع بدء ازدياد قوّة المقاومة الفلسطينيّة في لبنان، نهاية ستّينات القرن العشرين، تلك المقاومة التي ستصبح بعرف مفتي الجمهورية اللبنانيّة آنذاك: "جيش المسلمين في لبنان"[1].

وفي نهاية عهد الرئيس فؤاد شهاب سنة ١٩٦٤، اتّخذ البطريرك المعوشي موقفًا ضدّ التجديد للرئيس شهاب تمامًا كما فعل في نهاية عهد الرئيس شمعون، ذلك أنّ موقفه كان مبدئيًّا، إذ تمسّك بأحكام الدستور اللبنانيّ الذي لا يسمح لرئيس الجمهوريّة الواحد بأكثر من ولاية واحدة على التوالي، وهكذا انضمّ البطريرك إلى خصم الأمس، الرئيس شمعون، الذي عارض التجديد للرئيس شهاب.

---

١ ـ في لقاء تمّ بين المُفتي حسن خالد والزعيم الدرزي كمال جنبلاط قال الأخير للمفتي: "لولا الفلسطينيّين لهُزمنا ودخل الكتائب البَسْطة (قلب الأحياء البيروتيّة المسلمة)...رأى المسيحيون الموارنة إنو إذا قويوا الفلسطينيين رح يقوى المسلمين. ويطالبوا بحقوقهم أكثر وأكثر، وقالوا في خطر من الفلسطينيّين علينا، يعني على امتيازاتهم... الفلسطينيون كما كنت تقول سماحتك هم جيش المسلمين... (ذكر هذا المحضر في كتاب الشيخ حسن خالد، مرجع سابق، ص٢٨٧)

البَطريَركيَّة المَارونيَّة
والحَــربُ اللبنَانيَّــة

بين نهاية عهد الرئيس شهاب سنة ١٩٦٤، وبداية عهد الرئيس الياس سركيس سنة ١٩٧٦، كان قد خلف الرئيس شهاب رئيسان للجمهوريّة هما: الصحافي اللبنانيّ الشهابيّ النهج[1] السياسيّ شارل حلو (١٩٦٤ ـ ١٩٧٠) ثمّ الزعيم الزغرتاويّ سليمان بك فرنجيّة (١٩٧٠ ـ ١٩٧٦) المعارض للنهج الشهابيّ. وإذا كان الرئيس حلو قد تجاوز "القطوع" على مدى السنوات الستّ من عهده، فإنّ ما جرى في ذلك العهد من تسلّح وانفلاش للوجود الفلسطينيّ في لبنان، ونشوء ما يشبه الدولة الفلسطينيّة المسلّحة داخل الدولة اللبنانيّة الشرعيّة، ومن انتهاكات خطيرة أمنيّة وسلطويّة من قبل عناصر الأولى لسيادة الثّانية، لن يمكّن الرئيس فرنجية من إنهاء ولايته بسلام.

في الحقبة نفسها، كان قد خلف البطريرك المعوشي إثر وفاته سنة ١٩٧٥، المطران أنطونيوس خريش الذي انتُخب في ٣ شباط (فبراير) بطريركًا. وهو مولود في عين إبل من أعمال قضاء بنت جبيل في جنوب لبنان سنة ١٩٠٧، وكان أسقفًا معاونًا في أبرشيّة صيدا سنة ١٩٥٠ ثمّ رئيس أساقفتها سنة ١٩٥٧. وفي أيّامه انفجرت الحرب الأهليّة في لبنان، فحاول حمل الأطراف، دون جدوى، على اتّباع وسائل الحوار والمواقف السياسيّة المعتدلة. وفي سنة ١٩٨١ استقال البطريرك خريش[2] من منصبه، فعيّن النائب البطريركي المطران نصرالله صفير مدبّرًا

---

١ ـ أطلقت تسمية "النهج" على السياسيّين والإداريّين والعسكريّين الذين ألّفوا ما يشبه التيّار السياسيّ الذي ذهب مذهب الرئيس فؤاد شهاب السياسيّ وعُرف بـ"النهج الشهابيّ"، كما أطلقت على هؤلاء أيضًا تسمية الشهابيّين.

٢ ـ توفّي البطريرك خريش سنة ١٩٩٤.

بطريركيًا، ثمّ انتخبه سينودوس الأساقفة بطريركًا أصيلاً في ١٩ نيسان (إبريل) ١٩٨٦، وسرعان ما زار روما وتقلّد من الحبر الأعظم درع التثبيت.

هو البطريرك السادس والسبعون في سلسلة البطاركة الموارنة لأنطاكية وسائر المشرق، وُلد في ريفون كسروان في ١٥ أيّار (مايو) ١٩٢٠، أتمّ دروسه الإبتدائيّة والتكميليّة في مدرسة مار عبدا هرهريّا ١٩٣٣ - ١٩٣٦، ودروسه الثانويّة في مدرسة مار مارون الإكليريكيّة - غزير ثمّ في الجامعة اليسوعيّة ١٩٤٤ - ١٩٥٠، سيم كاهنًا في ٧ أيّار (مايو) ١٩٥٠، درّس الأدب العربيّ وتاريخ الفلسفة العربيّة والترجمة، خدم رعيّة ريفون وعيّن أمين سرّ أبرشيّة صربا ١٩٥٠ - ١٩٥٦، وأمين سرّ البطريركيّة المارونيّة ١٩٥٦ - ١٩٦١، رسم أسقفًا وعيّن نائبًا بطريركيًا عام ١٩٦١، ثمّ مدبّرًا بطريركيًا ١٩٧٤ - ١٩٧٥، رئيس اللجنة التنفيذيّة لمجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان ١٩٧٥ - ١٩٨٦، انتُخب بطريركًا للموارنة في ١٩ نيسان (إبريل) ١٩٨٦، زار روما وتقلّد من قداسة الحبر الأعظم درع التثبيت ١٩٨٦، رئيس مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان منذ ١٩٨٦، شارك في عدّة مجامع عامّة لسينودس الأساقفة، عيّن كاردينالاً في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٤، شارك في عدّة مجامع فاتيكانيّة، عيّن نوّابًا بطريركيّين في مناطق الأبرشيّة البطريركيّة وسام ٣٠ أسقفًا، أنشأ خمس أبرشيّات جديدة وبدّل أوضاع بعض الأبرشيّات القائمة وأعاد تنظيمها، أعاد إصدار "المجلّة البطريركيّة" منذ ١٩٨٦، عقد السينودوس من أجل لبنان ١٩٩٥، استقبل قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني في زيارته إلى لبنان في أيّار ١٩٩٧، ترأس في الفاتيكان احتفالَي تطويب نعمة الله الحرديني وإعلان قداسة رفقا، قام بالعديد من الزيارات الرعويّة الرسميّة في لبنان وبلاد الانتشار في أنحاء العالم، غدا مرجعًا في الشؤون الوطنيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، ألقى عظات تضمّنت المطالبة الجريئة بإحقاق

الحقّ وإشاعة العدالة وتقويم الاعوجاج والدفاع عن المظلومين مشدّدًا على سيادة لبنان وحريّة أبنائه، له مؤلّفات منها: "من ينابيع الإنجيل" ١٩٧٥، و"غابت وجوه" في جزءَين ١٩٨٣ و١٩٨٤، و "عظة الأحد" في ١٢ جزءًا، وله في الترجمة: "يسوع حياة النفس" ١٩٦٦، و"دستور رسوليّ في عقيدة الغفرانات" ١٩٦٧، و"إرشاد راعوي بشأن وسائل الإعلام"، وترجم عن اللاتينيّة رسالتَين عامتَين بعنوانَي "فادي الإنسان" و"في الرحمة الإلهيّة"، وعن الفرنسيّة ثلاث رسائل بشأن مأساة لبنان، وله العديد من المؤلّفات الأخرى تصنيفًا وتأليفًا وترجمة، وهب منزله العائلي في ريفون ١٩٩٩ لجعله مستوصفًا لأبناء البلدة التي أُطلق اسمه على أحد شوارعها الرسميّة تكريمًا.

***

لم يقضِ اخفاق الثورة المسلمة في لبنان سنة ١٩٥٨ في تحقيق أهدافها على استراتيجية المسلمين الثابتة، بل راحوا ينتظرون... "يومًا يكون أبرك". وقد بدا لهم أنّ ذلك اليوم قد أتى عندما أصبحت الثورة الفلسطينيّة في لبنان، دولة أقوى من الدولة التي هي ضمنها. وإذ بدا للمسيحيّين أنّ خطرًا داهمًا بات يهدّد مصيرهم، ولهم في ذلك من الماضي القريب والبعيد أحداث وعبر، راحت قياداتهم وأحزابهم تتسلّح سرًّا في مقابل الترسانة الاسلاميّة الفلسطينيّة، وراح شبّانهم يتدرّبون على حمل السلاح. ولم يكن من الصعب توقّع اشتعال لبنان من قبل أيّ مراقب للأحداث التي كانت تجري في السنوات السبع السابقة لـ ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٧٥، يوم أدّت حادثة تصادم بين الفلسطينيّين من جهة، وبعض أعضاء نواة ميليشيا حزب الكتائب من جهة أخرى، إلى مقتل عدد من الطرفَين، وسط منطقة مسيحيّة هي ضاحية جنوبيّة لبيروت: عين الرمّانة، وقد كانت تلك الحادثة الشرارة التي أشعلت فتيل هذا الوطن الذي كان قد أضحى برميل بارود.

ومَن يراقب ما سبق ذلك الحادث من تحضيرات، لا بدّ له من أن يلاحظ أنّ التيّارَين السياسيَّين اللذَين برزا مع تشكيل لبنان الكبير، كانا لا يزالان هما هما على نفس المسار الذي انطلقا عليه من عشرينات القرن العشرين إلى أربعيناته، فكان المسلمون يعملون سرًّا وعلانية على دعم تشكّل ونموّ الثورة الفلسطينيّة في لبنان، وهي الثورة العربيّة المسلمة، وإن كان بعض فصائلها قد رفع راية اليسار، بينما راح التيّار الثاني يتوجَّس خيفة من ذلك النموّ، حتّى إذا ما تأكّد له أنّ من أهداف تلك الثورة السيطرة على لبنان كوطن بديل... بدا أنّ المحظور قد بات قريب الوقوع، راح يتسلّح. وإذ لم يكن في الأجواء ما من شأنه أن يبدّد تلك الرؤية، وكانت الأوضاع الإقليميّة والدوليّة في حرب باردة ينذر أفقها بالإنفجار، وقد كان لبنان الأرض الأخصب لإشعال موقد انضاج طبخة إعادة ترتيب أوضاع الشرق الأوسط بوصفة صهيوأميركيّة جديدة، تزيح عن المائدة أطباق حلفاء الحرب العالميّة الثانية، كانت حادثة عين الرمّانة كناية عن إشعال عود ثقاب ووضعه داخل الموقد.

كان مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد أصدق مَن تكلّم عن حقيقة العلاقة بين المسلمين اللبنانيّين والثورة الفلسطينيّة في ما يختصُّ بحرب لبنان إذ قال: "... قبلاً، كنّا نلجأ إلى الضغط السياسيّ دائمًا، وهذه كانت وسيلتنا الوحيدة للإصلاح والمساواة. من جهة أخرى، برزت القضيّة الفلسطينيّة، فوجدنا أنفسنا متلاحمين مع الفلسطينيّين لأنّنا معاً نشكّل إيدولوجيّة واحدة. نحن والفلسطينيّون شيء واحد: عربيًّا ودينيًّا ووطنيًّا"[١]. وعندما سأل الرئيس الليبيّ مُفتي المسلمين السنّة في لبنان عن قدرة ملّته على الصمود، أجاب:

---

١ ـ خالد، مرجع سابق، ص٢٨٢.

"... إنَني أريد أن أقول لك أنّ قدرتنا مستمدّة من قدرة العرب، ومن قدرة الفلسطينيّين في آن معًا، فإذا قالوا بأنّهم قادرون على استمرار المعركة، فنحن قادرون أيضًا... نحن أقوياء بكم وبالفلسطينيّين، هذا جوابي..."[1].

والحال هذه، لا تختلف نظرة المسيحيّين إلى الموضوع عن حقيقة موقف المسلمين. فقد ذكر أحد الأساقفة في رسالة وجّهها إلى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحيّ الإسلاميّ أنّ "المسلمين اغتنموا الوجود الفلسطينيّ المسلّح على أرض لبنان، علمًا بأن أكثريّة الفلسطينيّين الساحقة من المسلمين، وحاولوا الإستيلاء على السلطة بقوّة السلاح، بهدف جعل لبنان بلدًا مسلمًا كسائر الدول العربيّة في الشرق الأوسط حيث نظريًّا، وغالبًا عمليًّا، دين الدولة الإسلام، والإسلام مصدر التشريع، ذلك لأنّ لبنان هو البلد الوحيد في المشرق الذي يشذّ عن هذه القاعدة"[2].

لقد كان الميثاق الوطنيّ، الذي توافَق عليه اللبنانيّون في بداية عهد الاستقلال، يقضي بأن لا يكون لبنان للغرب ممرًا ولا للشرق مقرًّا. وفلسفة هذا الشعار أن لا يستقوي المسيحيّون على المسلمين بالغرب ولا المسلمون على المسيحيّين بالشرق. غير أنّ الأحداث، في نهاية ستّينات القرن العشرين وبداية سبعيناته، كانت تعزّز موقع المسلمين في لبنان، وقد تمادوا في خروجهم على الميثاق فراحوا يستقوون بالمقاومة الفلسطينيّة وبالأموال العربيّة، عاملين، علانيةً وسرًّا، من أجل القضاء على الصيغة اللبنانيّة وعلى الميثاق الوطنيّ. وكان المسيحيّون قد فقدوا ذلك الدعم التقليديّ الذي عهدوه بالغرب، حتّى إنّه، في وقت من الأوقات، بان أنّ الكرسيّ الرسوليّ ينطلق في اعتباراته من منطلقات قد تكون خطرة على كيانهم.

---

١ ـ المرجع السابق، ص٢٨٣.

٢ ـ باسيم المطران بول، أسقف اللاتين في بيروت، في مذكرة إلى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحي الإسلامي، تمّوز (يوليو) ١٩٧٨.

فلقد بدى أن الفاتيكان يحمّل المسيحيّين اللبنانيّين، وخاصّة الموارنة، وزر مسيحيّي الشرق الأوسط وبالبلدان الإسلاميّة الأخرى. وقد كان في ذلك سببًا أساسيًا في تعارض وجهات النظر بين الفاتيكان وبعض القوى الممثّلة في "الجبهة اللبنانيّة" التي مثّلت بخلال تلك الحرب مجموعة القوى المسيحيّة المقاوِمة. وعندما أرسل البابا بولس السادس "الكاردينال بارتولي" إلى لبنان لتدارس الوضع والبحث "عن صيغة مقبولة للتعايش من قبل جميع الفئات" قال برتولي لمن اجتمع بهم من قادة "الجبهة اللبنانيّة"[1]: "إنّ الفاتيكان يهتمّ بمجموع المسيحيّين المتواجدين في المنطقة... ويعارض فكرة التقسيم لأن ذلك سيحمل أسوأ النتائج على ملايين المسيحيين في الشرق العربيّ"[2].

وكان البابا قد استقبل خلال الحرب أحد مطارنة الموارنة، فحيّاه بقوله: "إنّي أحيّي من خلالك كلّ الشعوب التي تعيش عندكم هناك"[3].

لقد كانت تلك التحيّة من قبل رأس الكنيسة الكاثوليكيّة للمطران المارونيّ، خروجًا على المألوف... إذ كان التقليد المتَّبع يقضي بأن يحيّي البابا من خلال ممثّلي الكنيسة المارونيّة "الشعب اللبنانيّ" ويدعو له بالتوفيق.

ولمّا وصل خبر تحيَّة قداسة البابا "الجديدة" إلى بيروت، والحرب كانت في أوجها، توجَّس الكثيرون من قادة القوى المسيحيّة خيفة، معتبرين أنّ الفاتيكان يقصد من تحيّته

---

١ ـ الجبهة اللبنانيّة: جبهة مارونيّة سياسيّة نشأت في بداية حرب الربع الأخير من القرن العشرين في لبنان، ترأسها الرئيس الأسبق للجمهوريّة اللبنانيّة كميل شمعون، وكان من أعضائها رئيس حزب الكتائب اللبنانيّة الشيخ بيار الجميّل، والدكتور شارل مالك الأرثوذكسي، ورئيس عام الرهبانيّة اللبنانيّة الأباتي شربل قسيس، والنائب والوزير السابق إدوار حنين، والأكاديمي فؤاد افرام البستاني، وسواهم. ساندت رئيس الجمهوريّة سليمان فرنجيّة حتّى نهاية ولايته، ونشأت عنها "القوّات اللبنانيّة" كذراع عسكريّة برئاسة الشيخ بشير الجميّل الذي انتخب رئيسًا للجمهوريّة ١٩٨٢ واغتيل قبل استلام مهامّه.

٢ ـ مجلّة "الحوادث" اللبنانيّة، العدد ١١٦٦، تاريخ ٩ آذار (مارس) ١٩٧٩، ص١٤.

٣ ـ مفرّج طوني، حرب الردّة، دار "الجريدة" (بيروت،١٩٧٩) ص٩٤.

الجديدة شمل الفلسطينيّين. وعندما قدم الكاردينال برتولي إلى لبنان، سمع من أكثر من مسؤول حزبيّ ودينيّ مسيحيّ ما يعبّر عن خيبة الأمل المسيحيّة من موقف الكرسيّ الرسوليّ "غير المتفهّم تمامًا لحقيقة الأوضاع اللبنانيّة". وقد تبع ذلك سلسلة لقاءات بين وفود مسيحيّة لبنانيّة ووفود من الفاتيكان، فتبيّن أخيرًا أنّ الموقف النهائيّ للكرسيّ الرسوليّ هو:

١- معارضة الفاتيكان لتقسيم لبنان. ٢- معارضة الفاتيكان "لضمّ لبنان"

إنّما الحلول التي يعمل الفاتيكان من أجلها منبثقة من جوهر الصيغة اللبنانيّة.

وهكذا فإنّ اعتبارات الفاتيكان جعلت مسيحيّي لبنان يتحمّلون، في أصعب ظروفهم، أوزار ومسؤوليّات سلامة مسيحيّي الشرق الأوسط وسائر البلدان الإسلاميّة. فإنّ مواقف الفاتيكان، النابعة من تلك الإعتبارات الإنسانيّة، قد حرمت مسيحيّي لبنان، في صراعهم المرير، من دعم معنويّ كان من شأنه أن يساعد على إيجاد التوازن المفقود بعد خروج المسلمين اللبنانيّين على الميثاق الوطنيّ وبروز الفلسطينيّين كقوّة ثقيلة تقاتل إلى جانب المسلمين، وشيوع إرسال الأسلحة والعتاد والمال والرجال إليهم من بعض الدول العربيّة لدعمهم في مقاتلة المسيحيّين.

أمّا الدعم التقليديّ الآخر، الذي اعتاد المسيحيّون اللبنانيّون أن يأملوا به، وهو دعم الغرب عامّة، وفرنسا خاصّة، فكان، في تلك الظروف، مستحيل المنال. لأنّ فرنسا، وغيرها من بلاد الغرب المسيحيّ، كانت في وضعٍ سياسيٍّ ضعيف من جهة، ومن جهة ثانية كانت مهتمّة بشؤون الإقتصاد والطاقة، وليس بوسعها أو من مصلحتها أن تُعادي ملايين المسلمين العرب من أجل صداقة بضع مئة ألف مسيحيّ، ليس لديهم مال ولا نفط. أمّا السياسية الأميركيّة فكانت بعيدة كلّ البعد عن المفاهيم المجرّدة، وخاضعة، من جهة، للأهداف المنبثقة من أجهزة الإستخبارات، ولتلك المنبثقة، من

جهة ثانية، عن المصالح اليهوديّة، ومن جهة ثالثة من الفلسفة الأميريكيّة البراغماتيكيّة... وكانت استراتيجيّة الإتّحاد السوفياتيّ أمميّة يساريَّة، بينما المسيحيّون في لبنان، وبخاصّة المقاومون منهم، متديّنون بعيدون كلّ البعد، لا بل إنّهم معادون لكلّ ما من شأنه أن يتّصف بالإلحاد.

تجاه هذا الواقع، لم يبقَ أمام الشعب المسيحيّ في لبنان، المتمسّك بأرضه وحريّته، إلاّ أن يتّكل على نفسه وأن يقاوم وأن يدافع عن أرضه ومهد وجوده، مقاومة اليائس المُستميت. حتّى إنّ بعض قادة هذا الشعب قد صرَّح، في ظروف قاسية يائسة، بأنّه مستعدّ للتعاون مع الشيطان من أجل إنقاذ نفسه[1]. أمّا الشيطان المقصود فكان: إسرائيل.

ليس من المعقول تبرئة إسرائيل من... دم اللبنانيّين. فلقد كان لهذه الدولة الأحديّة الدين، استراتيجيّة مناهضة تمامًا لشكل الصيغة اللبنانيّة والميثاق. ولقد برز هذا التناقض نافرًا عندما قصد رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة سليمان فرنجيّة منبر الأمم المتّحدة سنة ١٩٧٤ برفقة رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة ياسر عرفات، ليدعو إسرائيل إلى انتهاج نظام تعايشيّ بين اليهود والمسلمين والمسيحيّين، شبيه بالنموذج اللبنانيّ الذي برهن عن حضارته الراقية. ولم يقابَل كلام الرئيس اللبنانيّ المارونيّ بغيظ إسرائيليّ أقلّ من الغيظ الذي قوبل به كلام الرئيس الأعلى للمنظّمات الفلسطينيّة المقاوِمة: ياسر عرفات، الذي اعتلى منبر الأمم المتّحدة معلنًا أنّه يحمل غصن زيتون بيد، وبندقيّة باليد الأخرى...، وطالب بنظام تعدّدي في فلسطين شبيه بالنظام اللبنانيّ، يعيش فيه العرب المسلمون والمسيحيّون مع اليهود في شراكة وطنيّة.

---

١ ـ أعطى هذا التصريح الشهير الشيخ بيار الجميّل رئيس حزب الكتائب اللبنانيّة وعضو الجبهة اللبنانيّة.

كان من الطبيعي أن تعمل اسرائيل كلّ ما بوسعها لتبرهن للملأ، عمليًا، عن أنّ النظام اللبنانيّ المطروح كنموذج لإسرائيل فلسطينيّة، إنّما هو محكوم بالانفجار. وسرعان ما انزلق الفلسطينيّون في الفخّ الاسرائيليّ، سواء عن جهل أو عن تواطؤ، ليعلنوا، بعدما أشعلوا لبنان، "أنّ طريق فلسطين تمرّ في جونيه". علمًا بأنّ جونيه ليست في جنوب لبنان، بل هي تشكّل قلب الثقل المارونيّ في وسط شاطئ الجبل اللبنانيّ.

وركب جميع الحاقدين والطامعين المطيّة الفلسطينيّة لينقضّوا على المسيحيّين. فتألّف لكلّ ملّة إسلاميّة ميليشيا: للسنّة. للشيعة. للدروز. وكان كلّ من هؤلاء يسعى لأهدافه، بعضهم باطنيًا تقيّةً، وبعضهم سنّة على سنّ الرمح. واستقطر المسلمون مرتزقة ومتعصّبين أصوليّين من الصومال ومصر والحبشة وسواها من البلدان. واستقطر اليساريّون ثوّارًا هواة ومرتزقة. وتحالف جميع تلك القوى تحالفًا غريبًا عجيبًا ليؤلّفوا جحافل حاولت اجتياح لبنان المسيحيّ، فتمكّنت من أطراف المناطق المسيحيّة، وأعادت إلى الأذهان ذكرى القرون الغابرة القاسية. وأضحى لبنان، الذي كان يوصف بأنّه سويسرا الشرق، مسرح أحداث دمويّة مروّعة، رخُص فيها الإنسان وانهارت القيم والعهود والأصول.

عانى المسيحيّون في لبنان الكثير في خلال حرب سبعينات القرن العشرين وثمانيناته، مثلما عانى أبناء سائر الملل، أو المجتمعات / الطوائف، التي يؤلّف مجموعها شعب هذا البلد الذي أُريد له أن يكون نموذجًا حضاريًا متقدّمًا لتعايش الأديان. وقد وُصفت تلك الحرب، حينًا بأنّها أهليّة، وحينًا آخر بأنّها طائفيّة، وأحيانًا بأنّها حرب الآخرين على أرض لبنان. وقد يكون من الأصحّ عدم حصر وصف هذه الحرب بصفة واحدة من كلّ تلك الصفات، التي قد يكون جميعها صحيحًا، لا بل بالإمكان إضافة صفات عديدة أخرى إليها. ذلك أنّ حرب لبنان قد جاءت نتيجة عوامل

كثيرة، داخليّة وإقليميّة ودوليّة، سوف يمضي وقت طويل قبل التمكّن من فكّ رموزها. إنّما الذي يعنينا في هذا المجال، أنّ المسيحيّين في لبنان خرجوا من تلك الحرب منهوكي القوى، وليس بالإمكان، حتّى الساعة، تحديد الخسائر التي مُنُوا بها جرّاء تلك الحرب، وإن كانت الصورة الظاهرة تدلّ على أنّهم قد خسروا كثيرًا.

المَارونِيّـــة
ولُبنانَ اليوم

اليوم، يبدو للناظر سطحيًا أن المسيحيّين في لبنان، هم في حالة إحباط، وقد يكون السذَّج منهم كذلك، إلاّ أنّ الناظر عموديًا يدرك أنّ المسيحيّة ولبنان توأمان سياميّان لا ينفصلان. ولن يكون شرق بلا مسيحيّة حرّة. ولن يكون مسيحيّة حرّة في الشرق بلا لبنان. ولن يكون لبنان بلا موارنة. وننقل في ما يلي ما يراه باحثون كنسيّون موارنة معاصرون في مسألة الوضع المارونيّ ولبنان اليوم. يقول الباحث:

> إنّ دور الكنيسة[1] المارونيّة اليوم، وحضورها حاليًا في لبنان، هو هو كما كان بالأمس، في أيّام المماليك، وفي عهد العثمانيّين، وإبّانَ أحداث ١٨٦٠... أي أن تَظلّ محافظةً، بدافع فطرتها القوميّة، على هويّتها التاريخيّة عن طريق الثبات في الموقف، والصمود المستمرّ في وجه الجور والظلم، والتعلّم من الأخطاء، والحكمة في انتقاء الأصدقاء، والاستعداد للتفاهم مع الأخصام، والانفتاح للحوار مع الآخرين بصدق وإخلاص ووفاء... وإنّ تجربة الميثاق الوطني كانت تجربة ناجحة في بدء استقلال الجمهوريّة اللبنانيّة سنة ١٩٤٣، وقد تمكّن اللبنانيّون، مسلمون ومسيحيّون، إلى حدّ ما، من العيش في وطن حرّ، سيد، مستقلّ، يضمن لهم، في آنٍ معًا، عدم الانحياز إلى الغرب وعدم الإلتحاق بالشرق. واجتازوا المراحل الأولى، بعد

---

١ - المقصود هنا بكلمة "كنيسة" المؤسّسة ببعديها الإكليريكي والعلماني، وهو ما اصطُلح، خطأ، على تسميته "طائفة".

١٩٤٣، بنجاح. وتوصّلوا إلى المحافظة على كيانهم وعلى النظم الديموقراطيّة الحرّة برغم الصعوبات والأخطار الكثيرة التي كانت تُحيق بهم. وعرف لبنان، قبل أحداث ١٩٧٥، عهد ازدهار اقتصاديّ وأخوّة إنسانيّة، بدا معه، وكأنه في وقت من الأوقات، مثلاً يُحتذى به، ورائدًا في مجال إقامة نوع جديد من العلاقات بين الناس. وجاء نموذج التعايش السلمي بين اللبنانيّين دليلاً على أنّه بالإمكان إقامةُ مجتمع وطنيّ متماسك الأطراف، متعدّد المعتقدات والثقافات والإيديولوجيّات، وهذا ما جعل من لبنان رمزًا بين الأمم. وإنّ التوازن في الاستقرار الذي أراده الموارنة واللبنانيّون نهائيًا لوطنهم وثابتًا، قضت عليه قضاءً مأساويًا، في الآونة الأخيرة، تحركات في المنطقة الشرق ـ أوسطيّة، ومداخلات أجنبيّة في لبنان. وجاءت المأساة الفلسطينيّة لتزيد من خطورة هذا الوضع وتوقد نيرانَ الفتنة وتطلق الأزمة. وجاءت بعد ذلك الأحزاب المتطرّفة، كالشيوعيّة والاشتراكيّة والقوميّة، والحركات الدينيّة المتعصّبة...، لتمعن في تفتيت البلد، وتشرذم الجيش وتضعف الشرعيّة... قد يكون الموارنة، وبوجه خاص، الذين تحمّلوا مسؤوليّة الحكم في لبنان، قد أساؤوا حسن الإدارة والتدبير. ولكن، يبقى أنّ جوهر الأزمة هو أبعد من المطالبة بحقوق، وإصلاح النظام، والتمتّع بمبدأ المساواة، وإبطال امتيازات طائفة على حساب طائفة أخرى. إنّ تتابع الأحداث من سنة ١٩٧٥ حتّى اليوم، يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن ما يريده الأخصام إنّما هو اقتلاع المسيحيّة من الشرق، والقضاء على المارونيّة وغيرها من الطوائف المسيحيّة في لبنان... إنّ دور الكنيسة المارونيّة اليوم وحضورها في لبنان، هو أن تظلّ منفتحة في محيطها الجغرافي وعلى بقيّة الطوائف اللبنانيّة، وأن يكون لها التأثير الفاعل والمميّز في مختلف التفاعلات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في هذا الشرق[١].

---

١ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٣٠ ـ ٣٣١.

الفَصلُ العَاشِر

مِن النُّسك إلى الرَّهبانيّات والمَدارِس

فِي نُسَّاك الموارِنَة؛ رَهبانيّات الرُّهبان الموارنَة؛ نشوءُ الرَّهبانيّات المارونيّة؛
الرهبانيّة المارونيّة المريميّة؛ الرّهبانيّة المارونيّة اللبنانيّة؛ الرّهبانيّة الأنطونيّة؛
جمعيّة المرسلين اللبنانيّين الموارنة؛
رَهبانيّات الرّاهبات الموارنَة؛ الرّاهبات اللبنانيّات المارونيّات؛ الرّاهباتُ الأنطونيّات؛
جَمعيّة راهبات القلبين الأقدسَين؛ جَمعيّة راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات؛
جَمعيّة راهبات الصّليب؛ جمعيّة راهبات القدّيسة تريزيا؛
جمعيّة راهبات القربان الأقدس المُرسَلات.

نُسّاك الموارنة

يرى مؤرّخون كنسيّون أنّه بعد أن حطّ الموارنة رحالهم في لبنان، واستوطن العدد الكبير منهم في منطقة الجبّة ووادي قاديشا وقزحيّا وقنّوبين، نما بينهم عدد الزهّاد والنسّاك، ودلف كثيرون منهم إلى تلك المغاور الطبيعيّة والصوامع النائية. وهنا، تجب الإشارة إلى أنّ الحياة النسكيّة كانت مزدهرة في لبنان قبل مجيء الموارنة إليه. فإذا كان من الصعب جدًّا ذكر هؤلاء النسّاك وسرد حياة البعض منهم، فإنّ آثارهم تدلّ عليهم. ولا يزال يوجد في لبنان، حتّى يومنا هذا، مغاور قديمة، في أماكن عديدة نُحتت في الصخور الطبيعيّة، ولا يُستبعد أن يكون قد قطنها النسّاك في القرون الأولى للنصرانيّة. منها، مثلاً، مغاور "عدلون"، التي تربو على المئتَين، والتي تقع على نصف مسافة الطريق بين صيدا وصور من جنوب لبنان. فهذه المغاور نُحتت في الصخور، ولا يزال يشاهد الزائر بقايا الذبائح وآثار الصلبان فيها حتّى اليوم. ويقول عنها علماء الآثار إنّها قديمة العهد جدًّا؛ ومغاور "وادي الحبساء"، بالقرب من بلدة "الفرزل" في قضاء زحلة من أعمال البقاع، في الوادي المطلّ على السهل، الشبيهة بمغاور عدلون، واسمها يدلّ على قدمها، وعلى أنّ النسّاك سكنوا المكان في سالف الأزمان؛ ومغاور وصوامع "أفقا[1]" و"العاقورة*" التي يرجَّح أن يكون قد سكنها النسّاك الموارنة قبل

---

١ ـ أفقا: بلدة أثريّة في جرود جبيل الجنوبيّة الشرقيّة عند منبع نهر ابراهيم، كانت مركزًا رئيسًا لعبادة أدونيس وعشتروت، ولا تزال بقايا المعبد الكبير قائمة فيها إلى اليوم.

صوامع "قاديشا*" و"قنّوبين*"؛ ومغاور دير مار مارون على نهر العاصي القريب من الهرمل. وهذا المكان يُسمّى، إلى يومنا هذا، "مغارة الراهب"، وهو كناية عن صوامع نُحتت في الصخر على شكل هندسة فرضتها يد الطبيعة وهيئة المكان. وقد حُفرت أيضًا أدراج في الصخر داخل المناسك، ليتمكّن سكّانها من النزول إلى قعر الوادي عند مخرج النهر لاستقاء الماء؛ ولعلّ المكان الذي كثر فيه عدد النسّاك الموارنة، ونال شهرة طبّقت الآفاق على مدى الأجيال، هو وادي قاديشا وقزحيّا وقنّوبين، في لبنان الشماليّ. ففي هذا الوادي المقدّس، اتّسمت الحياة النسكيّة بطاقة روحيّة رائعة فجّرتها نخبة رائدة من النسّاك الموارنة، الذين تميّزوا، هم بدورهم، كنسّاك القورشيّة الأقدمين، بنزعة إنجيليّة نابعة من أغوار الوحي الإلهيّ وغنى التراث المارونيّ الجليل. وهذه النزعة، هي الخيط الدقيق المتين، الذي حاك الروحانيّة المارونيّة، وربط النسّاك الموارنة بعضهم ببعض، وكان الحافز لهم لبلوغ أعلى درجة من التضحية والبذل والكفر بالذات، فألّف في ما بين خصائص هذه الروحانيّة كلّها، كما تنتظم حبّات اللآلئ المندرجة في العقد الثمين. وقد لُقّب هذا الوادي بوادي القدّيسين، والوادي المقدّس، ووادي قاديشا. وقاديشا لفظة سريانيّة الأصل، وتعني "القدّيسين"، وذلك للدلالة على قداسة المكان وسكّانه. ثمّ لُقّب أيضًا بوادي قنّوبين، وهي لفظة يونانيّة الأصل تعني "تجمّع الرهبان" وذلك نسبة لدير قنّوبين، مقرّ البطاركة الموارنة على مدى أربعماية عام، الذي كان يجتمع فيه من النسّاك والرهبان والأساقفة والكهنة عدد غير يسير. ولُقّب أيضًا بوادي قزحيّا، السريانيّة الأصل، وتعني "كنز الحياة"، وذلك للدلالة على أنّ اعتصام أولئك النسّاك في تلك المغاور والوديان، وتمسّكهم بالإنكباب على الصلاة والتأمّل ومطالعة الكتاب المقدّس والأصوام والإماتات والتجهّد والشغل اليدويّ، يشبه، إلى حدّ ما، تمسّك صاحب الكنز الثمين بكنزه. وقد ساعدت الطبيعة كثيرًا على نموّ

الحياة النسكيّة في هذا الوادي المقدّس، فجذبت الكثيرين من طلاّب الكمال المسيحيّ إلى عيش حياة التأمّل والصمت في مغاوره الطبيعيّة[1].

إنّ المراجع التاريخيّة عن النسّاك الموارنة في وادي قاديشا نادرة جدًّا، والسبب في ذلك يعود إلى عاملَين أساسيَّين: أولهما لأنّهم راموا العيش في الخفاء، فلا أحبّوا الظهور أو الدعاية ولا كتبوا سيرة حياتهم أو كلّفوا أحدًا بكتابتها؛ وثانيهما لأنّ الاضطهاد والمنازعات وحرق المكتبات ونهب الديورة والمناسك لم تترك مجالاً لجمع المعلومات الكافية عنهم[2].

إنّ أوّل حبيس ذكره الدويهي من الأجيال الوسطى في تاريخه، هو "يوحنّا من قنات"، الذي استحبس سنة ١٢٢٨ في وادي قنّوبين؛ وفي سنة ١٣٩٣ كان الحبيس "أليشاع الحدثي" قاطنًا في محبسة مار سركيس الواقعة قرب دير "مار أبون" المشرف على الوادي المقدّس؛ ولمّا توفّي البطريرك يوحنّا الجاجي سنة ١٤٤٥، انتخب الأساقفة ورؤساء الديورة والشعب، خلفًا له، الأسقف يعقوب بن عيد الحدثي، وهذا كان قد تربّى، في السيرة الملائكيّة، في محبسة مار سركيس الآنفة الذكر؛ وفي سنة ١٤٧٢ كان "القسّ جرجس الإهدنيّ" ساكنًا مع تلميذه "الشمّاس تادروس" من عينطورين في محبسة مار أنطونيوس قزحيّا؛ وفي سنة ١٤٩٥ بنى "القسّ بركات" من بقُوفا محبسة

---

١ ـ صفير الأب بولس، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد ١، شتاء ١٩٨٠، ص١٢٦ ـ ١٣٣.

٢ ـ المرجع السابق؛ وأورد هنا أنّه يكتفي في هذا الملف، بجمع النبذات التاريخيّة واللمعات المختارة التي دوّنها البطريرك العلاّمة اسطفانوس الدويهي عن سيرة حياتهم في مخطوطه "تاريخ الأزمنة"، ويذكر أنّ "بين المخطوطات العديدة التي وصلت إلى أيدينا عن "تاريخ الأزمنة" لا يرجع منها إلى يد المؤلّف نفسه سوى المخطوط الفاتيكانيّ السريانيّ رقم ٢١٥، وهذا المخطوط أرسله المؤلّف سنة ١٦٨٠ ليُطبع هناك، فبقي دون طباعة حتّى السنوات الأخيرة، حيث قام بهذه المهمّة الأباتي بطرس فهد، رئيس عام الرهبنة المريميّة سنة ١٩٧٦، وبما أنّ هذه الطبعة لم تقدّم للقارئ درسًا كافيًا للنصوص والشروح والحواشي، فقد آثرنا في دراستنا هذه الرجوع إلى المخطوط السريانيّ رقم ٢١٥ وليس إلى الطبعة المذكورة".

مار مخائيل شمالي - غربيّ دير قزحيّا وسكن فيها إلى آخر حياته؛ ثمّ تعاقب على العيش فيها كلّ الحبساء الآتية أسماؤهم: موسى من اليمّونة، يعقوب من برناسا قرب ميفوق، ميخائيل الأوّل من إهدن، ميخائيل الثاني وابن أخيه جبرائيل من إهدن، ثمّ ميخائيل الثالث من إهدن، وكانت وفاة هذا الأخير سنة ١٦١٧. فهؤلاء جميعهم دوّنوا أسماءهم في كتاب إنجيل المحبسة المذكورة[1].

وبين الحبساء الموارنة اللامعين، في القرن السادس عشر، نكر الدويهي، الحبيس "يونان المتريتي". فهذا البارّ جاهد في حياة النسك، مدّة خمسين سنة، وكتب عنه تلميذه الحبيس جبرائيل الإهدنيّ يقول: "إنّه لم يكن يأكل إلاّ مرّة في اليومَين. أمّا في الصوم الأربعينيّ، فلم يكن يذوق طعامًا إلاّ يومَي السبت والأحد، وكان صيامه يمتدّ من العنصرة إلى الميلاد، ومن عيد الغطاس إلى الفصح، ولم يكن يشرب الماء إلاّ يوم السبت. وكان في سبّة الآلام، يسجد إلى الأرض أربعًا وعشرين ألف سجدة (مطانية)، وفي سائر أيّام الصوم كان يسجد حتّى يجري عرقه، وبالرغم من هذه القساوة الشديدة على نفسه، ظلّ الحبيس يونان متحلّيًا برحمة وحنوّ لا نظير لهما نحو الآخرين". وأخبر عنه تلميذه الآخر "يوحنّا اللحفديّ" هذه الحادثة الخارقة، قال: "نفذ الزيت مرّة في الخابية الكبيرة الموجودة في المحبسة، فأعلم الحبيس يونان بالأمر، فجاء وصلّى عليها وبخّرها فامتلأت إلى فوق. فأخذ العجب من التلميذ كلّ مأخذ. فقال له الحبيس: مجّد ربّنا يسوع المسيح، وتأمّل عجائبه على يد أحقر عبيده. ثمّ أوصاه بألاّ يخبر أحدًا بهذه الأعجوبة قبل وفاته". وعندما أحسّ الحبيس يونان بدنوّ أجله، أرسل وطلب البركة من البطريرك موسى العكّاري ومن المطران "قورياقوس بن حبلص" الإهدنيّ. فحضر

---

١ - صفير، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي.

الإثنان إلى محبسته، وبعدما حرّضهما على المحبّة والوفاق وأوصاهما بالسهر واليقظة على خراف المسيح، أسلم روحه الطاهرة بيد الخالق. فشاع خبر وفاته في كلّ الأنحاء، وهرع رؤساء الديورة والأخوة والنسّاك وأعيان الشعب إلى دير قزحيّا ليتباركوا من لمس جسده الطاهر، الذي أضناه، في مدى خمسين سنة، بالعبادة والصوم والتقشّف. وبعد أن زيّحوه بالبكاء والدموع، دفنوه بكلّ إكرام في مقبرة المحبسة. ويُقال إنّ جسده لم يزل حيًّا بدون فساد حتّى يومنا[1]. وكان للحبيس يونان المتريتي تلامذة عديدون، أشهرهم "يوحنّا اللحفدي"، الذي خدم معلّمه المريض مدّة أربع عشرة سنة. فهذا ضاهى معلّمه في أعمال النسك، وأخذ النفس بالشدّة، وكان في سبّة الآلام يسجد إلى الأرض ستًّا وعشرين ألف سجدة؛ ومنهم أيضًا "جبرائيل الإهدني". فهذا كان رجلاً متقشّفًا جدًّا، وفاز على أقرانه بممارسة الإماتات والأصوام والتقشّفات القاسية: في أيّام الصوم ألف سجدة في اليوم، وفي سبّة الآلام لم يكن يتوقّف عن صنع السجدات، ولم يكن يذوق الماء مطلقًا، ابتداء من الصوم حتّى خميس الأسرار، وكان طعامه في اليوم أقلّ من أوقيتَين، ورغم هذه التقشّفات، لم يتوقّف عن نسخ الكتب والمخطوطات، حتّى امتلأ جبل لبنان كتبًا منسوخة بخطّه الجميل[2].

وإضافة إلى هؤلاء النسّاك، ذكر الدويهي في تاريخه، وفاة الحبيس "ملكا البقوفاني"، سنة ١٥٦٠. فهذا البارّ قضى في حياة النسك ستّين سنة. فسكن، أوّلاً، في محبسة قزحيّا، ثمّ في محبسة مار ضوميط داريّا، ثمّ في المحبسة المنقورة في الصخر

---

١ ـ صفير، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي؛ إنّ لفظة "حتّى يومنا" تعني التاريخ اللذَين كان يدوّن فيه البطريرك الدويهي كتابه "تاريخ الأزمنة" أي في ١٦٦٨ ـ ١٦٧٠.

٢ ـ صفير، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي؛ وأورد صفير في الحاشية: هنا تجب الإشارة إلى أنّ المخطوط الفاتيكانيّ السريانيّ المذكور، والمحفوظ في مكتبة الفاتيكان هو من خطّ يد الحبيس جبرائيل الإهدنيّ وقد نسخه وأهداه إلى كنيسة رعيّته إهدن، وهو يحتوي على رتب الطقسيّات المارونيّة.

والموجودة قبالة عرجس، وأخيرًا في محبسة مار مخايل فوق دير قزحيّا. وكان قدوة صالحة ومثالاً حيًّا لكلّ الناظرين إليه، فيطوي، في أيّام الصوم، أسبوعًا كاملاً، ولم يأكل طعامًا إلاّ يوم الأحد. وكان يقهر جسده، ويميته بالجوع والعطش والسهر المتواصل. وكان يمشي حافي القدمَين، ولم يكن ليبطل عن ذكر اسم اللّه، ولم يتفرّس في وجه امرأة طوال حياته. ولزيادة فضله وقداسة سيرته، رقّاه البطريرك موسى العكّاري إلى الدرجة الأسقفيّة[1].

ومن نسّاك وادي قاديشا وقزحيّا وقنّوبين، كان يُنتخب بطاركة الطائفة المارونيّة وأساقفتها، إضافة إلى عشرات الأساقفة الذين رُقّوا إلى الدرجة الأسقفيّة، تبوّأ ثلاثة منهم الكرسيّ البطريركيّ، فأُرغموا على الخروج من صوامعهم ليدبّروا شؤون الطائفة. وهم مخائيل الرزّي (١٥٦٧ ـ ١٥٨١) وسركيس الرزّي (١٥٨١ ـ ١٥٩٦)، ويوسف الرزّي (١٥٩٦ ـ ١٦٠٨). وفي أواخر القرن السادس عشر، ذكر الدويهي وفاة حبيسَين لامعَين في محابس الفراديس، هما: "يوسف البسلوقيتي" (ت١٥٨٠) في محبسة مار أنطونيوس الفراديس؛ و"يعقوب عصّاص السمراني" (ت١٥٨٤)، فهذا ترهّب أوّلاً في دير قزحيّا، ثمّ قضى حياته في أعمال النسك بقداسة وطهارة فائقتَين في محبسة مار سمعان الفراديس، وظلّ جسده حيًّا بعد وفاته ولم يمسّه فساد[2].

يبدو أنّ شهرة قداسة الحبساء الموارنة، في الوادي المقدّس، عطّرت الآفاق، بدليل أنّ "فرنسوا غالوب دي شاستويل FRANÇOIS DE CHASTEUIL" الفرنسيّ الأصل، وافى لبنان في منتصف القرن السابع عشر، وأقام في غرفة ضيّقة في دير مار يعقوب إهدن، ثمّ في دير مار سركيس رأس النهر، ثمّ في دير مار أليشاع القديم في الوادي

---

١ ـ صفير، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي.

٢ ـ المرجع السابق.

المقدّس. ولم يكن يخرج من قلاّيته ليختلط بالناس، بل ظلّ اثنتَي عشرة سنة مكبًّا على قراءة الكتاب المقدّس في اللغات السامية، وعاكفًا على الصلوات والتأمّلات وأنواع الإماتات الجسديّة المختلفة. وما عتم أن اقتفى آثاره أربعة شبّان آخرون من بني أمّته، فقدموا لبنان سنة ١٦٦٨، من فرنسا، طالبين الوحدة وحياة التقشّف في محابس وادي قاديشا وقنّوبين. فقبلهم البطريرك، آنذاك، جرجس السبعلي في عداد الحبساء الموارنة. فاختار البعض منهم السكن في محبسة مار شلَيطا الواقعة قرب كفرصارون[1] ، والبعض الآخر في محبسة مار أنطونيوس المنقورة في الصخر فوق دير قنّوبين، والبعض في محبسة مار آبون قرب حدث الجبّة[2].

في النصف الأخير من القرن السابع عشر، كان عدد النسّاك الموارنة يزداد في وادي قاديشا وقنّوبين. وكانت المجالس تكثر بازديادهم. فذكر الدويهي، إضافة إلى مَن استعرضنا أعلاه، الحبيس "سركيس السمراني"، الذي انزوى في محبسة مار أنطونيوس قزحيّا، وكان رجلاً ديّنًا راغبًا في العلوم ومتضلّعًا من اللغة السريانيّة والعربيّة. ثمّ ذكر الحبيس "سركيس بن موسى الرزّي"، فهذا كان قد تلقّى علومه في روما، ثمّ عاد إلى لبنان، ولمّا انتُخب أخوه يوسف بطريركًا سنة ١٥٩٦، خلفه هو في محبسة "مار بيشاي" قرب دير قزحيّا. ويرجع إلى هذا الحبيس العالم العلاّمة الفضل الكبير في جلب أوّل مطبعة إلى الشرق وطباعة أوّل كتاب فيها سنة ١٦١٠ وكان هذا "كتاب المزامير"[2].

وبعد أن أُسّست الرهبانيّات، وبأفول نجم القرن السابع عشر، لم يأفل معه نجم الحياة النسكيّة في الكنيسة المارونيّة، لا بل نظّمت هذه الحياة، فسُنّت لها القوانين

---

١ ـ في قضاء الكورة من شمال لبنان.

٢ ـ المرجع السابق.

والرسوم، وعادت فعمرت المحابس من جديد بالزهّاد والمتوحّدين. بلغ عدد هؤلاء النسّاك العشرات في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، وكان من أبرزهم اسمًا وأرفعهم شأنًا وأعطرهم قداسة القدّيس شربل مخلوف[1]، فخر الكنيسة المارونيّة ومثال الحياة النسكيّة الأعلى في العصر الحديث، كما كان القدّيس مارون مثالها في العصر القديم[2].

---

١ ـ القدّيس شربل مخلوف (١٨٢٨ ـ ١٨٩٨): قديس لبناني، ولد في بقاعكفرا في ٨ أيار (مايو) ١٨٢٨ وسمي يوسف، والده أنطون زعرور مخلوف وأمّه بريجيتا ابنة الياس يعقوب الشدياق من بشرّي، ترك بيت أبيه بعمر الثالثة والعشرين وقصد الترهب في الرهبانيّة المارونيّة اللبنانيّة، دخل الابتداء في دير سيدة ميفوق ١٨٥١ ثمّ انتقل إلى دير مار مارون عنّايا حيث أتمّ عامه الثاني من الابتداء، أبرز نذوره الأولى في دير عنّايا ١٨٥٣، عيّنه الرؤساء تلميذًا فأرسل إلى دير كفيفان حيث درس الفلسفة واللاهوت ١٨٥٣ ـ ١٨٥٩، كان من جملة معلميه الطوباوي نعمة الله الحرديني، سيم كاهنًا في دير سيدة بكركي على يد المطران يوسف المريض في ٢٣ تموز (يوليو) ١٨٥٩، أقام في دير مار مارون عنّايا ١٨٥٩ ـ ١٨٧٥ متمرّسًا بأسمى الفضائل الرهبانيّة لا سيّما الطاعة والتواضع، أجرى الله على يده آيات باهرة منها "آية السراج" الذي ملأه الخادم ماءً بدل الزيت فأضاء له ساعات صلاته الليليّة، استحبس في محبسة دير عنّايا بعد إذن رؤسائه ١٨٧٥ ـ ١٨٩٨، قضى سنوات استحباسه يركع على طبق من قصب ذي حروف شائكة يلبس المسح على جلده ينام قليلا ويصلي كثيرا ويعمل في الحقل بموجب قانون الحبساء، انتشر عرف قداسته فأخذ الناس يقصدونه للتبرّك ونيل المكرمات، مرض في المحبسة ١٨٩٨، نقل إلى الدير حيث توفي في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ليلة عيد الميلاد ١٨٩٨، فتح قبره ١٨٩٩ حيث وجد جثمانه سليمًا فنقل إلى مدفن آخر، قدّمت دعوى تطويبه ١٩٢٥، بدأت دراسة الدعوى ١٩٢٦، نقل جثمانه إلى ضريح ثالث وحرّر محضر طبّي عن حالته ١٩٢٧، رفعت دعوى التطويب إلى روما ١٩٢٨، فتح القبر رسميًا وجرى عليه كشف طبّي وعرض الجثمان للزوّار ١٩٥٠، وقّع البابا على قبول دعوى التطويب ١٩٥٤، فتح القبر مجدّدًا للتحقيق ١٩٥٥، وفتح مجدّدًا أمام لجنة كنسيّة وطبيّة ١٩٦٥، أعلنه البابا بولس السادس طوباويًا في ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥، فتح القبر أمام لجنة كنسيّة وطبيّة ١٩٧٥، رفعه البابا إلى مرتبة القداسة في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٧، تحتفل الكنيسة بعيده في ١٨ تموز (يوليو)، مركزه الأساسي في دير مار مارون عنّايا التابع للرهبانيّة المارونيّة اللبنانيّة، جرت بشفاعته مكرمات كثيرة.

٢ ـ صفير الأب بولس، "مجلّة الفصول اللبنانيّة"، العدد ١، شتاء ١٩٨٠، ص ١٢٦ ـ ١٣٣.

رَهبانيّات الرُّهبان الموارنة

تتميّز الكنيسة المارونيّة بغناها بالرهبانيّات العريقة الحيّة التي أعطت الأبرار والقدّيسين والمربّين والمناضلين والمرسلين، من الجنسَين، ولا تزال. وبالمؤسّسات التربويّة الكبرى التي نشأت على أيدي بطاركة وأساقفة ورهبان ومرسلين، جعلت أبناء هذه الكنيسة يتميّزون، عمومًا، بتراث ثقافيّ سام. وقد عزّز الاكليروس المارونيّ، في القرن التاسع عشر أدياره العائدة إلى الرهبان والراهبات، ونشأت فيها وحولها مدارس حديثة نسبيًا إتّبع بعضها نظام المدارس الفرنسيّة، حتّى بات لهذه الكنيسة سلسلة من المدارس الكبرى التّابعة لعدد من الرهبانيّات، يفوق تلك التي للإرساليات الأجنبيّة مجتمعة. كما نشأت لهذه الكنيسة مؤخّرًا جامعات ثلاث، يتبع كلّ منها لأحدى رهبانياتها: اللبنانيّة (البلديّة)، والمريميّة (الحلبيّة) والأنطونيّة. ولا يخفى على أهل المعرفة أنّ النهضة العربيّة التربويّة العلميّة والأدبيّة والصحافيّة تدين، بالجزء الأكبر منها، لموارنة مشهورين سواء في لبنان أم في مصر وسائر بلدان الإنتشار. كما خرّجت تلك المعاهد العريقة عددًا لا يستهان به من أتباع كنائس أخرى، ومن مسلمين ودروز لبنانيّين. وهي اليوم تستبقل في بعض جامعاتها عربًا من كافّة الأقطار.

وسوف نحاول، في ما يلي، استعراض تاريخ الرهبانيّات والمؤسّسات الرسوليّة والتربويّة التي أنشأها الموارنة ولا تزال سائرة على دروب الحضارة مواكبة العصر من دون توقّف، متّبعين بذلك التسلسل التاريخيّ، بادئين برهبانيّات الرهبان، يليها رهبانيّات الراهبات.

نشُوءُ الرَّهبَانيَّات المَارونِيَّة

تجلّت حيويّة الكنيسة المارونيّة، في أواخر القرن السابع عشر، بتأسيس الرهبانيّة اللبنانيّة بفرعَيها اللبنانيّ والحلبيّ سنة ١٦٩٥، وتأسيس الرهبانيّة الأنطونيّة سنة ١٧٠٠. فساعدت هذه الرهبانيّات الثلاث في نموّ الحياة الروحيّة، وازدهار الاقتصاد اللبنانيّ، كما أسهم العديدون من أبنائها في إنعاش النشاط الرسوليّ في القرى والأرياف النائية. وفي الربع الأوّل من القرن الثامن عشر، تنادى عدد من خريّجي المدرسة المارونيّة إلى تأسيس رسالة مارونيّة عمّت نشاطاتها معظم قرى لبنان وسورية وفلسطين وجزيرة قبرس[1].

فبعد رهبان دير مارون على العاصي، وحياة النسك التي عاشها رهبان وكهنة متوحّدون، يبدأ تأسيس الرهبانيّات المارونيّة على أيدي ثلاثة شبان من وجهاء حلب الموارنة هم: جبرائيل حوّا الحلبي (ت١٧٥٢)، وعبداللّه قرألّي الحلبي (ت١٧٤٢)، ويوسف البتن الحلبي (ت١٧١٤)، قدموا منها إلى جبل لبنان في أول شباط (فبراير) سنة ١٦٩٤ حيث انضمّ إليهم جرمانوس فرحات (١٦٧٢ ـ ١٧٤٢) ابن مدينتهم، ومثلوا بين يدي البطريرك إسطفانُس الدويهي في دير قنّوبين، وطلبوا منه الإذن والعون على أن يقيموا رهبانيّة تنضمّ إلى قانون خاص وضعوا مبادئه الرهبانيّة الجديدة. فلمّا تأكّد البطريرك من عزمهم، سرّ بذلك، وابقاهم عنده. وفي اليوم العاشر من شهر ت٢ (نوفمبر) ١٦٩٥، ألبسهم الإسكيم الرهبانيّ في كرسيه بدير قنّوبين، على سبيل التجربة. وبعد حين أعطاهم دير "مرت مورا" قرب إهدن فاصلحوه وأقاموا عليه رئيسًا جبرائيل حوّا، مختبرين بصعوبة قانون رهبانيّتهم التي عاشوها برؤيا المؤسّسين

---

١ ـ صفير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص٣٣٣.

في ذلك الدير. ودعـوا مؤسّستهم الجديدة "الرهبانيّة الحلبيّة المارونيّة". فأخذت هذه الرهبانيّة تنمو، وتعدّد الذين انتظموا فيها وقد ثبّتها البطريرك الدويهي سنة ١٧٠٠ التي فيها نذر رهبانها النذور الثلاثة التي تضمّنت الفقر والعفّة والطاعة، وساروا على قانون القدّيس أنطونيوس[١] التي سيصدر البابا إكليمنضس الثاني عشر براءة بتثبيتها سنة ١٧٣٢، وبذلك أصبحت هذه القوانين المرجع الأوّل والوحيد لسائر قوانين الرهبانيّات الشرقيّة اللاحقة.

قبل ذلك التاريخ، وتحديدًا في سنة ١٦٩٦، أسّست الرهبانيّة ديرها الأوّل على اسم مار أليشع في وادي بشرّي، على أنقاض دير قديم خرب. وفي خلال عشر سنوات، أصبح للرهبانيّة أربعة أديار، إذ أسّست ديرها الثاني على اسم مار يوحنّا في "رشميّا*" سنة ١٧٠٦، والثالث على اسم سيّدة اللويزة في زوق مصبح كسروان سنة ١٧٠٧، والرابع على اسم القدّيس أنطونيوس الكبير، شفيع الرهبانيّة، في قرية "سير" من أعمال قضاء عاليه في جبل لبنان، سنة ١٧٠٧ أيضًا[٢].

أمّا دير سيدة اللويزة فكان الشيخ "سلهب الحاقلاني" قد بناه سنة ١٦٨٢ في منطقة اللويزة بخراج زوق مصبح، ووقف له الأملاك، وجعله لسكنى الرهبان العبّاد. ثم ترهّب فيه ولده القسّ اغناطيوس[٣]. وفي سنة ١٧٠٧، تسلّمت الرهبانيّة المارونيّة هذا

---

١ ـ راجع: بليبل الأب لويس، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، طبعة يوسف كوى (مصر،١٩٢٤) جزءان؛ صفير الأب لويس، تاريخ الرهبانيّة المارونيّة المريميّة ومشاهير رهبانها، نشر الأباتي بطرس فهد (١٩٩٣)؛ فهد الأباتي بطرس، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة بفرعيها الحلبيّ واللبنانيّ (جونيه ـ لبنان، ١٩٦٨)؛ دريان، نبذة تاريخيّة في أصل الطائفة المارونيّة، ص١٩٦ وما يليها؛ الكفرنيسي، تاريخ عائلة الخوري تادي، مرجع سابق، ص٣٩٤ ـ ٣٩٨.

٢ ـ العينطوريني، مرجع سابق، ص١٥٣.

٣ ـ الحتّوني، المقاطعة الكسروانيّة، مرجع سابق؛ الدبس، الجامع المفصّل، مرجع سابق، ص ٢٣١ ـ ٢٥٨.

الدير من القسّ "اغناطيوس الحاقلاني" المذكور[1]. وفي تدوين في مذكرات أحد مؤسّسي الرهبانيّة: عبدالله قرألّي، الذي ترأس الرهبانيّة قبل أن يصبح مطرانًا، جاء التالي:

> في أواخر سنة ١٧٠٦ راسلني القس اغناطيوس (الحاقلاني) ليسلّمنا دير اللويزة، وسبب ذلك كان صغر نفسه من رهبانه. وكان عنده أربعة رهبان رسميّين وغيرهم مبتدئين، فسلّمنا ديره بعد مشورة المدبّرين وكتب لنا فيه حجّة نتصرّف فيه التصرّف الكامل، وأنّه ملك الرهبنة ملكًا ثابتًا. فبعض رهبانه دخلوا شركتنا والبعض شردوا. وكان للدير عقار وافر، ولكنّه كان فقيرًا بالبنيان والأمتعة اللازمة وكان عليه جملة ديون[1].

بعد تسلّمها دير سيدة اللويزة، أنشأت الرهبانيّة فيه مدرسة كان فيها يومها حوالي ٨٠ طالبًا جلّهم من زوق مصبح[1]. ثمّ قام الرهبان بهدم ما لزم هدمه، وبنوا مكانه أقبية من حجر وبئرًا كبيرة لجمع المياه. وأخذوا في توسيع نطاق الدير وزيادة أملاكه سنة فسنة، إلى أن صار من أعظم الأديار في ذلك العصر. فجعلته الرهبانيّة منذ سنة ١٧٢٣ مركزًا لرئاستها العامّة، ورتّبت فيه مكتبة نفيسة جمعت من الكتب عددًا وافرًا خطّية ومطبوعة، عربيّة وسريانيّة ولاتينيّة ويونانيّة وغيرها ممّا لا مثيل له في البلاد الشرقيّة. وفي سنة ١٧٣٦ وضعت الرهبانيّة الدير تحت تصرّف آباء "المجمع اللبنانيّ*"، ما من شأنه أن يفيد عن أنّه كان أهمّ الأديرة المارونيّة على الإطلاق في تلك الأيام. وفي سنة ١٧٤٩ أودعته الرهبانيّة رفات أبرز مؤسّسيها المطران عبدالله قرألّي، وذلك في مدفن رخاميّ وراء مذبح الكنيسة الأكبر. وحفظت مكتبة الدير صندوقًا من زجاج يحوي طابيّة[2] قرألّي ونسخة أصليّة من قانون الرهبانيّة الذي وضعه بنفسه، وهو بالكرشوني* وممهور بتوقيعه وخاتم البطريرك إسطفانُس الدويهي.

---

١ ـ فهد، تاريخ الرهبانيّة، مرجع سابق. ٢ ـ الطابيّة: عند الموارنة، ما يلبسه الخوريّ والأسقف على رأسه، من الإيطاليّة.

الرهبانيّة المارونيّة المريميّة

سنة ١٧٦٨، انقسمت الرهبانيّة المارونيّة إلى رهبانيّتَين[1]: الأولى حملت اسم الرهبانيّة الحلبيّة وبدّل اسمها مؤخّرًا إلى الرهبانيّة المريميّة، والأخرى حملت إسم البلديّة ثمّ أصبحت تُعرف بالرهبانيّة اللبنانيّة. وإذ جرى قسمة الأديار بين الرهبانيّتَين، كان دير سيّدة اللويزة من نصيب الرهبانيّة الحلبيّة إضافة إلى أديار أخرى. ولا يزال دير سيّدة اللويزة، الذي أنشئت حوله مدرسة كبرى ثمّ جامعة هامّة، يشكّل إلى اليوم المركز الرئيس للرهبانيّة الحلبيّة التي باتت تُعرف اليوم بالمريميّة، حيث عُقد المجمع اللبنانيّ الشهير، سنة ١٧٣٦، كما ذكرنا، وعُقدت المجامع الكنسيّة الرسميّة الأخرى، وما تزال تُعقد المجامع البطريركيّة في كلّ عام.

بعد القسمة، جدّدت الرهبانيّة الحلبيّة المارونيّة كلّ أديارها ومراكزها ورسالاتها، وزادت عليها غيرها حتّى أصبح لدَيها في لبنان وسواه عشرون ديرًا ومركزًا، وأربعة أندية، وعدّة مدارس ابتدائيّة مجّانيّة، وأربع مدارس ثانويّة: في دير سيّدة اللويزة بزوق مصبح كسروان، وفي دير القمر، وفي مصر الجديدة، وفي الأوروغواي، حيث تُدرّس اللغة العربيّة، وجملة مدارس تكميليّة في الوطن والمهجر.

وللرهبانيّة في القطر المصريّ، رسالة مؤلّفة من ثمانية مراكز كبيرة عامرة؛ ورسالات في كلّ من: الأرجنتين؛ وأكرا بـ "غانا" الأفريقيّة؛ وكندا. ولها في روما دير معروف ترسل إليه طلاّبها ليتلقّوا العلوم الجامعيّة في مدرسة "لاتران" الحبريّة،

---

١ ـ ذكر الأب عمّانوئيل خوري، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٢٨ ـ ١٣٢، أنّ القسمة حصلت سنة ١٧٧٠، وأنّها أتت على أثر خلاف حول تسميتها وغايتها، إذ إنّ محبّذي الفرع الحلبي شاؤوها رسوليّة، وذوي الفرع اللبنانيّ شاؤوها نسكيّة. ومع الزمن، وتجاوبا مع إلهامات الروح القدس وحاجات المؤمنين، تحدّدت غاية الرهبانيّة المارونيّة الأولى "النسك والانقطاع عن العالم، الزهد والصلاة"، والغاية الثانويّة "الرسالة التبشيريّة يقوم بها الرهبان لخير المؤمنين". وقد أعطت كلّ منهما غاية ثمرتها وشهادتها.

وتخرّج أجيالاً من حملة الشهادات العليا، يُتقنون اللغة الإيطاليّة، ويطّلعون على المخطوطات النادرة في مكتبة الفاتيكان.

تضمّ الرهبانيّة المريميّة اليوم نحو مئة وستّين راهبًا بين كاهن ودارس إكليريكيّ ومبتدئ. ومن هؤلاء الكهنة، حوالى خمسة وعشرين راهبًا يؤمّنون الرسالات، والرياضات الروحيّة، والتعليم المسيحيّ، والإرشاد في حركات الشبيبة، وما إليها من الأندية، والسهرات الإنجيليّة، والباقون يعملون في الأديرة ويقومون بالصلاة الخورسيّة.

على الصعيد الإجتماعي عملت الرهبانيّة على بيع قطع من أملاكها الواسعة من شركائها[1]، بأسعار مخفّضة، فأصبح الشركاء بالتالي مالكين، وبعضهم مستأجرين لآماد طويلة.

على الصعيد التربويّ، تساعد الرهبانيّة العائلات المستورة والفقراء والمؤسّسات الخيريّة، بقدر المستطاع، وتفتح أبواب مدارسها للتلامذة المعوزين، وتجري حسومات كبيرة لعدد لا يُستهان به منهم، وتقبل كثيرًا من أولاد الفقراء مجّانًا. وفي عام ١٩٧٨ دشّنت الرهبانيّة معهد سيّدة اللويزة العالي، الذي يضمّ أجهزة تربويّة تتناول: التعليم الرسميّ الكلاسيكيّ والاختصاص الجامعيّ، والتوجيه الجامعيّ والتوظيفيّ، ودراسة اللغة الإنكليزيّة، ومركز التنشئة المسيحيّة الراعويّة المجهّز بمكتبة روحيّة وتسجيلات وأفلام، ونادي الرياضة والفنون[2].

---

١ ـ الشريك: في هذا المجال، هو المزارع الذي كان يستثمر الأرض مرابعة في العهد الإقطاعي.

٢ ـ الأباتي بطرس فهد، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

الرّهبانيّة المَارُونيَّة اللبنانيَّة

عندما حصلت قسمة الرهبانيّة المارونيّة سنة ١٧٦٨ إلى بلديّة وحلبيّة، فإنّ الرهبانيّة البلديّة، التي باتت تُعرف بالرهبانيّة اللبنانيّة، قد حصلت يومها على أديرة عدّة، وجعلت مركزها الرئيس أوّلاً في دير مار أنطونيوس قزحيّا في قنّوبين، ثمّ نقلته إلى دير سيّدة طاميش في قضاء المتن، ثمّ إلى الكسليك جونيه، وأخيرًا إلى دير مار أنطونيوس خشبو بجوار غزير، وافتتحت جامعة عامّة كبرى في دير الكسليك ـ جونيه.

إضافة إلى أعمال الرهبان التقويّة المنحصرة في خدمة الله والتعبّد له، ما أفرز من هذه الرهبانيّة قدّيسين أبرارًا، أمثال القدّيس شربل الذي سبق التعريف بسيرته، والطوباويّ نعمة الله الحرديني[1]، والأخ إسطفان نعمة اللحفدي[2] الذي يحضّر اليوم ملفّ تطويبه، والطوباويّة رفقا التي سيأتي الحديث عنها في مجال التعريف بالرهبانيّة

---

١ ـ **الطوباوي نعمة الله الحرديني** (١٨٠٨ ـ ١٨٥٨): راهب لبنانيّ، هو يوسف بن جرجس بن سلهب بن عماد بن كنعان بن غالب كسّاب، دخل دير مار أنطونيوس ـ حوب ١٨١٦ ـ ١٨٢٢، كان في عداد المبتدئين في دير مار أنطونيوس ـ قزحيّا ١٨٢٨ حيث اتّخذ اسم نعمة الله، وتعلّم صناعة تجليد الكتب، أبرز نذوره الاحتفاليّة ١٨٣٠، سيم في دير كفيفان ١٨٣٣، انتخب مدبّرًا عامًّا للرهبانيّة في ثلاث دورات ١٨٤٥ ـ ١٨٤٨، و١٨٥٠ ـ ١٨٥٣، و ١٨٥٦ ـ ١٨٥٨، بقي ملازمًا فنّ تجليد الكتب وهو في مقام المدبّريّة، علّم في مدارس الرهبانيّة وخاصّة في مدرسة دير كفيفان، من تلاميذه الأخ شربل مخلوف الذي أصبح القدّيس شربل ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨، توفّي في دير مار قبريانوس ويوستينا في كفيفان ١٨٥٨ إثر مرض عضال ألمّ به، نُقل جثمانه السليم ١٨٦٢ إلى حجرة شرقيّ الدير نظراً لإلحاح الزوّار الكثيرين وبأمر من البطريرك بولس مسعد، رُفعت دعوى تطويبه إلى الكرسيّ الرسوليّ في عهد البطريرك الحويّك ١٩٢٦، أعلن مكرّمًا ١٩٨٩، تمّ الكشف عن جثمانه ١٩٩٦، أعلن طوباويًّا ١٠ أيّار (مايو) ١٩٩٨ في احتفال رسوليّ في الفاتيكان حضره ألوف اللبنانيّين من لبنان والمهجر، تحتفل الكنيسة المارونيّة بعيده في ١٤ كانون الأوّل (ديسمبر) من كلّ سنة.

٢ ـ **الأخ اسطفان نعمة** (١٨٨٧ ـ ١٩٣٨): راهب لبنانيّ بار، وُلد في لحفد بإسم يوسف، دخل الرهبانيّة ١٩٠٥ في دير كفيفان، قدّم نذوره بإسم إسطفان تيمّنًا بالقدّيس إسطفان شفيع القرية، رئيس الحقلة في كفرسيّاد وسيّدة ميفوق، توفّي ودفن في دير كفيفان، تجري بشفاعته شفاءات وآيات يشهد بها المؤمنون في سجلّات الدير، فُتحت مقبرته ١٩٥٠ فوُجد سالمًا من الفساد وجسمه يحفظ حرارته بمنطق شهادة الأطبّاء، قدّمت دعوى طلب تطويبه ٢٠٠٢، من آثاره في لحفد "تبع الغرير" الذي اكتشفه وهو يلحق بحيوان الغرير.

النسائيّة، قامت الرهبانيّة منذ نشأتها بتعليم الأحداث تحت سنديانة الدير وبمجّانيّة الإنجيل. وبعد أن تشعّب الرهبان في البلاد، افتتحت الرهبانيّة مدرسة حيثما دعت الحاجة. وأصبح الإسم المرادف للراهب "المعلّم". وقد اشتهر من بين مدارس الرهبانيّة، معهد سيّدة ميفوق في بلاد جبيل، ومعهد سيّدة مشموشة في قضاء جزين، اللذان فُتحا بعد الحرب العالميّة الأولى. ثمّ كانت مدارس: مار جرجس عشاش في قضاء زغرتا، ومار مارون بير سنين في رشميّا قضاء عاليه، والمعهد اللبنانيّ في بيت شباب المتن، ومدرسة شكّا في قضاء البترون، ومدرسة الجيّة في قضاء الشوف، ومدرسة المتين في قضاء المتن، والمدرسة المركزيّة في جونيه. وتَوّج هذا النشاط التعليميّ للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة إنشاء جامعة الروح القدس في الكسليك عام ١٩٥٠، وقد اعتبرتها الدولة من مؤسّسات التعليم العالي سنة ١٩٦٢، ولها اليوم فروع عدّة منها في الشمال وزحلة. وتُصدر الجامعة منشورات علميّة، ومجلّة علميّة كلّ سنتَين. وهذه الجامعة تموّلها مؤسّسة رهبانيّة خاصّة من دون أي دعم أو مساهمة من الدولة اللبنانيّة أو أيّ دولة أخرى. وفيها أُسّست "جبهة الحريّة والإنسان" التي انبثقت عنها "الجبهة اللبنانيّة"[1] في خلال الحرب اللبنانيّة.

ويرتبط تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة بتاريخ المطبعة الأولى في لبنان، التي عُرفت باسم "مطبعة دير قزحيّا"[2]، ومنها تحتفظ الرهبانيّة بالكتاب الأوّل من سنة ١٦١٠، وهو كتاب المزامير، الذي طُبع بالسريانيّة والكرشونيّة. بعد ذلك انتقلت إلى هذا الدير أيضًا مطبعة دير مار موسى الحبشي في قضاء المتن عام ١٧٨٩. كما اشتهرت أيضًا مطبعة دير سيّدة طاميش في قضاء المتن. سنة ١٨٥٥، وذلك يوم

---

١ ـ خوري الأب عمّانوئيل، مجلّة الفصول اللبنانيّة، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص١٢٨ ـ ١٣٢.

٢ ـ نسبة إلى دير قزحيّا في وادي قنّوبين من أعمال قضاء بشرّي في شمال لبنان.

كانت المطابع لا تزال نادرة. أمّا في العصر الحديث، فقد كان للرهبانيّة مطبعة في مدينة جبيل، احترقت، ومطبعة في مدينة بيروت[1]، توقّفت سنة ١٩٧٢[2].

على صعيد آخر، اهتمّت الرهبانيّة اللبنانيّة بخدمة الطبابة، فباشرتها في مستشفى صغير جدًّا، وقد كبر وازدهر، وهو مستشفى سيّدة المعونات في جبيل. وأسّست في البترون مستشفى مار شربل ثمّ باعته من الدولة مجهّزًا عاملاً؛ وأسّست في غوسطا ـ كسروان مستشفى مار شربل الذي تحوّل اليوم إلى دار نقاهة وبيت عجزة؛ كما رعت الرهبانيّة الأيتام، فأنشأت في كلّ مدرسة ميتمًا، ولها أيضًا في حريصا "ميتم سيّدة لبنان"[2].

على صعيد الرسالات الرهبانيّة في الخارج، واكب الراهب اللبنانيّ، بحضوره، لبنانيّي قبرص عام ١٧٣٥، ولبنانيّي فلسطين ومصر ١٧٤٥، ولبنانيّي دكار في السنغال ١٩٤٩، ومندوسا الأرجنتين ١٩٥٢، وأبيدجان في الشاطئ العاجيّ، وساو باولو ـ البرازيل ١٩٥٤، وباماكو في المالي وعاصمة المكسيك ١٩٥٩، والتوكومان في الأرجنتين ١٩٦٠، وسيدني في أستراليا ١٩٧٢. وفي جميع هذه البلدان أصبح للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة بيوت رهبانيّة وكنائس يؤمّن فيها الرهبان، للرعايا المارونيّة وللجاليّات اللبنانيّة، الخدمة الروحيّة والوطنيّة، والخدمة المدرسيّة، كما هي الحال في دكّار وأبيدجان وأستراليا[2].

تميّزت الرهبانيّة اللبنانيّة بالقيام بدور وطنيّ على مدى تاريخها، فبرز منها أساقفة ورؤساء عامّون كبار عملوا بإخلاص من أجل الوطن وإنسانه، كما عملت الرهبانيّة

---

١ ـ في دير مار أنطونيوس ـ شارع لبنان ـ عبد الوهّاب الإنكليزي ـ الأشرفيّة.

٢ ـ خوري الأب عمّانوئيل، مجلّة الفصول اللبنانيّة، مرجع سابق.

ككلّ في شتّى الأزمات من أجل الحفاظ على التراث الإنسانيّ الإجتماعيّ الذي ولدت منه وفيه. وبالإمكان مراجعة نماذج من تلك الأعمال في تاريخ الرهبانيّة الغنيّ بالإنجازات الكبرى على الصعيد الوطنيّ والرهبانيّ[1]. ولا يُخفى على أحد ما قامت به الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة في خلال الأحداث اللبنانيّة الأخيرة، إن من حيث العمل مع المؤتمر الدائم للرهبانيّات اللبنانيّة في الحقلَين الوطنيّ والاجتماعيّ، أو من حيث توجيه الرهبانيّة لكي تكون، رهبانًا وأديارًا، خيرات وممتلكات، في خدمة الكنيسة والشعب اللبنانيّ. وشاركت الرهبانيّة الشعب في تكبّد الخراب والدمار وتعطيل المواسم الزراعيّة والتشريد. وكان لها حصّة الأسد في هذا كلّه: فمن دير مار جرجس جنين إلى مدرسة سيّدة القلعة، إلى دير مار جرجس عشاش، إلى مدرسة شكّا، ودير مار مخايل بنابيل، ومدرسة مار يوسف المتين، ومار تقلا المروج، ومار الياس الكحلونيّة، ومن دير مار جرجس الناعمة وأرزاقه إلى مدرسة الجيّة. ونتوقّف هنا على الدور التعليميّ والتوجيهيّ الذي ما فتئ يذكّر به أبناء الرهبانيّة ليكونوا في حالة استنفار دائم، وذلك تمشّيًا مع تقاليد الرهبانيّة في مثل هذه الظروف الصعبة وتجاوبًا مع نصوص وروح قوانينها الرهبانيّة... وإنّ جميع الخدمات والأدوار التي حقّقتها الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة بواسطة أفراد لم يصل عددهم يومًا إلى أكثر من ألف راهب، من كلّ لبنان، جغرافيًا ومذهبيًّا، وهي لا تزال اليوم تواصل الخدمة في لبنان والمهجر، بواسطة نحو ٣٠٠ كاهن وأخ مساعد، وتعدّ للكهنوت عشرات الإكليريكيّين في جامعة الروح القدس ـ الكسليك، والمبتدئين في دير مار قبريانوس ـ كفيفان، و٦٠ طالبًا في دير سيّدة طاميش[2].

---

١ ـ راجع: خوري الأب عمّانوئيل، مجلّة الفصول اللبنانيّة، مرجع سابق.

١ ـ خوري الأب عمّانوئيل، مجلّة الفصول اللبنانيّة، مرجع سابق.

الرَّهبَانيَّة الأنطُونيَّة[1]

أُسّست الرهبانيّة الأنطونيّة في دير مار إشعيا ـ برمّانا، سنة ١٧٠٠، بعناية البطريرك جبرائيل البلوزاويّ* (١٧٠٤ ـ ١٧٠٥) الذي كان آنذاك مطرانًا على حلب، والأبوَين "سليمان المشمشانيّ" و"عطاالله كريكر" من جماعة دير سيّدة طاميش الذي كان قد أسّسه البلوزاويّ سنة ١٦٧٥ كمركز لمطرانيّة حلب وديرٍ للحياة الرهبانيّة. وفي سنة ١٧٠٥، اختارت الرهبانيّة الجديدة قانونًا لها، هو قانون القدّيس أنطونيوس الكبير، والذي كان قد اتّبعه قبلهم الرهبان اللبنانيّون. وبعد أن أثبت البطاركة الموارنة هذا القانون، ثبّته الكرسيّ الرسوليّ سنة ١٧٤٠.

إنتشرت الرهبانيّة الأنطونيّة خلال ثلاثة قرون انتشارًا واسعًا في لبنان وبعض البلدان العربيّة وأميركا، وأعطت الكنيسة بطريركًا وأساقفة وكهنة ورهبانًا علماء وقدّيسين، وساهمت بإخلاص في خدمة القريب عن طريق العيشة الديريّة، والمحبسة، والمدارس، والرعايا، والرسالات، والزراعة.

الأديار الأنطونيّة: ١ ـ دير مار إشعيا ـ برمّانا، أُسّس سنة ١٧٠٠، هو الدير الأمّ، وفيه مركز الابتداء، ويقوم رهبانه بخدمة الرعايا، وفيه مكتبة غنيّة بالمخطوطات والمطبوعات؛ ٢ ـ دير مار عبدا المشمّر، أُسّس سنة ١٧١٦، مزار شهير، خدمة الرعايا؛ ٣ ـ دير مار الياس ـ إنطلياس، أُسّس سنة ١٧٢٣، مزار شهير، رعيّة، مركز راعويّ؛ ٤ ـ دير مار سركيس وباخوس ـ إهدن، أُسّس سنة ١٧٣٩، خدمة الرعايا؛ ٥ ـ دير مار جرجس ـ عوكر، أُسّس سنة ١٧٤٠، خدمة الرعايا؛ ٦ ـ دير مار يوحنّا القلعة ـ بيت مري، أُسّس سنة ١٧٤٨، خدمة رعايا، مركز الرئاسة العامّة للرهبانيّة

---

١ ـ عن أبو فاضل الأبَاتي مخايل، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٣٦ وما يليها.

صيفًا، دير أثريّ شهير؛ ٧ - دير مار الياس - قرنايل، أُسّس سنة ١٧٤٩، رعيّة؛ ٨ - دير مار سمعان - عين القبو، أُسّس سنة ١٧٥٦، خدمة الرعايا؛ ٩ - دير مار بطرس وبولس - قطّين، أُسّس سنة ١٧٦٠، رعيّة؛ ١٠ - دير مار أنطونيوس - بعبدا، أُسّس سنة ١٧٦٤، مركز الطالبيّة الأنطونيّة، خدمة رعايا، المعهد الأنطونيّ، جامعة؛ ١١ - دير مار روكز - الدكوانة، أُسّس سنة ١٧٦٧، مركز الرئاسة العامّة شتاء، رعايا؛ ١٢ - دير مار يوسف - زحلة، أُسّس سنة ١٧٧٣، رعيّة، مركز راعويّ، مدرسة؛ ١٣ - دير مار أنطونيوس - جزّين، أُسّس سنة ١٧٧٤، خدمة رعايا؛ ١٤ - دير مار الياس - قبّ الياس، أُسّس سنة ١٧٧٥، رعيّة؛ ١٥ - دير مار أدنا - النمّورة، أُسّس سنة ١٧٩٢، رعيّة؛ ١٦ - دير مار نهرا - قرنة الحمرا، أُسّس سنة ١٨٢٧، خدمة رعايا؛ ١٧ - دير مار روكز - حوش حالا، أُسّس سنة ١٨٤٨، مدرسة، رعيّة؛ ١٨ - دير السيّدة - الميناء - طرابلس، أُسّس سنة ١٨٥٠، رعيّة، مدرسة؛ ١٩ - دير مار يوسف - بحرصاف، أُسّس سنة ١٨٥١؛ ٢٠ - دير مار سركيس - زغرتا، أُسّس سنة ١٨٥٤؛ ٢١ - دير ماريوحنّا - عجلتون، أُسّس سنة ١٨٩٧، مصيف دير عوكر، مدرسة حديثة؛ ٢٢ - دير مار يوحنّا مارون - روما، أُسّس سنة ١٩٢٤، وكالة الرهبانيّة لدى الكرسيّ الرسوليّ، ومدرسة مار إشعيا، مركز للدارسين الفلاسفة واللاهوتيّين؛ ٢٣ - كندا: وندرز وتورنتو، رعيّتان، أُسّستا سنة ١٩٧٥.

جمعيَّة المرسَلين اللبنَانيِّين الموارنَة[1]

أُسِّست هذه الجمعيّة سنة ١٨٦٥، في دير الكريم ـ غوسطا على يد الخوري يوحنّا الحبيب سعادة[2]، الذي أصبح في ما بعد مطرانًا. عُرفت جمعيّة الرسالة اللبنانيّة، منذ نشأتها، ومن نصّ قانونها وروحه، بأنّها مؤسّسة رسوليّة موقوفة على خدمة الكلمة، غايتها تقديس أعضائها بالعمل على حفظ إيمان الموارنة وتنميته بمختلف الوسائل الرسوليّة، كما يشير إلى ذلك كتاب قوانينها في فقرته الأولى حيث يقول:

> إنّ الغرض من تأسيس جمعيّة المرسَلين اللبنانيّين الموارنة أن يجري بناؤها في قصد طريق الكمال، ويبذلوا جهدهم في أمر خلاص القريب ونفعه الروحيّ بالكرازة بالإنجيل المقدّس، وبالأنذار والإرشاد والتفقيه بالأمور الدينيّة ومباشرة أعمال الرسالة وتعليم الأولاد العلوم الكنائسيّة والأدبيّة التي تؤول لنفع القريب. وذلك لمجد اللّه العظيم.

وفي الفصل الخاصّ "في الرسالة ومباشرتها" في تفصيل الغاية والأهداف يقول:

> إنّ جلّ الغرض من تأسيس جمعيّتنا مباشرة الرسالة. أمّا أعمال الرسالة فمتعدّدة: الوعظ والأنذار والتعليم والإرشاد وسماع الاعترافات والترويض بالرياضات الروحيّة وشرح التعليم المسيحيّ للأولاد وغير المتفقّهين بأمور الديانة. وفي الجملة إمداد الناس بكلّ عمل روحيّ يفيد خلاص نفوسهم.

---

١ ـ سعادة الأب اغناطيوس، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص١٣٨ ـ ١٤١.

٢ ـ المطران يوحنّا الحبيب الخوري (١٨١٦ ـ ١٨٩٤): بيّنت دراساتنا أنّ المطران يوحنّا الحبيب ليس من آل سعادة كما جاء في المرجع المذكور، بل هو من آل الخوري المتحدّرين من الأسرة المشروقيّة (راجع: مفرّج، بنو المروقي، مرجع سابق) فهو يوحنّا ابن بطرس الخوري العنكسوري نسبة إلى عين كسور في الشوف، ولد في بيت الدين وتوفّي ودفن في دير الكريم، عرف باسم يوحنّا الحبيب، تخرّج من عين ورقة، سيم كاهنا ١٨٤١، أسقف الناصرة ١٨١٦، تعلّم الفقه الإسلامي مع الشيخ بشارة الخوري الفقيه وتولّى حكم القضاء ١٦ سنة، أنشأ جمعيّة المرسلين اللبنانيّين ١٨٦٥، ذهب مترجماً مع البطريرك بولس مسعد إلى روما ١٨٦٧ فباريس فالأستانة، نال الوسام المجيدي، من آثاره تعريب "اللاهوت الأدبي" للأب يوحنّا الغوري اليسوعي.

بعد وفاة المؤسّس سعى المسؤولون إلى أن يتخصّص معظم أبناء الجمعيّة في الجامعات الغربيّة ليضعوا معارفهم في خدمة الرسالة. فقد امتاز المرسَلون اللبنانيّون، بالعلم الغزير المقرون بالغيرة التي تستسهل الصعاب وتنقاد لصوت اللّه والكنيسة. فألّفوا ووعظوا وحاضروا، وجابوا قرى لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وقبرص، حيث هناك موارنة. وأسّسوا في القارّة السوداء مراكز للرسالة ومدارس لتعليم الأولاد، عملاً بما جاء في قانونهم:

> رسالة جمعيّتنا ليست محصورة في جبل لبنان، بل تمتدّ إلى كلّ جهة يوجد فيها جماعة مارونيّة... وإنّ وجوب مباشرتها ليس بمقصور على المرؤوسين غير المتوظّفين... بل يتناول الرئيس العامّ نفسه عند الاقتضاء.

إعتاد بطاركة الطائفة المارونيّة، منذ القدم، وحتّى يومنا هذا، على انتداب المرسَلين اللبنانيّين، لإرشاد السادة الأساقفة في رياضاتهم السنويّة في بكركي؛ كما فوّضوهم رسميًّا بالإشراف على الإدارة الروحيّة لراهبات العائلة المقدّسة المارونيّات منذ تأسيس جمعيّتهنّ على يد البطريرك الياس الحويّك؛ وبطاركة الطائفة السريانيّة يطلبون إليهم، من وقت إلى آخر، بأن يلقوا عليهم وعلى المصف الأسقفيّ المواعظ والإرشادات في مقرّهم بدير الشرفة. ويشرف كهنة الجمعيّة المتخصّصون، على إرشاد حركات الشبيبة على أنواعها، وينظّمون المخيّمات الرسوليّة في القرى، ساحلاً وجبلاً، يعاونهم في ذلك تلامذتهم المرشّحون للكهنوت. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ رئيس أساقفة القاهرة المارونيّ، المطران يوسف مرعي، هو أحد أبناء هذه الجمعيّة.

يملك المرسَلون اللبنانيّون أديارًا ومدارس ومراكز رسالات في الوطن والمهجر، هي: دير الكريم في غوسطا، يضمّ رفات المؤسّس ورفات تلامذته الأوّلين واللاحقين؛ دير القدّيس يوحنّا الحبيب في جونيه، يرجع إنشاؤه إلى سنة ١٩٠٠، يضمّ كنيسة،

والمركز الوطنيّ للنشاطات البابويّة الإرساليّة المناطة إدارته بأحد أبناء الجمعيّة؛ مركز صيفيّ في ميروبا كسروان، يرقى إلى أيّام المؤسّس، أُضيفت إليه، أواسط القرن العشرين، مدرسة صيفيّة للأولاد.

وكانت الجمعيّة قد تولّت إدارة مدرسة الحكمة (١٩١٩ ـ ١٩٣٠) بتكليف من المطران اغناطيوس مبارك، ثمّ مدرسة عين ورقة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) بطلب من البطريرك أنطون عريضة؛ إلى أن قرّرت تأسيس مدرسة خاصّة بها، فأنشأت، سنة ١٩٣٩، معهد الرسل في جونيه؛ وشيّدت، سنة ١٩٦٦، مدرسة قدموس مع ميتم قرب مدينة صور، وهي مدرسة ثانويّة معظم طلاّبها من الطوائف غير المسيحيّة. كما أنّها تتولّى، بتكليف رسميّ من البطريركيّة المارونيّة والسفارة البابويّة، إدارة معبد سيّدة لبنان في حريصا، منذ أن شُيّد هذا المقام عام ١٩٠٤، وهي التي أشرفت أيضًا على بناء البازيليك الكبرى فيها.

عام ١٩٦٧، بنت الجمعيّة في جونيه مدرستها الإكليريكيّة الكبرى والصغرى لتلامذتها، وجهّزتها بمكتبة عامرة بالمؤلّفات النادرة والنفيسة. وترقى نواة هذه المكتبة إلى أيّام المؤسّس نفسه الذي حرص على شرائها من ماله الخاصّ. وفي عام ١٩٢٩ اشترت الجمعيّة مطبعة خاصّة بها، وجدّدتها تباعًا حتّى أصبحت من كبريات المطابع اللبنانيّة. وقد صدر، ولا يزال يصدر عنها، آلاف الكتب والمنشورات التي تعالج شتّى المواضيع. وقد دشّنتها، يوم اشترتها، بطبع "كتاب القوانين". وعلى أثر ذلك، أنشأت مجلّة "المنارة" العلميّة، لسان حال البطريركيّة المارونيّة... وأنشأت إلى جانبها مجلّة "سيّدة لبنان" (١٩٣٣ ـ ١٩٧٣)؛ وصدرت عن معهد الرسل مجلّة "الرسالة" الأدبيّة، ثمّ استُبدل اسمها باسم "الرسل" وهي لا تزال تصدر إلى اليوم. كما أنّ مدرسة قدموس في صور تُصدر نشرة خاصّة تحمل اسمها.

وكانت باكورة أعمال المرسَلين اللبنانيّين في ديار الإنتشار اللبناني، عام ١٩٠١، تأسيس رسالة في بوانس أيريس ـ الأرجنتين، قوامها كنيسة للجالية على اسم مار مارون، ومدرسة ثانويّة، وشيّدوا كاتدرائيّة ضخمة وُضع الحجر الأساس لها أوائل سنة ١٩٨٠. واشترت الجمعيّة هناك مطبعة أصدرت عنها جريدة "الرسل" باللغتَين العربيّة والإسبانيّة ١٩١٣ ـ ١٩٥٩، ثمّ استأنفت إصدارها في صيف ١٩٧٩ بشكل نشرة دوريّة باللغة الإسبانيّة. وفي عام ١٩٢٧، أنشأ المرسَلون اللبنانيّون في جوهانسبرغ ـ أفريقيا الجنوبيّة، كنيسة على اسم سيّدة لبنان. وفي ١٩٣١ انتقل بعض الآباء من الأرجنتين إلى ريو دي جانيرو في البرازيل وأسّسوا كنيسة فخمة على اسم سيّدة لبنان أيضًا، كما افتتحوا مدرسة ودارًا للعجزة من أبناء الجالية.

وكانت الجمعيّة قد أقامت، في أزمنة متعاقبة، ثلاثة مراكز في أميركا الشماليّة، إلاّ أنّها اضطرّت إلى إقفالها بعد مضيّ ما يزيد على الأربعين عامًا على وجودها، لتعذّر تأمين المرسَلين للقيام بالخدمة الرسوليّة. كما عُهد إليها تأسيس وإدارة المدرسة المارونيّة التابعة لجامعة سلامنكا في إسبانيا سنة ١٩٤٧، بأمر من البطريرك عريضة، واستجابة لبادرة الجنرال فرنكو نحو الموارنة، وقد أُقفلت سنة ١٩٦٩ بعد أن تخرّج منها عدد كبير من أبنائها ومن كهنة الموارنة[1].

---

١ ـ سعادة الأب اغناطيوس، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص١٣٨ ـ ١٤١.

رَهبانيّات الرّاهِبات المَوارنة

قبل انعقاد المجمع اللبنانيّ عام ١٧٣٦، كانت أديار الراهبات تقوم إلى جانب أديار الرهبان، فيشترك الجمهوران في الكنيسة والمائدة. ومع المجمع اللبنانيّ الإصلاحيّ للكنيسة المارونيّة، تقرّر الفصل بين الجمهورَين.

الرّاهِبات اللبنَانيّات المَارونيّات [1]

نشأت جمعيّة الراهبات اللبنانيّات المارونيّات ببراءة رسوليّة سنة ١٧٣٣ تمّ تنفيذها بقرار "المجمع اللبنانيّ" الذي قضى بتجديد الحياة الرهبانيّة النسائيّة في الكنيسة المارونيّة. وتُعرف الراهبات اللبنانيّات المارونيّات اليوم بالفرع النسائيّ للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة. ولكي ينجح تدبير المجمع اللبنانيّ الإصلاحيّ للكنيسة المارونيّة الذي عقد سنة ١٧٣٦، وكان من جملة مقرّراته الفصل بين جمهورَي الرهبان والراهبات، ويصبح قاعدة عامّة للسيرة الرهبانيّة في لبنان، قرّر القاصد الرسوليّ المطران يوسف سمعان السمعاني*، الذي تولّى رئاسة المجمع اللبنانيّ باسم البابا، أن يفرز ديرًا ويخصّصه لهذا العمل الإصلاحيّ. وقد اتّفق على ذلك مع المطران عبدالله قرألّي، أحد مؤسّسيّ الرهبانيّة المارونيّة، فتمّ اختيار دير مار الياس الراس، قرب جعيتا ـ كسروان، فرُمّم ووُسّع وحُصّن لهذه الغاية. وتسلّمته الرهبانيّة المارونيّة لكي تشرف على سير الحياة الرهبانيّة النسائيّة فيه. ومن علامات نجاح تلك الحياة في ذلك الدير، أنّه تفرّع عنه أو انضمّ إليه سائر أديار الراهبات اللبنانيّات: دير مار ساسين في بسكنتا ١٧٥٦؛ دير مار سمعان العموديّ في قرن أيطو زغرتا ١٨٤٦؛ دير مار مارون القنيطرة في

---

١ ـ خوري الأب عمّانوئيل، مجلّة الفصول اللبنانيّة، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

بيت شباب ١٨٩٤؛ دير مار يوسف الظهر في جربتا البترون ١٨٩٧؛ دير سيّدة النجاة بصّا ١٩٦٢ الذي انتقل جمهوره ١٩٧٢ إلى مستشفى مار شربل في غوسطا. وبينما انتقل غيرهنّ من الراهبات اللبنانيّات، المارونيّات وغير المارونيّات، من حالة المتوحّدات إلى ممارسة أعمال الرسالة خارج الدير، فقد بقيت الراهبات المارونيّات اللبنانيّات على وضعهنّ القانونيّ، أي راهبات متوحّدات، ينصرفن إلى الصلاة والعمل في داخل أسوار الدير. وقد حاولت الرهبانيّة اللبنانيّة، بشخص رؤسائها العامّين، ابتداء من عام ١٩٣٩ إعطاءهنّ نهجًا جديدًا، فكان الإجماع دومًا على البقاء على حالتهنّ التوحّديّة أو الديريّة. وفي خلال السنوات الأخيرة وُضعت لهنّ قوانين ورسوم هي قيد الاختبار، حافظن فيها على هويّتهنّ التوحّديّة حسب المفهوم الشرقيّ لهذه الحالة. وعند الحاجة الملحّة كانت الرهبانيّة اللبنانيّة تطلب إليهنّ القيام ببعض الخدمات الاجتماعيّة في مستشفياتها ومياتمها ومدارسها، وأخيرًا في جامعاتها؛ وكلّ مرّة كان يقتضي لذلك إذن صريح من المراجع الكنسيّة المختصّة. وهذا برهان واقعيّ عن انتمائهنّ القانونيّ الأصيل إلى الفرع التوحّديّ في الكنيسة الكاثوليكيّة. وقد جاء في قانون راهبات هذه الجمعيّة:

> تقوم السيرة الرهبانيّة التي تبعتها الراهبات اللبنانيّات المارونيّات ضمن جدران الأديار، على الشهادة للإنجيل بممارسة النسك والتأمّل والخلوة حسب التقليد الرهبانيّ عامّة والسريانيّ خاصّة، فيلغن بواسطتها كمال المحبّة... (قانون ١٢)؛ إنّ الرئيس العامّ للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة هو رابط الأسرة الرهبانيّة الموحّدة بين الرئيسات، وإنّه المرجع الوحيد لهنّ ولدى السلطات الدينيّة المختصّة، ما عدا ما نصّ عليه الحقّ العامّ" (مادّة ٨ من الرسوم) ...

تضمّ مدافن الرهبانيّة اللبنانيّة رفات الرهبان والراهبات الأتقياء. وقد أعطت هذه الرهبانيّة القدّيس شربل*، والطوباويّ نعمة اللّه كسّاب الحردينيّ* المعروف بقدّيس

كفيفان، والقدّيسة رفقا الريّس[1]. وهناك ملفّات رهبان آخرين تدرس حاليًّا لتقديم دعاوى تطويب أصحابها، منها ملفّ الأخ إسطفان نعمة اللحفدي* الذي قطعت دعوى تطويبه خطوات عمليّة كما سبق وذكرنا.

الرَّاهِبَاتُ الأنطُونيَّات[2]

يعود تأسيس جمعيّة الراهبات الأنطونيّات إلى النصف الأوّل من القرن الثامن عشر. في سنة ١٧٤٨ كان لهنّ دير مار الياس في غزير، وسنة ١٧٧٤ دير مار أنطونيوس في جزّين. وكانت الراهبات الأنطونيّات المارونيّات محصّنات، أي منعزلات عن العالم، منصرفات إلى الصلاة والعمل. وكان قانونهنّ هو نفسه الذي اعتمده الرهبان الأنطونيّون والذي أثبته الكرسيّ الرسوليّ سنة ١٨٤٠، كما اعتمدن قانون راهبات مار أنطونيوس الذي أعدّه العلاّمة "المطران يوسف شمعون السمعاني*"،

---

١ ـ القديسة رفقا (١٨٣٣ ـ ١٩١٤): هي وحيدة أهلها بطرسيّة ابنة صابر الشبق الريّس المولودة في ٢٩ حزيران في حملايا المتن، والدتها رفقا الجميّل، عاشت السنوات العشرين الأولى من حياتها في البيت والمدرسة والكنيسة والطبيعة ودمشق، دخلت جمعيّة المريمات في بكفيّا أوّل كانون الثاني (يناير) ١٨٥٣، قدّمت نذورها الرهبانيّة في دير غزير ١٠ شباط (فبراير) ١٨٥٦ ومكثت فيه خمس سنوات، انتقلت إلى مركز جمعيّتها في دير القمر ١٨٦٠ ـ ١٨٦١، أرسلت إلى مدرسة جمعيّتها في جبيل ١٨٦٢، وإلى معاد جبيل حيث علّمت ١٨٦٤ ـ ١٨٧١ بناء لطلب رجل الخدمة أنطوان عيسى المعادي، دخلت الرهبانيّة اللبنانيّة في دير مار سمعان ـ القرن في أيطو ١٢ تمّوز (يوليو) ١٨٧١، لبست الإسكيم الرهباني ٢٥ آب (أغسطس) ١٨٧٣ ودُعيت الأخت رفقا: تكرّست نهائيّ للمحبّة والألم، أرسلت إلى جبيل حيث قلع الطبيب عينها اليمنى من دون تخدير وعادت إلى مار سمعان ـ أيطو تحتمل أشدّ الأوجاع، نُقلت إلى دير مار يوسف الضهر جربتا البترون ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٧، فقدت بصرها تمامًا ١٨٩٩، أخذ لها الفنّان الأخ نعمة الله المعادي صورة شمسيّة بأمر من رئيستها ١٩٠٤، بعد معاناة الألم المبرّح ٤١ سنة توفيت في دير جربتا ٢٣ آذار (مارس) ١٩١٤ ودفنت في مقبرة الدير القديمة، أعلنتها الكنيسة طوباويّة وشفيعة للمنتظرين قداستها، أعلنتها روما قدّيسة في احتفالات كبرى جرت في الفاتيكان بين ٩ و١٢ حزيران (يونيو) ٢٠٠١ وفي قدّاس حبريّ في كاتدرائيّة القدّيس بطرس بروما على المذبح البابوي برئاسة البطريرك الماروني الكردينال مار نصرالله بطرس صفير وحضور ممثّلين عن الرؤساء الزمنيّين والروحيين اللبنانيّين وحشود من اللبنانيّين. نسبت إليها مكرمات كثيرة.

٢ ـ سكاف الأمّ ماري كزافييه، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٩٢ ـ ١٩٤.

والذي سارت عليه جميع الراهبات المارونيّات، كالراهبات البلديّات وراهبات دير مار يوحنّا حراش، وغيرهنّ.

بعد الحرب العالميّة الأولى، راحت الرهبانيّة الأنطونيّة تساهم في تجديد حياة الراهبات الأنطونيّات، نظرًا لتطوّر أوضاع لبنان الدينيّة الاجتماعيّة، التربويّة والرسوليّة. في سنة ١٩٢٩، قرّر الرئيس العامّ، مع مجمع المدبّرين، توجيه الراهبات المحصّنات إلى العمل الرسوليّ تجاوبًا مع رغباتهنّ الرسوليّة. وفي سنة ١٩٣٢ أُخلي دير مار ضوميط في رومية المتن من المبتدئين، ليصبح ديرًا للمبتدئات ومركزًا لتجديد حياة الراهبات الرسوليّة، وترأسّت الرهبانيّة الأمّ إيزابيل خوري (١٨٨١ ـ ١٩٥٣) التي كانت عابدة في دير جزّين، والتي بفضلها، صار تجديد هذه الرهبانيّة، مع رعيل من أخواتها الفاضلات. وفي سنة ١٩٤٠، سمح الكرسيّ الرسوليّ للراهبات الأنطونيّات بأن يمارسن الحياة الرسوليّة على أنواعها، وأمر بتجديد قوانينهنّ.

تنتمي الراهبات الأنطونيّات إلى الروحانيّة السريانيّة المارونيّة المشرقيّة. ففي النصف الأوّل من القرن الثامن عشر، قمن بحركة رهبانيّة تجدّديّة داخل الكنيسة المارونيّة، اعتمدت النظام والقانون والحداثة الرسوليّة في الحياة الرهبانيّة. وفي النصف الأوّل من القرن العشرين، قمن بحركة تجدّديّة جديدة ظلّت مرتبطة بأصول الحياة الرهبانيّة المارونيّة المشرقيّة، أخذت بعين الاعتبار التجدّد الكنسيّ والرهبانيّ والحضاريّ، وبقين مرتبطات بالينابيع الرهبانيّة: الإنجيل والتراث الرهبانيّ المشرقيّ، مشدودات بالروح إلى التجدّد الكنسيّ الدائم.

سنة ١٩٥٣، استقلّت الراهبات الأنطونيّات عن الرهبان الأنطونيّين، وصرن جمعيّة رهبانيّة تبرز النذور الرهبانيّة البسيطة. إنّما ترتبط بالرهبانيّة الأنطونيّة ارتباط الإخوة بالعائلة الأنطونيّة الواحدة، ارتباطًا أخويًّا، روحيًّا وأدبيًّا.

ومن ثمّ انصرفت الراهبات الأنطونيّات إلى أعمال الرسالة في الدير وخارجه، في مختلف المناطق اللبنانيّة وفي عالم الاغتراب اللبنانيّ، وبنوع خاصّ المارونيّ منه: في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وفي قبرص وأوستراليا. وذلك من أجل العمل الرسوليّ المنوّع، كالتعليم والاهتمام بالمرضى والعجزة والمعاقين، وفتح بيوت ضيافة وراحة وصلاة، وغير ذلك من الأعمال.

في السابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨، ثُبِّتت رسومهنّ الجديدة من قِبَل المجمع المقدّس للكنائس الشرقيّة، فألّفن جمعيّة رهبانيّة حبريّة، وفقًا للمرسوم بروتوكول رقم ٧٨/ ٥٤ الصادر عن هذا المجمع.

وانطلاقًا من توجيهات المجمع الفاتيكانيّ الثاني، عقدت الراهبات الأنطونيّات مجامع عدّة سنة ١٩٦٥، ١٩٧١، ١٩٧٧، ١٩٨٠، رغبة منهنّ في التعمّق بروحانيّة الكنيسة الكاثوليكيّة عامّة والمشرقيّة خاصّة، وفي التعرّف إلى حاجات العالم والكنيسة، وفي تقييم الحياة الرهبانيّة في العالم المعاصر... وأعادت الرهبانيّة النظر برسومها، فجذّرتها أكثر من الماضي بالينابيع الرهبانيّة: الإنجيل والتراث الرهبانيّ المشرقيّ، وركّزت على حياة التأمّل والصلاة وعلى العمل الرسوليّ في كلّ مجالاته، إيمانًا منها، بأنّ رسالتها في لبنان تفرض تجديد إيمانها به وبشعبه وأرضه، والتعرّف على مكانته ورسالته في الشرق والغرب معًا، وإيمانًا منها بأنّ رسالتها في الكنيسة المشرقيّة اليوم، تقوم على التعرّف على نضالها ودفاعها عن الإيمان الصحيح وتعاليمها وقدّيسيها مدى العصور والحضارات...

وفي عام ١٩٨١، مضى مئة عام على ولادة الأمّ إيزابيل خوري؛ وفي عام ١٩٨٢، مضى خمسون عامًا على مسيرة الراهبات الأنطونيّات الرسوليّة، وعدد الراهبات الأنطونيّات حوالى ١٧٠ راهبة.

للراهبات الأنطونيّات في لبنان والعالم: مركزان متخصّصان لتربية النشء الرهبانيّ والصلاة وللإدارة العامّة في دير مار ضوميط ـ رومية المتن؛ ١٩ مؤسّسة تربويّة: ٣ مدارس ثانويّة (رومية المتن، زحلة، الحازميّة)، ٦ مدارس تكميليّة (الدكوانة، النبطيّة، زغرتا، عيتنيت، بيروت، مجدل المعوش)، ١٠ مدارس ابتدائيّة (عين سعادة، كفرشيما، رشميّا، بحمدون، المنصوريّة، بعبدا، غزير، عشقوت، جديدة زغرتا). ١٥ مؤسّسة اجتماعيّة: مستشفى ودور عجزة (رومية، عين سعادة)، ميتم، بيت الأطفال (بيروت، عين سعادة)، مؤسّسة للمعاقين الأطفال (مؤسّسة إيريس فرنجيّة، جديدة زغرتا)، ٥ بيوت ضيافة، راحة، صلاة (بيروت، عين سعادة، بحمدون، بكفيّا، إهدن)، ٥ مستوصفات (مجدل المعوش، رشميّا، رميش، دبل، عين الرمّانة مطرانيّة اللاتين في لبنان، حدث بيروت).

في الخارج: مركز سيّدة لبنان (نشاط دينيّ، ثقافيّ واجتماعيّ في خدمة المغتربين اللبنانيّين) في نورث جامكسون أوهايو، ومركز رعويّ واجتماعيّ في فرجينيا الولايات المتّحدة الأميركيّة؛ مركز مار مارون (مركز للعناية بالنشء المارونيّ وتعليم اللغة العربيّة) ومركز راعويّ في نيقوسيا ـ قبرص؛ مركز للاهتمام للمغتربين اللبنانيّين من الناحية الاجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة في ملبورون أستراليا[1].

---

١ ـ سكاف الأمّ ماري كزافييه، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٩٢ ـ ١٩٤.

جَمعِيَّة رَاهبَات القَلبَين الأقدَسَين [1]

يرقى تأسيس رهبانيّة قلبي يسوع ومريم الأقدسَين إلى عام ١٨٥٣ على يد الآباء اليسوعيّين بمؤازرة الخوري يوسف الجميّل من بكفيّا. فبعد أن أُعيدت الرهبانيّة اليسوعيّة، رجع مرسلوها إلى لبنان ومنهم الأبوان "بول ريكادونا" الإيطاليّ، و"ريمون استيف" الفرنسيّ. وبعد تنقّلات في الجبل للرسالة والتبشير استقرّ الأول في زحلة والثاني في بكفيّا. وإذ كانا مدركَين لأهميّة المرأة ودورها في تطوير المجتمع دينيًّا وأخلاقيًّا، فكرّا بإنشاء مدارس للإناث، لتكون حجر الزاوية في بناء رسالة فعّالة. وكان الأب استيف صاحب المبادرة الأولى، إذ طلب إلى "الخوري يوسف الجميّل" أن يسعى في إيجاد معلّمات يُعهد إليهنّ تلقين الفتيّات مبادئ القراءة والدين. ولم يكن الأمر بالسهل نظرًا لضآلة عدد المدارس آنذاك وانحصارها في المدن الكبرى. وكُلّلت مساعي الخوري الجميّل بالنجاح بعد أن وُفّق إلى جمع بضع فتيات تمرّنّ على القراءة والكتابة وبعض الأشغال اليدويّة التي تؤهّلهنّ لتلقينها بدورهنّ للتلميذات. وهكذا نشأت نواة لجمعيّة رهبانيّة كان تحقيقها في الأوّل من كانون الثاني (يناير) ١٨٥٣ وعُرف أعضاؤها بالمريميّات. وتعاون على إدارتها الأب استيف والخوري الجميّل، فاهتمّا بشؤونها وسهرا على تخريج الطالبات الروحيّ والأدبيّ.

وقام الأب ريكادونا بدوره بمثل هذا المشروع في زحلة، فجمع عددًا من الشابّات قمن معه، وتحت إشرافه، بعمل الرسالة والتعليم. ونزولاً عند إلحاحهنّ سمح لهنّ بإبراز نذور رهبانيّة فرديّة سنة ١٨٥٧ وعُرفن باسم "بنات قلب يسوع".

---

١ ـ عن أمانة سرّ رهبانيّة القلبَين الأقدسَين، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٩٥.

ولمّا كانت الغاية واحدة من الجمعيتَين القائمتَين، ارتأى رؤساء الرهبانيّة اليسوعيّة ضمّهما في جسم واحد، تكرّس باسم "رهبانيّة قلبَي يسوع ومريم الأقدسَين" وذلك سنة ١٨٧٤. على أنّ الرهبانيّة الجديدة لم يكن لها وضع كنسيّ قانونيّ إذ لم تكن قد حصلت بعد على تثبيت من الكرسيّ الرسوليّ، فما كان من خلفاء الأبوَين استيف وريكادونا إلاّ أنّ قرّروا إلغاءها. فتبدّد شمل أعضائها ولم يبقَ منهنّ سوى القليل. وهذا ما أحدث فراغًا في صفوف النشء، فأمر رؤساء الرهبانيّة اليسوعيّة بإعادة الرهبانيّة وتنشئتها على أسلوب يتلاءم وحاجات العصر، خصوصًا بإعطائها وضعًا قانونيًّا لا تستطيع معه الأيدي العابثة أن تتلاعب بها. فتمّ ذلك في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٤. ومنذ ذلك التاريخ والرهبانيّة تواصل جهودها في مختلف الحقول التعليميّة والاجتماعيّة والمهنيّة والتمريضيّة، وهي تهدف إلى خدمة الإنسان أيًّا كان مذهبه، أو وضعه الاجتماعيّ، أو جنسه.

لجمعيّة راهبات القلبَين الأقدسَين في لبنان ٤٧ ديرًا. وتضمّ مدارسها حوالى ٣٢,٠٠٠ طالبًا وطالبة، منها ٢٢ مدرسة مجّانيّة فيها نحو ١٢,٠٠٠ طالب مجّانيّ. إضافة إلى مدرستَين مهنيّتَين. وللرهبانيّة ميتمان، ومستشفيان خاصّتان، ودار لعجزة الرهبانيّة. وتساهم راهبات القلبين الأقدسَين في إدارة مستشفيات حكوميّة في بعلبك وزحلة، ومستشفى "تل شيحا" في زحلة، ومستشفى "أوتيل ديو" في بيروت. كذلك تساهم في عدّة مستوصفات للصليب الأحمر اللبنانيّ، ومستوصفات أخرى خاصّة. فضلاً عن المساهمة في أنشطة الأبرشيّات والمنظّمات الخيريّة ومصلحة الإنعاش الاجتماعيّ والتعليم الدينيّ.

ألحقت الحرب اللبنانيّة أضرارًا جسيمة في أديار للرهبانيّة لا يقلّ عددها عن ٢٣. والأكثر تضرّرًا في: طرابلس الشمال، والمروج المتن (ميتم ومدرسة مجّانيّة)،

ومرجعيون، والدامور. وللرهبانيّة، فضلاً عن عملها في لبنان، مؤسّسات في سوريا والشمال الأفريقيّ (المغرب والجزائر) وفي التشاد وباريس وروما. ولها ١٤ ديرًا في سوريا. وكانت مدارسها في سوريا مزدهرة شأنها في لبنان إلى أنّ أمّمتها الدولة السوريّة واستولت على الجزء الأكبر من ممتلكاتها فاقتصر شغل الرهبانيّة هناك على تلقين التعليم المسيحيّ وخدمة اجتماعيّة وتمريضيّة. أمّا النشاط الرئيسيّ لكلّ هذه المراكز فهو التعليم الدينيّ فيها وفي القرى المجاورة، وإحياء السهرات الإنجيليّة، والقيام بأعمال الانعاش الراعويّ والخدمات الاجتماعيّة والصحيّة.

جَمعيَّـــة رَاهبــــات

العَائِلَة المقَدَّسة المارونيَّات[1]

أسّس جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات، البطريرك الياس الحويّك* الذي رأى أنّ لبنان يحتاج إلى مؤسّسة رهبانيّة وطنيّة تعمل على تربية الفتاة اللبنانيّة وتثقيفها وفقًا لحاجات العصر والبلاد وحسب مبادئ الإنجيل. وكانت الفكرة تراوده منذ زمن بعيد، وإذ كان يقوم بزيارة رعائيّة في كفيفان، قضاء البترون، وكان آنذاك لا يزال مطرانًا، نزل في ضيافة "عسّاف البيطار"، الذي عرض على "المطران" الحويّك زيارة راهبتَين مقيمتَين حديثًا في القرية. فلبّى البطريرك الحويك الدعوة مستغربًا وجود راهبتَين في كفيفان لعلمه أنّه من النوادر أن توجد راهبات خارج ضواحي بيروت. وخلال الزيارة عرض عليهما البطريرك فكرة تأسيس الجمعيّة، فوافقت الأختان، وبعد إجراء المراسيم القانونيّة، باشرتا مع غبطته بتأسيس جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة، وكان ذلك سنة ١٨٩٥. فأصبحت الأمّ "روزالي نصر" الرئيسة العامّة الأولى ومعاونتها الأمّ "استِفاني كردوش". وسكنت الراهبات أوّلاً في دير جبيل، وفي سنة ١٨٩٦، انتقلت

---

١ ـ مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

الجمعيّة الجديدة إلى "عبرين" من أعمال قضاء البترون في جنوب شمال لبنان حيث بوشر ببناء الدير الذي أمسى مهد الجمعيّة والبيت الأمّ.

يختصر قانون الرهبانيّة "دستور حياة" أهداف الجمعيّة كما يلي:

١ - السعي إلى حياة الكمال الرهبانيّ؛ ٢ - الاهتمام بتربية النشء وتثقيفه، وفقًا لحاجات العصر والبلاد، ولا سيّما الفقراء؛ ٣ - العناية بالمستشفيات والشؤون الإجتماعيّة، إجابة لنداء الرحمة المسيحيّة؛ ٤ - نشر بشرى الخلاص عن طريق شرح التعليم المسيحيّ في الأوساط الفقيرة، وإدارة الأخويّات، وتنظيم العمل الكاثوليكيّ، تحت تدبير كهنة الرعايا[١].

في سنة ١٨٩٨، كان عدد الراهبات: ٨ ناذرات، ٤ مبتدئات، ٣ طالبات. وقد أصبح بعد مئة عام نحو ٣٥٠ راهبة. وقد أرسلت الجمعيّة ولا تزال، عدّة راهبات للتخصّص بسائر فروع التعليم في أوروبّا وكندا. ويتابع عدد كبير من الأخوات الدروس الجامعيّة في لبنان. وتشترك بالتدريس في الجامعة اللبنانيّة الأخوات الحاصلات على الدكتوراه من جامعة السوربون - باريس. وانتشرت مدارس الجمعيّة في مدن وقرى الساحل والجبل في لبنان، وفي سوريا وأستراليا.

ففي لبنان: ١١ ثانويّة؛ ٧ تكميليّات؛ ٢٥ ابتدائيّة؛ إدارة ٨ مدارس في الأبرشيّات؛ ٩ مستشفيات؛ ٥ مستوصفات؛ ميتمان؛ مدرسة لحادقات الأطفال بالتعاون مع البعثة الثقافيّة في لبنان؛ مدرسة للتمريض. وفي أوستراليا: مدرستان. وفي سوريا: إرساليّتان، كانت مدرستَين سابقًا. وتضمّ مدارس الجمعيّة نحو ٣٠ ألف تلميذ وتلميذة.

---

١ - قانون جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات "دستور حياة"، ص ٣.

جَمعيّة رَاهبَات الصّليب

أسّس الأب يعقوب حدّاد الكبّوشيّ جمعيّة راهبات الصليب سنة ١٩٣٠[1]، للعناية بالمرضى والأيتام والعجزة، ومَن هم "أشدّ بؤسًا وحرمانًا". وقد دوّنت اتّجاهاتها الروحيّة في كتاب "الرسوم" وهو دستورها الأساسيّ. وجاء فيه:

> بدافع من حبّ الآب الذي يرى في الخفية، أنّنا ننطلق بسخاء نحو الخدمات التي تلاقي أقلّ رغبة دون أن نتباهى بسبب هذا الاختيار... (رسوم ١٥٨)؛ لنبذل العناية بالمرضى من أيّ دين كانوا، ولنتابع عمل ربّنا الذي يقول للتعساء: تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم". لنعتبر أنّ هؤلاء الفقراء المهملين يأتون إلينا كما إلى المسيح يسوع المصلوب(رسوم ١٦٩)... وكان التجاوب مع الاحتياجات الملحّة، ولا يزال رائد جمعيّة راهبات الصليب في الثلاثينات عند تأسيسها وكانت الاحتياجات الملحّة: ١ ـ إيواء الكهنة العاجزين عن متابعة القيام برسالتهم من جرّاء المرض والشيخوخة؛ ٢ ـ العناية بالتعساء من عميان ومقعدين ومختلّين وشيوخ حتّى المصابين بداء عياء، وقد تخلّت عنهم عائلاتهم والمستشفيات؛ ٣ ـ العناية بالأيتام ذكورًا وإناثًا؛ ٤ ـ وأخيرًا، عند الاقتضاء تأدية الرسالة بواسطة المدارس والتعليم الدينيّ. (رسوم ٥).

في عهد الأب يعقوب، نمت أديار الجمعيّة بسرعة وكانت: مستشفى الصليب للأمراض العقليّة في جلّ الديب؛ مستشفى مار يوسف في الدورة من ساحل المتن؛

---

١ ـ **الأب يعقوب حدّاد** (١٨٧٥ ـ ١٩٥٤): راهب كبّوشي، ولد في غزير ـ كسروان من أبوين مارونيّين، أبرز نذوره الرهبانيّة ١٨٩٤، سيم كاهنًا ١٩٠١، تسلّم إدارة الرهبانيّة الكبّوشيّة ورسالة الوعظ حتّى بدء الحرب العالميّة الأولى إذ عُيّن رئيسًا بالوكالة، بنى مزار دير الصليب وسيّدة البحر في بقّنايا فوق جلّ الديب من أعمال ساحل المتن ١٩١٩ ـ ١٩٢٥، وحوّله مقرًّا للكهنة، ثمّ مستشفى للأمراض العصبيّة والنفسيّة، أسّس جمعيّة راهبات الصليب ١٩٣٠، توّج حياته ببناء دير يسوع الملك على تلّة نهر الكلب في زوق مصبح كسروان، لا تزال معاملات إعلان تطويبه سارية من قِبَل الكنيسة، وقد افتُتحت الدعوى البابويّة رسميًّا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩.

مأوى العجزة في إنطلياس؛ مدرسة مار فرنسيس في جلّ الديب؛ ميتم البنات في دير القمر؛ مدرسة مار الياس في برمّانا؛ - كنيسة سيّدة البئر في بياقوت بقرب الزلقا ساحل المتن؛ معبد المسيح الملك في زوق مصبح من ساحل كسروان؛ بيت المتسوّلين في الجمّيزة بيروت؛ بيت العناية الإلهيّة للبنات المهملات في الجمّيزة بيروت؛ المدرسة الساروفيميّة للآباء الكبّوشيّين في بيروت؛ رعيّة مار لويس ورعيّة مار فرنسيس في بيروت؛ السفارة البابويّة في بيروت.

وبعد وفاة المؤسّس، اهتمتّ الجمعيّة بإنشاء: ميتم الآباء الكبّوشيّين في عبيه؛ المستشفى العسكريّ في تبنين؛ المستشفى الحكوميّ في قبر شمون من أعمال قضاء عاليه؛ مصحّ ضهر الباشق في المتن؛ المدرسة الابتدائيّة المجّانيّة في حراجل كسروان؛ وابتداء من سنة ١٩٧٢، تسلّمت الجمعيّة أو أنشأت مشاريع جديدة تلبية لحاجات جديدة وملحّة فكان: مستشفى زغرتا؛ المستشفى الحكوميّ في بعبدا؛ مستشفى دير القمر؛ مركز معاقي الحرب في بيت شباب؛ السفارة البابويّة في دمشق؛ مقام مار بولس في دمشق؛ الوكالة العامّة للجمعيّة في روما؛ بيت بشعله من أعمال أعالي قضاء البترون في شمال لبنان؛ المدرسة الإبتدائيّة المجّانيّة والمستوصف في شرتون ــ عاليه؛ مشغل الأعمال اليدويّة في اجدبرا - البترون[1].

---

١ - مؤسّسة الصليب بعد ٥٠ سنة، (جلّ الديب - لبنان،١٩٦٩)؛ مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانيّة المصوّرة، الجزء الأول، مكتبة البستان (بيروت،١٩٦٩)؛ مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

جمعيّة راهبات القِدّيسة تِريزيا[1]

أسّس جمعيّة راهبات القدّيسة تريزيا الطفل يسوع المارونيّات الخوراسقف أنطون عقل[2]، في ١٧ أيّار (مايو) عام ١٩٣٥، وهو تاريخ إعلان قداسة الطوباويّة تريزيا الطفل يسوع. وقد اختار المؤسّس هذه المناسبة ليضع الجمعيّة تحت شفاعة القدّيسة تريزيا. وهي جمعيّة بطريركيّة مارونيّة، حدّد لها المؤسّس دستورًا بقوله: "يا بناتي، إليكنّ الإنجيل دستورًا لحياتكنّ". فعكفت الراهبات اللواتي لا يتجاوز عددهنّ المئة على التقيّد بهذا الدستور، والتركيز على الصلاة والأعمال التقويّة، والتضحية في خدمة الإنسانيّة، بالتفرّغ لأعمال الرسالة بإشراف الأخوات اللواتي تسلّمن المسؤوليّة بعد وفاة المؤسّس عام ١٩٥٨. ولمّا كانت غاية الرسالة نشر ملك المسيح على الأرض، تشعّبت نشاطاتها للعمل في مختلف الميادين الرسوليّة، وحيثما تدعو الحاجة وتتوافر الإمكانات.، إذ تؤمّن الخدمات التالية:

على صعيد التعليم والتربية والتعليم المهنيّ : للجمعيّة مدارس في الجبال والساحل، إثنتان منها ثانويّتان. معظمها شبه مجّانيّة. وقد لحق بالعديد منها، إبّان الحرب اللبنانيّة، أضرار مختلفة، ولا سيّما المدرسة الكائنة في فرن الشبّاك التي تمّ إصلاحها أكثر من مرّة. وقسم من هذه المدارس في شماليّ لبنان: في أميون، دار

---

١ ـ عبيد الأمّ جوزيف، مجلّة الفصول اللبنانيّة، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

٢ ـ الخوراسقف أنطون عقل (١٨٩٠ ـ ١٩٥٨): هو أنطون بن أسعد حبيب عقل، ولد ببيروت في عائلة من جديدة غزير، درس في كليّة الآباء اليسوعيّين ببيروت، سيم ١٩١٤، تولّى خدمة الرعايا أكثر من عشرين سنة، رئيس كهنة كاتدرائيّة مار جرجس في بيروت، أسّس الأخويّات، والنادي الماروني للشبّان، ومستشفى مار الياس في بيروت، ورهبانيّة القدّيسة تيريزيا الطفل يسوع للراهبات وبنى لها ديرًا في القليعات، ومستشفى القدّيسة تيريزيا في حدث بيروت، ومأوى العجزة الماروني في فرن الشبّاك، ومجلّة "رسالة السلام"، حامل أوسمة الإستحقاق اللبناني والمعارف الفرنسي والتاج الملكي الإيطالي.

بعشتار، حدشيت، والقسم الآخر في كسروان والفتوح: القليعات، سهيلة، جورة الترمس. أمّا في الساحل، فمدرسة فرنّ الشبّاك؛ وفي أميون فرع لمدرسة القدّيسة تريزيا لتعليم السيّدات والفتيات الخياطة والأشغال اليدويّة والتدبير المنزليّ. وفي القليعات كسروان مشغل للخياطة وفنّ التفصيل وصنع الزهور؛ وخُصّص في مدرسة أميون فرع للأيتام لم ينجُ من أذى بعض القذائف في حوادث ١٩٧٦.

وتقوم راهبات القدّيسة تريزيا بخدمة العجزة في مأوى العجزة المارونيّ في عين الرمّانة بضواحي بيروت. هذه المؤسّسة حديثة البناء ومجهّزة تجهيزًا كاملاً ومتمّمًا. تتّسع لمئتَين وستّين سريرًا وتُعنى بالمحتاجين من مختلف الطوائف. وقد لحقت بهذه المؤسّسة أضرار جسيمة عامَي ١٩٧٥ و١٩٧٦، وأجرت الراهبات الإصلاحات مرّات عديدة. وفي عام ١٩٧٨، مُنيت المؤسّسة بأضرار جسيمة من خراب وتهديم. ولمّا لم يعد المأوى صالحًا لإيواء العجزة، اضطرّت الجمعيّة لعرض أمرها على البطريرك خريش، الذي أوعز إلى المدرسة الإكليريكيّة المارونيّة في غزير بأن تفتح أبوابها لإيواء أكبر عدد من العجزة، وبقي القسم الآخر في المؤسّسة في عين الرمّانة، لأنّ حالتهم الصحيّة لم تكن تسمح آنذاك بالانتقال. فتطوّعت بعض الراهبات لخدمة هؤلاء العجزة المرضى بالرغم من دويّ المدافع، ولخدمة الجرحى في مستوصفات المنطقة. وفي حقبة هدوء أمنيّة، أصلحت الجمعيّة قسمًا من الغرف لإعادة العجزة إليها، ومن ثمّ أعادت بناء جناح الرجال الذي كان قد تهدّم كليًّا.

إلى جانب مأوى العجزة في عين الرمّانة، تخصّص الجمعيّة مستوصفًا للاستقبال اليوميّ والمجّاني، وتقديم الخدمات الطبّيّة. وتقوم الراهبات بخدمة المرضى في مستشفى مار الياس في العاصمة بيروت الذي تعرّض في حرب ١٩٧٥ و١٩٧٦ للسرقة والنهب، وأُصيب بقذائف ثقيلة ألحقت أضرارًا في البناء والأثاث، ولم تسمح

الحالة الأمنيّة آنذاك للراهبات بالعودة إليه لمتابعة رسالتهنّ الإنسانيّة. إضافة إلى ذلك، مُنيت الجمعيّة، في العام ١٩٧٥، بخسارة راهبة استُشهدت ضحيّة رصاص القنص في أثناء قيامها بواجبها في المستشفى المذكور، وهي الأخت فيلومين خوري من بلدة كفرشخنا شماليّ لبنان؛ وفي مستشفى القدّيسة تريزيا في الحدث، جنوبيّ شرقيّ بيروت، حيث يتّسع المستشفى لستّين سريرًا، معظمها للأطفال، ولا سيّما الفقراء منهم. ومنذ عام ١٩٧٥ كان المستشفى عرضة للرصاص والقذائف، وقد أُجريت فيه إصلاحات عدّة متتالية. كما تعرّض لعمليّات سرقة ونهب. غير أنّ الجمعيّة أصرّت على إصلاحه وترميمه إصلاحًا جذريًّا، وباشرت الراهبات باستقبال المرضى ومتابعة خدمتهم في الحادي عشر من آب (أغسطس) ١٩٨٠؛ وإلى جانب المستشفى المذكور آنفًا، كانت الجمعيّة قد بدأت، منذ العام ١٩٧٣، بناء مستشفى جديد مؤلّف من ثماني طبقات، يتّسع لمئة وخمسين سريرًا، ومعدّ لاستقبال المرضى في مختلف فروع الطبّ. أُنجز البناء وتمّ تركيب الأجهزة المركزيّة والمتفرّعة منها من كهرباء وماء وهواء. وكانت الجمعيّة قد استوردت من الخارج الآلات الضخمة والخاصّة بتجهيزات المستشفى في جميع فروعه وأودعتها الطابق السفليّ منه استعدادًا لحين إتمامه في غضون ستّة أشهر، وعند اشتعال الحرب عام ١٩٧٥، توقّفت الجمعيّة عن إنجاز المستشفى بسبب وجوده على خطّ النار. وبقي طوال الحرب معرّضًا للرصاص والقذائف ولحقت به أضرار جسيمة ونُهبت التجهيزات والمعدّات، حتّى التي كان قد رُكّزت في أمكنتها لاستعمالها؛ وقد اضطرّت الجمعيّة، جرّاء ما تعرّضت له مؤسّساتها الإنسانيّة من كوارث ونكبات، إلى إيجاد مشروع بديل عن المشاريع المهدّمة، وإذ كانت تسعى لاستئجار بناء يصلح كمستشفى تتابع فيه رسالتها الإنسانيّة، ساهم في تحقيق حلمها هذا، المحسن الكبير "جورج بشارة متّى"، من بلدة عجلتون ـ كسروان، إذ

قدّم للجمعيّة قطعة أرض تبلغ مساحتها ستّة آلاف متر مربّع صالحة لبناء المستشفى، الذي أُطلق عليه اسم "مستشفى سان جورج". وقد اضطرّت الجمعيّة للاستعانة بقرض ماليّ لمدّة عشر سنوات لإكمال مشروع بناء هذا المستشفى.

جمعيّة راهبات القُربَان الأقدَس المُرسَلاَت[1]

أسّس جمعيّة راهبات القربان الأقدس المرسَلات، الأب "إميل جعارة[2]" من بلدة "هابيل" التابعة للأبرشيّة البطريركيّة في جبيل، وذلك في السنة الثانية لسيامته. ففي أثناء ممارسته الخدمة الروحيّة ما يناهز الخمس سنوات في رعيّة مار لويس للآباء الكبّوشيّين في بيروت، إطّلع الأب جعارة على الواقع المؤلم والفادح، والضرر الذي تعيشه الكثيرات من فتيات القرى اللبنانيّة بهبوطهنّ إلى المدينة لكسب لقمة العيش، وهنّ غير مؤهّبات لمجابهة أخطار العصر. لذا فكّر الأب جعارة بتأسيس جمعيّة رهبانيّة تحمل اسم القربان الأقدس وتأخذ على عاتقها تجنيب فتيات الوطن كلّ هذه المآسي المريرة. وكان لا بدّ من تأسيس اجتماعيّ آخر يمهّد لنشوء تلك الجمعيّة، فظهرت إلى الوجود "مؤسّسة فتاة لبنان الاجتماعيّة" واتّخذت مبدأ لرسالتها: "الوقاية

---

١ ـ مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانيّة المصوّرة، مرجع سابق، الجزء الثالث؛ مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٩٧ ـ ١٩٩.

٢ ـ المونسينيور إميل جعارة: مرسل لبنانيّ، مربّ، وُلد ١٩٢٤، دخل مدرسة عين ورقة ١٩٤٥ حيث تلقّى علومه العالية وتربيته الاكليريكيّة، سيم كاهنًا ١٩٥٢، علّم في مدارس عدّة، أنشأ "مؤسّسة فتاة لبنان الإجتماعيّة" في مبنى معهد عين ورقة ١٩٥٧، سافر إلى روما ثلاث مرّات وحظي من البابا ١٩٦٥ على إذن بإنشاء "جمعيّة راهبات القربان الأقدس المرسلات" التي أسّسها في عين ورقة ١٩٦٦، أنشأ مركزًا رئيسيًا لها في "بيت حبّاق" ١٩٦٩ وهو يضمّ مدرسة كبرى أنعشت المنطقة والجوار، تفرّعت مؤسّسته إلى مراكز دينيّة وتربويّة في كرم المهر زغرتا وكفرمسحون جبيل، أنشأ مستوصفًا طبيًا في بيت حبّاق ١٩٩١، منحه البطريرك صفير رتبة مونسينيور بجميع امتيازاتها ١٩٩٩.

خير من العلاج"، وغايتها: "صون كرامة الفتـاة اللبنانيّـة"، وشـعارها: "تقـوى وطهـارة، علم وعمل"، وحقل نشاطها: القرية اللبنانيّة. وبيـن جدران مدرسـة عيـن ورقـة، باشـر الأب جعارة بوضع المداميك الأولى لمؤسّسته الجديـدة، وكـان ذلـك فـي ربيـع ١٩٥٧. وكانت الانطلاقة خيّرة فأخذت تنمو تدريجًا، وعملت المؤسّسة من جهة، علـى صـرف فتاة القرية عن الهجرة إلى محيط المدينة، ومن جهـة أخـرى، عُنيـت بتنشـئتها وتثقيفهـا وتهذيبها وإعدادها في جوّ القرية الآمن لتغدو محفوظة الكرامة، عالية الأخـلاق، متّقيـة اللّه، جديرة بأن تكون أمًّا مثاليّة للأجيال الطالعة.

ولازمت الأب جعارة فكرة تأسيس جمعيّة "راهبـات القربـان الأقـدس المرسَـلات"، لأنّه كان يرى فيها وسيلة ضروريّة لقيام المؤسّسة واطّـراد نموّهـا واسـتمرار رسـالتها النبيلة. وفي ٢١ شباط (فبراير) ١٩٦٥ عـرض علـى البطريـرك مـار بولـس بطـرس المعوشي قصده بتأسيس رهبانيّة جديدة، فاستحسن البطريرك الفكـرة ووعـده بالاهتمـام بالأمر.

في ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥، رفع البطريرك المعوشي إلـى الكرسـيّ الرسـوليّ قضيّة تأسيس الرهبانيّة، فوافق البابا وأصدر سماحه بتأسيس هذه الجمعيّة الرهبانيّة فـي ٢١ تمّوز (يوليو) ١٩٦٦. وفي ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٦، أقام المطران يوحنّا شديد، النائب البطريركيّ العام، في كنيسة عين ورقـة البطريركيّـة، قدّاسًـا احتفاليًّـا ألبـس فـي خلاله، بتفويض من البطريرك المعوشي، الثوب الرهبانيّ للمبتدئـات الثمـاني الأوليـات فـي "جمعيّـة راهبـات القربـان الأقـدس المرسَـلات" الناشـئة. وبتـاريخ ٣ تشـرين الأوّل (أكتوبـر) ١٩٦٨، نـذرن الراهبـات الثمـاني نذرهـنّ الأوّل بحضـرة البطريـرك الحـاليّ الكاردينال مار نصراللّه بطرس صفير ، الـذي كـان آنـذاك مطرانًـا، ونائبًـا بطريركيًّـا عامًّا. وإحتفلت "راهبات القربان الأقدس المرسَـلات" فـي ١٤ أيلـول (سبتمبر) ١٩٨١

بالذكرى السنويّة الخامسة عشرة لتأسيس جمعيّتهنّ، وقد بلغ عـدد راهباتهـا ٢٨. وعـدد الراغبات بالترهّب ناهز العشرين.

تمدّ راهبات القربان الأقدس المرسَلات يد المساعدة للفتيات اليتيمـات والمحتاجـات وسائر مَن يلتمس العون والرحمة، سواء كان في مركز عين ورقة في غوسطا، أو في مركز رسالتهنّ الرئيس في بيت حبّاق من أعمال جبيل، الذي أُسّس عـام ١٩٦٩، وفيـه تقوم مدرسة مجّانيّة تفيد منها عشرات القرى المجـاورة. أو فـي ومدرسـة كفرمسـحون جبيل ومدرسة كرم المهر في قضاء الضنيّة من شـمال لبنـان حيـث افتتحـت المؤسّسـة فرعَين مؤخّرًا.

ومـن أهـمّ النشـاطات التـي تمارسـها الراهبـات: التعليـم المسـيحيّ فـي الرعايـا والمدارس، تهيئة الأولاد للقربانة الأولى، مساعدة المؤمنين على الاشتراك في الذبيحـة الإلهيّة، تأمين الصلوات الجمهوريّة في الكنائس والسهر على نظافتها وحفـظ الملابس والأواني المقدّسة فيها، تنظيم السهرات الإنجيليّة، العناية بـالمرضى، إسـعاف العـائلات الفقـيرة حسـب الحاجـة. كمـا أنّهـنّ يعـاونّ المنظّمـات والمؤسّسـات الخيريّـة فـي تـأمين المخيّمات الصيفيّة للأولاد ذوي الأوضاع الاجتماعيّة الخاصّـة. وإبّـان اشـتداد الحـرب اللبنانيّة، استقبلت الراهبات العديد من العائلات المهجّرة وقدّمن لها مختلف المسـاعدات الروحيّة والماديّة.

NOBILIS

بيروت